

المد الإسلامي

في مطالع القرن الخامس عشر

دار الاعتصام



تأليف

أنور الجندي

دار الاعتصام



موسوعة القرن الخامس عشر الهجرى

أولا : الشبهات والاخطاء الشائعة

ثانيا : معالم تاريخ الاسلام المعاصر

ثالثا : المد الاسلامى

رابعا : اعاده النظر فى كتابات المصريين

خامسا: القرن الخامس عشر : قضاياه وتحدياته

سادسا: اطار اسلامى للفكر المعاصر

سابعا: مشكلات العصر وقضايا الفكر

ثامنا : نوابغ الاسلام

تاسعا: الاخطار التى تواجه الامم

عاشرا: الصحوة الاسلامية

حادى عشر : تصحيح المفاهيم

آفاق البحث

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المـــد الإسلامى
والأخطار التى تواجهه

لم تعد ظاهرة « المد الاسلامى » موضع شك من خصوم الاسلام أو المراقبين على السواء ، وهذه الظاهرة التى يهديها القرن الرابع عشر الهجرى إلى القرن الخامس عشر أمانة غالية تتطلع إليها نفوس المؤمنين ، وتحفها مشاعر الحب والتقدير ، فهى بمثابة الغرس الجديد الذى نتعلق به الآمال فى إقامة المجتمع الربانى بعد أن صوحت الأشجار القديمة وتساقط ورقها ، وعجزت عن العطاء .

المـد الاسلامى :

هذا المد الاسلامى الذى كان ثمرة العمل الذى تولته بإخلاص وصدق طلائع اليقظة الاسلامية ، فكشفت عن زيف التجربة التى فرضت على الأمة الاسلامية منذ وقعت فى براثن النفوذ الأجنبى ، حين خدعها ذلك الجيل الذى خرجته مدارس الارساليات ، ومحافل الماسونية ، وتلاميذ المستشرقين من التغريبيين والشعوبيين ، الذين انبثوا فى المجتمع الاسلامى ليخدعوا المثقفين بأن أسلوب العيش الغربى هو الوسيلة الوحيدة للخروج من أزمة التخلف التى يمرون بها ، وكان قادة البلاد إذ ذاك متابعين لأهل النفوذ الأجنبى ، ومن ثم فقد أمضوا التجربة ، وحجبوا الشريعة الاسلامية ، وأقاموا القانون الوضعى . ونظام الربا فى الاقتصاد ، وأسلوب التعليم العلمانى ، فلم تلبث أن كشفت التجربة عن اضطراب شديد أصاب المجتمع بالتحلل والفساد ، وانتهى به الى محاصرة النفوذ الصهيونى ثم النفوذ الماركسى لهذه الأمة ، بالاضافة إلى نفوذ الاستعمار الغربى الرأسمالى الليبرالى . وقد اتصلت التجربة فى كل جوانبها .

وانتهت إلى سقوط القدس فى أيدى الصهيونية العالمية ، وتكشف لكل صاحب بصيرة أن الحلقات الثلاث التى أصابت الامة الاسلامية إنما جاءتها من مصدر واحد ، هو : « التخلى عن منهج الله تبارك وتعالى ، وأسلوب العيش الاسلامى القائم على تطبيق الشريعة الإسلامية كاملة فى مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية » .

صحوة عارمة :

ومن هنا كانت تلك الصحوة العارمة التى عبرت عن نفسها بصيحة العودة إلى الله ، هى بمثابة رد فعل لهذه الازمة الضخمة التى وقع العالم الاسلامى فيها خلال قرن من الزمان دون أن يتنبه إلى الخطر الذى حطم معنوياته كلها ، وجعله بمثابة ذيل أو تابع ، أو صورة مكررة المثل الاعلى الغربى الذى لا يستطيع أن يعطيه على أى وجه من الوجوه ، القدرة على امتلاك إرادته أو تحقيق ذاته . أو القيام بدوره الذى فرضه الاسلام فى هذا الكوكب ، وهو تبليغ رسالة الله الحق إلى العالمين فى مواجهة للوثنية والمادية والاباحية التى طغت باسم حضارة العصر ، ومنهجه العلمانى الذى أصبح مصدر الازمات الشديدة المتصلة التى اجتاحت المجتمع الغربى ، حيث تحطمت أيدلوجياته واحدة بعد أخرى دون أن تحقق له ما يطمح إليه ، أو يتطلع عليه من حياة تقوم على أساس جامع بين أشواق الروح ومطامح النفس .

حقيقة واقعة :

ومن هنا فان هذا « المد الاسلامى » هو حقيقة واقعة وهى نتيجه طبيعية للموجات الحضارية والاجتماعية التى تصارعت منذ امتلك الغرب زمام العلم التجريبى الذى صنعه المسلمون أولا ، ثم سيطر عليه الاوربيون فحولوه إلى غير الطريق الصحيح : طريق الفطرة والحق والرحمة والاخاء البشرى .

حقائق كثيرة :

ولقد اعترف الباحثون الغربيون فى تحليل هذه الظاهرة بحقائق كثيرة أهمها :

أولا : أن العالم الاسلامى ذا الاصالة والتاريخ والمنهج القرآنى لم يكن ليخدع أكثر مما خدع بأسلوب العيش الغربى الذى لم يحقق لهم ما تطلعوا إليه بل على العكس هو الذى ساقهم إلى أن تتصارع القوى الغربية ، والشيوعية والصهيونية على الاجهاز عليه ، وأنه استيقظ فى الوقت المناسب .

ثانياً : أن هذه الصحوة هى مقياس لفشل المذاهب العلمانية المتعددة التى حاول دعاة التحديث فرضها .

ثالثاً : أن الغرب لم يكن مخلصاً فى نصحه للمسلمين ، ولا صادقاً فى هدايتهم

إلى عوامل القوة، وإلا فلماذا حجب عنهم العلوم والتكنولوجيا والأسلحة النافذة، وا كتفى بأن قدم إليهم أدوات الاستهلاك والتحلل والترف الذى يحطم الأمم ؟

رابعا : تلك المحاولات التى استهدفت تغريب عالم الإسلام ، وقد كانت التجربتان فى تركيا وإيران من أخطر المحاولات لهدم معالم الحضارة الإسلامية القرآنية ، واحتواء الشعبين فى دائرة المخططات التغريبية .

واليوم تنكشف بوضوح أن تلك المدرسة العصرية التقدمية التى ظلت تعمل سواء فى دائرة النظام الديمقراطى الليبرالى ، أو النظام الاشتراكى الماركسى ، كانت مضللة وفاسدة . وإن كل المحاولات والنماذج والأساليب التى حاولت أن تقدمها الأمة الإسلامية لم تجد استجابة حقيقية ، ورفضها الحس الإسلامى السليم، وشعر أنها معارضة للفطرة ولحقائق الأشياء ، ولم يخدع بها إلا القليل ، وتبين أن مدرسة اليقظة الإسلامية كانت صادقة فى وجهتها حين دعت إلى التماس المنابع الإسلامية من القرآن والسنة وإقامة المجتمع الربانى ، والتحرر من النفوذ الوافد بالتربية وبناء الفرد .

الإسلام منهج حياة :

إن الإسلام دين ونظام مجتمع ومنهج حياة ، وأنه يقوم على أساس الثوابت والمتغيرات . يجمع بين الروح والمادة ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة ، وإن مفهوم التقدم هو مفهوم جامع بين الوجهتين المادية والمعنوية . ودون أن يضحى بالمعنويات من أجل الماديات .

ولقد جاء الاسلام خاتما لرسالات السماء ، بعد أن بلغت الانسانية الرشد ، وأصبحت أهلا لاستقبال رسالة عالمية خالدة مصححا ما انحرفت إليه الأديان التى سبقته، وجاء كتابه كاشفا لهذه الحقائق مهيمنا على الكتب التى جاءت قبله بها بمفهوم الحضارة الانسانية التى حررت البشرية من عبودية الوثنية ، ومن عبودية الانسان للانسان ، وقدمت لها منهج الآخاء البشرى والعدل والرحمة والتوحيد الخالص ، هذا المنهج الذى قامت عليه حضارة الاسلام التى استطاعت فى أقل من قرن من الزمان أن تصل بين حدود الصين وحدود فرنسا . والذى قدم للبشرية المنهج التجريبى فى مجال العلم ، وقدم لها سنن الحضارات والأمم والمجتمعات فى قيامها وسقوطها ، ودفعها إلى عمران الأرض ، واكتشاف ما فى باطنها ، وأعماق

البحار ، وقد حققت البشرية فى العصر الحديث من ذلك قدراً كبيراً غير أنها انحرفت عن طريق الله ، وادعت بأن الانسان هو الذى صنع وانشأ ، ووضعت صيغة (الطبيعة)فى محاولة للتنكر لقدرة الله تبارك وتعالى الخالق والصانع والذى هدى الانسان إلى اكتشاف تلك القوانين وهذه الكشوف ،ومن هنا فقد عجزت الحضارة الغربية أن تهتدى إلى الطريق الصحيح ، لذلك فهى قد دخلت فى أزمة الانسان وأزمة المجتمع وأزمة الصراع النووى بين الكتلتين .

ومن هنا فإن المد الاسلامى الذى يبدو فى مطالع القرن الخامس عشر حقيقة واقعه إنما هو الثمرة الحقيقية لصيحة العودة إلى الله ، وهو الذى سيحمل هذه الحقيقة إلى العالمين بعد أن يقيم المجتمع الاسلامى القائم على شريعة الله فى أرض الاسلام أولا وهدم ترابط الدين والدولة،وانتقاص الشريعة الاسلامية، والتشكيك فى التاريخ الاسلامى واللغة العربية : ومحاولة تصوير الاسلام بصورة الأديان الأخرى ، قضاء على ميزته بوصفه الدين الحق الذى ماتزال منابعه ومصادره صافية خالصة لم يصبها التحريف كما أن هناك محاولات تمزيق الوحدة الاسلامية بالدعوات الاقليمية والقومية والعنصرية .

ولقد بدأت هذه المحاولات منذأ كثر من قرن وقاومتها حركة اليقظة الاسلامية وكشفت زيف هذه القضايا التى أثارها الاستشراق الغربى والشعوبية المحلية ودعاة التغريب ، وحمل لواءها أمثال طه حسين ، وسلامه موسى ، وحسين فوزى ، وزكى نجيب محمود ، ومحمد سعيد العشماوى ، ولويس عوض وكثيرون ، وهى لم تعد تخدع أحدا ، مهما البست أثوابا جديدة ، وعرضت بأسلوب جديد .

وستكون هذه القوة الاسلامية الجديدة قادرة دائماً على دحض هذه الشبهات . والانتقال دائما من مرحلة « المقاومة » إلى مرحلة « الأصالة » ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

مدخل إلى البحث

كيف نواجه تحديات الغزو الفكرى والتغريب

والشبهات المثارة فى أفق الفكر الإسلامى

إذا كان المسلمين والعرب على مطالع القرن الخامس عشر الهجرى أن يلتقطوا أول الخيط ليحققوا المسيرة الصحيحة نحو الأصالة والحق والإيمان بما يؤهلهم لبناء المجتمع الاسلامى الجديد القادر على تأكيد ذاتيتهم القرآنية ومنهجهم الربانى، فان عليهم إن يذكروا ذلك المنطلق الواضح الذى انطلقت منه تلك المحاولة الخطيرة لتغريب المجتمع الاسلامى ومواجهة بالغزو الثقافى والفكرى لتحويله عن طريقه وأسلوب عيشه ومنطلقه ومفهومه الأصيل .

كان ذلك بعد هزيمة الحروب الصليبية فى الحملة السابعة على المنصورة والتى قادها لويس التاسع والتى أسرفيها فى دار ابن لقمان وفيها راجع أبعاد تلك المحاولة التى قامت بها الكنيسة الغربية على الاسلام فى دياره وكتب فى مذكراته هذه التوصية الخطيرة التى طالب فيها بان تتوقف الحروب العسكرية على عالم الإسلام لأنها لم تستطع أن تحقق شيئا وأن تبدأ (حرب الكلمة) بتحويل المسلمين عن مفهومهم الأصيل وخاصة بالقضاء على مفهوم الجهاد الذى يعطى المسلمين هذه القوة القادرة حين يرون أن من مات دون أرضه فهو شهيد ، ودعا الكنيسة إلى العمل على تحريف مفهوم الاسلام الصحيح واخراجه من إصالته وتكامله الجامع إلى شبيه بمفهوم المسيحية الغربية القائم على أن الدين هو اللاهوت أو العبادة أو العلاقة بين الله تبارك وتعالى والإنسان .

مع تجاهل علاقة الإنسان بالإنسان وهو الجانب الذى يعطى الاسلام مفهومه الجامع كنهج حياة ونظام مجتمع إلى جانب أنه علاقة بين الانسان وخالقه .

ومن هنا ظهرت بذور الاستشراق والتبشير تحمل تلك الدعوة المسمومة « العلمانية » التى استطاعت القوى الغربية عن طريق الاستعمار العسكرى والسياسى أن تفرضها على أغلب المجتمعات الاسلامية فتحول بينها بين تطبيق منهج الله ومن هنا كانت مخططات الغزو الفكرى تحمل معها اخطر التحديات :

(أولا) إخراج المسلمين من الشريعة الاسلامية إلى القانون الوضعى .

(ثانياً) إخراجهم من الاقتصاد الاسلامى القائم على الرحمة والعدل إلى الاقتصاد الربوى .

(ثالثاً) إخراجهم من مفهوم التربية الاسلامية إلى اسلوب التعليم الغربى المنفصل عن الدين والأخلاق .

(رابعاً) إخراجهم من مفهوم الشورى إلى أساليب اللبيراليه والماركسية الذى ثبت فشلها وزيفها .

(خامساً) تزييف مفهوم « الجهاد » القائم على المرابطة فى الثغور والإعداد لمواجهة العدو إلى مفهوم الجهاد النفسى على النحو الذى زيفته البهائية والقاديانية .

(سادسا) دخول مفهوم الاشتراكية الماركسى الفاسد فى محاولة لأن يحل محل مفهوم العدل الاجتماعى الاسلامى .

ولقد مضت خطة تنفيذ هذا المخطط فى أسلوب من العمل الماكر الخبيث وجندت له جماعات من المسلمين والعرب الذين احتضنتهم الثقافة الغربية والاستشراق فكانوا أداة الغزو الفكرى فى بلاد المسلمين وهم ممن تخرجوا من مدارس الارساليات أو سافروا فى بعثات إلى بلاد الغرب (وان كان كثير من هؤلاء قد عصمهم الله تبارك وتعالى من خطر الاحتواء والتبعية)

ولكن القلة استطاعت بفضل النفوذ الأجنبى أن تسيطر وتعود وتتسنم أعلى مناصب القيادة والتوجيه فى بلادها فكان خطرها شديدا .

ولكن الله تبارك وتعالى أراد أن يكشف للمسلمين هذه الصفحة فقدم اليوم هذه الحقائق :

(أولا) وقف الدكتور زويمر فى إحدى مؤتمرات التبشر فقال : « ليس المطلوب أن تدخل المسلم فى المسيحية ولكن المطلوب هو أن تخرج المسلم من الاسلام »

(ثانياً) وقف رئيس وزراء بريطانيا فى مجلس العموم البريطانى وهو يحمل المصحف الشريف ويلوح به للأعضاء ويقول إنه مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلا أمل لنا فى السيطرة على المسلمين بل إنه لخطر على وجودنا فى بلادنا أيضا .

(ثالثا) نشر المستشرق الانجليزى الكبير (هاملتون جب) تقريراً خطيراً عام ١٩٣٠ تحت عنوان « وجهة الاسلام » كشف فيه لأول مرة تلك المحاولة الخطيرة التى أطلق عليها مهمة « تغريب الشرق » ودرس مع أربعة من المستشرقين خطة التغريب فى مصر والشام والمغرب والهند واندونيسيا وعرض الخطوات التى تم انجازها وتساءل عن الوسائل الكفيلة بإتمام هذا التغريب .

وكان لابد لحركة اليقظة الاسلامية أن تتنبه إلى هذا الخطر كله وأن تعرف مايراد بها فكانت دعوتها إلى (الأصالة الاسلامية) وإلى (تحرير الشخصية الاسلامية) من الاحتواء والتبعية وكان ذلك العمل الضخم الذى قام به أولئك الأبرار فى مجال الكشف عن تلك الزيوف وإدحاض تلك الشبهات المثارة التى امتدت الى مجالات كثيرة من الفكر الاسلامى وفيها :

(أولا) الدعوة الى هدم الأديان عن طريق علم الأديان المقارن والقول بأن الأمم بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد بعد ذلك .
وهو قول معارض للحقيقة التى جاءت بها الكتب المنزلة والتى تثبتها كل الدلائل التاريخية والكشوف الاثرية . والحقيقة أن البشرية بدأت موحدة ثم أصابتها الوثنية وظلت بين التوحيد

والوثنية على ذلك المدى الطويل وقد كان آدم عليه السلام أبو البشر نبيا وكان موحدا .

(ثانيا) الدعوة الى هدم الأخلاق عن طريق مذاهب الوجودية والفرويدية وهدم الأسرة عن طريق مذاهب دور كايم وليفى بريل .
وتحاول هذه المذاهب أن تشكك فى ثبات القيم الاخلاقية وارتباطها بالانسان والدعوة الى أخلاق متطورة تختلف باختلاف البيئات والعصور

(ثالثاً) الدعوة الى التماس مفهوم واحد للتاريخ ، هو التفسير المادى الذى طرحه انجلز وماركس بالنسبة لتاريخ الغرب وهو مفهوم ناقص لانه يتجاهل عوامل كثيرة أخرى لها أثرها فى توجيه التاريخ .

(رابعاً) الدعوة الى إثارة العصبية والعنصرية واعلاء الأجناس البيضاء وذلك فى محاولة لفرض النفوذ الاستعمارى الغربى على الامم الملونة والقول بوصاية زائفة للجنس الأبيض على العالم والبشرية .

(خامساً) محاولة اخراج اللغة العربية من مفهومها الذى تختلف به عن اللغات قاطبة بوصفها لغة القرآن الكريم وفرض مناهج من علم اللغات الغربى للتحكم فيها وتصويرها بأنها لغة قومية فحسب ، أى لغة امه واذا كان هذا كقانون تخضع له كل لغات العالم فإنه يعجز عن اقرار ذلك بالنسبة الى اللغة العربية لانها الى جانب انها لغة امة فهى لغة فكر وثقافة وحضارة ودين وأنها تتصل بألف مليون من المسلمين بالإضافة إلى أنها لغة أهلها العرب ولاريب أن هدف الحملة على اللغة العربية هو خلق عامية تقضى على لغة القرآن وتمزق الأمة والفكر جميعاً .

(سادساً) : الدعوة إلى إحياء الحضارات التى سبقت الإسلام وإعادة عرض الوثنيات والفلسفات والخرافات والأوهام .

وتلك محاولة ماكرة مضللة ولكنها فاسدة، فقد استطاع الإسلام خلال أربعة

عشر قرنا أن يقيم منهجا عقليا وروحياً وأن ينشىء مزاجا نفسيا وذوقا خالصا مرتبطا بالتوحيد والقرآن، ومتصلا بأسباب الإيمان بالله تبارك وتعالى له ضوءه الباهر الذى لا تستطيع الظلمات أن تقهره .

(سابعاً) : الدعوة إلى ما يسمى بالأدب العربى المعاصر أوالفن العربى المعاصر أو الثقافة العربية المعاصرة على أن تبدأ هذه الدراسات منذ حملة نابليون وربطها بالارساليات والنفوذ الأجنبى كـأنها هى من معطياته .

وهذه محاولة ما كرة إلى اجتثاث الفكر عن أصوله والفصل بين حاضر العرب والمسلمين وبين ماضيهم وخلق ثقافة « لقيطة » لاجذور لها وهى محاولة مضللة تهدف إلى الحيلولة دون ربط الأدب أو الفكر أو الثقافة بتاريخها الإسلامى المتصل وماضيها العريق .

ومن الحق أن يقال أن « اليقظة الإسلامية » المعاصرة فى الفكر والأدب والثقافة جميعا بدأت من دائرة القرآن وأن جميع الحركات الوطنية والقومية إنما استمدت قوتها من مصادر الإسلام وأنه لاسبيل إلى بناء ادب حديث أو فكر أو ثقافة منفصلا عن اللغة العربية والإسلام .

(ثامنا) : محاولة الادعاء بأن منطقة البحر الابيض المتوسط شهدت حضارة واحدة هى التى بدأها الفراعنة والفينيقيون ونماها الأغريق والرومان ثم أتمها الأوربيون المعاصرون وأن دور العرب فى هذه الحضارة كان دوراً ثانويا .

والحقيقة أن هناك حضارتان لكل منها طابعها المميز هما : حضارة التوحيد وحضارة الوثنية وأن الإسلام هو صانع الحضارة التى اتسمت بهذا المفهوم فى مواجهة حضارات بدأت بمفاهيم الوثنية وانتهت بمفاهيم المادية وكانت فى مختلف مراحلها معارضه للحق والعدل والرحمة والأخلاق فكانت تضرب واحدة بعد أخرى وتسقط لأنها تعارض سنن الله فى الكون .

(تاسعا) : محاولة القاء بذور الشبهات حول صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق فى العصر الحديث والادعاء بأنها شريعة صحراوية موقوتة بعصرها وبيئتها

وكل الدلائل العلمية والتاريخية ، تـكذب هذا الادعاء وأقربها مؤتمرات القانون الدولى ١٩٣١ ، ١٩٢٧ ، ١٩٥٢ وكلها أشارت إلى أن الشريعة الاسلامية شريعة مستقلة لها كيانها الخاص وأنها تحمل منهجا انسانيا لم تصل اليه البشرية بعد .

وتجرى المحاولة التي يفرضها النفوذ الأجنبى بالدعوة إلى ما يسمى بتطوير الشريعة ووضعها موضع الاحتواء من القانون الوضعى ولقد كان من أعظم المعطيات التى حققتها الأمة العربية أنها أتخذت من التشريع الاسلامى مصدرا أساسيا للقانون ونصت على ذلك فى دساتيرها وميثاق الوحدة .

وأنها تخطو الآن خطوات واسعة نحو تطبيق الشريعة وإخضاع كـل القوانين لمفهوم الشريعة وروحها .

(عاشرا) : استطاعت القوى الاستعمارية فرض نظام الاقتصاد الغربى على أغلب أجزاء العالم الاسلامى وهو نظام قائم على أساس الربا ومعارض أصلا لمنهج الشريعة الاسلامية، ولقد قامت فى الأمة العربية محاولات طيبة لإقامة المصرف الاسلامى على غير أساس الربا والعمل على وضع نظام أصيل يحرر المسلمين من قيود النظام الاقتصادى الوافد .

(حادى عشر) : كان من أخطر محاولات النفوذ الاستعمارى إيجاد تضارب بين العروبة والاسلام ومحاولة اقامة مفهوم العروبة على أساس النظريات الوافدة والقوميات الأوربية ولقد تنبه المفكرون العرب والمسلمون إلى هذا التحدى الخطير، إلى أن الاسلام هو الذى شكل مفهوم العروبة الحق، وأن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالقبلية وأن الاسلام هو الذى شكلهم كـأمة ودفعهم إلى الآفاق وكـتب لهم أعظم صفحات تاريخهم والعروبة ليست عنصرية وإنما هى قيمـــة ذاتية فى مواجهة الخطر الصهيونى ولـكنها مفتوحة بالثقافة والفكر والعقيدة على العالم الاسلامى كله وملتقيه معه .

ثانى عشر : تحريف الحقائق بالمبالغة أو الانتقاص كالادعاء بأن المسلمين

لايتجاوزون الآن ٠٠٠ ٥ مليون بينما تقرر الاحصائيات المتواضعه أنهم يزيدون على الف مليون مسلم وكما نجد فى كتب التاريخ من محاولات لتصوير البلاد العربية بصورة مصغرة أو مهينة أو إثارة الشبهات حول مقدراتها وثرواتها أو الادعاء بأنها منقسمة إلى مذاهب ونحل تتعارض أو تختلف أو تحول دون قيام وحدة فكر عامة بينما الحقيقة غير ذلك وأن الخلافات المذهبية الاسلامية هى خلافات فى الفروع اما القيم الأساسية فانها واحدة بين المسلمين .

ومن هنا فان علينا أن تنظر فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى فى الشبهات المطروحة فى أفق الفكر الاسلامى وأن نكشف زيفها ونبين وجه الحق .

وهذا مانود أن نتعرض له فى الفصول التالية

(٢)

« الصحوة الإسلامية »

أخذ مصطلح « الصحوة الإسلامية » مكاناً عريضاً فى الصحافة الغربية بعد أحداث إيران وافغانستان وباكستان ، حيث أخذت مختلف مراكز البحث العلمى والتاريخى والصحافى تدرس ما أسمته ظاهرة جديدة فى العالم الاسلامى من حيث أن كانت هذه الاحداث مغايرة لكل مقاييس السياسة العالمية ومغايرة لكل الأساليب التى عرفها العالم الاسلامى فى التعبير حيث كان الغرب قد اطمأن إلى أن التنظيمات الغربية والماركسية من ديمقراطية وليبرالية واشتراكية هى وحدها الوعاء الذى أخذت تتحرك فيه البلاد الاسلامية وأن مفهوم الفكر الاسلامى الجامع فى كل مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد قد توارى وزال ولم يعد من المستطاع أن يبرز من جديد على مسرح التنظيمات العالمية والأيدلوجيات التى احتوت مختلف الأنظمة والأقطار الاسلامية ، ومن هنا فقد فتحت ثورة إيران باباً جديداً من المحاذير التى حشيها الغرب خلال السنوات الطويلة منذ سيطر النفوذ الأجنبى على البلاد الاسلامية والعربية وأجلى الفكر الاسلامى والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاسلامية وكان معنى هذا الاحتواء الكامل لتنظيمات العالم الاسلامى ، ومن هنا أطلق على هذا التعبير مصطلح (الصحوة الاسلامية) وكان الباحثون يطلقون مصطلح (اليقظة الاسلامية) على الحركة الاسلامية التى حمل لواءها عشرات من المجاهدين المسلمين فى وجه حركات الاحتلال والسيطرة السياسة والعسكرية التى قادتها فرنسا وانجلترا وهولندا وغيرها على العالم الاسلامى كله ثم جاءت بعد ذلك حركة إحياء المفهوم الاسلامى الأصيل الذى أثبتت الأحداث أنه المنطلق الوحيد لتحرير العالم الاسلامى من النفوذ الأجنبى الذى استطاع الاختفاء وراء الطلائع إلى أصدرتها مدارس الارساليات والتى قبلت التعاون مع المستعمر والمحتل وأقامت تنظيمات حجبت الشريعة الاسلامية وفرضت القانون الوضعى وأنظمة الربا الاقتصادية وقبلت أساليب الديمقراطية والليبرالية ثم سقطت بعض هذه الدول فى التجربة الشيوعية الماركسية ، وفى خلال ذلك تبين للمسلمين فساد التجربة الغربية « بشقيها وتوجهت (دعوة اليقظة) إلى الناس منهج القرآن الكريم كأسلوب وحيد لاستعادة

الوجود الحقيقى للأمة الاسلامية والمحافظه على الذاتية الاسلامية التى أصبحت فى مهاب الرياح التغريب والغزو الثقافى الذى يهدف إلى إحتواء هذه الأمة وصهر وجودها الحقيقى فى أتون الأممية والعلمانية .

ولقد كانت محاولات البحث فى ظاهرة الصحوة الاسلامية قديمة ، وقد تناولها بعض الباحثين منذ وقت طويل ولكنها فى العام الاول من القرن الوليد قد أخذت صورة من التركيز الشديد ومنذ بضع سنوات كتب المستشرق موتجمرى وات فى صحيفة التايمز تحت عنوان « الاسلام قوة فى انتظار كلمة » يقول : أن الاسلام فى حاجة ماسة إلى زعيم مسلم متسلح بتعاليم الاسلام الخالصة فإذا قدر له أن يظهر فيصبح الاسلام أحد القوى السياسية الكبرى فى العالم وهو يؤكد ما ذهب إليه مستشرق آخر هو « هاملتون جب » باحتمال ظهور الاسلام وإعادة بنائه كقوة عالمية .

ويرى كتاب الغرب إن العرب قد مدوا سلطانهم إلى الاندلس وفرنسا وإيطاليا وصقلية وكان باستطاعتهم تعريبها لولا تفرق كلمة زعمائهم فخاف الغربيون أن يعيد العرب الكرة على تلك البلاد فرسموا خططهم للقضاء على الفكرة العربية والخلاص منها وكانت الحروب الصليبية هى المنطلق لمواجهة هذا الأمر ويقول البير شامبرور فى كتابه (حمراء غرناطة) : هذا العربى الشجاع إستطاع أن يغزو نصف العالم وترك لنا فى حمراء غرناطة إثار فخاره ، أن هذا العربى(١) الذى نام نوما عميقا مئات السنين فقط استيقظ وأخذ ينادى العالم : ها أنا لم أمت . ويقول : من يدرى قد يعود اليوم .

هكذا كان يفكر المستشرقون منذ سنوات ، أما اليوم فقد تغير الموقف واتسعت الدائرة ولم تعد فكرة اليقظة قاصرة على العرب ولكنها أصبحت تشمل العالم الإسلامى كله ، جاء ذلك بعد أن تعددت مواقف اليقظة فى تركيا وباكستان وأفغانستان وايران ، لقد تحرك العالم الاسلامى بعد أن فشلت تجربة التغريب فى هذا العالم الواسع ، فقد جاءت تجربة (أتاتورك) منذ خمسين عاما لتكشف

---

(١) العربى محاولة للهروب من الحديث عن المسلم .

عن ان الكيان الاسلامى يطرد الجسم الغريب ، وأن محاولة « تغريب تركيا » لم تحقق شيئا ، وجاءت تجربة إيران فى محاولة التغريب لتحسم الأمر فى هذه القضية وتكشف الموقف كله فى سفور صريح بأن التجربة الغربية لم تحقق للمسلمين شيئاً وان المنطلق الوحيد اليوم وفى مطالع القرن الرابع عشر الهجرى هو : « العودة إلى الاسلام » فى أصوله الأصيلة .

هذا ماتقرأه اليوم فى عشرات الأبحاث التى لا تصل إلى الحقيقة فى وضوح ، ولكنها لاتستطيع أن تنكر الواقع ، لأن التحليلات التى تقدمها الأبحاث لاتنفصل عن واقع العالم الغربى نفسه فى النظر إلى العالم الاسلامى ، فهى تصدر عن هوى واضح ومن موقف الاحساس بانهيار القواعد الظالمة التى طالما بناها الغرب لتمكن له من السيطرة على عالم الاسلام . فهو ينزعج أشد الانزعاج حين يرى أن هذه القوائم الباطلة قد سقطت لأنها لم تقم على الحق أساسا وحين يرى أن المسلمين قد اكتشفوا « زيف » المحاولة التى حاول الغرب أن يقنع بها المسلمين وهى أن « أسلوب العيش الغربى » هو الطريق الوحيد للنهضة قد جاء الوقت فعلا الذى يؤكد أن الناصحين كانوا خادعين وأنهم كانو يحاولون القضاء على مصادر القوة الاساسية فى هذه الامة لتستكين إلى الظلم وتستنيم إلى التسليم بمقدراتها وأذلال شخصيتها وقبول الاحتواء والانصهار فى حضارة منهارة ونظام مزعزع .

ولقد كان أخطر ما أطلق الغرب من أساليب لإقامة هذا الفكر التغريبى هو إحلال (القوميات) محل (الوحدة الإسلامية) وإحلال (القانون الوضعى) محل (الشريعة الإسلامية) بل أن النظام الغربى الاقتصادى لم يحقق للعالم الاسلامى الرخاء ، وأن النظام السياسى الذى قام على الأساس العلمانى والديمقراطى قد فشل تماما ، فقد كان عاملا من عوامل هجرة الأموال الوطنية إلى الغرب ، واستقدام أدوات الترف دون أن يحقق للمسلمين استقدام ادوات العلم والتكنولوجيا الحقيقية .

هذا ما تشير اليه صحف ميدل ايست، والانو نكومست، النيويورك تايمز ونيوزويك وهى صحف تغلب عليها طابع الصهيونية التى تحاول الوقيعة بين العالم الاسلامى وعالم الغرب وهى تحاول أن تصور « الصحوة الاسلامية » بأنها محاولة لانتزاع المقدرات التى فى أيدى الغرب وهذا غير صحيح، وإنما تستهدف الصحوة الاسلامية فى الأساس امتلاك الارادة والحفاظ على الذاتية الاسلامية وبناء علاقات جديدة مع الشرق والغرب على اساس الرشد الحقيقى الذى بلغه المسلمون بعد قرن كامل من علاقات الاحتواء والسيطرة .

لقد كان الغرب (بالاشتراك مع الصهيونية والشيوعية) يهدف من وراء إسقاط الخلافة الإسلامية إلى تمزيق وحدة العالم الإسلامى وإقامة تلك التنظيمات الاقليمية الضعيفة ولكنه غاب عن هؤلاء أن مفهوم الوحدة الاسلامية كان قائما وراء مفهوم الوطنية والقومية وهما التياران الذى حاول الغرب أن يغرق فيهما عالم الاسلام ، وتبين للمسلمين بعد قليل من التجربة أن جميع النظريات الوافدة التى ظهرت فى البلاد الاسلامية هى مجموعة من التناقض حاولت أن تشكل بالمزج والتركيب نظرية ملفقة واضح منها التمحل والصناعة ولذلك فقد عجزت أن تبقى طويلا لانها كانت ضد الفطرة والعلم وطبائع الاشياء ، هذه التشكيلات التى حاولت أن تجمع بين الاسلام والقومية والماركسية أو الوحدة والحريه والاشتراكية ، وقد تبين أنه ليس هناك أصلح من النظرة الاسلامية الاصيلة الجامعة وفشلت كلمات الديمقراطية والاشتراكية والقومية والاجتماعية لقد فشلت هذه المسميات كلها فى أن تعطى شيئا وكانت مسيرة الإسلام أنه صنع « وحدة الفكر الجامعة » التى تحول دون قيام ظاهرتى الصراع الفكرى أو التمزق النفسى .

لقد كان القضاء على الخلافة الاسلامية هى أقسى ضربات النفوذ الأجنبى وأكثرها اثارة لقوى اليقظة ، ومن هذه النقطة نبعت فكرة احياء المنهج القرآنى الذى قاد حركة اليقظة الى الطريق الصحيح ، هذا الطريق القرآنى الذى غلب على احجاب التيار الفلسفى أو الكلامى أو الصوفى وهو الذى أعطى السلفية مفهوم

الاصالة والالتماس من المنابع ولقد كان التجمع العربى ضرورة فى غياب الوحدة الإسلامية ومنطلق إليها ، وخطوة حقيقية إلى الوحدة الإسلامية لأنه قام فى إطار القرآن والسنة وليس فى إطار مفهوم ساطع الحصرى والقوميات الوافد .

واليوم يتقدم العالم الإسلامى نحو تطبيق الشريعة الاسلامية وهناك تجارب عديدة فى الباكستان والأردن والكويت ، ومصر وهى علامة من علامة الانطلاق نحو « الاصالة » الحقيقية بالرغم من خوف أعداء الاسلام من دعوة الاسلام إلى دنيا المسلمين ولقد اضطرت بعض الدراسات إلى الاعتراف بأن الزحف الاسلامى إنما يأتى تعبيراً عن الرفض لقيم العالم الغربى المتفسخة والتى تضم الماركسية والرأسمالية كما تقول نيوزويك التى تشير إلى أن الضجة المتنامية تطالب بالعودة الى القوانين الاسلامية المعروفة بالشريعة وهى مبنية غلى القرآن ولما سنه الرسول فى القرن السابع (وتلك الصحف تشير الى أن المسلمين فى نيجيريا والسودان والكويت يضغطون على حكوماتهم لتطبيق الشريعة الاسلامية ، وأن رئيس باكستان أعلن قائمة من العقوبات القرآنية فالزناه سيرجمون حتى الموت كما ستقطع أيدى اللصوص وسيجلد معاقروا الخمور .

ووصفت نيوزويك هذه العقوبات بأنها وحشية .

ونقول : ان الاسلام لا يعاقب على الجريمة ولكنه يضع الحواجز دون وقوع الجريمة ولذلك فإن أحكامة الرادعة من شأنها أن تشكل مانعا دون ارتكاب الجريمة

ولا ريب أن الخطوات التى تجرى فى مجال الاقتصـــاد لالغاء الربا فى مجال المعاملات المالية وفرض الزكاة والعشور لتمويل برامج الرعاية الاجتماعية ، واعادة النظر فى النظام التعليمى ليكون موافقا للنمط الاسلامى ومراجعة كل الكتب الدراسية لتكون متوافقة مع تعاليم الاسلام ، هذه الخطوات تعزز مفهوم الصحوة الاسلامية الأصيل حيث تثير هذه الصحف الشبهات حول البنوك اللاربوية وموقف المرأة وغيرها وهى محاولات باطلة لأن العالم الاسلامى قد تبين له فساد (أسلوب العيش الغربى) وأن هذه البلاد الاسلامية قد قامت فيها روح جديدة آمنت بصيحة (العودة الى الله) بعد نكسة ١٩٦٧ قد أشارت هذه الكتابات الى مجموعة من الحقائق منها قولهم :

أولا : الاعتراف بأن الاسلام ليس ديانة بالمعنى الضيق للكلمة ولكنه طريقة كاملة للحياة وهو يصوغ الموقف الاجتماعى ونماذج السلوك لمن يتبعونه « طعامهم وملابسهم وزوجاتهم وحياتهم الأسرية ومعاملاتهم الاقتصادية وميولهم السياسية » .

ثانياً : الاعتراف بانتشار الاسلام بالدعوة السلمية فى بقاع مختلفة من العالم وأنه استطاع أن يقيم مجتمعاً مستقلا فى قلب أوربا الغربية فالمسلمون هناك يرفضون أساليب الغرب ومعايره التى تفرض عليهم ويعملون على إقامة مجتمع إسلامى أصيل .

ولا ريب أن أصدق تصوير لأحوال المسلمين وموقفهم من الغرب فى مطالع القرن الخامس عشر وهو ما عبر عنه باحث غربى حين قال :

« أن المسلمين اليوم عندما عادوا إلى تقييم ما حصلوا عليه من الغرب وعندما أخذوا فى مراجعة تجربتهم مع إيدلوجياته ، خلال السنوات السبعين أو المائة الماضية ، وجدوها فاسده ومضطربة وفاشلة ، ووجدوا أنها لم تحقق لهم شيئاً إلا الفرقه والتمزق والفقر ، والخروج عن ذاتيتهم وعجزهم عن امتلاك ارادتهم وأن محاولة الغرب فى احتوائهم بقوانين الوضعية وأسلوبه فى التربية والتعليم قد ينتج عنه اضطراب شديد ولم يحق لهم أى تقدم حقيقى ، وقد تبين لهم اليوم فساد التجربة جملة ، ظهر ذلك فى محاولة أتاتورك فى تركيا والشاه فى ايران فى تجربة الدكتاتوريين فى أجزاء أخرى من العالم الاسلامى وفى فساد تطبيق الديمقراطية الغربية فى بعض الدول وتطبيق الماركسية فى بلاد أخرى ولذلك فهم يتطلعون الى أفق جديد ويرون أن التماسهم لأصالتهم ولمنهجهم الذى نشأوا عليه هو الطريق الصحيح فهو الذى أعطاهم دوام القوه والحيوية والاتساع فى مجال الفكر والقانون ما لا تستطيع أن تعطيهم الأيدلوجيات ولذلك فليس غريباً أن يتجهوا الى محاولة التماس أصالتهم وعلى الغرب أن يعرف ذلك وأن يقبل التعامل معهم على أساسه » .

ولاريب أن هذا التحليل هو من أصدق التحاليل التى حاولت تفسير ما يسميه الغرب بالصحوة الاسلامية وما نطلق عليه نحن مرحلة الرشد الفكرى والانتقال من مرحلة اليقظة الاسلامية إلى مرحلة النهضة بعد أن تنبه العالم الاسلامى كله لمخططات التغريب والغزو الثقافى وأصبح قادراً على معرفة تلك المحاذير التى فرضها عليه النفوذ الغربى من أجل القضاء على ذاتيته الخاصة ، وصهره فى بوتقه الأممية العالمية واستبقائه خاضعاً له .

ولاريب أن من أكبر علامات القرن الوليد : إنطلاق دعوة تصحيح المفاهيم والعودة إلى مقاييس الاصالة والتماس منهج الله فى بناء المجتمع وبروز الذاتية الاسلامية ومحاولة إخضاع القوانين الوضعية للشريعة الاسلامية واعتبارها المصدر الأول والوحيد للقوانين وبروز فريضة الجهاد ووضوحها وقيامها بدور ضخم فى تحرير كثير من الأوطان الاسلامية وهى علامات تحتاج إلى نقله واسعة لتحقيق قيام المجتمع الاسلامى الربانى القادر على تقديم نموذجه للعـــالم كله باعتبار أن المسلمين مكلفون بأن يقدموا (الاسلام) إلى العالمين بوصفه الحل الوحيد لقضايا العالم المضطرب الذى تصدع بنيانه ووقع فى أزمة التحلل والتمزق بعد أن جرب مختلف الأيدلوجيات الديمقراطية والاشتراكية والدكتاتورية .

ولا ريب أنه فى سبيل تحقيق هذه الغاية : غاية أن تدخل حركة اليقظة مرحلة النضهة ، هناك عقبات يجب أن يتخطاها أهل الدعوة الاسلامية .

ولعل المحاذير التى يجب أن يتنبه لها الدعاة إلى الله هى ظاهرة استمرار المؤامرة على الاسلام مع تغير الأساليب وبقاء الهدف الأصلى تحت اسم (خداع الصيد باخفاء الشباك) .

إن القوى الثلاث المسيطرة الآن : النفوذ الغربى والشيوعية والصهيونية تكاد تلتقى جميعاً على هدف واحد هو الحيلولة دون تمكين المسلمين من تحقيق إرادتهم ، لأنهم يعلمون أن سيطرة النظام الاسلامى فى عالم الاسلام من شأنه أن يحول دون تحقيق مطامعهم وسرقاتهم ومؤامراتهم المستمرة على نهب ثروات العالم الاسلامى وهم من أجل إستبقـاء نفوذهم يعملون للقضاء على الذاتية الاسلامية الأصيلة ، وصهر المسلمين فى بوتقه الأممية العـالمية حتى يضيع طابعهم الخالص القائم على

التوحيد ، وهو الطابع الذى حرص الاسلام ورسوله على تأكيده حتى يظل المسلمون قادرون على امتلاك ارادتهم وحتى لا تستطيع قوة من القوى أن تحطم وجودهم أو تفت فى عضدهم وحتى يتمكنون من الاستمرار فى اداء الرسالة المنوطة بهم إلى يوم القيامة وهى تبليغ الاسلام للعالمين على أن يكونوا هم بمثابة « التجربة التطبيقية » أو النموذج القائم فى عالم الواقع ليهدى الباحثين إلى أن المنهج الربانى هو القادر على تحقيق أشواق الانسان ومطامحه جميعاً ولذلك فلابد من حضانة من فكر إسلامى أصيل نابع من المصادر الأساسية (القرآن والسنة) يحول دون سيطرة أى فكر وافد كما تحول دون الانبهار بأى فكر يهز شبابنا ببريقه وخداعه .

لقد آن للعقلية الاسلامية للتحرر من استعباد الثقافات الغربية لتصحيح ما دسته الشعوبية فى تاريخ العرب والاسلام من سموم والتحرر من عديد من الدعوات المسمومة الموجهة إلى فكرنا وامتنا وتاريخنا واغتنا .

أن أخطر الدعوات هى الدعوة إلى نبذ الماضى والتاريخ القريب والتراث الاسلامى وإحياء الفلكور والتراث الوثنى القديم الذى قضى عليه الاسلام ، أنهم ينكرون تاريخ الاسلام بوصفه قديماً ويدعون الى ابتعاث تاريخ الجاهليات قبل الاسلام، يدعون إلى إحياء شخصيات وثنية واسطورية وينكرون الشخصيات الحية البارزة ذات الأثر القوى أمثال خالد وسعد والمثنى وصلاح الدين .

وهناك مهاجمة الشعر العربى والفصاحة العربية والخطابة ومهاجمة القرآن من خلال الدعوة أى إلى إحياء ما يسمى باللغة الوسطى وإحياء العاميات ودراسة اللهجات فى مجامع اللغة والجامعات وإحياء الفلكلور .

وهناك الموجه المادية الالحادية التى تنكر الايمان بالله الخالق وتقصر نظر الناس وتفكيرهم على مسائل العيش المادى وحدها وترفض التفسير الجامع للكون والحياة وتعتنق التفسير المادى للتاريخ وتقصر الانسان على الحاجات المادية دون التطلع إلى حل مشكلات الفكر والاعتقاد .

وهناك محاذير الترجمة واللغات الأجنبية ، فان علينا أن نتعلم اللغات من داخل لغتنا العربية وأن تكون الترجمات فى خدمة الدعوة الاسلامية لا حرباً عليها

كذلك فإن من الخطر أن يتنازل المسلمون عن قيمهم ومميزاتهم الخاصة تحت تأثير الغزو الحضارى ، أو التضحية بأسلوبنا الخاص فى المعمار والمأكل والملبس دون أى مبرر .

ولا ريب أن بداية الانطلاق نحو الأصالة والرشد الفكرى والدخول فى مرحلة النهضة الاسلامية هو تحرير النفس الاسلامية من كل سلبيات الماضى ورفض كل دعاوى التغريب وتعاليمه المغرضة التى تحاول النيل من هذا الماضى تراثا ؟ وتاريخاً ولغة وعلينا أن نواجه خطر الاحتواء والذوبان والتبعية وعلينا أن نحمى وجودنا وذاتيتنا من الانصهار فى بوتقة الأممية العالمية .

(٣)

التحديات التى تواجه

الفكر الإســلامى

لا ريب نشأ الفكر الاسلامى فى حضانة الدعوة الاسلامية وله جذوره العريقة وأصوله الأصلية المستمدة من القرآن الكريم والسنه المطهرة واللغة العربية وسيرة الرسول وتاريخ الاسلام والأدب العربى وقد اكتمل مفهوم الاسلام فى حياة الرسول ﷺ « اليوم أكملت لكم دينكم » وقد كانت قواعد الفكر الاسلامى الأساسية قد بدأت ونمت فى حياة الرسول ﷺ مستمدة من القرآن وإن هذه القواعد لم تتغير من بعده ولم تجر أية إضافة إليه فظلت قيمتها الأساسية كما جاء بهما وحى السماء والقرآن وقامت سنن النبى فى تفسيرها وتطبيقها . وإنما جرت حركة العمل من داخل الإطار الذى رسمه القرآن . ولقد كان نضال المسلمين بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية تجربة قاسية انتهت بانتصار الإسلام بمفهوم (السنة الجامعة) وهزمت جميع محاولات السيطرة والاحتواء والغزو الفكرى كما نسميه بلغة العصر وبقيت الحقائق الأساسية قائمة :

إن الاسلام ليس دينا كسائر الأديان ولكنه حركة إجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والمجتمع والدولة ومختلف نظم الاقتصاد والسياسة والأخلاق وأن ميزة الاسلام أنه نظرية كلية شاملة وأنه لم يجزىء الحياة بل نظر إليها نظرة كلية كما نظر إلى الانسان كوحدة نفسية وجسيمة لا تنفصل .

وفى العصر الحديث وفى أبان الحملة الاستعمارية والصهيونية والماركسية واجه الاسلام تحديات خطيرة أبرزها :

أولا : إثارة الشبهات حول حقيقة الاسلام والتشكيك فى طبيعته الجامعة التى ميزته عن سائر الأديان وهو أنه منهج حياة ونظام مجمع وإثارة الشبهات حول مفهوم الدين المنزل من السماء والوحى بصفة عامة والدعوة إلى هدم الأديان عن طريق مايسمى (علم الأديان) المقارن أو القول بأن الامم بدأت وثنية ثم عرفت

التوحيد بعد ذلك . وهو قول معارض للحقيقة التى جاءت بها الكتب المنزلة والتى تثبتها كل الدلائل التاريخية والكشوف الأثرية . وهى أن البشرية بدأت موحدة ثم اعتراها التغير واستسلمت للفكر البشرى الوثنى والمادى وأن آدم أبو البشرية كان نبيا وكان موحداً . وهناك تلك الأطروحات الباطلة التى أستمـــدها خصوم الإسلام من غير المسيحية بالقول بأن الإسلام دين عبادى وإن رسول الله ﷺ كان نبيا روحيا وأنه لم يكن حاكما وما أقام دولة وهو باطل كشفت الابحاث الصحيحة عن فساده ومن أن الذين قالوا به إنما استمدوه من المسيحية ومن مفاهيم الاستشراق المعادية للاسلام كذلك فإن مفهوم التوحيد الذى عرفته بعض الأديان السماوية التى انحرفت تفسيراتها ليس هو مفهوم التوحيد الخالص الذى جاء به الاسلام . وأن هؤلاء القوم يدعون أن لهم إلها خاصا بهم ، أما الاسلام فيقرر أن الله تبارك وتعالى هو رب العالمين كذلك فان ما يدعيه البعض من التوحيد عند أخناتون وغيره لم يكن فى الحقيقة هو التوحيد الصحيح الذى جاءت به أديان السماء وأن التوحيد كان دعوة أديان السماء المنزلة منذ آدم إلى محمد ﷺ ولم تكن قاصرة على دين واحد هو الدين الذى أنزل على موسى عليه السلام كما تحاول أن تطرح ذلك نظريات فاسدة .

وقد تداولت البشرية التوحيد الذى جاءت به الأديان رسولا ونبيا بعد نبى وفى خلال الفترات كانت تعود إلى الوثنية وإلى الفكر البشرى ولكنها كانت تعرف التوحيد منذ نشأة الحياة الانسانية .

وقد تميز الاسلام عما سبقه من مفاهيم حول الله تبارك وتعالى بانه جمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهيه ، وأنه غاير مفهوم الوثنية ومفهوم التعدد والتثليث والشرك وغيره بأن أقر المسلم بالله تعالى ربا خالقا وبكل ما قدر الله من أمر وهو ما تمثله عبارة القرآن الكريم فى فاتحة الكتاب « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ثانيا : إثارة الشبهات حول مفهوم الاجتماع الاسلامى ، فى شأن ثبات القيم الأخلاقية وارتباطها بالدين والدعوة إلى هدم الأخلاق عن طريق مذاهب

الوجودية والفرويدية وهدم الأسرة عن طريق مذاهب تدعى أن الأسرة ليست الفطرة وتحاول هذه المذاهب التى عرفت باسم مدرسة العلوم الاجتماعية أن تشكك فى ثبات القيم الأخلاقية وارتباطها بالإنسان والدعوة إلى أخلاق متطورة تختلف باختلاف البيئات والعصور .

ويدخل فى هذا تلك النظريات التى طرحها فرويد وسارتر ودوركايم .

وأخطر ما يواجه المسلمين من هذه النظريات الوافدة المطروحة فى أفق الفكر الاسلامى أن يظن البعض أنها علوم ومفاهيم علمية مقررة والحقيقة أنها مجموعة من الفروض التى قدمها بعض الفلاسفة والمفكرين وأن كثيراً منها ثبت فساده وفشله وأن أبرز ما يدلل على اضطرابها هو عجزها عن العطاء أو عن الثبات مع الزمن أو البيئة وعدم صلاحيتها للتطبيق بعد قليل مما جعل أصحابها ودعاتها يغيرونها بالحذف والاضافة ومع ذلك فهى من الفكر البشرى الذى لا يثبت أمام المفاهيم الربانية الحقه التى قدمها الاسلام فى مجال النفس والاجتماع والأخلاق .

وأن أغلب هذه النظريات إنما كانت موجهة فى الحقيقة ضد الدين الذى عرفته أوربا والذى لم يحقق لها إستجابة صحيحة مع أشواق النفس الانسانية لحال بينها وبين ممارسة الحياة الاجتماعية الطبيعية حين فرض عليها « الرهبانية » ومن ثم كانت هذه الموجة العاتية التى يطلقون عليها ثورة الجنس للوصول إلى أقصى الطرف الآخر فى الاباحية وتحرير مفاهيمهم من أغلال المفاهيم المسيحية الجامدة . وهذه القضية بجملتها ليست مطروحة فى أفق الفكر الاسلامى الذى دعا دينه إلى حق المتاع الدنيوى بالطعام والمرأة فى أوضاع صحيحة وضوابط كاملة دون أن يحرم الانسان منها شيئاً .

ولقد كانت نظرية فرويد بالتفسير الجنسى للتصرفات الانسانية موضع نقد وتجريح من علماء النفس أنفسهم فضلا عن معارضتها للفطرة الانسانية وقد تبين فى العصر الأخير أن العامل الجنسى ليس هو المصدر الأوحد للتصرف الانسانى ولكنه واحد من عوامل كثيرة منها تأكيد الذات ومركب النقص والايمان بالعقيدة ذلك الدافع الخطير إلى الموت سبيل الحق .

ومن منطلق حرب اليهودية للجويم أو للأمميين كانت محاولاتهم لهدم كل قيم الأخلاق والاجتماع والأسرة على النحو الذى قام به فرويد ودوركايم الذى كانت نظريته فى علم الاجتماع قائمة على إنكار القواعــــد الأخلاقية وإنكار ثبات القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية التى قررها الدين الحق وإنكار فطرة الدين والأسرة والزواج ودوركايم هو الذى روج للنظرية القائلة بأن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الجماعة نفسها وهو يدعو إلى ما يسمى بالعقل الجمعى الذى ينكر مسؤولية الفرد عن عمله والتزامه الأخلاقى الذى هو مصدر الحساب والجزاء الأخروى ، كما أنه ينفى القداسة عن الدين والأخلاق والأسرة ويشكك فيها ويدعو إلى تحطيم الدين لأنه يعوق التطور ، هذه الأفكار المسمومة التى روجتها التلمودية ، والفكر الغربى بعد أن سقط أسيراً للتلمودية ، يحاولون الآن طرحها فى أفق الفكر الاسلامى لاخراجه عن فطرته وذاتيته ومفهومه الربانى الجامع القائم على التوحيد والرحمة والاخاء البشرى .

ولعل من أخطر ما يواجه اليقظة الاسلامية فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى هو هذه التحديات التى تتصل بالمجتمع والأسرة والطفل والمرأة ، المستمدة من هذه النظرة المادية الخالصة التى يقوم على مفهوم علم الاجتماع وعلم النفس كما يدرسلان فى الجامعات حيث تنشىء أجيالا تقوم عقليتها على أساس النظرة المادية الخالصة إلى الانسان وحيث تنظر فى سخرية وامتعاض إلى الأخلاق والدين والأسرة . ونرى أن هذا الذى تعلمه ليس الا مجرد نظريات لها مقابل فى الفكر الاسلامى أكثر أصالة وأعمق نظرة بل هو من الحقائق العلمية والمسلمات التى لا مرد لها ، بينما هى لاتعرف وجه الحقيقة بالنسبة لمفهوم الاسلام الحق الذى هو فطرة الله . فطرة الله التى فطر الناس عليها وهو المفهوم الذى يقرر أن الانسان روح وجسد وعقل وقلب وأنه لا يمكن تفسيره عن طريق المذاهب المادية التى تعامله كالحيوان أو المناهج التجريبية التى تعامله كالمادة الصماء . ولاريب أن نظرية دوركايم فى علم الاجتماع حين تلتقى بنظرية فرويد فى علم النفس ونظارية ماركس فى الاقتصاد من شأنها أن تشكل إنساناً مضطربا مزعزع الوجدان .

ومن عجب أن تبرز هذه المفاهيم فى مختلف مجالات الثقافة والتعليم والصحافة

بينما تختفي مفاهيم الاسلام في النفس والأخلاق وتتضاءل ولا تفرض حتى على أنها وجهة نظر الأمة التي تواجه تلك القضايا والتحديات بل لعله في الحقيقة ليس هناك مفهوم أعمق وأصدق أصالة من هذا المفهوم الاسلامي وأن مفهوم الغرب كان مصدر الكارثة التي تحل بالبشرية اليوم لانفصاله عن الفطرة والعلم ودعوته إلى الانشطارية بين الروح والمادة والعقل والقلب وهو مصدر التمزق والغثيان والغربة التي هي أزمة الحضارة الغربية المعاصرة .

ثالثاً : من أخطر التحديات التي تواجه الفكر الاسلامي ما طرحه الفكر الوافد في أفقه من تفسيرات غربية وماركسية وصهيونية وهي جميعها تفسيرات مضللة مستمدة من التفسير المادي للتاريخ الذي طرحه انلجز وماركس وهو مفهوم ناقص لأنه يتجاهل عوامل كثيرة لها أثرها في توجيه التاريخ .

أن تفسير التاريخ الاسلامي عن طريق مناهج التفسير الغربي هو بمثابة عجز عن النظرة الصحيحة لحركات ووقائع التاريخ الاسلامي فقد قاس الكتاب الغربيون الوقائع الاسلامية على ظروف لامبراطورية الرومانية وغيرها مع اختلاف الظروف والمقاييس . كذلك فقد كانت نظرة الغربيين إلى تاريخ الاسلام ناقصة وقاصرة لأنها صدرت عن ذلك الاعتبار الخاطيء بان تاريخ الغرب هو تاريخ البشرية وإن ماعدا ذلك ليس تاريخاً ولايدخل إلى ساحة المقاييس أوالصورة العامه

وأشد أنواع الخطأ هي فكرة « الحتمية » التاريخية « والجبرية » الاجتماعيه التي يجرى تطبيقها على التاريخ الأوربي ، وأشد ما عجزت عنه تفسيرات الغربيين للإسلام هي عجزهم عن فهم ذلك الجانب المعنوى والروحى : الوحى والنبوة والرسالة السماوية وعما يتصل بها من بناء القوة القادرة بإيمانها على هزيمة القوة المادية التي هي أكبر منها عدة وعدداً ؟

وتتمثل المعالجة الغربية الظالمه لتاريخ الاسلام في أن علماء الغرب فرضوا التقسيم الغربي للعصور التاريخية على تاريخ العالم وتعميم مقاييسهم فيها ، فالعصور الوسطى مثلا هي عصور الظلام في رأيهم ما دامت أوربا كانت في الظلام متجاهلين الحضارة العربية الاسلامية التي كانت متألقة في تلك العصور وتاريخ إفريقيا السوداء

يبدأ عندهم حينما دخلها الرحالة الاوربيون ، أما قبل ذلك فليس لها تاريخ ، وتمتد هذه النظرة إلى الفكر العالمى الذى هو عندهم الفكر الغربى وحده .

وقد تجسدت هذه النظرة فى نظريات ولدت فى الغرب قسمت شعوب العالم إلى فئات : دماء بعضها نقية زرقاء ، ودماء بعضها الآخر سوداء ، وإلى أجناس عليا وأجناس دنيا .

ومن منطلق التفسير المادى للتاريخ عجز المؤرخون الأوربيون عن تفسيرات الأحداث الكبرى فى تاريخ الإسلام وخاصة تفسير سرعة انتشار الإسلام فما زالوا يقيسون ذلك بالمقياس المادى وكذلك انتصار المسلمين بالعدد الأقل على الروم والفرس بالأعداد الضخمة وهم يسقطون من حسابهم القوة المعنوية : قوة الإيمان التى هى فى تقدير التفسير الإسلامى للتاريخ عامل مواز أن لم يكن أهم من القوة المادية .

كذلك فقد عجز كتاب الغرب ومؤرخوه عن ضبط النفس فى تقدير المواقف المشتركة كمعركة بواتيه والحروب الصليبية والاستعمار الحديث فانحرفوا فى تفسيرها مع أهوائهم ومع غرورهم واستعلائها وبروح الاحتقار والانتقاص للشعوب الضعيفة والمستعمرة .

وكما حمل التفسير المسيحى للتاريخ روح الخصومة ، كذلك حمل التفسير الصهيونى التاريخ الإسلامى روح الحقد ، وكان التفسير الماركسى للتاريخ أكثر حقداً وخصومة ، وقد عملت هذه التفسيرات على إعلاء شأن الحضارات القديمة والأديان الوثنية السابقة للإسلام أو الادعاء بأن العرب كانوا ناهضين ومتحضرين ولم يكن ينقصهم إلا قائد لينهضوا ولسوا أن العرب حاربوا الرسول ثلاثة عشر عاماً ووقفوا بالخصومة إزاء كلمة الإسلام حتى فتح الله لها أفقاً جديداً فى يثرب .

رابعاً : الدعوة إلى أثارة العصبية والعنصرية وإعلاء الأجناس البيضاء وذلك فى محاولة لفرض النفوذ الاستعمارى الغربى على الأمم الملونة والقول بوصاية زائفة للجنس الأبيض على العالم والبشرية .

كما عمدوا إلى أذكاء رياح الدعوة إلى الاقليميات والقوميات الضيقة للقضاء

على روح الوحدة الاسلامية الجامعة بين الدول الاسلامية سواء منها ماكان تابعاً الدولة العثمانية (كالعرب والترك) أو بقية البلاد الاسلامية التى كانت تدين بالولاء للخليفة المسلم أمام المسلمين .

ولقد حملت دعوات الاقليمية والقومية رياح العصبية والعنصرية الغربية وكانت محاولة خطيرة لوضع الحواجز التى تجمعها بها رابطة العقيدة والثقافة والتوحيد .

ولقد استهدفت هذه الدعوة فى البلاد العربية إلى إعلاء طابع الاستعلاء الجنسى المغالى فى مواجهة الأمم الاسلامية ، وخلق طابع الانعزال والانفصال الكاملين فى التاريخ والتراث والمقومات الاسلامية واستهدفت كذلك خلق وجود معاصر منفصل تماماً عن الاسلام وعن العالم الاسلامى متصل بالغرب فى تفسيراته وقيمه وطوابعه .

لقد كان هدف هذه الدعوة إعلاء شان القوميات حتى فى الأمم الاسلامية ذاتها فضلا عن فصل هذه الأمم الاسلامى وفصل العرب عن الامتداد الاسلامى.

خامساً : من أخطر التحديات التى واجهت الفكر الاسلامى إحياء الماضى السابق للاسلام فى البلاد العربية والاسلامية جميعاً ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية فى البلاد العربية وإحياء تراث كورش فى إيران أو الهندوكية فى البلاد الهندية الاسلامية وغيرها فى باقى أجزاء العالم الاسلامى . كمحاولة لاحياء تاريخ ما قبل الاسلام وحضارته وتراثه الوثنى وتجديده . وقد جرت هذه الدعوات شوطاً فى محاولة خدمة النفوذ الأجنبى للقضاء على الذاتية الاسلامية ولكن الأمر لم يلبث أن تكشف عن عجز كامل فى تحقيق عودة المسلمين إلى تاريخ ما قبل الاسلام على أى نحو من الأنحاء وتبين أن دعوة الاسلام بالتوحيد الخالص خلال أربعة عشر قرناً قد أنشأت كيانا فكرياً وروحيا واجتماعيا قويا عميق الجذور لا يمكن هدمه أو النيل منه وأن هناك ما عرفه علماء التاريخ بالانقطاع الحضارى بين ما قبل الاسلام وما بعده فى جميع البلاد التى دخلها الاسلام وأنه فى مقابل هذا « الانقطاع الحضارى » فإن هناك ما يسمى الاستمرارية الحنيفية الابراهيمية القائمة الآن فى البلاد العربية والممتدة منذ دعوة إبراهيم إلى دعوة

محمد صلى الله عليه وسلم والممتدة عبر الديانتين المنزلتين على موسى وعيسى عليهما السلام أن هذه الانقطاعية بين الدعوة الحنيفية فى تلك المناطق جميعا قد اشتملت على الفكر والثقافة والعقيدة بالرغم من معالم المدينة الحضارية المادية ، وتؤكد المصادر كلها على وجود الأرضية العربية السابقة للاسلام فى مصر والعراق وسوريا وأن الفينيقية والآشورية والفرعونية والبربرية وغيرها هى موجات خرجت من الجزيرة العربية وانداحت فى هذه المنطقة شرقا وغربا وكانت توسيداً للموجة الإسلامية العربية الكبرى بعد الاسلام واستكمالا لها .

وقد تبين لدعاة هذه الحضارات الفارسية والفرعونية والفينيقية وغيرها أنه لاتوجد أرضية يمكن البدء منها سواء أكانت هذه الأرضية تراثا ثقافيا أو لغويا أو دينياً وأن هذه الجذور القديمة للغات السريانية والقبطية والعبرية وغيرها قد زالت وانتهت ولم يبق منها شىء وقد غلب عليها طابع التوحيد الخالص بمفاهيمه القرآنية الخالصة .

سادسا : جرت المحاولات لاحياء التراث الجاهلى والوثنى تحت اسم الفلكلور أو الأدب الشعبي وهى إحدى المحاولات التى استهدفت التأثير فى نصاعة الفكر الاسلامى وروحه الربانية القرآنية الخالصة ، باعلاء تلك الصور الساذجة التافهة من الأزجال والأغانى والمواويل والأمثال العامية والوثنية البائدة التى تتعارض مع سمو التراث الإسلامى العربى القائم على البيان العربى البليغ والمضمون السامى وقد انتشرت هذه الدعوة فى السنوات الأخيرة وشملت أقطاراً عربية وإسلامية عديدة وخـــدعت كثيراً من البسطاء والسذج والاغرار فى مجال اللهو والتسلية فى محاولة لخداع الجماهير بأساليب تحمل طابع الرقص والغناء والاستعراضات المسرحية لاحياء التراث الجاهلى والوثنى الذى قضى عليه الاسلام قضاء تاما واعتبره من سقط المتاع وحطمه تحطيما لأنه يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص ومن دعوة الإسلام للخروج من طفولته الإنسانية والمفاهيم الجاهلية والبدوية الحافة والساذجة القائمة على الأساطير والخرافات وحيل العرافين وأكاذيب الدجالين إلى مفهوم أصيل فى الإيمان بالله والتعرف إلى آياته فى الكون والثقة بأن الغيب لله تبارك وتعالى .

والهدف معروف هو تغليب العامية والاساطير والقصص الشعبي والأغانى الساذجة والامثال العامية على البيان القرآنى وبلاغة السنة والادب الصادق والفن الرفيع والفكرة الانسانية ، إرتداداً بالعقول والنفوس التى رفعها التوحيد إلى ذروة الإيمان بالله إلى سذاجة الخرافة وفساد طفولة العشرية وابتعادا عن الذوق العربى الاسلامى المتسامى بالقرآن الكريم والحديث النبوى والأدب العربى فى بلاغته الحكمه الاسلامية فى فصاحتها وأرتفاعها عن التدلى والحيوانية والفساد . نعم : إذابة الذوق الاسلامى العالمى فى الوان ضعيفه ساذجة وثنية تقال من قدر بيان القرآن وترد الناس إلى مستوى ضعيف يقطع الصلة بمستوى الثقافة الرفيع الذى خلقه القرآن وخلقته السنة ولاريب أن هذا واحد من أهداف الدعوة إلى العامية كما سيجىء .

سابعاً : العمل على تبنى دعوات ضالة كالقاديانية والبهائية والادعاء بأنها من حركات النهضة الاسلامية كذبا وبهتانا وأستعمالها لضرب الاسلام من الداخل .

وتعمل القوى التغريبية جميعا ممثلة فى الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى عن طريق الصحافة والثقافة والمدرسة إلى تبنى هذه الحركات الهدامة واحتضانها وخداع البلاد الاسلامية . ومن يراجع هاتين الدعوتين المبطلتين البهائية والقاديانية يعرف انهما استهدفتا ضرب حركة اليقظة الاسلامية التى كانت قد قطعت مرحلة كبيرة فى طريق التماس المنابع الاصيلة وجوهر الاسلام بمفهوم التوحيد الخالص وان كلا الحركتين قد نشأ فى احضان النفوذ الأجنبى واستهدف ضرب الاسلام فى أعظم قيمه الاساسية وهى فريضه الجهاد . وقد كشفت الابحاث التاريخية عن علاقة أكيدة بين الدعوتين وبين الاستعمار والصهيونية والهندوكية .

وأنهما حاولتا بث الفتنة وزعزعة العقائد واثارة الشبهات واضعاف شوكة المسلمين وتبليط عزائمهم فى المكافحة ضد النفوذ الاجنبى والكيد للاسلام وتضليل المسلمين عن حقيقة عقيدتهم وتفريق وحدتهم . ولم يعد هناك ريب فى ان هذه الطوائف الدخلية تلق المعونة والتوجيه من المستعمرين والقوى المعادية

للاسلام تحت اسم مايسمونه « حرب الاسلام من الداخل » .

وقد واجه رجال اليقظة الاسلاميه كلتا الدعوتين منذ اليوم الأول وكشفوا عن فسادهما وزيف فكرهما وسمومهما التى خدعت بعض المسلمين ولا ريب أن الدآرسى للبهائية يجد هدف تقويض الاسلام من الداخل واضحا فى مخططاتها وتاريخها كله ، ويجدها واضحة العلاقة بالركام الباطنى القديم مجددة أياه فى أسلوب حديث براق . يغرى بعض السذج من أبناء امتنا الذين لم يستكملوا تعليمهم الدينى والخلق . فضلا عن الارتباط بالصهيونية التلمودية كثمرة من ثمار البروتوكولات ومن هنا كانت دعوتها إلى دين بشرى تنصهر فيه الاديان السماوية .

ثامنا : محاولة أحياء الفكر الباطنى والوثنى والاباحى عن طريق احياء الفلسفات اليونانية والمسرحيات الاغريقية والاساطير البابلية والفكر الغنوصى وكانت بعض هذه الوثنيات قد ترجمت أبان العصر العباسى وادخلت إلى مفهوم الإسلام كثير من البلبلة والاضطراب وقد واجهها المسلمون مواجهة صارمة وكشفوا زيفها وردوها وبينوا أن الفلسفات اليونانية ليست الا علم الاصنام القديم وهاجموا كلا النظريتين (١) اليونانية الهلينية القائمة على الحس وعبادة الجسد والأباحية (٢) الغنوصية الشرقية القائمة على الحدس والاشراق وغيرها وقد تجددت المحاولة فى العصر الحديث مرة أخرى فى محاولة القوى الاستعمارية والصهيونية والماركسية إلى النيل من الاسلام وإعادة طرح هذه المفاهيم مرة أخرى الفكر الباطنى والتصوف الفلسفى والاعتزال والمجوسية وغيرها الاغراق شباب المسلمين فى هذه السموم وحتى يحال بينهم وبين مفهوم التوحيد الخالص بما يؤدى إلى توهين روح الصمود فى نفوس المسلمين وتفسيخ القيم الخلقية الاسلامية بالدعوة إلى إذاعة المجون والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسى وهو نفس الأسلوب الذى اتخذته حركة احتواء الاسلام ، كان ذلك فى الماضى لحساب المجوسية الفارسية ولتمكين القرامطة والباطنية من السيطرة على الدولة الإسلامية واليوم يجرى نفس المخطط لحساب الصهيونية والاستعمار والشيوعية .

تاسعا : محاولة اخراج اللغة العربية من مفهومها الذى تختلف فيه عن اللغات

بوصفها لغة القرآن ، وفرض مناهج فى علم اللغات للتحكم فيها وتصويرها بأنها لغة قومية فحسب ، أى لغة أمة ، وإذا كان هذا مقرراً كمنهج علمى لكل لغات العالم فانه يعجز عن اقرار ذلك بالنسبة إلى اللغة العربية لانها الى جانب انها لغة امة ، فهى لغة فكر وثقافة وحضارة ودين ، وأنها تتصل بمليار من المسلمين يعبدون الله بها ويقرأون بها القرآن والحديث .

ولا ريب أن هدف الحملة على اللغة العربية هو خلق عامية تقضى على لغة القرآن وتمزق وحدة الفكر الاسلامى :

ومن هنا تسقط كل محاولات الفكر الوافد فى اثارة الشبهات حول اللغة العربية ومقارنتها باللغة اللاتينية التى ماتت ودخلت المتحف ، بعد أن تفرعت منها لهجات أقليمية . وليس مثل هذا يمكن أن يحدث للغة العربية التى ما زال القرآن يظاهرها ويحمل ما كتبت به منذ أربعة عشر قرنا مقروءا إلى اليوم بينما لم يحدث ذلك مطلقا لاية لغة من اللغات الحية التى تتغير كل بضعة قرون . فامرؤ القيس السابق للاسلام نقرأه نحن الآن ونفهمه بينما شكسبير لايفهمه قومه وقد مضى عليه ثلاثمائة عام تقريباً ، وهذه الظاهرة تجعل اللغة العربة أكبر من أن تخضع لعلم اللغات الذى يحاول أن يحكم على كل اللغات بظواهر عامة مشتركة .

وقد كانت اللغة العربية بطبيعة تركيبها وتميزها بالقدرة على الاشتقاق والتوالد عاملا هاماً فى مكانتها . وقد وصفها (أرنست رينان) بأنها خلافا لكل اللغات ظهرت فجأة فى غاية الكمال غنية أى غنى بحيث لم يدخل عليها حتى يومنا هذا أى تعديل مهم فليس لها طفولة ولا شيخوخة وانها ظهرت فى أول أمرها تامة مستحكمة ومن خلال هذا الفهم علينا أن نواجه التحديات التى يطرحها التغريب من القول بتطوير اللغة أو اعلاء شأن العاميات أو الادعاء بأنها لغة خاصة بأصحابها ونفهم أن هذه كلها محاولات ترمى إلى :

أولا : عزل المسلمين عن العرب وعزل العرب عن الوحدة الكاملة بينهم .

ثانيا : عزل المسلمين والعرب عن مستوى البيان فى القرآن الكريم .

ولاريب أن اللغة العربية جديرة بأن تبقى دائماً فى مستوى بيان القرآن الكريم وأن يرتفع الناس اليها ولاريب أن الدعوة إلى إقامة لغة وسطى بين الفصحى والعامية هى إحدى محاولات الغزو الفكرى وليس لها هدف إلا إنزال اللغة العربية درجة عن كيانها الذى يرتبط ببلاغة القرآن وبذلك تنهدم ركيزة من ركائز الاسلام وهى حجب المسلمين عن فهم القرآن واستيعابه وهو أمر خطير هام ويحتاج إلى دوام المحافظة على بلاغة اللغة وروحها ، فاللغة أساساً هى فكر الأمة والعربية الفصحى مرتبطة بذاتية الإسلام ومزاجه النفسى والاجتماعى :

عاشراً : الدعوة إلى أحياء الحضارات التى سبقت الاسلام وإعادة عرض الوثنيات والفلسفات والخرافات والأوهام . تلك محاولة ماكرة مضللة ولكنها فاسدة فقد استطاع الإسلام خلال أربعة عشر قرنا أن يقيم منهجاً عقليا وروحياً وان ينشىء مزاجا نفسيا وذوقا خالصاً مرتبطاً بالتوحيد والقرآن ومتصلا بأسباب الايمان بالله له ضوئه الباهر الذى لاتستطيع الظلمات أن تقهره .

حادى عشر : الدعوة إلى مايسمى بالأدب العربى المعاصر ، والفكر العربى المعاصر ، والثقافة العربية المعاصرة ، على أن تبدأ هذه الدراسات منذ حملة نابليون وربطها بالارساليات والنفوذ الأجنبى كأنما هى من معطياته ، وهى محاولة ماكرة تهدف إلى اجتثاث الفكر والأدب والثقافة (العربية الإسلامية) من أصولها والفصل بين حاضر العرب والمسلمين وبين ماضيهم ، وخلق ثقافة ولقيطة لاجذور لها بل أن هناك محاولة مضللة تهدف إلى الحيلولة دون ربط الأدب أو الفكر أو الثقافة بتاريخها القديم وماضيها العريق .

ومن الحق أن اليقظة الاسلامية المعاصرة فى الفكر والأدب والثقافة جميعاً بدأت من دائرة القرآن وأن جميع الحركات الوطنية والقومية إنما استمدت قوتها من مصادر الاسلام وأنه لاسبيل إلى بناء أدب حديث أو فكر أو ثقافة منفصلا عن اللغة العربية والاسلام .

ثاني عشر : محاولة الادعاء بأن منطقة البحر الأبيض المتوسط شهدت حضارة واحدة هي التي بدأها الفراعنة والفينيقيون ونماها الأغريق والرومان ، ثم أتمها الأوربيون المعاصرون وأن دور العرب في هذه الحضارة كان دوراً ثانويا . والحقيقة أن هناك حضارتان لكل منهما طابعه المميز هما: حضارة التوحيد وحضارة الوثنية . وأن الإسلام هو صانع الحضارة التي اتسمت بهذا المفهوم في مواجهة حضارات بدأت بمفاهيم الوثنية وانتهت بمفاهيم المادية وكانت في مختلف مراحلها معارضة للحق والعدل والرحمة والأخلاق فكانت تضرب واحدة بعد أخرى وتسقط لأنها تعارض سنن الله في الكون .

ثالث عشر : محاولة طرح بذور الشبهات حول صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق في العصر الحديث والادعاء بأنها شريعة صحراوية موقوتة بعصرها وبيئتها. وكل الدلائل العلمية والتاريخية تكذب هذا الادعاء وأقربها مؤتمرات القانون الدولي ١٩٣١ ، ١٩٤٧ ، ١٩٥٢ وكلها أشارت إلى أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة لها كيانها الخاص وإنها تحمل منهجاً إنسانيا لم تصل اليها البشرية بعد وتجري المحاولة التي يفرضها النفوذ الغربي بالدعوة إلى ما يسمى تطوير الشريعة ووضعها موضع الاحتواء من القانون الوضعي .

ولقد كان من أعظم المعطيات التي حققتها كثير من الاقطار الاسلامية أنها اتخذت من التشريع الاسلامي مصدراً أساسيا للقانون ونصت على ذلك في دساتيرها وميثاق الوحدة .

رابع عشر : استطاعت القوى الاستعمارية فرض نظام الاقتصاد الغربي على أغلب أجزاء العالم الاسلامي وهو نظام قائم على أساس الربا ومعارض أصلا لمنهج الشريعة الاسلامية ولقد قامت حركة اليقظة الاسلامية بدراسات واسعة للكشف عن فساد نظام الربا والاقتصاد الغربي وجرت محاولات متعددة لإقامة المصرف الاسلامي على غير اساس الربا والعمل على وضع نظام تحرير المسلمين من قيود النظام الاقتصادي الوافد والكشف عن عظمة الفكر الاقتصادي الاسلامي .

(٤)

من التبعية إلى الأصالة

من اليقظة الإسلامية وصولا إلى النهضة الاسلامية فى حلقات ثلاث :

(أولا) من التبعية إلى الأصالة

كشفت حركة اليقظة الاسية فساد مفـاهيم ومصطلحات كثيرة مطروحة كالمسلمات فى افق الفكر الاسلامى ، كان هذا الكشف هو اعظم ثمرة اقتطفها الفكر الاسلامى فى القرن الرابع عشر الهجرى الذى لم يكد ينتصف حتى كانت شعلة اليقظة قد اندلعت تضىء وتحرق ، تضىء امام المسلمين ذلك المفهوم الذى كان قد أوشك أن ينضوى وهو مفهوم الاصالة والحفاظ على ذاتيه الاسلام بعد أن كادت محاولات التخريب والغزو الثقافى أن تفرض مفهوما مسيحيا أو وثنيا يقصر الاسلام فى حدود المساجد . والعبادات ويفسح الطريق امام القانون الوضعى والاقتصاد الربوى والعلمانية فى التربية والتعليم أن تنطلق لتخرج جيلا اطلق عليه من بعد « عقلية قانون نابليون » فقد كانت المحاولة كما عرفها عشرات من اعلام الاسلام هى « اخضاع ثقافة الاسلام وفكره لمفاهيم الفكر الغربى المحتوى اساسا من اليهودية التلمودية » والذى استسلم بعد الثورة الفرنسية لها فأحل الربا وعزل التربية الدينية عن المدرسة وقد ظل كرومر فى مصر ومن امثاله فى المغرب والمشرق يحملون لواء دعوى التغريب وقد امتد ذلك إلى تركيا وفارس (شطرى الوحدة الاسلامية) وذلك رغبة فى تمزيق هذه الوحدة الأسمية الجامعة ولم تلبث تركيا أن سقطت فى براثن الاحتواء التخريبى انفكت هذه الوحدة ، وسقطت اغلب بلاد العرب فى ايدى النفوذ الأجنبى حتى كان قمة ذلك اسقاط الخلافه الاسلامية فى فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى ثم سقطت فلسطين ثم بيت المقدس فى ايدى الصهيونية ، فانكشفت التجربة التى ادخلها النفوذ الأجنبى بواسطة الموازنة واتباعه عن فساد القول بأن فكر الغرب أو حضارته تستطيع أن تدفع المسلمين إلى التقدم والنهوض وتبين بما لا مجال للتردد فى قبوله عن أن الاصالة الاسلامية والاستمداد

من المنابع الاصليه هى وحدها مصدر النهوض ، وإن الاحتفاظ بالذاتيه الاسلامية هى أعظم التحديات التى يجب أن يقف أمامها المسلمون مجاهدون بكل مايملكون من قوة ومضحون فى سبيلها بكل مظهر من مظاهر التقدم الخادع .

ولقد اعطتنا حركه اليقظة الاسلامية منذ منتصف القرن الرابع عشر حقيقه أساسية هى أن النفوذ الاجنبى قد قرر منآمراً منذ وقت بعيد ان يقضى على هذه الذاتية وأن يصهر المسلمين وفكرهم فى بوتقة الأمية والعالمية وذلك بافساد مفاهيم الاسلام الاصيلة وصبت السموم على حقائق الاسلام المطبقة ، وذلك باثاره الشبهات حول الحقائق الاساسيه وخاصة مايتعلق بالجهاد والتوحيد والفتح الاسلامى والشريعة الاسلامية .

وقد طرح الفكر الغربى فى هذا المجال قضايا عده محاولا أن يجعل من الاسلام : دين الله الحق مماثلا للتفسيرات التى كتبها الاحبار والرهبان ومن ذلك فكرة التطور فى الدين والاخلاق ، وفكرة التطور لا تكون إلا بالنسبة للفكر البشرى الناقص الذى يحتاج إلى الاضافة والحذف أما الاسلام الذى جاء منهما ربانياً واطاراً مرنا قادراً على مواجهة مختلف الشبهات والعصور فانه لايخضع للتطور ولايحتاج اليه .

كذلك فقد أثاروا فكره العقل والعقلانية ولم يتبينوا أن العقل خادم للوحى ، وأن العقل وحده لايستطيع أن يقدم شيئاً محرراً وكذلك فكرة الضمير فما من فى أحد منها إلا متأثر بالبيئة والثقافة والوسط الذى يعيش فيه وليس العقل معصوما وليس الضمير معصوما ، وإذا تخلص العقل من اطار الدين وتخلص الضمير من سيطرة الدين فانه قد يوحى بالفساد ولاريب أن مفهوم الفكر الغربى القائم على تفسيرات المسيحية (الصلب والخطيئة والتثليث) من ناحية والفكر اليونانى الوثنى من ناحية والقانون الرومانى الذى يقر عبورية العبد ويرى أنه لايستطيع أن يكون سيداحتى ولو تولى الملك ، هذا الفكر تختلف مع الفكر الاسلامى فى أدق دقائقه واعمق اعماقه ، هذا الفكر القائم على التوحيد وتحرير العقل البشرى من الوثنية وتحرير الانسان من عبوديه الانسان والقائم على الاخاء البشرى والرحمة والخير والحفاظ على العرض

ومن هنا تختلف المقاييس والقوانين ولا تصلح مقاييس الغرب وقوانينه وخاصة مايسمون التفسير المادى للتاريخ فى الحكم على الاسلام وتاريخه وقيمه .

والمستشرقون والمبشرون الغربيون لم يقبلوا على الفكر الاسلامى بروح التجرد أو الرغبة فى فهم الاسلام لاعتناقه إلا كان الحق وإنما عمدوا إلى دراسته بعقائد مسبقه وفكره مسبقة ، ومن خلال هوى النفس والتعصب والاستعلاء العنصرى فكانت احكامهم بعيده عن الحق والسلام والعلم وقد صور ذلك فيليب حتى) حين قال (لقد اقبل الأوربى كقاعدة على دراسة الاسلام أما لتنصير المسلمين أو لخدمه المصالح الاستعماريه وكان لتعصبه الغربيين القومى وحماستهم الدينية وجهلهم المطبق اثرة الفعال أيضاً وكان استمرار تداول الاساطير الغربية عن النبى وعداء النصارى لديانه توسعية مناقسة وما خلفته الحروب الصليبية من ذكريات مريرة كل ذلك حال دون قيام دراسة موضوعية متحررة للاسلام »

ولقد احتوت التلمودية الصهيونية الفكر الغربى فى مطالع القرن التاسع عشر لمحاولة السيطرة عليه وتوجيهه وجهتها ، ثم فرض هذا النفوذ على الفكر البشرى كله وعلى الفكر الاسلامى خاصة فكان أن طرح فى افق فكرنا الاسلامى الصافى الناصع نظريات مظلمه فقد حطم داورن حقيقة ان الانسان سيد الكون والخليفة وحطم ماركس مفهوم المعنويات وصير الانسان هو خاضعاً لمعدته وحطم فرويد مفهوم العفة والعرض ، وصور الانسان مصورة الحيوان ، أما نيتشه فقد دعا إلى قتـل العاجز أو تركه يموت دون العمل على شفائه وإبادة الضعفاء .

واطلقت كتابات هافلوك اليس الجنس والبغاء وكان ابطال (سنوفكى شواذ ومرضى ومرضى فرويد من الشواذ والمجانين ، وروج سلامة موسى وطه حسين وغيرهم لهذه المفاهيم .

وكان من أخطر من ذلك كله نظرية ديوى فى التربية التى تقول افعل ماتشاء والتى تطلق حريه الابناء فى التصرف دون توجيه أو رعاية من الاباء وهو

اتجاه فاسد كشف الغرب أخيراً آثارة السوداء وانحرفت بهالحضارة ، ودمرت المجتمعات والأسر .

ومع الاسف فان العالم الاسلامى بعد أن تحرر من احتلال الغرب العسكرى والسياسى تبين له إنه سقط تحت سيطرة فكره ومفاهيمة ليأخذ من الغرب اسلوبه ومنهجه بينما كان الهدف أن يستكشف جوهو فكره (هذا الانسان الغربى الضال من افلاطون إلى ماركس) ولقد بذل المسلمون جهدا ضخما فى سبيل انهاء السيطرة الغربية والحصول على الحرية السياسية ولكن تبين لهم أن الخطر الحقيقى مازال موجودا فى معاهد التعليم وفى التنظيم الاقتصادى ومفاسد العلمانية وشبهات الوجودية وسموم الماسونيه .

ويرى كثير من المصلحين الاجتماعيين المسلمين أن الذى حاول الاستعمار اسقاطه من النفس الاسلامية هو دور الاسلام كعقيدة وتربيه حيث لم يكن أبداً فى يوم من الأيام راضيا بالذل لامعانه للخضوع ولامعينا على العبودية . وقد ربى الاسلام معتنقيه على الاعتزاز بكرامتهكم ورباهم على الايمان بانهم خلقوا ليقتعدوا مكانهم تحت الشمس فلا يكونوا عبيدا ولا ازلة ، ولذلك فلم يكن الاسلام حليف الطغيان ولاحليف الظلم .

وفى العصر الحديث فان الاسلام هو الذى استطاع أن يحررالعرب والمسلمين من رق دول الاستعمار ذات العدة والعدد ، رغم انهم لم يكن لهم سند ولا مورد وإن قوتهم الاساسية التى واجهوا بها الاستعمار هى قوة الروح والفكر والعقيده

ولقد كان عليهم أن يتبعوا الخطوه الثانية فان الاسلام الذى حررهم قادر على أن يدفعهم إلى أقامة دولتهم ومجتمعهم وأن يكون عامل تقدم بعد أن كان عامل تحرر .

(ثانياً)

من اليقظة إلى النهضة

لقد آن للعقلية الإسلامية فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى — بعد أن حققت فى القرن الماضى خطوة واسعة نحو الكشف عن محاولة تغريب العالم الإسلامى النحرر من أشياء كثيرة :

أولا : التحرير من استعباد الثقافات الوافدة (غربية وشرقية) .

ثانياً : تصحيح مادسته الشعوبية فى تاريخ العرب والإسلام من سموم .

ثالثاً : تصحيح مفاهيم الاخلاق وخاصة فيما يتعلق بعفاف المرأة والبكارة والعرض وقوامه الرجل .

رابعاً : الكشف عن تلك العلاقة الواضحة بين الفلسفة الماسونية والأيدلوجية الصهيونية التلمودية المبثثة فى مدارس علم النفس والعلوم الاجتماعية والشيوعية الماركسية الاشتراكية التى تتلون بلون الحرباء لتخدع المسلمين وهى كلها شيء واحد مشتق من الفكر التلمودى .

خامساً : ذلك المخطط المنسق بين الغرب المسيحى والشيوعية والصهيونية ضد الاسلام والمسلمون اليوم لا يأخذون نظما أو مناهج فعندهم خير النظم وأعظم المناهج ولكنهم يأخذون تنظيمات مستحدثة جربها غيرهم ليضعوا فيها فكرهم وعقيدتهم ويأخذون العلوم التجريبية ليضعوها داخل إطار لغتهم ودينهم .

أما النظم القائمة — بما فيها من مادية ووثنية وإنشطارية فهى قاصرة على المادة دون الروح فلا يقبلها المسلمون لانها أقل مما عندهم فى منهجهم الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

والمسلمون يؤمنون بأن الله هو الخالق وهو الصانع وأن كل حركة الانسان يجب أن تكون خالصة لوجهه وفى سبيـــل بناء المجتمع الربانى الذى دعا إليه الدين الحق .

ويؤمن المسلمون بأن قوانين الله تبارك وتعالى لا يمكن تغيرها فهى ليست ناتجة عن ظروف المناخ الذى تعيش فيه الأمة ولا هى ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الانتاج وهى لا تختلف من زمن إلى زمن ، ومن مكان الى مكان وأن هذا الطابع الربانى المصدر الانسانى الوجهة للقوانين الخلقية يرجع الى أن طبيعة الانسان التى لا تتغير فالحوافز الانسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحضارة الانسانية والغرائز التى هى محور عمل الانسان لم تزل باقية كما هى ، وهذا دليل كما يقول العلماء على تغاير طبيعة الانسان ثابتة لا تتغير .

ويؤمن المسلمون بأن هناك قوانين معينة ترتقى بمقتضاها الأمم وتنهار .

(ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

ولم يترك شىء لصدفة أو مشيئة عمياء ، أن الأمم التى ترتفع فتبلغ أوج التقدم والرفاه الاقتصادى انما ترتفع بعد أن تنمى فى أنفسها صفات خاصة ، كما يقول الباحث الذى نقلنا منه هذا النص بينما الاخرى التى زحزحت ، عن مجال الوجود المؤثر انما اصابت هذا الحظ لأن فيها مواضع ضعف نخرت بنيان مجتمعها وقوى الحياة فيه وان التدهور يجىء نتيجة فساد بطىء وانحطاط لا يشعر بهما المرء وهما ينخران فى كل جوانب الأمة .

ويؤمن المسلمون بأن لكل أمة « عقيدة » تتحرك فى « اطار » يكون بمثابة المثل الأعلى لها وهى التى تقودها الى طريق النهضة ، وتتحمل فى سبيلها مختلف التحديات ، هذه العقيدة هى القوة المحركة والمفجرة للطاقات التى غيرت دائماً حياة الانسان وحياة الأمم ، أن الايمان الذى يملأ القلب ازاء هذا المثل الأعلى هو الذى يولد الطاقة القادرة على حمل لواء الدعوة والاستشهاد فى سبيلها .

وأن الأمم التى من صفاتها الخور والهلع والطيش يصيبها الانحدار والأمم التى تتقدم هى التى تواجه الخطوات بحسم وتحرز الانتصارات .

وأن من أبرز أسباب انحلال نظام العالم الجديد هو فقدان العدل والقسط .

ويؤمن المسلم أن العلم مهما وصل الى أكثر مما وصل اليه فإنه لا يدخل فى القلب اليقين ولا يملأ النفس بالسكينة ولا يقدم للمجتمع روح الأمان ولكن

الدين الحق وحده هو الذى يعصم الطاقات التى سخرها العقل المنطلق بنعمة الله عن أن تستخدم فى التدمير والارهاب و لاستعباد والاستعلاء والافساد .

فقد أنشأ العقل المسارح والفنون والتصوير ، ولكن الدين هو الذى يعصم هذه الوسائل من ترويج الرزائل .

أن أهم نكبة أصابت المسلمين فى العصر الحاضر هو شعورهم بالنقص واعتقادهم أن طريق التقدم هى طريق التقليد الأعمى لما أتى به الغربى المسيحى من أراء ونظريات فبعض الكتاب المسلمين حملوا لواء المادية الغربية ودعوا الى أعتناقها بكل حرارة واعتقدوا أن وصفهم بالتقدمية يتطلب منهم حتما أن يقولوا بمفاهيم المادية وفى هذا التنكر لحقيقة الاسلام الذى لا يثبت القدم الا لخالق الكون وحده والذى يؤكد أن الكون وما فيه أمور محدثة اقتضت ايجادها حكمة صانع عليم وأن هناك تعاليم آلهية لابد من التقيد بها والخضوع لها والاحتكام اليها .

ولقد بارت تجاه هؤلاء وانكفئت قدورهم وتكشف زيفهم ، وتحطمت مراكبهم ولم تعد هناك الا حقيقة واحدة هى أن الإسلام هو القوة الوحيدة التى تستطيع أن تنشىء هذه الأمة مرة أخرى على النحو الذى صنعتها من قبل وأنه هو المصدر الوحيد لإنقاذ هذه الأمة أبان الأزمة ، فيجمع القلوب حين تهددها الفرقة ويعيد اليها الوحدة حين يهددها الزوال .

ولما كان الغربى يعرف هذا فإنه كان حريصاً على أن يفسد جوهر هذا الدين وأن يحرفه ويزيف حقائقه بما ساقه المستشرقون وأتباعهم الغربيون من شبهات أو على حد تعبير أحد الكتاب حين يرى أن النفوذ الأجنبى كان يطمع فى نزع فتيل الدين من أرض الاسلام ليحول الأرض إلى قطعة من الحديد الخردة لا فعل لها ولا أثر ، وحتى يصبح المسلم أجنبياً فى أرض بلا هوية ولا بطاقة وذلك نسف للوحدة الاسلامية من جذورها وخلع للمسلم من نسبه وأنتمائه وتاريخه .

ولا ريب أن هذه الصحوة الاسلامية ذات أصالة فقد قامت على أساس صحيح واضح عميق منذ أن بدأت حركة التوحيد التى قادها الامام محمد بن الوهاب ثم توالت معالم اليقظة على أيدى المصلحين الذين ظهروا متوالين سواء عن طريق

الدعوة ذات الطابع الديني كالسنوسية والمهدية أوعن طريق مقاومة النفوذ الأجنبي كما عرف عن حركة أحمد بن عرفان في الهند أو عرابي أو الشيخ شامل أو عبد القادر الجزائري أو عبد الكريم الخطابي أو عن طريق الاصلاح الاجتماعي الذي قاده جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعشرات من قادة اليقظة في المغرب والمشرق ، ثم تبلورت الفكرة الاسلامية بعد سقوط الخلافة الاسلامية في صورة واضحة هي الدعوة إلى عودة الشريعة الاسلامية إلى التطبيق في البلاد الاسلامية وأحقاق حقيقة الاسلام كدين ومنهج حياه ونظام مجتمع ، ومن هـذا المنطلق أخذت الصحوة الاسلامية تأخذ مجالها في بناء هذا المد الاسلامي الذي وضح بعد هزيمة فلسطين وسقوط القدس في أيدي الصهيونية وتبين فساد المنهج الغربي الذي نقله المسلمون وحالوا تطبيقه في بلادهم في ظل موجة عاصفة من التغريب والغزو الفكري بهدف القضاء على الوجة الاسلامي للمسلمين وأذابتهم في بوتقه الفكر العالمي الأممي ، وتراوحت الأهواء بين مناهج الرأسمالية الغربية والماركسية الشيوعية ثم خرج المسلمون من كل ذلك بتقدير واضح هو أنه لا سبيل إلى نهضة المسلمين وخروجهم من التخلف وتحررهم من النفوذ الأجنبي سياسيا وفكرياً إلا بالعوده إلى الاسلام ، والتماس مناهجة ، ومقدراته بالتطبيق في المجتمع الاسلامي .

ولقد كانت هذه الصحوه الاسلامية ضربة شديده للتغريب والغزو الثقافي غير أن المؤامرة التغريبية لم تتوقف ولكنها حاولت أن تدخل في نطاق الحركة بالتزييف والادعاء حتى يمكنها أن تفسدها من الداخل وصب سمها في طرائقها وجرت هذه المحاولة بالدعوه إلى التأويل واستخراج الرخص بهدف الحيلولة دون وصول المجتمع الاسلامي إلى الصوره الحقيقية للاصالة القائمه على العزائم ونحن نعلم أن أى نهضة لا تقوم على العزائم وعلى الاصالة وعلى التطبيق الكامل لمفهوم الاسلام فإن ذلك من شأنه أن يفتح ثغرات يمكن أن ينفث منها التغريب والغزو الثقافي سمومه ويحول دون بلوغ هذه الأمة مكانتها الحقة التي تؤهلها لتبليغ كلمة الله تبارك وتعالى إلى العالمين بعد أن تقيم المجتمع الاسلامي الصحيح .

(ثالثا)

من طريق البشرية إلى طريق الله :

إن كل العلامات والدلائل توحى بأن دورة جديدة توشك أن تبدأ لتأخذ مدارها تحت الشمس لحضارة اسلامية من المتوقع أن تكون هذه المنطقة هى التى تحمل فيها الأمانة مرة أخرى ، لقد استعاد الإسلام من جهة العمق مافقده من جهة الامتداد ، قال السيد بن رجال الجزآئرى فى رد على سؤال عن مستقبل الإسلام فى أفريقيا الشمالية : كونى على ثقة يافرنسا بأن الاسلام سينبعث من تحت أفواه (مدافع المسيحية).

وإذا كان النفوذ الفرنسى والاستعمار قد إستطاع بالحرب العالميـــة الأولى القضاء على الخلافة الاسلامية وتمزيق وحدة العالم الاسلامى واستطاع بالحرب العالمية الثانية إقامة اسرائيل والقضاء على وحدة البلاد العربية بعد أن أزاح النفوذ الاجنبى قادة اليقظة الاسلامية وقدم رجاله فان الأمر اليوم جـد مختلف وأن صيحة العودة الاسلام لم تعـد تنكسر مسيرتها ولابد أن تحقق هدفها وهـو هدف كريم سمح لايضاد أحداً ولايقاوم أحداً ولكنه يرمى إلى أن يحقق للأمة الاسلامية وجودها القائم على الاخاء الانسانى والعدل والرحمة والتوحيـد وقد ثبت اليوم أن التجربة الغربية والتجربة الشيوعيـــة مرفوضتان فى أفق المجتمع الإسلامى وأن التجربتين كانتا لمجتمع يختلف عن مجتمعنا وأن الماركسية ماهى الأجزء من نظام الغرب الرأسمالى ورد فعل لواقع الرأسمالية الغربية التى عجزت عن إقامة مجتمع سليم ولاريب أن الرأسمالية والماركسية كلاهما من منبع واحد بسيطرة مفهوم الربا على الاقتصاد العالمى ، ويتطبق التفسير المـادى للتاريخ فى كليهما ومن ثم فان المجتمع الاسلامى الذى يقوم على تفسير جامع يربط بين المادة والروح من ناحية ويرفض الربا رفضاً كلياً ، هذا المجتمع لايستطيع أن يهتدى بهدى الفكر الغربى ولا أن يأخذ نظام العيش الغربى لأن له منهجه الخالص ولأمر آخر هو أن الحضارة الغربية اليوم تمر بمرحلة الأزمة والهزيمة والانهيار ونحن نعرف

أن الحضارة الغربية حين وصلت إلى القمة فى العطاء المادى قصرت فى مجال الوجدان والمعنويات وتضاءلت وعجزت عن فهم عطاء الله للبشرية من قدرة فى مجال العلم وأنها وجهت كل ما أعطاها الله إلى تدمير الإنسان ، سواء فى مجال الاجتماع بالاباحيات والتحلل أو فى مجال العلاقات الخارجيه بالذرة والقنابل الهيدروجينيه ولقد شكلت الحضارة الغربية بهذا تحدياً لدين الله وحدوده وضوابطه وخروجاً على شرعته حين أعطى الانسان الغربى لنفسه حق التشريع ، وتحويل أهوائه ومطامعه إلى شريعة فاسدة وتنكره للوجهه الربانية التى حددها الحق تبارك وتعالى للمجتمعات .

ولقد صدر الغربيون مفاهيمهم الفاسدة إلى العالم كله فكان حقاً على الاسلام أن يقف فى وجه هذه الموجه الطاغية وأن يكشف زيفها فان سيطرة اليهوديه التلمودية بالربا على هذه الحضارة قد صنع مجتمع الاستهلاك الذى يقوم على استهلاك كل المواد الخام التى جاد بها الحق تبارك وتعالى على الانسانية فى مجال الترف والفساد والأزياء وسموم الخمور والمخدرات والرقص والسينما ، فهم يريدون بيع بضائعهم ولما كان الدين الحق والأخلاق تقوم عقبة فى سبيل ذلك فهم يعملون على هدم الأخلاق ، ولما كان الربا هو الأساس فلا بد من القضاء على كل الفضائل حتى تنتقل البشرية كلها إلى الترف بسلاسل من حديد تمزق المجتمعات وتفسد الأسرة وتحطم الوجود الاجتماعى المسكين وذلك باقامة مجتمعات اللهو والصخب والفساد وكلا النظامين الرأسمالى والماركسى يؤمن بهذا ويعمل له .

ونحن نعرف أن تجربة الترف والرفاهية فى مجتمعات الغرب قد أدت إلى الانحلال وأن أعلى البلاد فى الترف والثراء والغنى هى أعلاها نسبة فى التمزق والانتحار والغربة والأدمان ، سواء عن طريق الانسحاب من الحياة بالأدمان على الموبقات أو الانتحار ، فالمجتمع المتحضر حين يفقد الدين والأخلاق ومفهوم مسئولية الانسان الصحيح والتزامه الأخلاقى فانه يتجه إلى الغروب والتدمير ليفسح المجال لتجربة أخرى وقد شهدت ذلك حضارات الرومان واليونان وفارس وغيرها هذا المصير المحتوم .

فكيف نفكر المسلمون فى أن يأخذوا من هذه الحضارة المدمرة ، وكيف يقترض الرجل الذى يملك كنوز المعرفة والثقافة ، وكيف يفكر المسلمون أن يأخذوا « تجربة » لم تنجح فى بلادها ولم تحقق الخير لأهلها وهم الذين يملكون أصفى المناهل ، وأكمل المناهج : دين شامل جامع متجاوز لكل الفلسفات الأساسية التى ابتكرتها العقول البشرية قبله وبعده ، ولكل الأديان السابقة التى احتواها الفكر الوثنى والمادى ومازال الاسلام بعد أربعة عشر قرناً قوى بمبادئه حفاق كالفجر مشرق كالضياء الباهر ، أصيل بعطائه ، صالح بوجوده ، يحقق النصر والعزة لكل القلوب المؤمنة به وهو الذى يحمل منهج « الفرج بعد الشدة » فيكسب أصحابه أيماناً وتفاؤلا وإشراقاً بينما تعطى المناهج الوافدة تلك الصورة القاتمة من التشاؤم والقلق والجفاف الروحى .

وعلى المسلمين الحذر من الوقوع فى براثن ما يسمى « التمليح » للاسلام « بدعوى الانفتاح وعلى كل ماينقل أو يترجم أن ينصهر فى بوتقة الاسلام واللغة العربية ، وأن يكشف عن وجهة نظر الاسلام فيه ، وأن تقدم دائماً فى كل مجال وجهة نظر الاسلام وأنه لمن أخطر الامور أن نرسل أبنائنا إلى أوربا وأمريكا دون حصانة قوية من فهم عميق للعقيدة الاسلامية وأخطر من ذلك أن نرسلهم ليتعلموا اللغة العربية والاسلام فى السربون وهارفارد وبرستون التى يتمركز فيها المستشرقون والمبشرين اليهود المتخفون وراء الارواب السوداء .

أن الوفا من الطلبة المسلمن يذهبون كل عام إلى معاهد أوروبا ، ثم لا يعودون إلا خصوما للاسلام وللبلاد ، ذلك لاننا لم نحذرهم قبل سفرهم من الخطر الذى ينتظرهم أو الاخطار التى تتخطفهم بمجرد وصولهم إلى تلك البلاد ، كذلك لابد من القضاء على الثنائية فى الفكر الاسلامى ، هناك ثنائية اللغة الفصحى والعامية ، وثنائية التشريع الاسلامى والقانون الوضعى وهناك ثنائية التعليم الاسلامى الدينى والتعليم الغربى ، كل هذا من شأنه أن يحول دون تحقيق وحدة الفكر التى هى أساس الوحدة الاسلامية الجامعة ، ومن خلال هذه المحاولات تثار الشكوك

حول اللغة العربية وقدرتها على استيعاب مستحدثات العلم والحضارة وتثار الشكوك حول مفهوم الاسلام الجامع وتثار الشبهات حول الأخلاق الاسلامية ويشوه التاريخ الاســـلامى ويزور وينكر فصل الاسلام على الحضارة الحديثة .

والمسلمون جميعاً فى أنحاء الأرض ليست لهم جامعة إلا « لا إله إلا الله » فلماذا تستمعون إلى تلك الأصوات المسمومة التى تقول لأهل الشام أنتم فينيقيون والمصريين أنتم فراعنة ، وللفرس انتم اكاسرة ، وللأتراك أنتم طورانيون ، لقد قضى الاسلام على تلك النعرات كلها وإقام ماأسماه علماء التاريخ «انقطاعاً» حضارياً بينه وبين هذا التاريخ الجاهلى القديم وفى خلال أربع عشر قرنا تشكل فكر إسلامى أصيل لاسبيل إلى الخروج من دائرته ومازال اللغة العربية هى لغة الفكر والعقيدة لالف مليون مسلم .

ولقد كشفت حركة اليقظة الاســلامية زيف منهج الاقتصاد الغربى وزيف القانون الوضعى وفساد منهج التعليم الوضعى وآن للعالم الاسلامى أن يعود إلى الأصالة ، إلى الفطرة ، إلى الإسلام فان كل المسلمات التى حاول الفكر الغربى (بشقيه) الوثنى والمادى خلال أكثر من قرنين والتى نقلها إلى أفق العالم الاسلامى قد تحطمت وأنهارت . يقول علماء الأصول أن الانسان محكوم بان يسلم نفسه لجهه من الجهات فنهم من يسم نفسه للعقل ومنهم من يسلم نفسه للطبيعة ومنهم من يسلم نفسه للمادة أو للبشرية أو لذاته (الوجوديه) .

وخير ذلك جميعا من يسلم نفسه لله تبارك وتعالى

ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى

أن محاولة علاج مشكلات العالم الاسلامى بعيدا عن الاسلام فقد غدا أمراً ميئوساً منه، أن الحقيقة الاسلامية على المستوى الشعبى اصبحت أمرا واقعاً ولم يعد هناك مجال لانكاره ، أن انهيار العالم الاسلامى الذى ظل متواصلا على صعيد الأوضاع السياسية والاقتصادية المعبرة عن محاكاة الغرب قد بلغ منتهاه فى السقوط فى نكسة ١٩٦٧ وأن ساعة انطلاق الحضارة الاسلامية قد حانت وسط عالم منهار . أننا نطلب تأصيل الفنون والآداب والعلم وتاصيل المفاهيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ليبرز الاتجاه الاسلامى واضحاً . وتتحرر الشخصية الاسلامية من التبعية بكل صورها وألوانها .

والله ولى التوفيق

(٥)

تجربة القرن الرابع عشر الهجرى

(تطبيق الشريعة الاسلامية وتبليغ دعوة الله إلى العالمين)

سوف يسجل التاريخ فى انصع صفحاته هذا الفجر المبارك لعصر جديد من ازهى عصور الاسلام يتوازى مع العام الخامس عشر من الدعوة الاسلامية ، عام موقعه بدر الكبرى التى فصلت من الحق والباطل وليس هذا القول من قبيل الأمانى والأحلام ولكنه سيكون كذلك باذن الله باستقراء الوقائع والاحداث ، فاذا كان القرن الرابع عشر هو قرن الكفاح والنضال والمقاومة لقوى النفوذ الأجنبى التى زحفت على العالم الاسلامى فان القرن الخامس عشر سيكون بعون الله قرن إرساء المجتمع الاسلامى على قواعد الشريعة الاسلامية وتبليغ دعوة الله تعالى إلى العالمين ومابين ايدينا اليوم من ارهاصات وعلامات ونذر كلها توحى بصدق ماندهب إليه رانقلب صفحات التاريخ .

افتتح القرن الرابع عشر باحتلال انجلترا لمصر ثم السودان وتونس وعدن والخليج العربى ثم المغرب والعراق وسوريا وكانت الجزائر قد احتلت قبل ذلك وكان الاستعمار يطمع فى استدامة السيطرة على هذه البلاد ولكنها هبت فى سبيل الدفاع عن كيانها وقاتلت بالاجساد المتراصة حين عز عليها السلاح ، واوقع بينها الاستعمار بدعوات الاقليمية والقومية الضيقة ليصرفها عن الوحدة الاسلامية وعن نظامها الاسلامى حين فرض عليها القانون الوضعى والاقتصاد الربوى وأسلوب العيش الغربى والعلمانية فى التعليم والمادية فى الفكر والاباحية فى المجتمع . فاين نحن من ذلك الآن ، لقد زال النفوذ الاستعمارى وان بقى نفوذ التغريب والغزو الثقافى يترنح تحت ضربات الدعاة إلى الله من أصحاب الكلمة المضيئة والاقلام المؤمنة وقد تكشف لكل ذى لب أن هذه المؤامرة التغريبيه

التي تستهدف فرض أسلوب وافد على المجتمع الاسلامي والفكر الاسلامي لن يتحقق لها النجاح ابدا فقد رفض الجسم الاسلامي العضو الغريب ، رفض كل الايدلوجيات الوافدة واصبح على أبواب القرن الخامس عشر مؤمنا باصالته وعقيدته وميراثه وتاريخه واغته، ومصمما على أن يسلك هذا الطريق الذي يحفظ له ذاتيته من أن تنصهر في بوتقة الاممية أو المذاهب العالمية وقد تبين له بعد تجربة هذا القرن،أن الطريق الوحيد هو صراط الله المستقيم ومنهج الله الجامع :

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)

وحينما يولي المسلم وجهه يجد من علامات توحي بانه يسير نحو الغاية بخطى ثابتة :

أولا : ففي مجال الفكر نجد أن الساحة قد اتسعت أمام العمل لاثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الاسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية ، فحققت عشرات من كتب التراث الاسلامي الأصيل التي تمثل مفهوم الاسلام الاصيل .

وظهرت أقلام اسلامية بارعة عرضت الفكر الاسلامي عرضا كريما وفق مفهوم الاسلام الجامع بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

كما ظهرت تفاسير جديدة للقرآن الكريم ودراسات لسيرة رسول الله ﷺ واعلام الصحابة وأبطال الاسلام في مختلف مجالات الجهاد والفكر وبناء الأمم ولم يكن هذا كله موجودا قبل أول القرن الرابع عشر .

ثانيا : كذلك فقد ظهرت صحف اسلامية عديدة في عواصم البلاد العربية فما تخلو عاصمة عربية من صحيفة وكان أخرها مجلة الأمة التي صدرت في مملكة قطر . وفي المغرب نجد دعوة الحق والإيمان وفي الجزائر نجد الرسالة وفي تونس الهداية وجوهر الاسلام وفي المملكة السعودية الرابطة والتضامن وفي الامارات منار الاسلام . وفي الكويت الوعي الاسلامي

وفى مصر : الأزهر ومنبر الإسلام والتصوف والدعوة والاعتصام والمختار الاسلامى هذا بالنسبة للبلاد العربية وفى العواصم الاسلامية صحف أخرى فى أندونيسيا وإيران وتركيا وباكستان والهند .(راجع كتابنا تاريخ الصحافه الإسلامية) .

ثالثـا : وهناك ظاهرة بناء بيوت الله وهى ظاهرة ضخمة حافلة بالعبرة ، حيث قام أهل الخير بمجهودهم الذاتى ببناء عديد من المساجد فاق ما تقوم عليه وزارات الأوقاف باضعاف كثيرة .

وهذه الظاهرة واضحة الدلالة فى كل اجزاء العالم الاسلامى .

رابعاً : وهناك ظاهرة الجاليات المسلمة المبثوثة الآن فى مختلف اجزاء قارات أوربا والامريكتين واستراليا وهى واضحة على نحو باهر فى المانيا وفرنسا وانجلترا فقد عاد الاسلام سلما وبقوة فى هذه المناطق التى طاردته من قبل وما من قطر أو دولة إلا وللاسلام فيها مسجد ومأذنة ورجل ينادى الله اكبر وفى أمريكا يقول الدكتور محمد عبد الرؤف (أنه لا تطلع للشمس الاعلى مسلم جديد) وفى الفاتيكان تقوم المـأذنة عالية وفى بروكسل تعترف الحكومة للمسلمين بوجودهم ومجتمعهم ومدرستهم الخاصة التى تحفظ لابنائهم دينهم وعقدتهم .

خامسا : ومن الظواهر الواضحة ظاهرة محطات اذاعة القران الكريم التى اصبحت تبث كتاب الله فى اجواء العالم، فى مصر وفى مكة، وفى باكستان وغيرهما ، ومنها المصارف الاسلامية من غير فوائد التى حققت نجاحاً باهراً . وهناك لجان الزكاة وجمعيات تحفيظ القران الكريم ودور نشر الكتاب الاسلامى .

سادساً : ولقد عاد الغرب يخفف من غلوائه ، وعتوه ،واعترف بعد ثلاثمائة سنة بفضل المسلمين على الحضارة الغربية وكان من قبل ينكر هذا الفضل ، وظهرت مؤلفات تكشف عن هذا الدور الخطير الذى قام به المسلمون فى بناء الحضارة العالمية ونهضة العالم الغربى كله .

فكتب درابر، وجوستاف لوبون، وسارطون، وبرنارد شو، وسجريد هونكه كتبت تحت عنوان رائع حيث قالت (شمس الله تشرق على الغرب) .

شهد هؤلاء وغيرهم بالدور الذى قام به الاسلام حين قدم للبشرية، المنهج العلمى فى البحث ومنهج المعرفة ذى الجناحين (عقل وقلب وروح ومادة ودين وعلم ودنيا وأخرى) وقدم للبشرية المنهج التجريبى فى مجال العلم وقدم للبشرية أيضا سنن الله فى الكون وناموس قيام الحضارات وسقوطها وكيف أنشأ المسلمون علم الاجتماع وعلم التاريخ وكيف عرف المسلمون منذ وقت باكر التشريح ومارسوه ، وأجرى أبو القاسم الزهراوى عمليات جراحة المخ وعرف المخدر الذى يسبق الجراحة وكانوا يسمونه (المرقد) وأوقف النزيف الدموى وسحق الحصاة فى المثانة . وعرف ابن الهيثم انكسار الضوء فى الجو وهو أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه الجسم المنظور بل بواسطة أشعة تطلقها الأجسام المضيئة الى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف وعرف القزوينى النقط وأنشأ الخوارزمى علم الجبر والبيرونى صناع نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس وقال عنه (تخاو) أنه أعظم عقلية عرفها التاريخ .

سابعاً : وشهد علماء الغرب اليوم بأن ابن خلدون سبق سميث وهيجل فى وضع علمى الاجتماع والاقتصاد السياسى وأن المعرى سبق دانتى فى تصوير الجنة والنار وأن ابن مسكويه سبق داروين فى نظريتى أصل الأنواع والتطور وأن الطرطوشى سبق مكافيلى فى الكتابة عن سياسة الملوك وأخلاق الأمراء وأن على بن أحمد الآمدى قد سبق بريل فى طريقة كتابة المكفوفين .

وان الاسلام هو الذى أهدى أوربا المنهج التجريبى فى الأندلس بل وأكثر من ذلك أن الاسلام بشهادة عظماء الغرب هو الذى أخرج

أوربا من الأديرة والرهبانية ودفعها إلى بناء الحضارة والعلم بمفاتيح المسلمين التى قدمها المنهج الاسلامى للعالمين ولم يبخل بها أو يحجبها كما يفعل الغرب اليوم بتجارب العلوم والتكنولوجيا ويقصرها على أهله .

ثامناً : وظاهرة أخرى من إرهاصات القرن الخامس عشر هى تلك المؤتمرات المتعددة التى عقدها علماء القانون فى الغرب واعترفوا فيها بفضل الشريعة الإسلامية وعظمتها منذ دوت صيحة عميد كلية الحقوق فى أثينا ١٩٣٥ بأن البشرية لتفخر بانتساب رجل مثل محمد ﷺ إليها فقد استطاع برغم أميته أن يأتى العالم بتشريع سنكون نحن الغربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة وفى مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى ١٩٣٧ قرر رجال القانون العالميين اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من أهم مصادر التشريع العام وأعلنوا أنها شريعة حية صالحة للتطور وأنها قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها . وفى مؤتمر باريس ١٩٥١ قال نقيب المحامين : لقد ثبت بجلاء أن الفقه الإسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها وأن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوى على ثروة ضخمة ومجموعة من الأصول تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة وقد كشفت عشرات الأبحاث العالمية عن جوانب كثيرة من الشريعة الإسلامية استطاعت أن تستمد منها القوانين الأجنبية مادة خصبة لقوانينها :

(أولا) تبين من مبدأ حرية التعاقد ومبدأ تقرير قيمة الشهادات وعدم تجزئة الإقرار ونسخ عقود الديون المضره ومبدأ تغير الأحكام بتغير الزمان والأمكنة والأحوال : هذه القوانين الجديدة التى عرفها الغرب فى السنوات المائة الأخيرة تبين أنها مما استمد من دراسات الإمام ابن القيم التى كتبها قبل خمسمائة سنة .

(ثانياً) ما كشفه عمر لطفى فى دراسته عن حرمة المنازل التى استمدها من القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) الآية .

وكان الفرنسيون قد استخدموا هذا التشريع الإسلامى قانون حرمة المساكن فقال المسيو قرنان راجين : يكاد يكون الاعتقاد السائد فى فرنسا أن احترام

المسكن لا يشغل فى تقنين العالم الإسلامى إلا مكاناً قليلا فقد ثبت أن الشريعة الإسلامية تحرم مثل هذا الانتهاك تحريماً مطلقاً فقد ذكر عمر لطفى أن القرآن مفسراً يحرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا فى أربع حالات (الأولى) إذا كان مرخصا له بالدخول فيه عادة (الثانية) إذا دعى إليه فإن الدعوة تساوى الإذن بالدخول (الثالثة) إذا دعى فى حالة حريق أو فيضان أو ارتكاب جناية (الرابعة) إذا كان البيت مفتوحاً للأفراد كالحانوت والحمام وكل من انتهك حرمة مسكن يستحق التعذير . والتعذير هو عقاب لكل جريمة ليس لها حد ، حده الأول التوبيخ والأقصى القتل حسب جسامة الجريمة وحال المجرم ومع ذلك فان تحريم دخول المساكن من غير استئذان ليس قاصراً على الأفراد بل يتناول السلطة الحاكمة .

(ثالثاً) تبين أن نظرية التعسف فى استعمال الحقوق التى عرفتها القوانين الحديثة قد أخذت من الإمام الشاطبى الذى أثبت فى تحليل وتفصيل دقيق أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد منــــه فاعله إلا الإضرار بالغير وفى هذا الموضوع قدم الدكتور محمد فتحى اطروحة الدكتوراه فى فرنسا عن مذهب الاعتساف فى استعمال الحق وقد علق العلامة كيهلر القانونى الألمانى على هذه الرسالة فقال : لقد كان العلماء الألمان يتهيبون عجباً على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى عام ١٧٨٧ م أما وقد ظهر بحث الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المذهب عند رجال التشريع الاسلامى وأبان بأن رجال الفقه الاسلامى تكلموا طويلا فى هذا ابتداء من القرن الثامن الميلادى فإنه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون وأهله هم حملة الشريعة الاسلامية .

واليوم وفى مطالع القرن الخامس عشر تكاد تكون الشريعة الاسلامية وتطبيقها هى القضية الأولى ، فقد دخلت إلى مواد الدستور فى عديد من البلاد العربية والاسلامية وعقدت اللجان القانونية فى مصر والكويت وأبو ظبى وعمان لتقنين الشريعة الاسلامية وما تزال تعمل وقد قطعت أشواطا طويلة فى صياغة القوانين الاسلامية للحدود والقانون المدنى والجنائى وستكون بإذن الله موضع

التنفيذ بعد ذلك ويجيء بعد ذلك مطابقة القوانين الوضعية المختلفة المطبقة فى البلاد الاسلامية على أصول الشريعة تحقيقا للقاعدة التى أقرت بأن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع وبذلك يقوم المجتمع الاسلامى الربانى المتحرر من الأخطار والتحديات التى تواجهه الآن وتحول بينه وبين حمل رسالة الاسلام إلى العالمين . وهى الرسالة التى تفرضها عقيدة الاسلام على كل مسلم : رسالة التبليغ إلى المجتمع المادى والغربى المدمر المتطلع إلى منهج أصيل يحرره من سموم الانحراف والتحلل والفساد التى يعيشها الآن ولن يكون ذلك غير الاسلام وقد نشأت فى الغرب نقطة انطلاق تتطلع إلى الشريعة الاسلامية بعد أن عجزت الأيدلوجيات عن تحقيق إقامة المجتمع . الذى يرضى أشواق النفس الانسانية ويحقق لها التوافق والموازنة بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة وقد نما هذا الرافد على أيدى أعلام منصفين عرفوا عظمة الاسلام وإنسانيته ورحمته وعدالته وإخائه بالاخاء البشرى وما يزال ينمو بالرغم من الحرب الشديدة التى توجه إليه من أصحاب الفلسفة المادية والوثنيات ، وقد قطع أهل الغرب الأمل فى كل التفسيرات الدينية والأديان البشرية كالبوذية والغنوصية كما انكشف لنا فساد البهائية والقاديانية والأحمدية والباطنية ولم يعد أمام الناس إلا أمل واحد هو الاسلام دين التوحيد الخالص الخاصة خاصة بعد أن كشف البحث العلمى عن بشرية بعض الدعوات والكتب التى ما زالت فى أيدى الناس فى الغرب .

بل إننا نستطيع ان نقول وبكل ثقة أنه قد انكسرت قبة الفكر المادى التى كانت شامخة ونكست رايات التغريب والغزو الثقافى فى كل ميدان يتبين اليوم فساد تلك النظريات التى هلل لها الشعوبيون والمتغربون احفاد وغلمه الاستشراق الغربى والصهيونى والماركسى، تبين فساد الأصل الذى قامت عليه نظرية دارون ، وتبين انهيار قاعدة النظرية الماركسية وتحطمت قاعدة الفلسفة المادية والتفسير المادى للتاريخ وتبين أن نظرية فرويد مجموعة من الفروض وأن نظرية دروكايم مجموعة من الأضاليل وأن الوجودية فكرة مدمرة ، وقد تبين ذلك ليس بمراجعة هذه النظريات فى ضوء الاسلام وقد تبين انهيارها وفسادها ، وإنما بالنتائج التى حققتها فى المجتمع الغربى من غربة واضطراب وتمزق وفساد وقلق وانهيار فقد

استطاعت التلمودية اليهودية أن تحتوى المجتمعات الغربية وأن تدمرها وقد تبين من ذلك عدداً من الحقائق أهمها :

(أولا) أن الفكر البشرى فكر ناقص وقاصر ومحدود النظرة لأنه لا يستطيع استيعاب أكثر من ظروف مرحلة قصيرة فى بيئة صغيرة ولذلك فإنه سرعان ما تكشف المتغيرات عن فشله ويسرع أهله فى معالجته بالحذف والاضافة ، وهو كالبذر المريض لا يصلح للاستعمال فى بيئات أخرى ولذلك فقد تعلمنا أن الأمم ذات الأصالة والمجد الباذخ والمنهج الربانى الجامع ليست فى حاجة إلى أن تنقل أو تقتبس من فتات الأمم، وعندها الكنز الزاخر ، وأنها فى كل ما يحتاج أن تنقله فإنما هو بمثابة مواد خام لها أن تشكلها فى إطار فكرها ومجتمعها على النحو الذى ترضاه والمسلمون لا ينقلون مناهج الأمم فهم ليسوا فى حاجة إليها وإنما ينقلون الاساليب والوسائل المستحدثة وحدها ليصوغوا فى داخلها فكرهم وثقافتهم وعقيدتهم .

(ثانياً) أن للمسلمين ذاتيتهم الخاصة التى شكلها القرآن والسنة الشريفة خلال أربعة عشر قرنا فقد صنعهم الله على عينه ، وصبغهم بصبغة التوحيد الخالص (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة)وقد أوصاهم نبيهم أن يحتفظوا بهذه الذاتية فيكونوا كالشامة فى الناس، ولا يخضعوا أبداً لمحاولات أذابتهم وصهرهم واستيعابهم فى بوتقة الاممية والعالمية وذلك حتى يكونوا قادرين دوما على أداء رسالة الاسلام وتبليغ كلمة الله إلى العالمين ولقد عاش المسلمون حياتهم كلها فى سبيل الدفاع عن هذه الذاتية واليوم تجرى المحاولات من القوى الغازية للقضاء على هذا الكيان الخالص ، والوجود الخالص فعليهم أن يدفعوا عن أنفسهم ما استطاعوا .

(ثالثاً) لقد تبين تماما من وقائع التاريخ وأحداث الماضى أن نهضة الاسلام تنبعث من داخل المجتمع الاسلامى والأمة الاسلامية لا بفعل قوى أجنبية وأن الاسلام قادر على تصحيح مسار المسلمين إذا انحرف بهم الطريق ، وأنهم كلما ضعفت قبضتهم عن تنفيذ شريعة دينهم ضربهم الله بالأمم والغزو والاذلال حتى يعودوا الى شريعة الله يطبقونها على أنفسهم وأسرهم ومجتمعاتهم ، عندئذ يرفع الله عنهم هذه الازمة .

(رابعاً) أن الحق تبارك وتعالى أعطى هذه الأمة فى مطالع القرن الخامس عشر ثلاث عوامل جديدة للنصر والتقدم والتمكين فى الأرض وتحرير أنفسهم ومجتمعاتهم من أخطار الغزو المحيط بهم : تلك هى الثروة والطاقة والتفوق البشرى وجعل هذا حجة عليهم إذا قصروا فى بناء المجتمع الربانى ودفع الغزاة عن أرضهم

(خامساً) أن المسلمين اليوم فى حاجة إلى بناء الأجيال الجديدة التى تفتحت على كلمة الإسلام على الإيمان والأخلاق ومعرفة حق الله على العباد ولا ريب أن هذه الثروة الضخمة فى حاجة إلى رعاية وحماية وتأصيل ولا يكون ذلك إلا بالحكمة والموعظة الحسنة وبناء العقول بالثقافة وبناء القلوب بالعبادة والارتفاع فوق المسائل الفرعية المفرقة والالتقاء حول القيم الأساسية الكبرى للإسلام ولا بد من ثقافة واسعة فى الفقه والعقائد والأخلاق ولابد من تعرف واسع على اللغة العربية والتاريخ وأبطال الإسلام وسيرة الرسول ﷺ ، ذلك المثل الكامل القائم أمام الأجيال كلها قدوة وأسوة ونموذجاً تطبيقياً للاسلام ومن حقه علينا وقد هدانا إلى التوحيد الخالص ان نلتمس طريقه ونتعرف سنته ونطبقها على أنفسنا وبيوتنا ومجتمعاتنا .

وبعد فلسوف يبلغ هذا الدين مبلغ النجم من السماء فيدخل كل بيت حجر ومدر يعز عزيزا ويذل ذليلا كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

(٦)

دور الاسلام فى القرن الخامس عشر

يتحدث المفكرون المسلمون اليوم عن رسالة الاسلام السياسية فى القرن الخامس عشر وعن مستقبل الاسلام كقوة سياسية . وبالنظر إلى الاديان الثلاثة نجد ــ على حد تعبير الدكتور حامد ربيع ــ إن اليهودية ليست معدة لان تؤدى وظيفة إيجابية . فالدين اليهودى دين قومى وليس دينا عالمياً ولذلك لايستطيع أن يؤدى وظيفه عالمية ثانيا هو دين جامد أى أنه لا يتطور أما المسيحية ، فقد أتصفت بصفتين اساسيين : الأول أنه لم يكن لها نظام سياسى وليس لها اصالة فيما يتعلق بالتنظيم ، بمعنى أنها كانت فى بدايتها دعوة اخلاقية لاتقاليد لها بالنسبة للنظام السياسى أو إنشاء الدولة ، وذلك بخلاف الاسلام ، وقد لجأت المسيحيه إلى « النموذج الرومانى » إلى أى نموذج الدولة الرومانية ومنها بنت نظامها السياسى والقانونى فى البداية ولم تشعر بالتناقص بالرغم من أن النظام الرومانى لادينى ونظام وثنى ملحد بطبيعته وترتب على هذا وجود تناقض لم يبرز إلا بعد فترة معينة . اذن باختصار : المسيحية لها اصالة فكريه وليست لها اصالة نظامية ومن ناحية أخرى فقد ارتبطت المسيحية خلال القرنين السابع عشر والتاسع عشر بالتعصب العنصرى ، مما أضعفها وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر لم تترك أبناءها بل حاولت أن تعيد تطويع نفسها للمجتمع الحديث أو الحضارة الجديدة وبما يتفق مع لغة العصر وخرجت إلى المعمعة السياسية وخلقت أدوات مستقله عنها فقد ظلت الكاثوليكه كنيسة وظاهرة دينية مستقله ولكنها خلقت الاحزاب الكاثوليكه وايطاليا واسبانيا وبلدان أمريكا اللاتينيه ، وأقامت نقابات كاثوليكية فى جميع انحاء العالم ، كما اقامت جمعيات كاثوليكيه تعلميه واجتماعيه وترتبط بها جمعيات التبشير ، كما اقامت الجامعات

الكاثوليكية وفى العالم جامعات كاثوليكيه فى منتهى الخطورة ، وقدلا نشعر بها . وفى القاهره ثلاثة مراكز بحوث تعمل بأوامر الكنيسه الكاثوليكه وهى تختفى فى زى الرهبان وتقوم بدراسة الحضارة الاسلامية لحساب الفاتيكان ، وتوجد مراكز البحوث الكاثوليكيه وأهمها فى بروكسل وروما وباريس وامريكا .

وفى داخل الفاتيكان يوجد جهاز متخصص فى توجيه العالم والفاتيكان عنده قدرة على ذلك وعنده ثروات لاحدود لها ، ولايستطيع احد ان يتصورها ، ودون مبالغة أو تطرف ، فقد كان وصول جون كيندى إلى رئاسة أمريكا ووصول ديجول إلى الحكم كان بناء على قرار من الفاتيكان وبالنسبة لنا هنا فى الشرق الاوسط : تبرئة اليهود من دم المسيح .

وهنا يجب أن نلاحظ وقوف الفاتيكان إلى جانب الصهيونية ونتساءل لماذا لم يطالب الفاتيكان بتدويل القدس ، ولاريب أن التنظيم داخل الفاتيكان رهيب ولذلك فهو قوة دولية .

ومن هنا فان هذه القوى تدرس الآن احتمالات مستقبل الاسلام وكيف تستعد لمواجهته ، ولاريب أن الاسلام خطر جداً لاسباب عديده ، منها أن الاسلام يمتد جغرافياً ليربط المحيط الهادى بالمحيط الأطلسى حيث توجد فيه أخطر المواقع ليس على الاتحاد السوفيتى فقط بل على الولايات المتحدة ،فاذا انظرت إلى أقرب بقعة فى العالم القديم إلى الامريكيتين فستجد انها منطقة المغرب وصحراء مورتيانيا ومنها تستطيع الطائرة أن تضرب وسط الامريكيتين ، وهذه أخطر موقع للنيل من الامريكيين ففى مواجهتها توجد المكسيك على مسافة لاتزيد عن أربع ساعات بالطائرة العاديه .

فالمنطقة الاسلامية هى حزام يحيط بالحضارة الغربية

ومن الناحية الاستراتيجية هناك جانبان فرعيان ولكنهما فى منتهى الخطورة الاول : أن المنطقة الاسلامية تستطيع أن تقطع الصلة بين الحضارةالغربية وبين مراكز بالثروة الطبيعية فى أفريقيا وغيرها التى تعتبر مناطق الثروات التى لم تستغل بعد وهى اساساً المنطقة الافريقية فى المنطقة العربية .

الثانى : قد يبدو ولأول وهلة أنه عظيم الاهمية ولكنه فى منتهى الخطورة : وهى أنه عند حدوث عداء فمعنى ذلك قطع كل عمليات الاتصال الجوى والبحرى من الشمال إلى الجنوب ونحن كثيراً أما ننسى أن ١٠ ٪ من دخل فرنسا من العملة الأجنبيه فملا من موارد الطيران الجوى مع العالم وكذلك الأمر بالنسبة لبريطانيا وأمريكا والمانيا .

هذا من الناحية الاستراتيجية أما من الناحية الحضارية فانه كما يقول الدكتور حامد ربيع : فهو أن الإسلام أقرب المفاهيم والتصورات إلى العالم الثالث ،

سواء من حيث فهم الحياة أو حيث الفهم الحضارى أو تقديم نموذج للتنمية والعالم الثالث اليوم يبحث عن نفسه حضاريا وأقتصادياً وبكل ابعاد وجوده والإسلام أكثر من غيره من الاديان مؤهل لأن يتعامل مع هذه الشعوب وأكثر اقترابا منها لأنه حضارة شرقية .

الناحية الثالثة : هى أن الإسلام فى تاريخه الطويل لم يعرف أطلاقاً معاهدات أو اتفاقات صلح مع العالم الخارجى .وذلك حتى هارون الرشيد تقريبا ، وهذا أمر يضعه الغربيون فى أذهانهم باستمرار فهم يخشون عودة الإسلام إلى هذا التصور . يزيد من هذا دور الصهيونية فهى تستغل القضايا استغلالا معيناً ولكن لاينفى أن هناك خوفا وهلعا ، فى خلال الشهور الماضية ليست هناك مجلة لم تخصص عدداً أو أكثر عن الاسلام ، وعندما تقرأ وتحلل المضمون تشعر بهذا الرعب وهذا الخوف والقلق الذى يعبر عن مفاهيم القيادات الغربيه .

فان الغرب يخشى الاسلام ويسلم بانه سيصير قوه . مثلا من الأسماء الضخمة ذات الوزن العلمى أرنولد جيى وهو مستشرق معروف له كتاب شهير يرجع إلى ١٩٥٤ أعلن فيه أن الاسلام سوف يدعى الى أداء وظيفة خطيرة ، وهى لن تقل خطورة عن وظيفة الكنيسه وقال مخاطبا الغرب : علينا أن نضع هذا فى الاعتبار وقد اصدر جيى أكثر من كتاب منها (محمد رجل الدولة) ١٩٦٤ ثم الاسلام فى العالم المعاصر ومحمد فى المدينة ، ومحمد فى مكة ، والفكر السياسى فى التراث الاسلامى فى مقدمه هذا الكتاب الآخير يقول :

« أنه متصور أن العالم سوف تتحكم فيه أربع أيدلوجيات : كونفوشيه صينيه لينينيه روسيه ، كاثوليكية أوربيه ، اسلاميه شرقية وقد تشكك جيب فى الايدلوجيات الثلاثة الاولى وقال أن الاسلام سوف يؤدى وظيفه خطيره ولن تستطيع أى قوه أن تعوقها ولكن هذه الوظيفه سيكون لها ثلاث صفات :

أولا : أنها لن تأتى من العالم العربى وأنما ستأتى من العالم الاسلامى غير العربى .

ثانيا : أنها ستكون صفه ثوريه ولاول مره يصف مفكر سياسى غربى الدين بانه ثورى وأن كانت الثورية ليست جديدة أو طارئة بالنسبة للاسلام .

ثالثاً : سيكون له طابع مختلف عن الطابع التقليدى

والسؤال هو كيف سيواجه الغرب هذه القوه الاسلامية

يقول الدكتور حامد ربيع : لاشك أننا نعيش فى مرحلة ولاده والغرب يعرف ذلك ويسعى جاهداً لمنع الولادة أو على الاقل تشويهها والاسف نحن نقع فى اللعبه التى ينصبونها لنا والحضارة الغربية لن تقبل الاسلام بسهولة فهى تحاول منع هذا أو تأخيره وتشويهه ولكن لاشك أن ما يبدو حاليا يدعو إلى الاقتناع بان هناك قدراً كثيراً من الصحة فى الحديث عن نهضة الاسلام فى القرن الخامس عشر .

على أن ينصهر فى بوتقة المفهوم الاسلامى الجامع القائم على التوحيد والعدل والرحمه والأخاء الانسانى وتبين لهم أن الحضارة الغربية تمر بمرحلة الانهيار والتصدع والازمة والتمزق فهم ليسوا فى حاجة اليها ولهم من مفهومهم الاسلامى وأسلوب عيشهم ما يمكن من استئناف الحضارة الاسلاميه للعطاء بعد التوقف .

ويكذب (حبيب أمين لوكرتى) حين يقول أن العرب فى حاجة إلى زعيم دينى جديد يمكن أن يهب العقيدة الاسلامية حيوتها وطاقتها وقدرتها على التجديد مما يجعلها أقرب إلى قبول المنطق الذى تفرضه الحياه الحديثة) لم يعد المسلمون يخدعون بهذه الدعوات المسمومه المصاغة فى أسلوب براق ، فان الاسلام فى مفهومه الصحيح لا يمكن أن يقبل الحياه الحديثة فى انحرافها القائم الان عن

منهج الله ولا يمكن له أن يبررها ولكنه يدعو إلى أن يلتمس المسلمون والناس اجمعين حدود الله ومنهجه ليقيموا المجتمع الربانى ويحطموا هذا الوثنيات التى تقدمها الحضارة الحديثة لأنها هى التى ستدمر هذه الحضارة فلا بد للعالم أن يفهم أن هذا الطريق الذى تسلكه الحضارة الحديثة والمجتمع الغربى هو طريق الهزيمة والتدمير والسقوط ولابد أن تتحذ البشرية طريق الله الحق الذى هو طريق الاسلام : طريق الفطرة والعلم وأن كل ماقدمته مناهج العلوم الاجماعية وما خدع به الناس فرويد وسارتر ودور كايم ومن قبلهم داورن وماركس كل هذا باطل وقبض الريح وقد جربته البشرية وثبت لها فشله ، كما أنها جربت البوذيه والوثنية والغنوصية وتبين لها أن ذلك كله لايؤدى وأنه ليس أمام البشرية إلا طريق واحد واختبار واحد وقد صدع بهذا كثير من اعلام الغرب امثال برناردشو وغيره منذ وقت بعيد :

(٢)

مستقبل الاسلام فى أوربا :

أن المتابع لحركة الإسلام فى أوربا والغرب عموما يعلم أن الإسلام مرشح للقيام بدور كبير فى الحياةالعالمية ، هل هذا القول مجرد طرح عاطفى يقال لارضاء غرور المسلمين وهل هناك مطعيات وشواهد على صدق ما يقال . يقول الدكتور رشدى فكار : من الخطأ القول بان الغرب لايعى الإسلام ولايعى تاريخ الاسلام ولكن الأسف الإسلام قدم فى الغرب عبر الخلفيات وفى اطار مغمض لعبت فيه الظروف التاريخية دوراً هاما فى تقديم صورة مغمضه وصورة دائما مقنعة بخلفيات. خرجنا من حلقات كنسية لندخل فى حلقات عقلانيه لتنتقل بعد ذلك إلى عقدة الذنب وإلى عقبة الدونية امام حضارة عملاقة اسلامية ثم فى النهاية بأن اختتمت هذه المهزلة بان أصبح الإسلام الآن يرمز بالنسبة للغرب الى قصية مصير هناك اشكالية انطلقت قبل الحروب الصليبية من عقدة الدونية فى فترة العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان ، كانت هناك عقدة دينية وهى غرب ينظر إلى الاسلام حاشالله أن نقول كما ننظر نحن الآن الى الغرب فى رأى اننا الآن نهول فى تخلفنا ونهول فى اعاقتنا . الفوارق هى فوارق غيبة التنظيم وغيبة الوعى بالذات وهى مشا كل خلقت لنا نوعا من للعقد بالنسبة للغرب ، وفى نفس الوقت نتطلع إليه بينما كانت القضية بالنسبة للغرب أوسع بكثير ، غرب مظلم محتقر بفكر محدود العطاء أن لم يكن مجمد تماما وعالم اسلامى فى كل يوم يحقق انتصارات ليس فقط فى الأرض وانما فى العقل ، كانت هناك رغبة فى ترجمة ولكن فى الاساس من الذى يترجم للاتينية . حتى جاءت فترة الحرب الصليبية ففتحت عيون الغرب على مدى اتساع الهوة بين مخلفات اقطاعية وبين نمط آخر فعدالة الاسلام ، مجتمع التكامل ، نظام الجباية ، قضية تحرر الفكر ليس فقط بالنسبة للمسلم وانما ايضا بالنسبة لغير المسلم ، كانت مواجهات فكرية بين قوى غير متعادلة ، مجتمع مغمض ، بنسق كنسى متحجر محتكر للمعرفة ، وهى معرفة محدودة للغاية ، والاسلام رغم المعاناة الظرفية ، ولكن بقدر ما يتأزم بقدر ما تشرق ،أن عظم المجتمعات الاسلامية كانت قائمة على البدائل ، عندما يحدث ضعف فى نقطة ما تحدث قوة فى نقطة أخرى .

علاقة الاسلام بالغرب : هذه العلاقة التي عرفت في فترة ما اسميه مسلسل التحفظ والنقد والتفنيد والاعتراض ، الا وهو المسلسل الغربي في خروجه من التوعك والقطيعة . وهناك تصدير القطيعة ، الغربي الآن يصدر أن يصدر القطيعة للآخرين والقطيعة قطيعته هو ، أن هناك خدعة كبرى تتم على مستوى الفكر الآن . ان الغرب عاش همومه والهموم قادته إلى الاشراك . الف عام من الظلمات وألف عام من التوعك والتغميض الكنسي والمصلحية للنسق الكنسي والفكر التجريدي الميتافيزيقي والمدرسي ، تحفظ عليها انطلاقا من العقلانية الاسلامية ، لولا العقلانية الاسلامية ما تحفظ المتحفظ على النسق الكنسي ، بمعنى ان العقلانية الاسلامية افادت من تحفظوا على الكنيسة ، ثم بدا يستعملونها بثورية فنجد المدرسة الرشدية ساعدت الخصم وخصم الخصم .

لقد وضعت علامة استفهام كبرى على البديهيات والمسلمات ، لاشيء مسلم به ساعدت هذا المنهج الصارم للملاحظة والتحرير على الانتقال من التحفظ والنقد الى التفنيد وجاء عصر الأنوار والمعرفين يقومون بتكفين جثة العصور الوسطى ويضعونها في متحف التاريخ واهلوا بذلك لطرح البدائل البديهيات ، البديل كان المدارس الكوينية والماركسية والتطورية الداروينية ثم التخصصات في علوم الانسان .

بعد مائة عام من الظلمات لديهم ادت الى القطعية اما نحن فقد كانت لنا ألف عام من الأنوار والاشراق في نفس الفترة . كيف يقوم القطعية .

أن خطأهم هو الحكم على الاسلام لامن خلال الاسلام وانما من خلال حالة المسلمين النفسية الموجودين فيها ، في القرن العشرين ، يقولون اذا اردت أن ترى الاسلام انظر الى المسلمين ، يعني هذا هو الاسلام .

لقد اقترحت منطلقا غريبا أنه كي يتعامل مع الاسلام لابد ان نحدد ما هو البشري وما هو المبادىء . هناك مبادىء الاسلام يقيم خالدة مستمرة عبر العصور وبين عصور ضعيفة أو قوية ، متازمة أو منطلقة وبين مسلمين بين التسلط والسيادة أن القرن العشرون والقرون التي تليه لن تجد منهجاً يتمشى مع مالها من عملاقة فكرية وقدرة ترويض هائل الا الاسلام في البحث عن الله فما على الاديان التي فرض عليها من البداية أن تكون استمراراً الدين واحد بدأ بابرهيم وانتهى بمحمد إلا أن تقبل حجمها وتدخل كمرحلة من مراحل تطور هذا الدين لأنه هو القادر فعلا على المواجهة ويمكن لمؤمن ان يحمي عقيدته في هذا الكون .

(١)

فى مواجهة التراث

(١) التراث الاسلامى المكتوب

(٢) فى مواجهة تحريف الفكر الإسلامى والتراث

(٣) قصه التراث والمعاصرة

(١)

التراث الإسلامى المكتوب

إن كلمة « التراث الاسلامى » هى من الكلمات الخطيرة التى تفتح عشرات الأبواب خلال أربعة عشر قرناً للحديث عن مئات من العلماء ومئين من المكتبات وعن ملايين الأطنان من الورق التى حملت كلمات الله من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه ، إلى أوربا على نحو لا يمكن استيعابه . على هذا النحو اليسير فى كلمات سريعة . وهو ميراث ضخم يزدهى بالفخر أن يملكه المسلمون وأن ينشرونه على الأجيال الجديدة فى العالم كله لتعرف أى أمة هذه : أمة (اقرأ وربك الأكرم) أمة (ن . ، والقلم وما يسطرون) وحتى يمكن تقريب الصورة المذهلة . نقول : أن المختصين يقدرون عدد المخطوطات العربية الموجودة فى العالم اليوم بأكثر من ثلاثة ملايين مخطوط (هذا غير ما هو مطبوع وهو لا يقل عن ذلك مما هو بين أيدينا) هذه الملايين الثلاثة ما تزال مبعثرة فى مكتبات العالم الاسلامى من دول المغرب العربى حتى باكستان ومن تركيا حتى الصومال . أما ما يوجد فى مكتبات أوربا وأمريكا وروسيا فحدث عنه ولا تسأل . ففى مكتبة ليدن وحدها فهرس للمخطوطات الاسلامية يبلغ عشر مجلدات ضخمة هذا بالاضافة إلى مكتبات بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والفاتيكان وهولندا وكذلك مكتبات الولايات المتحدة ، أما مكتبة الاسكوريال ففيها وحدها ٦٠٠ ألف مجلد ، هذه الثروة التى عبرت إلى الغرب منذ أيام الاستعمار والتى لم نستطع حتى اليوم استعادتها ، ولم يمكن تصوير ونسخ أكثر من ثلاثين ألف كتاب منها هذا بالرغم من جميع المحاولات التى عملت من أجل إبادة هذه الثروة ، فقد ذكر جبيون فى كتابه عن الدولة الرومانية . أنه كان فى طرابلس المشرق وحدها فى عهد الفاطميين مكتبة تحتوى ثلاثة ملايين مجلد أحرقها الفرنجة عام ٥٠٢ هـ ١١٠٠ م ، أما فى الأندلس فقد كانت هناك ٧٠ مكتبة وكان بمكتبة غرناطة ٦٠٠ ألف مجلد .

وكانت دواوين الشعر فيها تملأ ٨٨٠ صفحة من فهارسها ، وقد أحرق

الكردينال كمنيس مطران طليطلة فى ساحة المدينة ٨٠ ألف مجلد فى يوم واحد ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب، كما أحرق الفرنسيون كل ما وجدوه من مخطوطات ومطبوعات بمكتبات قسطنطينة عندما احتلوا الجزائر عام ١٩٣٠.

هذه محاولة لرسم صورة جد موجزة لهذا (التراث الاسلامى) الذى هو كنز من كنوز الاسلام الغالية التى هى غائبة عنها الآن (والتى لا يمكن كتابة تاريخ هذه الأمة ولا تقدير دورها العلمى والثقافى العالمى إلا بعد وصول آخر مخطوط من هذا الكنز) ذلك لأن المسلمين قدموا فى هذا التراث عطاء باذخاً كسبته الحضارة المعاصرة واعتبرته من نتاج أهلها ولم تعترف للمسلمين بالأثر الحقيق لهم إلا منذ سنوات قليلة، وما زالت هذه الكنوز فى الأغلب محجوبة عنهم (هذه الكنوز لم يتوقف عطاؤها عند العلوم التجريبية وحدها، بل امتدت إلى علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية جميعاً).

وليس أدل على صدق ما نقول من عبارة (ول ديورانت) فى موسوعة (قصة الحضارة) «ما طبع منها ٢١ مجلداً بالعربية حتى الآن» حين يقول «ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى إلا جزءا صغيرا مما بقى من تراث المسلمين وليس هذا الجزء الباقى إلا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائحهم، وليس ما أثبتناه إلا نقطة من تراثهم، لقد كانت هذه الثروة محفوظة فى المساجد فى مختلف بلاد المسلمين وقراهم، وقد تعقبها قناصل الدول الأجنبية واشتروها بأبخس الأثمان ونقلوها إلى بلادهم، ولم ينج منها إلا القليل الذى حفظه أهل المغرب الذين أقاموا حوائط مسدودة عندما هجم الاستعمار الفرنسى على بلادهم وتركوا هذه الثروات وراءها سنوات وسنوات فمنها ما وجد صالحاً بعد ومنها ما ضاع أيضا.

وإليكم نموذجا صغيرا للتعرف على هذا التراث:

يقوم دكتور ديفيد كنج الباحث الفلكى الذى تقدم بأطروحة فى الدكتوراه عن الفلكى المصرى «ابن يونس» الذى يعد من أشهر الفلكيين فى العصور الوسطى ـ تقدم هذا الباحث بإجراء مسح شامل للمخطوطات التى تتعلق بتاريخ الفلك والعلوم الرياضية.

أتدرون ما عدد ما وصل إليه مما هو موجود فى بلادنا (خمسه آلاف مخطوط) فى الفلك الإسلامى وحده فكم فى العلوم الأخرى . الجغرافيا ، الطب ، العلوم التجريبية ، العلوم الطبيعية الخ . ويقول دكتور ديفيد كنج : أن هناك ثلاثمائة مخطوطة فى مكتبات العالم تمثل نوعا فريداً من الدراسة هو : تاريخ علم الميقات وتتضمن جداول شاملة لمواقيت الصلوات الخمس التى استخدمت فى القاهرة والقيروان ودمشق وبغداد وغيرها من العواصم العربية .

ونشرت الصحف أخيراً خبراً مؤداه : أن أربع آلاف مخطوط عربى وجدت فى مكتبة دبلن بإيرلندا ومنها نسخ من القرآن الكريم بخط أعظم خطاطى العرب هو « ابن البواب » كتبها فى بغداد عام ٣٩١ هـ (الموافق ١٠٠٠ م) يقول الخبر : أن هذه الروائع أحضرها (فلان) أجنبى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وكان قد وصل إلى مصر عام ١٩١٣ ؛ وأقام بها يجوس أحياء القاهرة القديمة ، ويدخل المساجد المهجورة . وكان أغلب الاوربيين يهتمون بجمع هذه المخطوطات وكان من السهل شراؤها بأبخس الأثمان ، وقد كون لنفسه هذا عدة وكلاء من التجار والأرمن واليهود وأصبح أحد مراكز الشرق الأوسط لبيع وشراء المخطوطات الشرقية ، ثم انتقل إلى إيرلندا ١٩٤٩ وبنى مكتبته الحالية التى تضم ١٢ ألف مخطوط ، هذا الخبر نافذة عريضة على قصة طويلة لمؤامرة عالمية ضخمة استهدفت لها عواصم العالم الإسلامى وخاصة دمشق والقاهرة وبغداد واستانبول ونقلت منها إلى الغرب ملايين المخطوطات والكتب والتى شكلت الأثر الخطير الذى استطاع به الاستشراق ضرب الفكر الإسلامى وتسميم آباره بعرض ما تحوم حوله شبهات الباطنية والمجوسية والشعوبية وطمس وإخفاء وحجب كل إضافة حقيقية فى مجال العلوم والفكر الإنسانى .

• قدم الغربيون عشرات القوانين التى ثبت أن أصولها من الفقه الإسلامى .

• إلى ما قبل مائة عام كانت كتب الرازى وابن سينا فى الطب هى المرجع الاول لجامعات الغرب .

فقد كان لاحتلال الغرب لميراثنا هذا أبعد الاثر فى الازمة التى تمر بها الآن

والتى تسمى أزمة التغريب والغزو الثقافى ، إذ أن ما سمح به الغرب وما قام به المستشرقون من أن ينشر كان حول هذه الفلسفات ومايتصل بالفرق والخلافات التى دارت بين الفكر الفلسفى اليونانى المترجم وبين فكر السنه الصحيحة ، فقد بعث المستشرقون فى العصر الحديث من تراثنا كل كتب الفلسفة والاعتزال ووحده الوجود والحلول والاتحاد وفى الشعر كل ما يتصل بأبى نواس وبشار وما يتصل بألف ليلة ورسائل إخوان الصفا وتراث الحلاج وابن عربى والسهروردى) حتى أن مستشرقاً منهم هو (لويس ماسنيون) عاش أربعين سنة يجمع آثار (الحلاج) التى ماتت وانقضت وأشبعها العلماء المسلمون دحضاً وتزييفاً ليعيدها مرة أخرى ، كما أن مستشرقاً إنجليزيا جمع عددا من القصائد الفارسية القديمة التى تتعلق بالخمر والاباحيات ونسبها إلى رجل من أعظم رجال الفلك هو « عمر الخيام » وسارت بهذا الشعر الركبان رغبة فى تدمير مقومات الخلق الاسلامى فى بلادنا .

أما التراث الاصيل الذى قدم إضافات حقيقية فقد أخفاه الغرب وحال بين المسلمين وبينه ، وقد ذهب كثيرون ليطلبوا كتبا معينة فأجيبوا بالرفض ، ذلك لأن الغرب يعرف أن هذا التراث سوف يكشف حقائق كثيرة ، تختفى الآن ، عن نظريات وإضافات ضخمة قدمها الفكر الاسلامى فى مختلف المجالات العلمية مما يدعيه الغرب لنفسه .

ونحن إزاء هذا التراث الضخم اليوم نواجه حالتين :

(الأول) إحياء تراث الزنادقة والقرآمطة والباطنية والفئات الخارجة على الاسلام بدعوى أنها ثورات أو إحياء تراث السهروردى وابن الراوندى والحلاج على اعتبار أنه فكر متقدم .

(الثانى) محاولة إعادة كتابة التراث بصورة تغريبية على النحو الذى قام به كثيرون فى العصر الحديث بعد إخضاعه لمذهب التفسير المادى للتاريخ أو تصوير الصحابة على أنهم مجموعة من السياسيين المحترفين الذين يتصارعون على الحكم، أو

تقسيم المسلمين إلى يمين ويسار ، أو الادعاء بأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان مصلحاً اجتماعياً ، أو داعية للحرية ، أو بطل الأبطال ، أو عبقرياً ، أو غير ذلك دون الكشف عن حقيقته الأساسية وهو النبي المرسل المؤيد بالوحي » .

فنحن بين تحريف التراث في إعادة صياغته ، أو تحريف التراث في نشر المنحرف منه .

ولقد يسأل سائل : لماذا يحجبون التراث الاسلامي الاصيل عن أهله ؟

ونقول حتى لا يعرف المسلمون مصادر علم الغرب التي أخذمنها. وحتى لا ينتفع المسلمون بتراثهم في تجديد حياتهم فلا يظهروهم إلا على الجوانب السلبية وفيها المتشابه والمختلط والمضطرب . ويستخلصون من هذا التراث ما يروقهم ويملئونه في نظريات لهم ينتحلونها وبحوث يفخرون بها ويتيهون بها على الناس. ثم يعرضون علينا ذلك الجانب السلبي من تراثنا لننظر نحن إليه بعين السخط فنحتقر أنفسنا وماضينا .

ولا ريب أن المسلمين من غير تراثهم كالمحارة التي فقدت غطاءها الصدفي الذي يؤمن لها الحماية الضرورية .

ولقد عقدت منذ سنوات مؤتمرات لتزييف التراث ولإعادة كتابته في صورة مسمومة منها مؤتمر بلتمور المشهور وله مقررات معروفة ظهرت على أثره كتابات تصور ثورة الزنج وحركة القرامطة على أنها حركات العدل في الاسلام كذلك فإن هناك جانباً من المؤامرة سمى مؤامرة الصمت ، تلك هي الصمت عن ذكر فضل المسلمين في قضايا كثيرة مثارة .

فإذا ذكرت رحلات فاسكو دى جاما فهم ينسبون إليه الفضل فيما وصل اليه من كشوف ولكن التراث الاسلامي يصرخ في صوت عال :

ان الفضل الأكبر في نجاح فاسكو دى جاما ورحلاته الاستكشافية ترجع إلى ما أفاده من المراجع الجغرافية العربية التي ترجمت في أسبانيا ومن مدرسة الخرائط التي قامت في جزيرة ميورقة معتمدة على جهود العرب السابقة وفوق ذلك فقد كان

دليله الذى قاده من شرق أفريقيا وأوصله آمنا إلى الهند وهو الملاح العربى المشهور (احمد بن ماجد) الذى يوصف بأنه أسد البحر الهائج والذى ألف فى علوم البحار ومعرفة الطرق فى الليل بواسطة النجوم وله من المؤلفات ما يزال حتى الآن مرجعلا ودليلا .

وعشرات من الاعمال الادبية التى يفاخر بها الغربيون ، تثبت الدلائل أن تراثنا هو الذى هدى إليها : فقد أثبت المستشرق الاسبانى أسين بلاسيوس بأن كتاب الفتوحات المكية لابن عربى — وقبل الرد على ابن القارح للمعرى — هو الذى أوحى إلى دانتى كتابه « الكوميديا الالهية » ، المشهورة الذى تحدث فيها عن الجنة والنار . كما أثبتت أبحاث كثيرة أن ابن خلدون سبق آدم سميث وهيجل وأوجسيت كوبت فى نظرياتهم وسبق فلاسفة الغرب فى وضع أسس علمى الاجتماع والاقتصاد السياسى . بأربعة قرون كاملة .

وان ابن مسكوية سبق دارون فى نظرية أصل الانواع والتطور وأن أبا بكر محمد الطرطوشى سبق ميكافيلى فى التأليف فى سياسة الملوك وأخلاق الامراء وأن كتابه «سراج الملوك» مصدر رئيسى لكتاب الامير وسابق له بخمسة قرون .

بل إن المسلمين هم الذين سبقوا إلى وضع جذور كتابة المكفوفين والتى عرفت بالحروف البارزة وأطلق عليها اخيراً « طريقة بريل » .

وكان على بن احمد على يوسف ابن الخضر المشهور بزين الدين الآمدى هو الرائد لهذا كما سجله صلاح الدين بن ايبك الصفدى فى كتابه « نكت الهميان فى نكت العميان » ،

يقول : ان زين الدين الآمدى - وهو مكفوف - كان إذا طلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته ، وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطلب منه الاول مثلا أو الثانى أو الثالث أو غير ذلك أخرجه بعينه ، وأتى به ، وكان يمس الكتاب أولا ثم يقول : أن هذا الكتاب يشتمل على كذا وكذا كراسة فيكون الامر كما يقول . وإذا أمر يده على الصفحة قال : عدد أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سطرا وفيها بالقلم الغليظ

كذا وهذا الموضع كتب به فى الوجهة كذا وفيها الجرة كذا من غير إخلال بشىء مما يمتحن به ، ويعرف أثمان جميع كتبه التى اقتناها بالشراء وذلك أنه كان إذا اشترى كتابا بشىء معلوم أخذ قطعة ورق خفيفه وفتل منها فتيلة لطيفة وصنعها حرفاً أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد ، فاذا شذ عن ذهنه كمية ثمن كتاب ما من كتبه مس الموضع الذى عليه فى ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من تثبيت العدد الملصق به .

ولقد عرف عن التراث الاسلامى نزاهته وسماحته يقول هاملتون جب : أن العرب أول من ألف فى الاديان والنحل لانهم كانوا واسعى الصدر تجاه العقائد الاخرى وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالحجة والبرهان ثم أنهم اعترفوا بما أتى قبل الاسلام من ديانات توحيديه ويحظى « ابن حزم » هنا بالنصيب الاوفر ،

ونحن حين ننظر إلى حركة إحياء التراث الإسلامى التى يقوم بها المسلمون منذ أوائل هذا القرن الميلادى نجدها حركة غير ذات هدف محدد ، والعاملون بها متفرقون منهم من يعمل على احياء التراث ، ومنهم من يعمل على احياء التراث الادبى ، ومنهم من يعمل على احياء تراث الفرق والفلسفات وقليل من يعملون فى مجال احياء التراث الاصيل المستمد من جوهر القرآن والسنة بعيداً عن وجوه الخلاف .

وكذلك فنحن فى حاجة شديدة الى التماس أسلوب الاصالة فى تجديد التراث وأن يكون القائمون عليه مؤمنين بأمتهم وعقيدتهم فيجعلوا منه منطلقاً للنهوض والتجدد والبناء والتقـــدم ولا يكونوا عاملين على ابراز شبهات الشعوبيين والباطنيين والملاحدة ،وأخطاء الزنادقة القدامى فى احياء شعر المجون ، أوما يتصل باهل الباطل والضلال .

ونحن مطاليون بأن ننظر فى التراث على أنه فيه الجيد والردىء ، فعلينا أن نحقق الجيد ونترك الردىء الذى كان حصاد معركتنا مع الفلسفة اليونانية وهى معركة امتدت ثلاثة قرون ، فكيف نجىء بكتاب عن المعتزلة اليوم ونعيد نشر

دون أن نضمه فى مكانه من معركة عصره وظروف البيئة التى صدر فيها ـ وأنه لخير لنا أن ننتقى تراثنا من كل ما شابه من خلافات ومعارك وجدل ونستصفى كل ايجابى فيه فان امر تلك الفرق قد انتهى ولن يعود وعلينا ان نتحرك داخل اطار مفهوم السنة الجامعة التى استطاعت ان تتقبل عقلانية المعتزلة ، ومحبة أهل البيت ، ووجدانية الصوفية ، وصهرت كل ذلك فى اطار مفهوم الإسلام الجامع بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ، يرتبط بين العقل والقلب والروح والمادة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة ، وتلك هى احدى قضايا ألف مليون مسلم على أبواب القرن الخامس عشر ، هذا وبالله التوفيق ،

(٢)

في مواجهة تحريف الفكر الاسلامي والتراث

إن محاولات الغرب في تصحيح فكره وابرازه ومحـــاولات التغريب في الاعتزاز به وإحاطته بشيء غير قليل من المبالغة والقداسة هي إحدى الخطط المسمومة المدمرة التي تواجه شباباً قليل التحصيل ، ينهار لاقل شيء ولأول نظرة، ولو أنه استطاع أن يعرف دخائل الأشياء ويدرس ما بعد الظواهر ويستكشف الحقائق لوجد في هذا الفكر الغربي المعروض عديداً من الثغرات والتعارض فهم يرددون عشرات الأسماء أمثال نيتشه ومندل وداروين وفرويد ودستوفسكى وهيجل على أنها علامات على طريق النهضة والحضارة والعلم ويخدعوننا بها لننسى بطولاتنا وأعلامنا وعظمائنا الذين انطلقوا من منطلق (لا إله إلا الله) وعملوا في سبيل الله خالصين ، والتمسوا الحق في تقوى من الله وإيمان ، ولو أننا ذهبنا نستقصى هذه الأسماء لوجدنا أنهم مخادعون كاذبون مضللون في كثير مما يقولون وإن كنا لا نبخس الفكر الغربي ما قدمه من إيجابيات في مجال العلم ولكن ذلك الإصرار على إعلاء شأن السلبيات في مجال الدراسات النفسية والإنسانية فذلك هو الخطر الخطير .

لقد كانت دعوة نيتشه دعوة ظالمة ومضللة في نفس الوقت حين دعا إلى قتل العاجز أو ترك المريض يموت دون العمل على شفائه أو إبادة الضعفاء . وقد لقى نيتشه مصيراً مظلماً غاية الظلم نتيجة دعوته إلى اعتبرها الاستعمار مبرراً لظلمة ، فقد عاش نحو عشرين عاماً وهو في جنون يكاد يكون مطبقا اذ كان في الدور الأخير من السافس ، وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه ، ولما مات مات مغمورا لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة حتى بعثه اليهود من بعد وقالوا :

لقد رتبنا نجاحه كما رتبوا نجاح داروين وغيره .أما أبطال دستوفسكى فكانوا من الشواذ والمرضى وجميع أبطال فرويد شواذ ومرضى وكره نيتشه أوربا لانها اعتنقت المسيحية وكذبت التجربة قول فرويد بان كظم الشهوة الجنسية يؤدى

إلى اضطرابات شخصية وتبين فساد استغلال فرويد الأساطير وخاصة ما أطلق عليه مركب أوديت وهو أن الطفل يحب أمه حباً جنسياً ويجد لذة جنسية فى الرضاع . وكانت كتابات هافلوك أليس فى الجنس والبغاء . وكانت دعوة ولو الى كتابة التاريخ البشرى العام دعوة صهيونية ولقد روج سلامة موسى لهذه الآراء وعاش حياته كلها ينقل عن فرويد وماركس ما يرضيه لأنه على الأقل ليس لديه منهج يهديه عن طريق عقيدته .أما بالنسبة للجماهيرالجامعةفإن الامر يختلف .

أما « مندل » فقد ثبت أن قواعده غير فى الوراثة غير محكمة . وأن مندل لم يكن على علم بالآفاق الجديدة للطاقة التى أوشكت النشرية أن تستشرقها من بعد وأهمها البترول الذى كان ظهورة ماملا هاماً فى قلب نظرية مندل والإطاحة بها .

لقد كانت الفلسفة الغربية فلسفةباطلة لأنها قامت على أنقاض البشرية بالقضاءعلى الضعفاء فقد جفت فيها ينابيع السخاء البشرى عندما دعت الى قتل العاجز أو تركه يموت دون أن تعمل على شفائه وكان أقسى تلك الصيحات القول بالقضاء على الزنوج لحساب شعوب أرقى منهم ، وكان هذا تبريرا كاذبا الاستعمار والاستغلال لأن الأقوياء هم الذين يستعمرون ويقتلون الضعفاء بالوراثة وكان نيتشهفى مقدمة الدعاة الى ابادة الضعفاء كذلك فقد تبين للباحثين أن رأى دارون فى تنازع البقاء الذى أخذت بهالفلسفات الاستعمارية هوخطأ محض وأن التعاون فى الطبيعة أكبر أثرا من التنازع وأخطر ما يحاول التخريبيون تقديمه فكر هيجل وفلسفة ويمهدون به المادية والماركسية جميعاً ويرى هيجل أن الوجود حركة مستمرة تعتمد على التناقض فالحياة تحمل فى طياتها الموت والاستعلاء يحمل أسباب السقوط، وقد اكتشف هيجل قانون الحركة بعدأن ظل الغرب قروناً يؤمن بقانون الثبات الذى قال به ارسطو فانتقل الغرب من قانون الثبات جملة إلى قانون الحركةجملة ، وكلا النظرتين خطأ وتجاوز أما المفهوم الحقيقى فهو الذى قدمه الإسلام وهو مفهوم جامع بين الثوابت والمتغيرات . ويعنى مفهومالمذهب الجدلى (الديالكتيك) الجدل بمعنى التناقض وبمعنى الحوار ، وأصبح يشير إلى معنى الصراع ، الحركة ، التناقض . أصبح منهج التوتر والانقسام والصيرورة المستمرة بعد أن كانت مناهج القدماء من الفلاسفة قائمة على الثبات أصبح المنهج الجدلى يقوم على التغير والتناقض

وقد ترك المذهب الجدلي منذ عام ١٨٣١ ظله عن الفن والدين والقانون والسياسة ومحور الارتكاز إنما هو مفهوم الكل والمجموع .

والمنهج الجدلي يستهدف الوقوف على البناء العضوي للوجود باعتباره كلا ليس كلاسكونيا بل كلا متحركا ديناميكيا فكل حي يتمتع بالحركة والصيرورة والتجدد المستمر وان الوجود كل عضوي مترابط متناسق ولكنه متحرك دائماً .

هذا المفهوم تلقفته التلمودية لعالميه لانه يحقق هدفها فى هزيمة البشرية واخراجها من الفكر الربانى الأصيل . وهى ثلاث مفاهيم استقتها من الفلسفة المادية: التطور من دارون : والتغير من هيجل والنسبية من نيتشه وكلها تستهدف القضاء على الثوابت والقيم واليقين وتدفع البشرية الى الانفصال عن ماضيها وتراثها ومفهوم الدين الحق .

هذا هو التحدى فى مجال الفكر وهناك تحدى آخر فى مجال التراث ان التحدى الغربى للاسلام والفكر الاسلامى لا يزال قائما فى مجال التراث يتمثل فى محاولة حجب التراث الإسلامى الذى تحفل به مكتبات الغرب عن أهله المسلمين ، حتى لا يعرفوا مصادر علم الغرب التى أخذوها من المسلمين ، وحتى لا ينتفعوا بتراثهم فى تجديد حياتهم وحتى يظهروهم على الجوانب السلبية وفيها المتشابه والختلط والمضطرب ويستخلصون منه ما يروقهم ويملئوه فى نظريات لهم ينتحلوها وبحوث يفخرون بها ويتيهون بها على الناس ثم يعرضون علينا تراثنا ناظرين اليه بعين السخط فيتطفل أبناؤنا على فتات موائدهم ، المسلمون من غير التراث كالحارة التى فقدت دطائها الصدفى الذى يؤمن لها الحماية الضرورية .

وهم حين يحجبون تراث الاسلام الأصيل عن أهله ويحولون بينهم وبين استعادته لتجديد فكرهم وتصحيح تاريخهم ، تجدهم يجددون الفكر الفلسفى والباطنى والصوفى والاسماعيلى (ابن سينا والكندى والفارابى واخوان الصفا والحلاج والسهروردى والبسطامى وفلسفة الاشراق) كلها لا تمت الى العقيدة الاسلامية الصافية بصلة ، ولقد ثبتت أخيرا أن فلسفة الفارابى فى تفسير النبوة يقوم على أساس تعاليم الباطنية

فقد استقى الفارابى والباطنية النظرية من مصدر واحد هو جمهورية أفلاطون وفلسفة أرسطو، وهناك أشارات كثيرة تجعلنا نحترس من تقبل آراء الكثيرين فأبو البركات البغدادى صاحب كتاب (المعتبر) فى الحكمة هو يهودى اعتنق الاسلام (توفى ٥٦٠ هـ) وأفكاره ما زالت باطنية أما ابن مسكويه فقد إتصل بابن العميد ثم بعلاء الدولة الديلمى وفكره فى فلسفة الأخلاق لا يمثل الاسلام من قريب أو من بعيد .

ويخضع هذا الفكر الذى يجدده الاستشراق ويعيد نشره فى أفق المجتمع الاسلامى الى شبهة القول بأن لآيات الله ظاهرا وباطنا وإن هذا العلم الباطن لا يعلمه الا أئمة الباطنية المهيمنون على التأويل ، ولا شك أن من أشد الدعوات المطروحة فسادا هو القول بأن القرآن كتاب له ظاهر وباطن أو انه كتاب مستور ومحجوب عند الجمهور ، او ما يتصل بأن هناك مصاحف عند بعض الفرق تختلف عن المصحف الامام وهناك فكرة العصمة وفكرة الرجعة . ان اعادة طرح هذه الشبهات والقضايا بعد ان انتهت انما يراد به تأخير وحدة الأمة وخلق مفاهيم زائفة تعوق دخول المسلمين فى عصر النهضة .

إن كل هدف القوى الغربية المعوقة للنهضة الإسلامية إبراز هذه الشبهات المسمومة التى تخطاها الفكر الاسلامى من وقت بعيد وإحياء التصوف الفلسفى القائم على مفاهيم الاتحاد والحلول بهدف التخلى عن الالتزام الخلقى وعدم التأدب مع الله تبارك وتعالى ، كذلك إحياء مفهوم الاعتزال الذى وصل فى بعض مراحله وإخطاره إلى ما يمس مفهومه وحدانية الله وما استهلك الفلاسفة من جهد فى وضع فروض فلسفية تزيغ الأبصار وتدمر القلوب فقد حملت هذه الكتابات التى أذاعها أمثال ماسينيون وغيره مذاهب بعض المتصوفة فى الحلول والاتحاد وتجاوز الألفاظ المهذبة فى التعبير عن تجربة الانسان الباطنية هذه الأفكار التى كشف زيفها مفهوم أهل السنة والجماعة والتى كانت فى فترة من الفترات تشكل تهديداً للأسس الراسخة التى شيد فوقها النظام الاسلامى والحضارة الاسلامية ، تلك التى انبعثت عن التوحيد الحقيقى لله تبارك وتعالى والتحديد المعجز الذى لم تشهده الأديان الأخرى لصلات الانسان بخالقه وصلته بالانسان والمجتمع .

(٣)

قصه التراث والمعاصرة

من أخطر محاولات التغريب الفصل بين التراث المتقدم للأمم والثقافة المعاصرة بحيل وأساليب خادعة وكلمات براقة كالتطور وروح العصر والتجديد وكلها ترمى إلى إخضاع التراث للعصر وإعطاء العصر حق القبول منه والرفض بحيث يسقط دوره الحقيقى الذى يجعله منارا هادياً وضوءا كاشفا الاجيال حتى لا تنحرف عن طريقها الأصيل وذاتيتها الحقيقية التى شكلتها منذ قرون طويلة ، وخاصة إذا كان هذا التراث كالتراث الاسلامى الذى يصدر عن عقيدة ربانية ومنهج أصيل .

ومن هنا تصطنع تلك المحاولات لانتقاص التراث ووصفه بأنه قديم وبأنه قديم وبأنه مضطرب وذلك فى محاولة للقول بأن المجتمعات تستطيع أن تزيح هذا التراث وتبتكر من الحلول والأوضاع الجديدة المتفقةمع روح العصروطبيعة التطور ما تشاء دون الخضوع للتراث أو استملاء روح العصر وطبيعة التطور ما تشاء دون الخضوع للتراث أو استملاء روحه . والواقع أن الذين يرون فى التراث ضوءا هادياً ومنارا كاشفا للامم حتى لا تضل طريقها ولا تنفصل عن ذاتيتها وقيمها لا يطلبون الخضوع للصور أو الأوضاع أو الحلول التى عاشها أصحاب التراث من قبل فذلك مما لا يطالب به إلا جاهل لتطور الأزمان والبيئات ، ولكن القصد هو أن لا يختلف عن الطريق ، او ننحرف عن الجاده الحقيقية .

ولا ريب أن خصوم التراث لايستطيعون أن يعلنوا معارضتهم له فى صراحة ، لأنهم يعلمون أن كلمة التراث أو القديم تحمل فى أطوائها ذلك المنهج الأصيل الذى هو من صميم العقيدة ، والذى يرسم الطريق أمام الأمةفى حركتها إلى الامام وفى تطورها وفى تقدمها فهو لا يحول بينها وبين التطور والتقدم ولكنه يحكم هذا فى توازن وموائمة واعتدال ووسطية عرفت عن منهج الاسلام واذا كان

هؤلاء الذين يحاربون التراث يهتدون فى دعواهم الباطلة بما فعلت أوربا فانهم يقارنون مع قصة مختلفة ، فليس التراث الغربى الذى وجدته أوربا فى عصر النهضة الا مجموعة أشتات من تفسيرات رجال الدين ومن وثنية اليونان ومظالم القانون الرومانى فإذا جاء عصر النهضة ليدعو إلى الخروج عن هذا الركام لاقامة دين الانسانية الالحادى أو فلسفة التنوير اليهودية فان الأمر بالنسبة للمسلمين والاسلام جد مختلف فالمسلمون قد عرفوا منهجاً ربانياً أصيلا ، لم يعتوره الاضطراب أو الانحراف أو الفساد لحظه واحدة وظل نصه القرآنى موثقا لم يتأثر بتقلبات التاريخ ، ومن ثم فان التراث الاسلامى هو تفسير لهذا المنهج الربانى الثابت الجذور ، الواسع الأطر ، القابل لمتغيرات الزمن والبيئة .

إما أن يدعو البعض إلى أن يسير التطور إلى غايته دون النظر إلى الأصول والثوابت فذلك ما يرفضه المنهج الاسلامى ، الذى يجعل من التطور حركة داخل إطار الحدود والضوابط وخاصة الاخلاقية التى لا سبيل إلى تجاوزها ، وإلا كانت حركة التطور عشوائية مندفعه إلى كل فساد واضطراب وخطر .

يقول الاستاذ عبد الله سلامة الجهنى : ان هذه المحاولة تهدف الى أن تجعل الثقافة المعاصرة وحدة متكاملة للانسان المعاصر - كما تدعى ذلك هيئه اليونسكو ولذلك فهى ترى أن تراثنا الثقافى الاصيل لا قيمة له بالنسبة للثقافة المعاصرة التى تخطط لها وترسمها وجل هذه الثقافة المرسومة منصرف الى تمجيد المادة لا الانسان وهنا نلمس الفرق بين خصائص تراثنا الثقافى الاصيل والثقافة المرسومة المعاصرة والفرق أن تراثنا يمجد الانسان الربانى ، بيما الثقافة المعاصرة تمجد المادة .

ومن أجل ذلك لابد من التعرف على المصادر الصحيحة لتراثنا ، هذه المصادر ليست بالقطع ألف ليلة وليلة أو كتاب الحلاج وابن عربى وابن سبعين أو رسائل اخوان الصفا أو أشعار أبى نواس وبشار والضحاك وجماعة المجان فهذا هو التراث الذى تبعثه اليوم قوى التغريب والغزو الثقافى لتفسد به عقليات ومفاهيم الاجيال الجديدة ، ومن الجانب الآخر تلك الكتب التى تبرز عظمة الغربيين سواء فى مفاهيم المادية والوثنية أو فى فلاسفته وأبطاله ، حتى أن الدكتور طه حسين عندما

كتب « قادة الفكر » لم يذكر مفكراً واحداً من عالم الإسلام بل أن المفكرين اللامعين الذين نذكرهم اليوم فى مجال الأدب والثقافة لم يكونوا إلا قناطر للفكر الغربى وتابعين له ودعاة لمناهج ومفاهيم سواء فى الأدب أو الشعر او الإجتماع .

بل إن هؤلاء اللامعون من كتاب العصر اندفعوا فى جرأه لإعادة كتابة هذا التراث على نحو مختلف عن طابعه ووجهته وأخضعوه للمذاهب المادية الغربية وكانت كتابات طه حسين لهامش السيرة والفتنة الكبرى زائفة ومنحرفة، وكانت تفسيرات عبد الرحمن الشرقاوى وأحمد رشدى صالح للتاريخ الإسلامى خاضعة لمنهج التفسير المادى للتاريخ الذى لا يعترف بالوحى ولا بالنبوة .

لقد اعترف كثيرون بعظمة مذخورات التراث الإسلامى : اعترف به رجال القانون فى الغرب فيما يتعلق بالشريعه والفقه ، واعترف به رجال التربية فيما يتعلق بمناهج التربية والتعليم واعترف به رجال الإجتماع فيما يقدم من مفاهيم ونظريات فى بناء المجتمع واعترف به رجال الحضارة فيما رسم من منهج لقيام الحضارات وسقوطها واعترف به رجال السياسة فيما قدم من مفاهيم لاقامة نظام الحكم ، واعترف به رجال الاقتصاد فيما ذخر به من نظريات فى عالم الاقتصاد والمال . كما اعترف رجال العلم التجريبى بما حوى تراث الاسلام من معطيات فى مجال الكيمياء والعلوم والطب والبحر والجو والجغرافيا .

ولقد أفاد الغربيون كثيرا من هذا التراث الضخم ، وضموا ثمرات ذلك التراث إلى أعمالهم، وحجبوا هذه النصوص عن المسلمين، وما سمحوا بنشر شىء إلا تلك الكتب المضطربة التى كتبها الشعوبيون والمتابعون للفلسفات اليونانية والفكر الباطنى والحلول والاتحاد ووحدة الوجود وشعر العشاق والمجان وكتب أمثال الأغانى وألف ليلة وغيرها .

وهدفهم من طرح هذه السموم فى أفق الفكر الاسلامى أن تفسر جوهر هذا الفكر الأصيل القائم أساسا على التوحيد والعدل والرحمة والأخاء البشرى .

إن علينا أن نتعامل مع التراث الاسلامى على الأقل كما تعامل معه الغرب فى استخلاص تلك المعطيات للانتفاع بها فى بناء مجتمعنا الاسلامى الجديد .

أو على حد القائلين : « الحوار مع التراث من أجل إرساء قواعد تربوية خلاقة » .

(٢)

في مواجهة الأدب

(١) الأدب العربي والمذاهب الغربية

(٢) قضايا الأدب في ضوء الإسلام

(٣) جبران وأطروحة المهجريين

(١)

الأدب العربي ومقاييس المذاهب الغربية

لا ريب أن الأدب هو واحد من عناصر الفكر، يستمد منه وجوده ويتحرك فى دائرته ويختص بالتعبير عن النفس الانسانية فى تركيبها القائم على عقيدة الأمة التى يمثلها وثقافتها .

وأدب أى أمة هو نتاج عواطفها ومشاعرها وعقولها ، وهو عصارة مزاجها النفسى وطابع روحها ، وهو فى نفس الوقت مرتبط بهذه الأمه : أرضها وسمائها وقيمها وتقاليدها وأحداثها ومجتمعها. فهو عصارة وجهة نظرها إلى الحياة مستمدة من داخلها ومن هنا كان الاختلاف بين أدب أمة وأدب أمة أخرى ولا ريب أن الأدب هو نتاج الفكر الاسلامى وعنصر من عناصره التى لا ينفك عنه ، تمثل المزاج النفسى للعرب الذى شكل الاسلام وثقافتهم وعواطفهم ومشاعرهم وعقولهم وكون طابعهم الروحى والنفسى .

والأدب العربى : أدب أمة عريقة وأدب لغة عريقة تشكل فى صورة كاملة بعد ظهور الاسلام الذى جمع العرب فى الجزيرة العربية فكان عاملا فى تحويل القبائل العربية إلى أمة تامة ، وبذلك يمكن القول بأن الأدب العربى قد تشكل فى صورته الحقيقية بالاسلام ، ولا يمنع هذا من وجود (ديوان الشعر القديم) وما يتصل به من أسجاع الكهان وهى فى مجموعها لا تشكل صورة الأدب بمفهومه الفنى ولا بمعالمه الأصيلة ، التى وضحت بعد نزول القرآن : الذى كان هو العامل الاساسى فى بناء الأدب العربى الاسلامى وظهور فنونه وعلومه ومناهجه .

أساليب النقد :

واللغة العربية سابقة على الاسلام ، وهى عماد وجود الأمة العربية ، وهى لغة تطورت ونمت خلال مئات السنين حتى وصلت إلى صورتها التى عرفت بها قبيل الاسلام وإن ظلت لها لهجاتها المتعددة فلما نزل القرآن الكريم انصهرت اللغة

العربية فى لهجة واحدة ثم كان أن أعطاها القرآن — كما أعطى الأدب العربى — هذا البيان المعجز الفائق الذى فهمه العرب وأعجبوا به وعجزوا فى نفس الوقت عن الاتيان بمثله .

وفى مجال أدب اللغة العربية نجد الامة العربية كانت مجموعة من القبائل التى لم تجتمع تحت أى لواء سوى الاسلام ولكنها كانت ذات قيم وتقاليد ولها طابعها الذى أورثه إياها مكانها فى هـــذه الجزيرة شبه المنعزلة عن حضارتى عمالها : حضارتى الفرس والرومان : هذا الطابع البدوى الخالص الذى أهلها لتلقى رسالة إنسانية كبرى كالاسلام فقد حاها وجودها المنعزل عن أن تذوب فى مقارف الحضارات وانحلالها ومكن لها من تنمية قيمها .

كل هذه العوامل أعطت أدب اللغة العربية ذاتية خاصة وطبعته على نحو خاص يختلف به عن آداب الامم الاخرى فظهرت فنون لم توجد فى الآداب الاخرى واختفت فنون وجدت فى الآداب الاخرى ، وظهور هذه الفنون فيه واختفاء تلك الاخرى منه لا ينقص من قدره ما دام يصدر من أعماق روحه الطبيعية ومقوماته الخاصة .

ومن هنا فإن هذا الادب لا يدرس على ضوء مناهج وضعت لآداب أخرى ذلك أن أساليب النقد والبحث إنما توضع للآداب بعد ظهور هذه الآداب ، ولذلك فهى مستمدة منها ولا يمكن العكس .

ومن هنا فان مذاهب الادب التى يحاول النقاد محاكة الادب العربى عليها هى فى جملتها مذاهب غربية وضعت مسمياتها ومناهجها بعد قيام ظواهرها فى الآداب الاوربية وهى فى الحقيقة ليست مذاهب وإنما هى أسماء عصور : كالكلاسيكية والرومانتيكية وغيرها ، وهى تتصل فى مجموعها بتاريخ الامم التى وضعت هذه المذاهب فلماذا تنقل لتكون قوانين يخضع لها أدبنا الذى يختلف من حيث تكوينه وطابعه وتاريخه وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الآداب ؟ !

اختلاف المفاهيم :

هذا من ناحية النقد ، أما من ناحية أصول الادب نفسه : أصول الشعر والنثر والقصص والتراجم ، فلماذا يخضع الادب العربى لقواعد مستمدة من آداب تختلف عن الادب العربى : مزاجا وشكلا وطابعاً :

وهل يمكن أن يقال أن هناك أصولا يضعها الاوربيون لتخضع لها الآداب فى العالم كله ؟ وإذا قالوا هم ذلك فهل نقبل نحن ذلك ، والأدب العربى عريق الجذور وسابق لهذه الآداب كلها فى النشأة والتكوين ! هل نقبل أن يخضع أدبنا لقواعد غريبة عنه ، أن يخضع أدبنا لقواعد غريبة عنه، بينما يشكل أدبنا بوجوده أربع عشر قرنا قواعد وقيما مستمدة من جوهره وطوابعه !

إن اختلاف المصادر والمنابع بين الأدب العربى والآداب الغربية تجعل من العسير خضوع الأدبين لمقاييس واحدة ولقوانين واحدة ، والمعروف أن الآداب الغربية جميعاً تستمد مصادرها من الأدب الهلينى والفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية ، فقد اتجه الأدب الاوربى الحديث منذ اول ظهوره فى عصر النهضة إلى هذه المنابع وربط نفسه بها وجعلها أساسا ثابتا لاختلاف وجهات نظره ومفاهيمه وقيمه . واتخذ من النظرات التى قدمها أرسطو فى الادب والنقد والشعر وغيره أساساً له ، ولا ريب أن هذه الحصيلة التاريخية الضخمة وهذا التراث الاغريقى الرومانى يقوم على أساس يختلف اختلافاً واضحاً عن الاساس الذى يقوم عليه الادب العربى الذى استمد مصدره أساساً من القرآن الكريم والاسلام والقيم العربية الاصيلة التى تلاقت مع مفاهيم الاسلام وانصهرت معها ، ومن هنا كان ذلك الخلاف الواضح والتباين الكبير بين المشاعر والعواطف والاحاسيس فى كلا الادبين .

ولا شك أن هذا الاختلاف البعيد المدى فى طبيعة البيئة وفى طبيعة النفس الإنسانية وانعكاس هذه البيئة عليها يجعل من المستحيل التقاء أدبى العرب والغرب فى جهة واحدة ، أو مشاعر واحدة ومن ثم فإنه من المستحيل أن يخضع كلا الأدبين إلى قوانين واحدة ومناهج فى الصياغة والنقد والبيان والمضمون واحدة .

العلماء الخمسة :

هذا هو أهم أوجه الخلاف بين الأدبين العربى والغربى وهو خلاف عميق اشتد العمق ، متصل بالنفس الإنسانية باعثة الأدب ومنشئته ، ومن ثم فان خضوع الأدب العربى لقوانين وقواعد ونظم قامت أساساً فى حصيلة الأدب الاوربى وفنونه أمر بالغ الخطر وبعيد الأثر .

هذا هو « التحدى الأول » الذى يواجه الأدب العربى فى مطالع القرن الخامس عشر من حيث نرى تلك المحاولة الخطيرة لاخضاع الأدب العربى إلى مذاهب سانت بيف وتين وبرونتير مع أن هذه المذاهب قد صيغت لتقويم الأدب الغربى واستمدت مفاهيمها من الفلسفة المادية ونظريات فرويد للتحليل النفسى ونظريات دوركايم فى علم الاجتماع .

وقد أشار ستانلى هايمن فى كتابه (النقد الأدبى ومدارسه الحديثة) إلى أن النقد الأدبى الحديث قد اعتمد على مناهج خمسة من العلماء هم : دارون وماركس وفريزر وفرويد وديوى . أما دارون فقد جاءت منه الفكرة بأن الانسان جزء من النظام الطبيعى (أى أن دارون قد نظر إلى الانسان على أنه حيوان وطبق عليه علميا كل ما يطبق على الحيوان والحشرات) .

أما ماركس فهو الذى ذهب إلى أن الأدب هو الذى يعكس ولو بطريقة ملتوية أحيانا العلاقات الاجتماعية والانتاجية لهذا العصر أو ذاك . أما (فرويد) فهو الذى يرى أن الادب تعبير مقنع ، وأنه تحقيق لرغبات مكبوتة قياسا على الاحلام ، وأن هذه المعتقدات تعمل حسب مبادىء معروفة وفكرته أن هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعى وأن بين الرقيب والرغبة فى التعبير صراعا مستمراً .

أما (فريزر) فهو صاحب الافكار عن السحر البدائى والاسطورة البدائية وأن هذه كلها تكمن فى أساس أعلى النماذج والموارد الادبية .

أما (ديوى) فهو يرى أن قراءة الادب وكتابته ليست إلا صورا انفعالية

إنسانية يمكن أن تقاس بأى فعالية أخرى وأنها خاضعة للقوانين نفسها .

هذه المفاهيم التى قامت عليها نظرية نقد الأدب تكشف فى وضوح عن الأساس المادى المغرق فى المادة الذى تعتمد عليه والذى يتعارض تعارضا كاملا مع مختلف قيم الأدب العربى ومفاهيمه وأسسه حتى حين يتصل هذا الأدب بأخطر إنحرافاته فى مجال الغزو والكشف ، وأخطر ما تحمله هذه المناهج هى إزدراء (أخلاقية) الأدب واحتقارها والتخلى عنها .

مراحل وليست مذاهب .

والمنهج الاجتماعى الذى كان أبرز المناهج فى مجال النقد الأدبى إنما يقوم على مفاهيم الفيلسوف دوركايم اليهودى الأصل والمادى النزعة . وقد استمدت نظريات تين وسانت بيف وبرونتير التى أغرقت نقد الأدب العربى مفاهيمها من الفلسفة المادية الدارونية التى ترى (إن الإنسان بمواهبه ومعنوياته . إن هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعى الواسع ولا يكاد يفترق عن الحيوان والنبات فى انتفاء الحول وانعدام الإرادة) .

فضلا عما أثبته (تين) : من أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير الانتاجا لعملية تلقائية مثل الاحماض والقلويات وأنهما منتوجات مثل الزواج والسكر هذا بالإضافة إلى أثر نظرية النشوء والتطور الواضح الاثر فى هذه المذاهب الادبية والتى تنكر إنسانية الإنسان وإرادته وقيمه الوجدانية والروحية وتشبهه بالحيوان الذى لا حول له ولا قوة والتى تنظر إليه على أنه شىء تافه جدا فى الكون وأنه تحت رحمة القوى المحيطة به ومن ثم فإن الإنسانية ـ عندها ـ ليست إلا نتاجا عارضا للوراثة والبيئة .

ويرى أكثر الباحثين أن (تين) قد اشتط فى اتجاهه المادى فى مفهوم النقد الادبى إلى أن أصبح من موارد الحتمية التاريخية أو الجبر التاريخى وهذا هو المذهب الذى قدمته فى الجامعة المصرية القديمة (تلينو وكازنوفا)، ولا ريب أن هذه المذاهب فى النقد الادبى تبدو معارضة لمفاهيم الادب العربى وقيمه معارضة كاملة ولا تصلح لأن تكون منهجا يطبق على الادب العربى القديم أو الحديث ، ومن

ثم فان كثيرا من الاحكام التى صدرت على هذا الادب لم تمكن صحيحة لانها اعتمدت فى الاصل على مذهب لا يصلح تطبيقه على الادب العربى .

وكشف كثير من الادباء عن الخطأ البالغ فى التماس مفهوم (الـكلاسيكية) أو (الرومانتيكية) أو (الواقعية) كمذاهب يحاكم على أساسها الادب العربى ، ذلك أن هذه الاسماء ليست فى الحقيقة مذاهب بقدر ما هى مراحل تاريخية ظهرت فى عصور متوالية وفقدت مكانها واحدة بعد الاخرى ، وأفسحت لمراحل أخرى جاءت بعدها نتيجة للتطور السياسى والاجتماعى فى بلادها ، فلماذا تظل تحتل مكان الصدارة فى الحكم على أدبنا العربى بينما يمكن الأدب العربى أن يشكل مراجعة أدبية ترتبط بتاريخه وتطوره السياسى والاجتماعى .

الادب ودائرة الفـكر :

ومن القضايا الاساسية التى هى بمثابة التحدى مسألة حرية الادب واستقلاليته أو تقرير مكانة من دائرة الفـكر .

ولقد كان من أخطر المفاهيم الوافدة : الدعوة إلى فصل الادب عن دائرة الفـكر ، وإعطائه الحرية المطلقة فى التعبير دون الالتفات إلى مسؤولية الادب فى المجتمع والاسرة وعلاقته بالدين والقومية . فاستطال الادب واندفع يشق طريقه إلى مختلف قطاعات الفـكر دون دليل واضح أو دراسة عميقة ، فقد تطرق الادباء ـ وهم غير متخصصون ـ إلى مجالات التاريخ والفلسفة والعقائد والاخلاق ليصدروا فيها أحكاماً جريئة مستمدة من نظرتهم الادبية الوجدانيه والمتأثرة بمذاهب الغرب فى الحرية والـكشف والانطلاق .

وقد واجه هذا الاتجاه معارضة وردا فى سبيل تحديد دائرة الادب ودفع خطر التداخل بين دوائر النشاط العقلى المختلفة وكف عدوان بعضها عن بعض وأشار كثير من الباحثين ومنهم فريد وجدى إلى هذه المحاذير التى جاءت نتيجة تدخل الادباء فيما ليس من اختصاصهم من المباحث الدينية .

الادب المـكشوف :

لا ريب أن أبرز ما يواجه الادب العربى من تحديات هو مذهب « الفن

هذا المذهب الوافد الذى حمل لواءه المستشرقون ودعاة التغريب والشعوبية ، وهو يهدف إلى تحرير الأدب من طابع الأخلاق ودفعه إلى تصــوير الغرائز والأهواء فى غير ما قيد وذلك باسم حرية الأدب ، ولقد بدأ هذا الاتجــاه بظواهر ثلاث :

(١) الافاضة فى الحديث عن حياة بشار وأبى نواس والضحاك وغيرهم من شعراء الاباحة فى العصر العباسى ونشر الجوانب الشاذه من أحاديثهم وأسمارهم

(٢) ترجمة القصة الفرنسية الاباحية والكشف عن جوانب الصراع الحسى فى العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأه وترجمة أشعار بودلير وغــيره من شعراء الادب المكشوف .

(٣) الاذاعة بمذهب حرية الادب والدعوه إليه والدفاع عنه وفق منهج علمى زائف بدعوة أنه منطلق إنسانى أصيل .

وقد لقيت نظرية حرية الادب ومعارضة الاخلاق نقداً ودحضا شديدين مصدره تعارضها مع طابع الادب العربى أصلا . وكشف الباحثون المنصفون عن أن حرية أبى نواس وبشار وغيرهم لم يكن مصدرها الادب العربى أو مفاهيم الاسلام الاجتماعية وإنما كان مصدرها تطلعاتهم الحسية وأهدافهم الشعوبية التى أرادوا إذاعتها والجهر بها لهدم مقومات الادب العربى الاصيلة وإعلاء مفاهيم المجوسية والاباحية التى كان الادب العربى قد تحرر منها بعد الاسلام .

وقد استغل بعض الكتاب فى العصر الحديث هذه الاطروحات فى سبيل توهين القيم الاسلامية والقضاء على الاخلاق والتقاليد والاعراف الاسلامية حين يرون أنها تعوق الفن وتحول دون ترقى الادب . وقد دحض هذا المفهوم كثير من الباحثين وفى مقدمتهم الدكتور محمد أحمدالغمراوى حين قال : إن الفطرة كلها منشئها واحد ، هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم والدين كلاهما قد أجمعا على استحالة التناقض فى الفطرة فاذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الاسلام فى شىء . فاذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة وضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لا يحاربها على

الانسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا أو فى غير هذا ، فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطله ، فنون جانب الحق ، ودابرت الخير وأخطات النظرة التى فطر الله الناس عليها والتى تريد الفنون أن تكون منها فى الصميم ، فاذا كان من شأن بعض من يعمل أو يكتب باسم الفن والادب أن يتجاوز فى تأثيره بما سبق فيحول بين الانسان وبين ربه ويدخل عليه الشك فى دينه بأى صورة من الصور ولأى حد من الحدود ، كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن . أو باسم الادب زورا وافكا من الفن والادب والفطرة والدين على السواء . فالمسألة فى الادب ليست مسألة لفظ ومعنى فقط ، ولكنها فى صميمها مسألة روح : فريق يريد أن يجعل روح الادب روحاً شهوانياً بحتا يتمتع صاحبه بما حرم الله لاما أحل ، لا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقى من ذلك من لذة أو ألم أوغيرهما من ألوان الشعور ، ويخرج ذلك للناس على أنه هو الادب . وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة فى حدودها الواسعة التى حدها الله وبمظاهرها المختلفة فى الفطرة كما طبرها الله لا كما دنسها الانسان ، والمقاييس الذى انتهينا إليه فى الفن والادب فى الصميم ، أليس روح الفن والادب ، الجمال ، أليس الجمال الفنى : روح الجمال الانسانى .

المصادر الزائفة

ولا يزال من أشد التحديات التى تواجه الادب العربى خطرا مسألة المصادر والرأى فى كتب المحاضرات والنوادر وما سجله الرواة والقصاصين من أخبار وهل تصلح كمصادر علمية يمكن عن طريقها الحكم على الامم والمجتمعات حكما صادقاً لا شبهة فيه .

ومن اليقين الذى لا شك فيه أن كتب المحاضرات وروايات القصاصين ليست مصادر علميه صحيحة وإنما هى مراجع زائفة اعتمد عليها خصوم الأدب العربى والفكر الاسلامى من أجل ترويج آراء كاذبة مضللة . ذلك أن هذه المؤلفات لم يكتبها علماء موثوق بهم ولم تكتب حسب أصول العلم والبحث وإنما كتبت

حسب أصول العلم والبحث وإنما كتبت للتسلية والترويح وقصدبها جمع الفكاهات والنكات والاحاجى والقصص الصادق والكاذب لإغراق المجتمعات بالأوهام والأباطيل .

من هذه ما كتب إسحق بن إبراهيم الموصلى وابن خرداذبة والمروزى وابن المرزبان وكذلك ما كتبه أبو بكر الصولى الذى مات مستتراً بالبصرة لأنه روى خبراً زائفا عن على عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله وله من الكتاب كتاب الاوراق فى أخبار الخلفاء والشعراء . ومن هذه الكتب ثمار القلوب للثعالبى فالثعالبى مهما علت منزلته فى الأدب فليست له منزلة ما فى فن الحديث ونقد رجال الرواية وهو أديب يحبب الفكاهة ويروى النكتة . ومن هؤلاء الأصفهانى صاحب الأغانى الذى قال عنه النوبختى أنه أ كذب الناس لأنه يدخل سوق الوراقين فيشترى منها كثيراً من الصحف ثم يحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها .

وقد ظلت هذه المؤلفات مجهولة ضائعة حتى جاء المستشرقون والمبشرون فى العصور الأخيرة فكشفوا عنها وأعادوا طبعها وإذاعوها فى العالم الإسلامى كله وأخرجوا أغلبها فى طبعات فاخرة وأوعزوا إلى تابعيهم من دعاة التغريب الاشادة بها والنقل عنها واعتمادها مصدراً من مصادر التأليف .

وكان كتاب الأغانى من أخطر هذه الكتب التى حاول بعض الباحثين أن يجعلها من المصادر الأساسية للبحث الأدبى بالرغم من أن العلماء الصادقين يرون بأن هذه الكتب تقصد إلى الفكاهة والتسلية فكيف تكون ميزاناً يوزن به رجال التاريخ وتؤخذ منه تراجم العظماء .

واعتماداً على كتاب الأغانى أصدر الدكتور طه حسين رأيه الذى قال أن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون إعتمادا على شعر أبى نواس وبشار والضحاك وحماد عجرد بالرغم من أن هذا العصر كان حافلا بعشرات العلماء والباحثين والفقهاء ولا يمكن أن يحكم على عصر عن طريق قلة من هؤلاء المجان الذين كانوا معزولون عن مجتمعهم مكروهون فى مجتمع حافل باليقين والورع والزهد والاحتشام ، وكيف يمكن أن يكون هؤلاء هم نموذج العصر بينما يعيش فى هذا

المجتمع : حسن البصرى ومحمد بن إدريس الشافعى ومالك بن أنس وأبو حنيفة والنعمان ومالك بن دينار وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأى ورابعة العدوية وابن شبرمة وعمرو بن عبيـــد والشعبى . . والاعتماد على كتاب الأغانى فى استخلاص هذا الرأى باطل : ذلك أن صاحب الأغانى يحدثنا فى مقدمته بأنه قصد فى كتابه إلى اللهو والتسلية وقبل أن يقصد العلم والتاريخ ، أما شعر الماجنين وحياتهم فلا ينهضان دليلا على فساد عقيدة عصر وأخلاقه .

* * *

هذا جانب من التحدى الذى يواجه الأدب العربى فى دراساته ونقده ومناهجه .

أما الأدب العربى الحديث فان هناك تحديات أخرى تحتاج إلى بحث خاص

(٢)

قضايا الأدب في ضوء الاسلام :

ما يزال كتاب ألف ليلة وليلة موضع اهتمام الاستشراق ، فى محاولات متعددة للإدعاء بأنه يمثل المجتمع الاسلامى وهى دعوى باطلة وزائفة ، فان القصص التى يتضمنها هذا الكتاب هى جماع أساطير وخرافات عرفتها بلاد فارس والهند وغيرها قبل ظهور الاسلام ، وما أضيف إليها من قصص بعد ذلك هى قصص يهودية أو من أحاديث طفولة الشعوب، وهى فى مجموعها تحاول أن تصور مجموعة من المفاهيم لا تمثل المجتمع الاسلامى بحال . وقد كانت ألف ليلة من أهم الأعمال التى حرصت دوائر النشر والاستشراق على طبعها ونشرها بصورة أو بأخرى، فى مختلف البلاد التى تتكلم العربية ، وكانت جزءا من الخطة التى جمعت شعرا فارسيا قديماً يدور حول الخمر والفسق والفجور ونسبته إلى عمر الخيام وقامت الدوائر الغربية بترجمته وإذاعته وجندت له عشرات الادباء العرب لترجمته وإعادة صياغته وبعد أن نشرت ألف ليلة جاء أساتذة النقد الادبى تلاميذ الاستشراق والتغريب ليجعلوها هى وكتاب الاغانى مرجعاً علمياً أساسيا للبحث فى الادب مع أنها لا تمثل بأى مقياس من المقاييس دور المرجع العلمى ، ثم جاء طه حسين فأخذ يجدد ألف ليلة فى صورة حديثة ، فلما تتالت الحملات على ألف ليلة وفساد اسلوبها وغلبة الاسلوب العامى وطابع الجنس عليها ظهرت محاولات لتنقية ألف ليلة من هذه العبارات الساقطة والتركيز على طبعة جديدة « أخلاقية » ! وهو يضاً من أساليب المكر الشديدة الخطر وجاءت الدعوة أخيرا إلى أنه من كنوز التراث والفلكلور .

ولقد بلغ من تركيز الاستشراق على كتاب ألف ليلة أن قال أحدهم أن ألف ليلة وليلة الكتاب الاول فى أوروبا بعد الكتاب المقدس ، وذلك بعد أن صدرت منه مئات الطبعات التى تتناسب مع هذه جميع الاذواق والاعمار بل أنه طبع باللغه الفرنسية قبل أن يطبع باللغة العربية بمائة سنة ، عندما نشره المستشرق

الفرنسى غـــلان بعد ترجمه إلى الفرنسية ١٧٠٤ بينما لم يصدر بالعربية إلا عام ١٨١٨ :

وتجرى المحاولات الجديدة لتقديم ألف ليلة مرة أخرى محررا من العامية والالفاظ الماجنة فى نطاق الدعوة المتجددة إلى طرح سموم جديدة فى أفق الادب العربى والفكر الاسلامى ويجىء ذلك مع إدعاء المستشرقين بأن الكتاب عربى وان من قصصه من جرت حول صفاف دجلة والفرات والنيل وذلك لمحاولة تمييع حقيقة الكتاب الذى هو الحقيقة مجموعة من القصص الفارسية والهندية الوثنية قد أعيدت صياغتها على نحو خادع وماكر .

وأبرز معالم أهميتها فى نظر التغريب انها تقدم مجموعة ضخمة من الاساطير وأساليب السحر والاحاديث عن الجن والخرافات وكثير من مظاهر المجوسية واليهودية وللباطنية وهو جماع الركام القديم الذى قضى عليه الاسلام بعد ظهوره كاقضى على الركام الفلسفى الوثنى ولا عبرة بما يقال من أن ألف ليلة أشبه بالالياذة والانياذة فهذه كلها كلمات جوفاء لا قيمة لها .

وإذا كان اليونان والاغريق يفخرون بالالياذة والأنيادة أو يفخر الهنود والفرس بتلك الكتب القديمة فان المسلمون لا يفخرون بشىء من ذلك وفخرهم الوحيد هوالقرآن الكريم : ذلك الكتاب الذىنقل البشرية منطفولتهاوأساطيرها وخرافاتها إلى أسلوب الصدق والحق والتوحيد الخالص فما يفخر المسلمون والعرب بشىء غيره .

ونجد اليوم دوائر التغريب تحتفل بهذا العمل الذى يقوم به قدرى قلعجى فتفرد له المجلات العربية صفحات وصفحات ، وإذا كان قدرى قلعجى قد حرر نفسه من المذهب الماركسى فانه مع الاسف قد خر صريعاً مع الدعوة الشعوبية التى تعلى من شان الأساطير والخرافات تحت اسم الادب الشعبى أو التراث الشعبى أو الفلكلور .

وهم يهدفون من إحياء ألف ليلة وتجديدها إلى عدة أمور : منها إغراق الشباب المسلم الجديد فى هذه الاساطير والوثنيات والخرافات المتداخلة من قصة

إلى قصة ومنها الادعاء بأن ما تحويه ألف ليلة هو صورة المجتمع الإسلامى وهى فرية منكرة ومنها محاولة الادعاء بأن الادب العربى قام على أصول يونانية وفارسية مع أن الادب العربى الاصيل رفض هذه الصور وأنكرها كما أنكر الفكر الاسلامى الفلسفات اليونانية والفارسية .

لقد صفى الاسلام وكتابه القرآن العقلية العربية الاسلامية من جميع موروثات الوثنية القديمة وحررها منه تماما وفصل بين قيمة الرفعية ومفاهيمه الربانية ، ومنهجه القائم على التوحيد وبين كل هذا الركام القديم ، غير أن التغريب يحاول اليوم إعادة طرح كل هذه السموم مرة اخرى فى افق الفكر الاسلامى والادب العربى وذلك عن طريق دعاة يكتبون له دراسات لاحياء هذه الوثنيات القديمة وبعث الروح فيها وتقديمها بلغة العصر .

٢ — الشعر الحديث : بلا شهادة ميلاد

نشأ الشعر الحديث نشأة « لقيطة » فقد خرج من أحضان الأصالة التي عرفها الشعر العربي المنظوم ، ذلك أن الذين التمسوه أسلوباً للتعبير كانوا في حقيقة أمرهم متغربون ، تابعون لمفهوم وافد من الأدب الغربي الذي قام منهجه وطبيعته الشعرية مختلفة عن النظم العربي ، وكانوا من حيث المضمون تسيطر عليهم فكرة الخروج عن القيم والضوابط والمعالم التي يدور فيها الشعر العربي الأصيل .

وكان أبرز هذه المعالم التي اغترب فيها الشعر الحديث سيطرة الأساطير والخرافات القديمة إليه والدعوة الملحة إلى إحياء هذه الوثنيات وذلك حين أخذ برموز الصلب والخطيئة وهي مفاهيم نصرانية وافدة ليس لها أصل في معين التراث العربي الإسلامي ، فضلا عن الاحساس بالسخرية الواضح لكل مقومات الدين والأخلاق وتبنى نظريات الفن للفن وإعلان الجماليات على الاخلاق وسيطرة مفاهيم الادب اليوناني والاغريقي التي تركز على الجنس والجسد واللذة والدوران في فلك مفهوم سارتر النفسي وفرويد الفكري والجري في طريق دوركايم الكاره الفطرة والاسرة والزواج والراغب في الجريمة والاباحية فضلا عن سيطرة الفكرة الماركسية أساسا بمختلف مفاهيمها الاجتماعية والادبية على الوجدان الشعوري فضلا عن قصور المفاهيم الاقليمية القومية الضيقة .

نرى هذا واضحا في أشعار صلاح عبد الصبور وادونيس وخليل حاوي ونزار قباني والبياتي .

ولا ريب أن حصيلة الشعر الحديث قد أكدت أن هذا الاتجاه بعيد عن الفطرة التي فطر عليها الادب العربي وأنه نبت لا جذور له ، وأن التجربة التي احتضنتها قوى معينة ودفعت بها إلى آفاق الصحف قد باءت بالفشل وانحدرت ولم تلبث أن ماتت ، وقد كان ذلك نتيجة أمرين : أن التعبير نفسه هابط ومستواه الشعري ضعيف وأنه ليس شعرا بالمعنى الحقيقي وإنما هو أقرب إلى عبث النثر وأهم من ذلك أن المضمون نفسه مازال تافها ومنحطا ومتدنيا وساذجا وطفوليا وإذا كان بعض هؤلاء يدعون أنهم إنما يصورون « أزمات الانسان » فاننا نقول لهم

أن كتاباتهم لا تدل على شيء من التجربة ولا من عمق المعرفة بآفاق النفس ، ولا من التأمل العميق الذى عرفه الشعر العربى الاصيل ، ذلك لان العطاء إنما يأتى من منابعه ، فأين منابع أمثال هؤلاء السذج الاغرار الذين لم يلبث أحدهم أن أمسك بالقلم فكتب شعرا ، وأين آفاق التجربة النفسيه عند جماعه الماديين والاباحيين والشعوبيين وليس لهم رصيد من الحكمة أو العلم أو الايمان بالغيب أو معرفة عوالم النفس والروح والمعنويات والقيم التى تصنع الانسان .

وليس من ريب أن وراء الدفع لهذه الموجة المنحرفة قوى تهدف بها إلى تحقيق غايات بعيدة من التأثير فى البيان العربى الاصيل واللغة العربية الفصحى ، وهدم عامود الشعر الذى هو الشق الثانى للبلاغة العربية ، والهدف هو إشاعة روح العاميات وتخلخل البناء القوى المتين الذى يقوم على مستوى بيان القرآن وبلاغته وذلك المحاولة إلى ايجاد/حاجز باستحداث أساليب عامية نازلة تفصل العرب عن إطار القرآن والسنة .

ولا ريب أن بعض قادة هذه الحركة هم فى تقدير كثير من الباحثين من الشعوبية وقد ساوقت هذه الحركة ارتفاع المد الماركسى فى البلاد العربية غير أنها لم تستطع أن تثبت بعد ان تحطمت الايدى التى كانت ترفعها وتحميها ولو كانت لها أصالة حقيقة لثبتت واستمرت .

(٣)

جبران وأطروحة المهجرين فى التغريب

أعلنت هيئة اليونسكو أن عام ١٩٨١ م هو عام جبران خليل جبران ، وكتب كثيرون فى صحف مختلفة عن شخصية هذا الاديب المارونى المهجرى ، الذى شكل هو وجماعة من أصحابه فى « بوسطن » جماعة أدبية كان لها دورها فى طرح مفاهيم مسمومة وتغريبية عن اللغة العربية ، ومفاهيم الاخلاق والقيم عن التراث الاسلامى وقد حاولت هذه الجماعة إحداث لغة توراتية بديلة لفصاحة اللغة العربية القرآنية ، حملت لواء أفكار « نيتشه » التى تحمل فكرة قتل الضعفاء وقد حملت فى مجموعها روح التشاؤم والنفخ فى بوق التمرد والعصيان وإحلال روح الشك محل اليقين ، والتمرد محل السماحة .

وكانت هذه المدرسة قد انطمست معالمها منذ وقت طويل ، وكشفت حركة اليقظة عن فسادها فما معنى إعادة الدعوة إلى إحياء كتابات جبران وإعادة طبع كتبه فى ثوب أنيق واستغلال أدوات الاعلام عاما كاملا ، إلا أن يكون الهدف هو إعادة طرح هذه المفاهيم مرة أخرى فى أفق الفكر الاسلامى والادب العربى .

° ° °

والواقع أن مقياس أصالة أى لون من ألوان الادب هو اقترابه من مقومات الامة وقيمها واتصاله بذاتيتها ومزاجها النفسى ، فما هو موقف الادب المهجرى وكتابات جبران بالذات من هذه القاعدة ، وهل هو لون أصيل ، يمثل النفس العربية ويصدر عنها ويعبر عن مشاعرها ويلتمس خلفية أساسية من قيمها وجوهرها ؟

الواقع أن أدباء المهجر الثلاثة الكبار : جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحانى هم القادرون على الاجابة عن هذا السؤال :

لقد اعتمد الادب المهجرى على عناصر عدة :

أولا : الحملة العنيفة على اللغة والدين ومقومات المجتمع العربى :

ثانيا : استمد المهجريون أسلوبهم من الشعر المنثور الامريكى الذى يمثله (ويتمان) واستمدوا مفاهيمهم الاجتماعية من « نيشته » ومذهب وحدة الوجود واللا أدرية .

ثالثاً : عرفوا بالثورة على الالوهية والافراط فى الاباحية وإدخالها مرحلة التصوف ومهاجمة القيم الاخلاقية فى الحب والزواج .

رابعا : حاولوا تغيير قيم الادب العربى بإدخال أسلوب جديد مستغرب يصادم مفاهيم البلاغة ويعلى عليها صيغة التوراة والمجاز الغربى .

خامسا : تغلبت عندهم النظرة العالمية المغرقة فى الاممية والتبعية ، على النزعة القومية المناضلة فى سبيل الحرية والقوة .

سادسا : الاسراف فى الجانب الرومانسى الملىء بالظلال والحالم الرمزى المغرق فى العاطفة والخيال المضاد لطابع النفس العربية الجادة العقلانية .

ويمكن القول بأن المدرسة المهجرية (الشمالية) كانت ثمرة من ثمار الارساليات التبشيرية التى وردت لبنان وسيطرت على وجوه التعليم والثقافة فيه ، ثم كان لهذه الثمار اتصالها بالمدارس الغربية وخاصة مدينة بوسطن ـ التى اتخذها المهجريون مقرا لهم ـ وهى من قديم مقر الارساليات التبشيرية فى الولايات المتحدة ، فلما صدرت عن أدبها الجديد تلقفته أيدى رعاة الغزو الثقافى وعملت على إذاعته والدعوة إليه بوصفه لوناً جديدا من ألوان الادب العربى المتسم بالعنصرية الاقليمية والجرأة وذلك فى مواجهة المدرسة العربية الاصيلة التى كان يقودها المنفلوطى وغيره من الادباء .

والواقع أن الادب المهجرى إنما يمثل صرخة الغريب المهاجر المؤثر لقيم الغرب وفنون أدبه وليس فيه طابع العربى المؤمن بوطنه وقيمه .

كما اتسم الادب المهجرى بطابع القلق والتمرد والتحرر من قواعد اللغة ومن قيم المجتمع ، والتقليد المغرق للآداب الاجنبية القائمة على الكتابة والاستعارة والموسيقى والخيال والرمزية .

ولعل أصدق ما يمثله الادب المهجرى ما كتبه « جبران خليل جبران » نفسه عام ١٩١٩ أى بعد أربعة عشر عاما من بدء كتاباته عام ١٩٠٥ قال فى خطاب إلى أميل زيدان : « أن فتكرى لم يثمر غير الحصرم ، وشبكتى مابرحت مغمورة بالماء » ومن الحق أن أسلوب جبران قد بهر كثيرا من الشباب وسرى سريان النار فى الهشيم فى نوعية معينة منهم ، ولكن سرعان ما انطفأ وفقد أثره، وذلك لمصادمته للنفس العربية ومعارضته لمنهجها وتضاربه مع مزاجها النفسى والاجتماعى ذلك أن جبران كان إقليميا مغرقا فى الاقليمية ، اباحيا مسرفا فى الاباحية ، وقد حاول فى الكثير من نبراته محاكاة مزامير داود ونشيد سليمان وسفر أيوب ومراثى ارميا وتخيلات أشعيا — على حد تعبير ميخائيل نعيمه عنه — حيث كان أسلوب التوراة هو المثال الأدبى الاول الذى تأثر به وقد حفلت كتاباته بمجموعة من الصور والتعبيرات التى استقاها من الاسفار القديمة، فهو يقدم أشباه الجمل والظروف والاحوال ، ويمزج ذلك بفن « والت ويتمان » الشاعر الامريكى .

كما أشار كثير من مترجمى سيرته إلى أنه بعد حرمان الكنيسة له وهو فى العشرين من عمره — على أثر قصيدته التى هاجم بها الاديان — اندفع فى طريق إحياء مجد فينيقيه وحضارة الكلدانين :

وقد أشار فى خطاب له من بوسطن ١٩٢٠ اصديقه نخلة إلى هذا المعنى فقال . إن القوم فى سوريا يدعوننى كافرا ، والأدباء فى مصر ينتقدوننى قائلين : هذا عدو الشرائع القديمة والروابط القديمة والتقاليد القديمة وهؤلاء الكتاب يانخلة يقولون الحقيقة لانى بعد استفسار نفسى وجدتها تكره الشرائع . . . »

بل لقد صور جبران مفاهيمه وانحرافاته فى مقال مطول استهله على هذا النحو:

« هو متطرف بمبادئه حتى الجنون » .

« هو خيالى يكتب ليفسد أخلاق الناشئة »

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران فى الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مبانى الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيما سكانه شياطين » .

« فهو إذا عما فى أسلوبه الكتابى من الجمال فهو من أعداء الانسانية » .

« هو فوضوى كافر ملحد، ونحن ننصح لسكان هذا الجبل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء فى نفوسهم » .

« هذا ما يقوله الناس عنى ، وهم مصيبون ، فأنا متطرف حتى الجنون ، أميل إلى الهدم ميلى إلى البناء ، وفى قلبى كره لما يقدسه الناس) وحب لما يأبونه ، ولو كان بإمكانى استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة ، أما قول بعضهم : أن كتاباتى « سم فى دسم » فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف فالحقيقة العارية هى أننى لا أمزج السم بالدسم بل أسكبه صرفا غير أننى أسكبه فى كؤوس نظيفة شفافة .

« أما الذين يعتذرون عنى أمام نفوسهم قائلين : « هو خيالى يسبح مرفرفا بين الغيوم فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما فى داخلها من الشراب الذى يدعونه (سما) لأن معدتهم الضعيفة لا تهضمه . قد تدل هذه المواطأة على الوقاحة الخشنة ولكن ليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ، إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها ، أما الخيانة فترتدى ملابس فصلت لغيرها » .

هذه الاعترافات الجبرانية (وحدها) كفيلة بأن تكشف كل شيء وتجيب على السؤال الذى يتردد : لماذا يهتم اليونسكو بجبران هذا الاهتمام ، ويوحى ذلك بأنه « واحد » من هؤلاء الذين وقعوا فى شبكة التغريب فكان صيدا سمينا ، حاولوا به تغيير القيم والمفاهيم : أنه صنيعة التغريب والغزو الثقافى ، ومن هنا فهم يودون إعادة الحياة إليه فى مواجهة الصحوة الإسلامية . كأن هذه الاعترافات الجبرانية تكشف فى وضوح عن طابع غريب عن الأدب العربى وعن القيم الإسلامية والمزاج النفسى الذى عرفه المسلمون والعرب، أنه طابع دخيل مسرف فى التحدى والتشويه . وهو ليس فى الأغلب طابع النفس المنحرفة التى حملها جبران ، ولكنه طابع الغزو الثقافى الذى يدفع جبران ويرسم من وراء ذلك أهدافاً وغايات .

ومع ذلك فقد سقط أدب جبران ولم يحقق النتائج التى عول عليها دعاة التغريب . فإذا رجعنا إلى حياة جبران نفسه لوجدنا تفسيرا واضحا لاتجاهاته

الأدبية ، وقد عرض لهذه الحياة أصدق أصدقائه « ميخائيل نعيمه » فى كتابه عنه ، كما أفاض فى ذلك كل الذين أرخوا لحياته ، فقد كان أبوه ميالا إلى حياة اللهو والشراب سكيرا مرحا ، وكانت أمه مريضة ، وإخواته كن مرضى بنفس المرض الخبيث وأنه بدأ حياته بقراءات بسيطة لحفظ مزامير داود ولم يستطب قواعد اللغة العربية من صرف ونحو ، ثم قصد إلى (بوسطن) دفعاً لشقاء العيش وضيق ذات اليد مع أخيه وأختيه (بطرس وماريانا وسلطانة) حيث تعلم اللغة الإنجليزية ولم يكن يعرف من العربية إلا حروف الهجاء ، ولم يلبث أن عاد إلى بيروت للتزود من اللغة : قال جبران : « فأنا لا أكاد أعرف من لغة أجدادى إلا ألفها وباءها ، ولا أعرف من بلادى إلا مسقط رأسى ، ومن الضرورى أن أدخل مدرسة فى بيروت لا تعلم لغتى على الاقل .

ثم توجه جبران إلى الاساطير والميثولوجيا ، وكانت التوراة فى ترجمتها العربية الركيكة هى المكون الاول لاسلوبه الكنائى ، وكانت التوراة قد ترجمت باللهجة العامية فلما التزم بها المهجريون لم يستطيعوا إعطاء الاسلوب العربى حقه من البيان ، ومن أجل قصورهم هذا هاجموا الاسلوب البليغ وماتت الام وسلطانه وبطرس بنفس الداء وبقيت ماريانا تعمل لتطعمه .

ولمعرفة شخصية جبران التى صدر عنها أدبه لا بد من أن نعرف مواريثه وأحواله فهى دوافعه الحقيقية . كذلك فقد كان جبران مريضاً ، تزاحمت عليه الامراض منذ وقت مبكر وحملت رسائله صراخا عاليا منذ وقت مبكر فى حسابه ، بمداهمة من الامراض : يقول : القلب يسارع فى الوجيب ، تسمم فى المعدة داء النقرس ، الانفاس تضيق بها الرئتان .

مثل تلك الشخصية بتلك الوراثيات والتكوين الاجتماعى ، هى شخصية مهزوزة مريضة عقليا واجتماعيا وجسديا ولا تصلح بتكوينها ولا بعقائدها لان تأخذ مكان الصدارة أو التوجيه فيه ، وإنما هو الغرور الذى صور له عندما كتب كتابه « النبي » أنه هو النبى نفسه ، وقد استنكر ميخائيل نعيمه : أن يصور جبران نفسه نبيا ، ولو تحت نقاب من التمويه الفنى ؛ وليس يسع أحدا إلا

أن يستكثر هذا الشطط . غير أن حياة جبران تفسرة وتجعله غير مستغرب من مثله ، وإن كان فى ذاته مما يستهين على حد تعبير المازنى الذى يقول : « إن جبران كان يشعر فى سريرته بنقص ويتمرد عليه » .

ومن اهتزاز شخصية جبران : أنه كان يدعى أنه حاز شهادة الامتياز من كلية الفنون الفرنسية ، وسمى عضوا فى جمعية الفنون الفرنسية ، ونال عضوية الشرف فى جمعية المصورين الانجليزية ، بينما لم ينل شيئا من كل هذا ويرى ناقدوه أنه يناقض نفسه فى الاعلان بهذه الاكاذيب بينما يدعى ، أنه يكره التقاليد التى يحرص عليها الناس . فاذا هو أشد منهم تهالكا عليها .

ولما فتن بالفيلسوف (نيتشه) ظهر هذا الافتتان فى كتابه الذى قلد فيه أسلوب نيتشه فى كتابه (هكذا تكلم زرادشت) وقد بلغ أثر نيتشة فى نفسه أنه صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة (بشرى) فى بلد صغير (لبنان) .

وكان يقول أن مثله يجب أن يكون قد ولد فى بلد عظيم كالهند مثلا ، ولذلك فانه عندما طلب إليه (نسيب عريضة) بعض المعلومات عن حياته لنشرها فى مجلة الفنون قال أنه ولد فى بومباى بالهند .

ويجمع الكتاب على أن أثر (نيتشه) فى أدبه كان بعيد السوء ، وأن كتاب (نيتشه) : هكذا تكلم زرادشت : قد أعطى جبران تلك المفاهيم المنحرفة التى أذاعها زرادشت مؤسس المجرسية : يقول نعيمه : وما عرف جبران نيتشه حتى كاد ينسى كل من عرفهم قبله من الكتاب والشعراء ، وعلى قدر ما كان يطيب له أن يختلى به ، كان يلذ له فى البدء أن يحدث غيره عنه وأن يهدى معارفه وأصحابه إليه ة حتى أنه قال أن كتاب « هكذا تكلم زرادشت » فى نظرى أعظم ما عرفه كل العصور ، وما استأنس جبران بزرادشت نيتشه حتى أحس بوحدة أقسى من ذى قبل تكتنفه اينما سار وبغربة تفصله عن ماضيه إلى حد أنه صار يخجل أمام نفسه من كل ما كتبه وصوره فى ذلك الحين .

وأشار (نعيمه) إلى أنه افتتح عهده الجديد بمقال أطلق عليه إسم

(حفار القبور) جرى فيه على نهج الزرداشتية ، وبدأ جبران المتقمص فى جسد رجل يحب العزم والقوة ، لقد سكر جبران بزرادشت وسكر أكثر من ذلك بما قاله فازداد به شهرة فى العالم العربى :

وأخطر ما دعت إليه النزعة المهجرية الوافدة على الأدب العربى هى محاولة تحويل « الجنس » إلى نوع من القداسة وتحويل (الشهوة) إلى صوفية فقد قام أدب جبران زعيم هذه المدرسة على ثلاث دعائم :

(لذة الجسد ـ الحب الشهوانى ـ المرأة العارية) .

وقد تأثر فى ذلك على حد قول النقاد بمزامير داود والحياة فى باريس ، ومن ثم أعلن سخريته بكل القيم المثل ودعا إلى الاستسلام لسلطان الغريزة والعاطفة الجنسية ، وقد راجع كثير من الأدباء « آثار جبران » وأجمعوا على أنه يتميز بعدم الاكتراث بالأخلاق فى بحثه عن لذة الجسد والخروج عن قواعد الدين ، وقال عنه (الأب الزغبى) فى بحث نشرته المشرق المسيحية : أنه يهدم صرح الديانة المسيحية وينبذ جميع الأديان وأنه كثير الآلهة ولكن ليس (الله) بينها ، وأنه يدين بمذهب : عبودية العقل والآراء للشهوة الحيوانية وأنه هادم للسلطة المدنية والسلطة الدينية والأسرة ، وأنه دعا فى كل كتاباته إلى « الحب المحرم » والعشق السرى ، والفحش ، يقول : أجل : جبران ينادى بحلاوة المرأة العارية ولذة طعمها ، وما هذا سوى الشهوة الجسدية المتجسمة ، ويصرح بأن الجنة قائمة بهذا الحب ، وأنه يدعو إلى إحياء الغرائز وتغليب الحب الجنسى . ويقول الأب الزغبى: أن جبران هو مصور الأجسام العارية وكاتب الشهوة المطبقة من كل قيد ، ولا عبرة عنده بالعقل ولا بالواجب حتى يصطدم الهوى بذلك الواجب ، وليس فى موسيقى الأدب الجبرانى سوى طبول تدوى فى فراغ أصواتها « وتذيع ضجة البلاغة اللفظية والكلام الطنان الذى يؤثر فى الأذن تأثيراً قويا ويصل بالانسان إلى عالم الدوخة والانذهال » فهو معجب بالزوجة التى تركت زوجها واتبعت قلب حبيبها ، طروب بالانفصال الجنسى ، شفيق بالمرأة المستسلمة إلى خادمها المفترى ، هذا جبران الذى يسكب السم الأخلاقى فى

كؤوس نظيفة شفافة ـ على حد تعبيره ـ أن معظم كتاب الغرب فى موضوع الميول القلبية والشهوة الإنسانية وتكريسها لم يبلغوا من الفساد الأخلاقى والإباحة ما بلغه الأدب الجبرانى ، فهو قد حول مزامير التوراة من دعاة للفضيلة إلى دعاة الرذيلة وفى كتاب (النبى) يصور جبران نفسه على أنه المصطفى المختار الحبيب وجبران لا يعتقد إلا بالإنسان وجمال جسده العارى وشهواته وأسراره وجبران دينه « الجسد » الذى بشر به فى العالم العصرى ، فلاقاه أبناء العالم الجديد وبحانة فينانة وافقت ميولهم حين يقول لهم : ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم ولكنها لا تستر غير الجميل، يالبتكم تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضا عن ثياب مصانعكم (النبى ص ٤٦) ، ولهذا كله اهتم الغرب بأدب جبران ونشره وأحاط شخص جبران بتقدير عجيب وخاصة حين أعلن جبران صراحة أنه يكتب لنفس الناشئة ، وكان لأدب جبران أبعد الأثر فعلا فى جيله ، وخدم به للغزو الثقافى خدمات لم يكن فى مستطاع التغريب تحقيقها لولا كتابات جبران ، فقد عمل فى (سبيل تهديم الأخلاق ونسف أركان الدين وتحطيم قيود الشريعة) عملا ضخما بارزاً ، ولقد حاول النفوذ الاستعمارى المسيطر على الأدب العربى أن يحيى جبران بعد موته وأن يبعث حوله هالة من القداسة لتواصل آثاره طريقها إلى نفوس الأجيال ، ولكنه عجز عن تحقيق هذا الأثر وسرعان ما مات أدب جبران وسقط .

ومن الحق أن الأدب العربى بأصالته وذاتيته الخاصة قد أسقط (جبران) وأحيا (المنفلوطى) منذ اليوم الاول الذى تصارع فيه الادبان فقد كان أدب جبران هو أدب التوراتية والغيبيات والميوعة والظلال وهذه ألوان لا يقبلها الادب العربى فى بساطة ويسر ، أما أدب المنفلوطى فقد كان مستلهما من مزاج الامة العربية والنفس العربية الاسلامية قائما على أساس البلاغة القرآنية التى تمثل الاصالة فى مسار الادب العربى وتطوره عبر العصور وحتى العصر الحديث .

أسلوب جبران أسلوب الخيال والاباحة والهدم ومعارضة الاخلاق والعقائد ، فهو معارض لطبيعة النفس العربية والمزاج العربى ، أما أدب المنفلوطى فكان موازيا لهذه النفس حتى قيل : أن قلب جيل كامل من دمشق إلى فاس قد خفق

من خفقات قلم المنفلوطى ، غير أن هناك عاملا هاما لا يمكن إغفاله كان بعيد المدى فى تزكية الادب المهجرى وإعلائه هو أن الصحف المصرية كانت فى أيدى المارونيين اللبنانيين دعاة التغريب (المقطم والاهرام والهلال والمقتطف) وكانت جميعا تعلى من شأن المهجريين وتزجى إنتاجهم الهابط فى مواكب من الاعلان والتقريظ .

ولقد كان أسلوب الشاميين فى مصر والمهجريين فى بوسطن مما لا يرضى الذوق العربى وقد سجل ذلك (هاملتون جب) فى تقريره حيث قال : أنهم لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك ، وعجزوا أن يحلوا المشكلة النفسية لانهم كانوا نصارى كما عجزوا عن أن يحلوا المشا كل الاسلوبية ثم قال : أن أصول الاسلوب العروبى العربى قد صاغها العرب على غرار النماذج العربيه الاسلامية وعلى رأسها جميعا القرآن الكريم والحديث (من كتاب دراسات فى حضارة الاسلام لجب)

وهكذا نرى أن إعادة إحياء جبران مرة أخرى لن يحقق شيئا بعد أن اتسعت دائرة الاصالة وعمقت مفاهيم اليقظة الاسلامية وتبينت أهداف التغريب والشعوبية والغزو الثقافى ووضحت .

(٣)

فى مواجهة الاستشراق

(١) فى مواجهة الاستشراق والتغريب

(٢) الاستشراق فى طور جديد

(٣) تحديات الاستشراق

(١)

فى مواجهة الاستشراق والتغريب

إن خطة الاستشراق فى احتواء الفكر الإسلامى (ثقافة ولغة وتاريخا) هى من التحديات الخطيرة التى مازالت تواجه المسلمين على مطالع القرن الخامس عشر، وهى ولا ريب من العقبات التى تواجه حركة اليقظة الاسلامية فى مرحلة النهضة التى دخلت إليها اليوم .

ولعل أخطر المواقف هى ما حاولته حركة الاستشراق من إدخال تفسيرات باطلة على حقائق الاسلام لتزويرها وتزييفها ومن ذلك ما حاوله مرجليوث اليهودى فى أمرين هامين كان لهما أكبر الأثر فى احتواء الفكر الاسلامى المعاصر وهما المؤامرتين اللتين حمل لواءهما على عبد الرازق وطه حسين حين أعد بحثين أحدهما عن الخلافة الاسلامية استأثر به على عبد الرازق وترجم له وقدمه باسمه مع إضافات خفيفة وبحث انتحال الشعر الجاهلى الذى نقله إلى العربية طه حسين وجعله أساس كتابه المعروف بالشعر الجاهلى ثم بالأدب الجاهلى وما حوى هذا الكتاب من أراجيف وسموم وزيوف ما زالت تتردد إلى اليوم كمسلمات وهى من الأخطاء الكاذبة التى حاول بها الاستشراق اليهودى إلى تدمير أكبر حقيقتين فى مجال الاسلام وهو تزييف مفهوم الخلافة الاسلامية وإلى فصل الأدب عن الفكر وإعطائه حرية الانطلاق فى مجالات الاباحية وهدم الأخلاق وإلى إنكار الرابطة الحقيقية بين الشعر العربى الجاهلى والقرآن الكريم والادعاء بأن هذا الشعر وضع بعد الاسلام .

وهناك من عمل الاستشراق دائرة المعارف الاسلامية الموضوعة الآن بين أيدى المفكرين المسلمين وبها عشرات المصطلحات المضطربة والفاسدة التوجيه والتعليق على أن المستشرقين قد وضعوا كتبا لها صفة العلم ، فى مختلف المسائل الاسلامية تدرس فى بعض الجامعات العلمية على أنها صورة صحيحة لما جاء فى الشريعة الاسلامية من أحكام وقواعد جاء بعضها محرفا وبعضها

لا يفيد حكم الشارع ثم يوقع فى تحريف مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم أحكام الإسلام على وجهها الصحيح .

أما دائرة المعارف الإسلامية فإنها تجمع عشرات الإسرائيليات والتفسيرات الزائفة فتضعها فى تفسير النص الإسلامى . وخاصة فى انحرافها نحو مفاهيم التوراة التى كتبها أحبار اليهود ومن ذلك أنها تأخذ القصة اليهودية للعهد القديم فى خلق آدم فتجعلها مصدراً لقصة آدم فى دائرة معارف إسلامية وتجعل وجهة نظر اليهودية فى قصة إبراهيم وأبنائه إسماعيل وإسحق فتمليها على مفهوم القرآن الذى يمثل حقيقة هذه القصة وهذا جزء من محاولة الاستشراق اليهودى فى إعطاء فكرة زائفه هى أن فلسطين كانت يهودية قبل الاسلام مع تشويه الفتح العربى وهناك المحاولات المتعددة لابراز أسماء الشعوبيين والمارقين واضفاء صفة البطولة والعلم عليهم ، أمثال عيلان الدمشقى الذى يقدمه بعض الشعوبيين على أنه من الثوار المسلمين .

وهناك الاهتمام بالفلكلور والمواويل الشعبية ومحاولة القول بأنها تحمل مفاهيم اجتماعية حقيقية للمسلمين فى مجال الثأر والشرف والفوارق الدينية والطائفية والمستويات والمكانات الاجتماعية مع فساد هذه المقاييس والصحيح إن الشعر الإسلامى والأدب العربى فى صوره البيانية العليا هو أصدق تعبير عن النفس المسلمة وأعمق أداء وأخلد على الزمن .

ويصدق فى هذا ما قاله فيليب حتى حين قال : لقد عجز المفكر الغربى (عن طريق الاستشراق أو خارجه) على إصدار أحكام سليمة أو علمية أو بعيدة عن الأهواء عن الإسلام وتاريخه وعقيدته ، فقد أقبل الاوربى كقاعدة على دراسة الإسلام أما لتنصير المسلمين أو لخدمة المصالح الاستعمارية وكان لتعصب الغربيين القومى وحماستهم الدينية وجهلهم المطبق أثره الفعال أيضاً ، وكان استمرار تداول الأساطير الغربية عن النبى وعداء النصارى لديانة توسعية منافسه وما خلفته الحروب الصليبية من ذكريات مريرة إلى جانب ما بعثته قوة الامبراطورية العثمانية المتعاظمة من مخاوف مانعاً حال دون قيام دراسة موضوعية متحررة للإسلام .

وقد وجه كثير من الباحثين النقد الكاشف لمناهج الاستشراق فى كل مجال وخاصة فى مجال التاريخ فالمصنفات الموجودة من كتب التاريخ إلى كتبها المستشرقون وأتباعهم ارتكب كتابها أخطاء فى سرد وتحليل الأحداث والوقائع التاريخية ، التى وضعها بعض كتاب اليهود فى القرنين ١٨ و ١٩ وأوائل العشرين .

وأخطر ما فى هذه الكتابات أنهم أخضعوا تاريخ الإسلام لمفهوم المسيحية وتفسيراتها ثم أخضعوه لتفسيرات المادية الغربية ثم التفسيرات الماركسية تعرف الآن من كل كانت محاولة .

كذلك حاول دعاة القومية تفسير التاريخ الإسلامى تفسيراً يصور الإسلام على أنه حركة قومية : أو حركة ديمقراطية أو حركة اشتراكية وكل ما ترتب على ذلك من دراسات فهو منحرف وخاطىء كذلك فقد أخطأ الذين أخضعوا مفهوم الإسلام للفلسفة وعلم الكلام .

لقد كان أبرز أعمال الاستشراق هى إثارة الشكوك حول خمس قيم أساسية :

الدين الحق (الاسلام) : وقدرته على تحقيق الأمن والسلام والرحمة والعدل والآخاء البشرى .

اللغة العربية : وقدرتها على التعبير وأداء دورها فى عصر الحضارة الغربية .

الحضارة الاسلامية : والقول بأنها مجمعات من الاقتباسات عن الحضارات السابقة لها .

القيم والأخلاق : والقول بأنها عادات وتقاليد وليست أصولا ثابتة .

التاريخ الاسلامى : تشويهه وتزويره :

وقد خرجت أوربا من حركة الاستشراق بنتيجة هامة (على حد يعبر عنه الدكتور إبراهيم العدوى) وهى أن العالم الاسلامى أمة عريقة فى حضارتها وأن السيطرة عليها لا تكفى لتحقيقها الغزو العسكرى فحسب ، ولكن يجب أن يسير إلى جوار ذلك غزو فكرى يستهدف روح الامة وجذورها . لقد أدركت أن العالم الاسلامى سوف يقاوم الغزو العسكرى وأن أسلحة المقاومة لديه سهلة

ميسورة من حيث الفداء والاستشهاد ولذلك كان لابد من دعم الغزو العسكرى بالقضاء على العوامل النفسية التى توجب المقاومة وهدف الغزو الفكرى هو مسخ شخصية الأمة ومنع الأصالة والابداع فيها حتى تتوقف عن النمو ولذلك عمدت إلى تحريف المقومات العلمية والحضارية للبلاد العربية إذ ركز نفر منهم جهوده لاعادة كتابة "تاريخ الحضارة محاولين توجيه البحوث توجيها استعماريا فأنكروا على علماء العرب القدامى الأصالة الفكرية بهدف إسقاط مرحلة هامة من مراحل التطور الحضارى الانسانى وذلك باغفال شأن الحضارة الاسلامية صاحبة الفضل على نهضة أوربا فى مطالع العصور الحديثة ، كما تسللوا للبحث عن العاميات بهدف أن يحتقر المواطنون لغتهم العربية والتشدق بلغة المستعمر كما نشروا (التفتيت) وهو أخطر سلاح يشهده أعـــداء العرب والمسلمين وإثارة النزعات القديمة (الفرعونية ، الفينيقية، البابلية) وخلق الوطنيات الضيقة .

ولا ريب أن من أخطر التحديات التى تواجه النهضة فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى هى تلك البعثات التى نرسل بها أبنائنا إلى الغرب ، فان وراءها محاذير خطيرة يجب أن نواجهها قبل أن تقرر هذه البعثات . ذلك أن ابنائنا أولئك يجب أن يكونوا على قدر كبير من الفهم لدينهم وقيمهم وتاريخهم ولغتهم وتراثهم وأن تكونوا عالمين بتلك المحاولة الخطيرة التى تستهدف احتوائهم وصهرهم فى بوتقة الأممية العالمية ليحذروها، ذلك أنهم إنما يواجهون أقراما من عتاة المستشرقين وأغلبهم يهود وإن لم يكونوا فهم تلموديون صهيونيون فكراً ، وعلى كراهية وحقد شديدين للاسلام .

ولعل من أخطر التحديات التى تواجهنا فى هذه المرحلة أن نرسل أبنائنا ليتعلموا اللغة العربية والاسلام فى السربون وهارفارد وبرنستون وكلها معاقل للاستشراق اليهودى فكأننا إنما نرسل أبنائنا المسلمين إلى مصير خطير وهو أن يعودوا إلينا وأماناتهم للغرب وللفكر المادى والتلمودى أشد وأكبر من أماناتهم لفكرنا الاسلامى وما قيمة أن يحصل أبنائنا على أطروحة الدكتوراه فى الشريعة الاسلامية واللغة العربية وقد قبلوا غير مفهوم الاسلام الصحيح وإذا بهم يعطوا أبنائنا مفهوم أعداء الاسلام .

ولعل من أخطر المحاولات التى جرت أخيرا لاحكام قبضة الاستشراق

على فكرنا وتراثنا تلك الدعوة إلى وجهت إلى طلاب الاستشراق أن يتعلموا اللهجات العامية للمسلمين ويعرفوا اصطلاحاتها نظرياً وعلميا وأن يدوسوا القرآن ليقفوا على ما يحتويه وأن يخاطبوا العوام من المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم فيشككوهم فى حقائق الإسلام ويدخلوا عليهم الزيغ ولا ريب أن الهدف من هذا واضح وهو محاولة فرض مفهوم زائف للإسلام يخرجه عن مفهومه الحقيقى بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وصيرورته قريباً من مفهوم المسيحية ودين لاهوتى وعبادات وطقوس » وهذا هو العمل الذى ابتدأه الدكتور طه حسين وحاول أن يكون من حوله مجموعة تعمل له ، وقد ساهم كثيرون فى تنمية هذا الاتجاه من أمثال توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزى وزكى نجيب محمود .

بل إن هذه اللقاءات المشبوهة التى تجرى تحت إسم الحوار والتقارب إنما يستهدف التركيز على هذا المعنى ، معنى التشابه بين الإسلام والمسيحية والقول بالباطل بأن الخلاف بينهما ليس إلا خلافاً فى الفروع وذلك لانتقاض ميزة الاسلام الخاصة فى نظر المثقف الغربى وتزييف مفهوم الاسلام من حيث أنه وحده الذى يمثل التوحيد الخالص .

(٢)

الاستشراق فى طور جديد

كانت محاولات الاستشراق تهدف إلى طمس الحقائق الاسلامية الأساسية الأساسية وإثارة الشبهات حولها وخلق مفاهيم مهزومة مضطربة لتحل محل المفاهيم الأصلية . نجد هذا واضحا فى أغلب أعمال الاستشراق التى قدمها إلى المسلمين بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك إذ وكل إلى بعض من اتصل من شباب الجامعات دراسة هذه الشبهات على أنها قضايا حقيقية ، فبعد أن كانت سطورا لها صفة الاحتمال فى المجلدات القديمة ، عمد إلى استخراج هذه الشبهات وتأليفها لتكون بمثابة عمل وظاهرة ، وتعجب حين ترى المستشرقين وأتباعهم لا يبحثون فى الأصول العامة أو العناصر الرئيسية لقضايا الفكر الاسلامى أو التاريخ الاسلامى ولكنهم يبحثون عن تلك النقاط المختلف فيها، أو موضع الاشتباه : وإثارتها والتركيز عليها ولا يدرسون مفاهيم أهل السنة ولكن يركزون على اختلافات الفرق ويعلون من شأن تلك الفرق التى احتضنت الفلسفة اليونانية أو الفكر الوثنى وهم مولعون بالمعتزلة لأنهم أخرجوا الاسلام من مفهومه الجامع إلى مفهوم غربى عقلانى كما يركزون على مفاهيم التصوف الفلسفى ورجاله وخاصة دعاة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ويطرحون هذه المفاهيم مرة أخرى فى أفق الفكر الاسلامى إيمانا منهم بأن ذلك يزيغ قلوب المسلمين عن عقيدة التوحيد الخالص .

ولم يترك المستشرقون بابا من أبواب الفكر الاسلامى دون أن يثيروا فيه الشبهات ويقدموا فيه الأبحاث التى يجعلونها أساساً ومرجعاً لأولئك الذين تقذف بهم الظروف للذهاب إلى أوربا والتلمذة عليهم ، ففى الشريعة والعقيدة والتاريخ وتفسير القرآن والسنة مؤلفات وأبحاث قائمة على الشبهات لها صورة العلم وضعها المستشرقون فى مختلف المسائل الاسلامية تدرس فى بعض الجامعات (هنا وهناك) على أنها صورة صحيحة لما جاء فى الشريعة الاسلامية من أحكام وقواعد جاء بعضها عرفاً وبعضها لا يتقيد بحكمة الشارع ، ويبالغ فى تحريف مدلولاتها على نحو يتعذر معرفتهم أحكام الاسلام على وجهها الصحيح .

وتحفل المصنفات التى كتبها المستشرقون واتباعهم تحت إسم التاريخ بأخطاء فى سرد الأحداث أحياناً متعمدة وأخرى نتيجة الجهل وعدم الاستيعاب وذلك بالإضافة إلى الصور المشوهة فى الكتب التاريخية التى وصفها بعض كتاب اليهود فى القرنين ١٨ و ١٩ فى محاولة لإعطاء فكرة زائفة عن أن فلسطين كانت يهودية قبل الإسلام وتشويه الفتح الإسلامى وإعطاء الصهيونية حقا زائفاً فى العودة إلى فلسطين .

كذلك فهناك المراجعات الفاسدة التى يقوم بها الاستشراق الصهيونى والماركسى والغربى للتراث والتاريخ الإسلامى ، .

فهناك ثلاث محاولات لتفسير التراث و التاريخ الإسلامى ، ماركسيا وليبراليا وصهيونيا ويقول الباحثون الذين اتصلوا بدوائر الاستشراق واستطاعوا النجاة من الاحتواء. أمثال مجاهد الصواف ومحمد المبارك ومحمد مصطفى الأعظمى الذى هاجم شاحت وقال إن أسلوبه بعيد عن العلمية وضياء الدين الريس الذى رفض الخضوع لمناهجهم فى كتابه رسالته ، يقول هؤلاء الباحثين إن المستشرقين فى الأغلب صهيونون ومبشرون ورجال استخبارات وقليل منهم طلاب حقيقة ؛ وعندهم إن رجال الاستشراق والحركات التبشيرية يهدفون إلى جر المسلمين إلى نقاش للدفاع عن الاسلام فيضيع الوقت على المثقف المسلم فى الدفاع مع أن الاسلام قائم وراسخ وهو عزيز قوى .

ويرى مجاهد الصواف إن الهجمة الفكرية للاستشراق فى العصر الحديث هى امتداد للحروب الصهيونية — الصليبية وبمراجعة مؤتمرات الاستشراق الأخيرة (المؤتمر الثلاثون ١٩٧٣) .

وقد مر قرن على أول مؤتمر للاستشراق وما زال يعالج الاسلام كما كان يعالج فى زمن الحروب الصليبية وان باستطاعة المفكر المسلم أن يقول ان غارة صهيونية صليبية جديدة بدأت على العالم الاسلامى ليست بالسلاح فقط وانما بالفكر كذلك

واية ذلك أنهم فى مؤتمر ايران ١٩٨٠ مازالوا يعالجون الأساطير المصرية والبابلية بالمقارنة الى الكتب المقدسة كالتوراة والانجيل والقرآن وكتب البوذية

والهندوسية وهذا يؤكد على مدى اصرارهم على بث سمومهم بالرغم من أن البحث العلمى فى الغرب نفسه بالنسبة لليهودية والمسيحية والاسلام قد تجاوز هـــذه الدراسات الضالة وأن رجل من أمثال بوكاى قد كشف بالطريق العلمى فساد نسبة التوراة والانجيل الى الكتب المنزلة وكذلك كثير من الباحثين اللاهوتين المتخصصين فى مقارنات الأديان .

وما تزال مؤسسات التبشير والاستشراق تتلقف الشباب المسلم القادم من اليمن وباكستان والشام والمغرب لاحتوائه ، وتلك مسئولية البلاد الاسلامية التى يجب أن تحصن أبنائها قبل ارسالهم الى الغرب .

ويواجه العالم الاسلامى اليوم نفوذ ماركسى جديد فى بلاد اسلامية أساسيا بالاضافة الى النفوذ الغربى (أفغانستان واليمن الجنوبية وسوريا) ونفوذ تبشيرى جديد فى أندونيسيا ، فضلا عن نفوذ الثقافة الغربية الأوربية والأمريكية فى مختلف أجزاء العالم الاسلامى بالاضافة الى سموم الفكر التلمودى الصهيونى المبثوث فى الجامعات تحت أسماء العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق .

ومن هنا فإن الانفتاح أمام الثقافات الغربية واللغات الاوربيه أمر يجب أن يحاط بأكبر قدر من الحصانة من ناحية فهم العقيدة الاسلامية والايمان بالقيم والتراث وأصالة الذاتية الاسلامية ، وفى هذا يقول الدكتور عمر فروخ :

ان الانفتاح يجب أن يكون موقع قوة باعتبار أن عندى العلم الأول ولكن حينما أرسل شخصا عمره ثمانية عشر سنة الى أوربا أو الغرب بلا أساس ، فإن أول ما يأخذ هناك ، أنه يأخذ بمظاهر الأشياء لذلك أنا أفقد الفائدة من هذا الانفتاح بالعكس يعود الانفتاح بالضرر ، والدولة الضعيفة يجب أن تكون أحرص ما تكون على أبنائها .

التبشير يغير جلده

حاولت حركة التغريب والغزو الثقافى أن تحتضن حركة التبشير الغربى (التنصير) والحديث عنه فى كثير من أجزاء العالم الاسلامى بعد أن اختفت المؤسسات الظاهرة التى كانت تقوم فى القديم بتنصير الشباب عن طريق المستشفيات وبعض المعاهد والجامعات ، ولكن هذا الاختفاء والتعتيم المتعمد لا يعنى أن حركة التبشير قد تلاشت أو خفت صوتها وإنما يوحى بحقيقة أشد خطورة وهى أن التبشير غير جلده واستعمل أسلحة جديدة كما فعل الاستشراق حين أعلن أن مهمته قد انتهت وأن جماعاته أصبحت تدرس العلوم الاجتماعية ، وتلك ظاهرة واضحة فى تاريخ تلك المؤسسات أنها تغير جلدها وأساليبها بين آن وآن عندما تنكشف خططها ويتعرف الناس على مظاهرها ولكنها لا تيأس ولا تموت وإنما تتخفى فى أثواب جديدة وأساليب جديدة وأبلغ المظاهر التى تتخفى فيها حركة التغريب بمؤسساتها التبشيرية والاستشراقية اليوم ، هى العلوم الاجتماعية والثقافية والمسرح والفنون فهى عن طريق هذه القنوات تبث مفاهيمها على أنها علوم جامعية ومناهج علمية لا يتطرق اليها الشك ، ومع الأسف فان جامعاتنا فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى تدرس الماركسية والوجودية والفرويدية ونظريات العلوم الاجتماعية على أنها علوم وتتحدث عنها أسماء لامعة ممن يتسمون بأسمائنا .

ولقد كانت معاهد الارساليات محاذية تماماً للمحافل الماسونية فى حمل لواء هذه السموم وخاصة ما يتعلق منها بتدمير القيم الأخلاقية والاجتماعية وهدم الأسرة ، وقد تحولت الآن إلى أندية مختلفة منها الليونز والروتارى وغيرهما .

وقد دخلت على المسلمين دعوات أمثال القاديانية والأحمدية والبهائية فخدعوا ببريقها وكلها تعمل فى حقل التغريب والغزو الثقافى لازاحة مفهوم الاسلام الجامع المانع وإحلال مفاهيم ضالة مضللة علمانية ووثنية .

ولقد كانت البلاد الاسلامية فى سنوات الاحتلال العسكرى الأجنبى تقاوم هذه الدعوات وهذه المؤامرات بقوة ولكنها فى ظل المرحلة التالية وهى مرحلة الاستقلال والحرية فانها تنظر إليها فى استهانة ولا تقدر خطرها الذى يستشرى فى أوقات الأمن الخادع .

ويصدق الأستاذ طه خليل الخيالى حين يقول أن الاستشراق قد خضع للتبشير وأن بعض المستشرقين باعوا ضمائرهم للشيطان التبشيرى بما قاموا به من تزوير وتخريب للتاريخ والفكر الاسلامى وفى ابتداعهم الأساليب المبطنة بالعلمية

والمنهجية تارة وبالواقعية والتجريبية تارة أخرى حتى أمست باباً واسعاً يلج منه كل اص ودهقان ومخرب يريد أن يقضى على عقيدة الأمة .

وقد قدم الكاتب تقريراً لعدد الكتب التى وضعها الأوربيون عن العالم الاسلامى والبلاد العربية بين ١٨٠٠ و ١٩٥٠ بما يناهز ٦٠ ألفاً من الكتب يضاف إليها ما كان قد وضع قبل عام ١٨٠٠ وما وضع بعد عام ١٩٥٠ وهما فى الحالتين يقدران بالألوف .

ولا ريب أن هذه الدراسات التى توضع بين أيدى شبابنا الذاهبين إلى الغرب فى البعثات العلمية لتكون بمثابة مصادر ومراجع لا يتخطوها فى أعداد دراساتهم تحت إشراف أساتذتهم المستشرقين ظاهراً والمبشرين حقيقة، أو تترجم إلى العربية تحتوى على أفكار مسمومة مصوغة صياغة دقيقة وفق مخططات مسبقة لكل دراسة (عن دراسة ادوار سعيد تحت عنوان الاستشراق بالانجليزية) .

والهدف هو تخريب قواعد الاسلام والأخلاق الاسلامية وإشاعة الأفكار والعادات المنكرة بين أبناء البلاد بأساليب جهنمية تتسم بطابع الوحشية تارة والخسة والقذارة والتغرير والترغيب تارة أخرى .

وقد بدأت حركة التبشير والاستشراق من منطلق ضرب المسلمين عن طريق الكلمة بعد هزيمة الحروب الصليبية كما وجههم لويس التاسع ، والعمل على ترجمة القرآن والسنة وعلوم المسلمين للبحث عن الثغرات التى يدخلوا منها الى اثارة الشبهات تحت اسم (لعل القلم ينجح فيما فشل فيه السيف) وقد أعلنوا فى كتاباتهم صراحة ان الاسلام هو عدوهم الأول وأن أكبر غاية لهم هو ضرب وهدم قواعده فى الصميم » .

وقد بلغ عدد الأدباء اليسوعيين حسب احصاءات مصادر رسمية فى دولة الفاتيكان (٤٠ ألف) مبشر يعملون خارج العالم المسيحى .

ومن عجب أن تبلغ أساليب التبشير حدا بالغ القوة حين يقوم الأب هوجان الأكبر بتصوير فتيات من أفريقيا الوسطى (بانكى) المسلمات المقهورات فى أوضاع جنسية مخجلة، وقد طردته السلطة الحاكمة (عن رسالة عن الاسلام فى أفريقيا

لوسطى لابرهيم النعمة) والقصد هو إشاعة الاباحية ، وهذا عمل يتجاوز بكثير ما يظن أنه يقوم به رجال التبشير مهما بلغت محاولاتهم فى التصور ومرجع هذا إلى الحقد والتعصب الطائفى البغيض ولارضاء بعض ذوى الاهواء . كذلك فهم يعملون فى بعض البلاد الافريقية على دفع الناس نحو الفاحشة والخمر والاباحية حتى أن بلدا مثل بانكى يمكن أن يكون بها (وهى مدينة صغيرة) أكثر من ألف حانة من حانات الخمر ، فهو يغمسون سكان هذه المناطق فى الربا والمسكرات ، والجرائم والموبقات (الاسلام وأفريقيا الوسطى : ابرهيم النعمة) وتعطى هذه الوقائع دلالات جديدة على أن التبشير يعمل بأساليب مختلفة ، ففى كل منطقة من المناطق له أساليبه ووسائله ، وأنهم كما يقول الأستاذ خليل الحيالى يعملون على الاستفادة من كل الثغرات التى يجدونها فى العالم الاسلامى ، من تمزيق وحدة الأمة وخلق الروح الطائفية البغيضة، التى تحرض ملة على ملة أخرى، ولعل مايجرى فى كمبوديا وبورما والتبت من تقتيل المسلمين وتهجيرهم بالقوة من أراضيهم باتفاق جميع الفرقاء (عدا المسلمين) تعطى دلالات واضحة وأكيدة على أن المؤامرة عالمية بكل أبعادها وارتباطاتها للقضاء على الاسلام والمسلمين وأن حوادث التنصير الجماعية فى أندونيسيا والفلبين بمئات الألوف لتثبت أنها لا تحدث بالاقناع وإنما تتم بالسيف والحرق كالتجويع والتجهيل المتعمد واصطناع أسباب التخلف للبيئة للسكان المسلمين فى تلك البلاد .

(٣)

تحديات الاستشراق

لقد تبين من الدراسات الواعية المتعددة ، مدى خطر الاستشراق على الفكر الإسلامى ، ولم يبق إلا دعوى « الدور الذى قاموا به فى تحقيق التراث الإسلامى » ومنها تبويب بعض كتب السنة وغيرها ، ولاريب أن الاستشراق ، عمل على إيجاد حصيلة واسعة من مفاهيم الإسلام بدأها بترجمة القرآن والحديث النبوى وبعض الكتب المعروفة ، والهدف هو أحكام الرد على ما فى هذه المصادر من قضايا معارضة للنصرانية المحرفة من ناحية ، أو معارضة للنفوذ الأجنبى من ناحية أخرى ، أو البحث عن روايات ضعيفة تحمل الشكوك والشبهات .

والحقيقة أن هذه الأعمال لم تكن خالصة لوجه العلم ، وهى بالرغم من ضآلتها بالنسبة لعمل الاستشراق الواسع فى ابتعاث كتب التراث المتصلة بالفلسفة والتصوف الفلسفى ، والفرق المتصارعة والباطنية وغيرها ، فإنها عمل مشكور لهم ، ولكنه لا يشكل ظاهرة يمكن أن تحول دون الغرض الحقيقى للاستشراق ، بما يخدع به دعاة التغريب ذوى النيات الحسنة من قومنا .

وهذه مجموعة من الحقائق :

أولا : المستشرقون يدرسون قضايا الإسلام (وتاريخه وشريعته وتراثه) بروح غير علمية ، تقوم إما على سوء الفهم أو سوء النية ، وهم لا يتصورون أى شىء إلا فى حدود مفاهيم النصرانية اليونانية بعقليتهم الغربية التى تعودت على ربط الظواهر الانسانية بالجنس واللغة والقومية والبيئة ، فى حدود المفهوم المادى القائم على المحسوس ، ومن هنا كان الانسان عندهم ظاهرة قومية نشأت عن ظروف اقتصادية ، ومن شأن هذا التصور أن يجعل كل أحكامهم على تاريخ الاسلام وشريعته وقيمه خاطئة ومنحرفة ، لأن الاسلام يقوم على تصور جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب .

ثانياً : قدم المستشرقون كتابات ودراسات أعطوها صبغة العلم فى مختلف المسائل الاسلامية ، تدرس فى بعض الجامعات على أنها صورة صحيحه لما جاء فى الشريعة الاسلامية من أحكام وقواعد ، جاء بعضها محرفاً وبعضها لا يفيد حكمه الشارع ، ثم بولغ فى تحريف مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم أحكام الاسلام على وجهها الصحيح .

ثالثاً : أخضع المستشرقون تاريخ الاسلام لمفهوم النصرانية وتفسيراتها ، ثم أخضعوه لتفسيرات المادية الغربية ثم التفسيرات الماركسيه .

رابعاً : دخل المستشرقون إلى مجامع اللغة ، وحولوا أهدافهم بها إلى مناهج براقة ، سواء فى أحياء العاميات أو الدعوة إلى تعديل النحو ، أو اللغة الوسطى أو الكتابة العربية الميسرة أو المعاصرة وكلها محاولات ترمى إلى ايجاد فجوة بين لغة القرآن ولغة الكتابة .

ومن قبـــل ذلك تسللوا للبحث عن العاميات ، ولبسوا ملابس التجار والدبلوماسيين ، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لجمع الأمثال العامية والمواويل ، بهدف مسموم هو القول بأن العامية لغة لها تراث وجعلوا لذلك عنواناً براقاًهو التراث الشعبى ، الفولكلور ، وقد أولوا اهتمامهم الشديد لدراسة اللهجات فى البلاد العربية ، وعقدوا مؤتمرا خاصاً لذلك فى مدينة ميونيخ بألمانيا ١٩٥٧ ، وكتب المستشرقون فى ذلك كتبا منها : كتذب فى لغة الغجر فى البلاد العربية ، ودراسات فى اللهجات الأمرية .الشحرية والسقطرية وغيرها من اللهجات المستعملة فى جنوب الجزيرة العربية وعلى أطرافها .

الفلسفة الضـــالة

والهدف من التركيز على اللهجات العاميةواضح، فهم الذين قدموا تلك الفلسفة الضالة التى تقول أن العامية أقدر على تصوير المشاعر ، مع أن هذه المشاعر التى تصورها العامية ، هى المشاعر الساذجة (مشاعر طفولة البشريه) .

أين منها ذلك الشعر الرصين والبيان العربى الذى يحمل صور المجتمع الاسلامى

والنفس الاسلامية فى مراحل الرشد الفكرى والهدف من كل ذلك هو أضعاف لغة القرآن وتمييعها بالتحريض على استعمال اللهجات وتحطيم قواعد اللغة باسم التيسير .

خامساً : آثار الاستشراق فى دعوات مسمومة للتشكيك فى الاسلام والطعن فى مبادئه وتشويه الحضارة الاسلامية .

ومن ذلك دعوتهم إلى رفع لواء الانسلاخ من الماضى والتراث وإحياء النزعات القديمة : كالفرعونية والفينيقية والآشورية وأمثالها ، والغض من شأن الشعوب الملونة فى العالم الاسلامى، ووصفهم بأنهم أقل قدرة من الجنس الأبيض (الأوربى) فى مجال السياسة ، والمدنية والعلم والفن . والعمل على فصل الدين عن الدولة ، وابطال فريضة الجهاد وإثارة الشبهات حول القرآن بطرح السموم على أيدى مسلمين ، توحى ببشرية القرآن ، التشكيك فى أنه من عند الله تبارك وتعالى ، والقول بتأثر الثقافة الاسلامية بالعقلية الاغريقية والفارسية ، وهم فى سبيل ذلك يعملون على انتزاع نصوص معينة من سياق المصادر لتأييد وجهة نظرهم ، ويعملون على إثارة التناقضات بين النصوص والمصادر .

سادساً : المبالغة فى تمجيد الحضارات الشرقية القديمة السابقة للإسلام ، والادعاء بأن الاسلام أخذ منها ، والبحث عن الأثر الغربى والأوروبى فى الفكر الاسلامى ، والمبالغة فى تجديده وإكباره وجعله شيئاً أساسياً ، بالرغم من أنه أقل من ذلك ، ومحاولة إرجاع العلوم العربية إلى أصول يونانية .

سابعا : دراسة الحركات المضادة للإسلام قديماً وحديثا والتوسع فيها كالفتن الأهلية والخلافات المذهبية ، ومظاهر التفسخ والانقسام ، والادعاء بأنها أبرز ظواهر تاريخ الاسلام ، مع أن تاريخ الاسلام حافل بالايجابيات ومراحل القوة والتمكن ، وأن هذه الصور قليلة جـداً وموجودة فى تاريخ جميع الأمم والحضارات :

ثامنا : يدرس الاستشراق خصائص الفكر الاسلامى بروح الخصومة، وبفكرة مسبقة قائمة على أحكام قوامها سوء النية وعجز عن الانصاف. ويعجز الاستشراق

عن أن يتخلص من العواطف الخاصة وهو يدرس مجتمعاً ومنهجا متبايناً مع فكرة ومنهجة .

تاسعا : عمله على توسيع شقة الخلافات المذهبية بين المسلمين ، بينما لم تصل هذه الخلافات إلى ما وصلت إليه بين فرق الأديان الأخرى وخاصة النصرانية ، لا فى طبيعتها ولا فى مداها .

فلا يوجد خلاف بين المسلمين على المبادىء الأساسية للإسلام مثل وحدانية الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والاعتقاد فى أن القرآن هو كلام الله ، والايمان باليوم الآخر .

وإنما وجد الخلاف فى الامور التفصيلية فيما يعد أمراً طبيعيا فى مجتمع إنسانى يضم أناسا من مختلف المناطق والأجناس والثقافات ، وأنه لمن الخطأ أن تسمى هذه الخلافات اختلافات مذهبية لأنها ليست إلا اختلافات فقهية محصورة فى إطار دينى وقانونى عريض .

عاشراً : حاول الاستشراق الغض من عظمة الدعوة الاسلامية ، بإثارة شبهات متعددة منها : محاولة الادعاء بوجود صلة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى (وقد كشفت الأبحاث عكس دعوى الاستشراق فإن القانون الفرنسى الحديث ماخوذ من مذهب مالك نقله نابليون معه إلى أوروبا) كذلك التشكيك فى عالمية الرسالة الاسلامية ، بالقول بأن الآيات التى تدل على العالمية جاءت بعد استقرار الرسالة كلها مكية .

كذلك أثار الاستشراق الشكوك حول الكتب التى بعث بها النبى ﷺ إلى الملوك ، وزعموا أنها وضعت فى صورتها الأولى بعد قرن من حياة النبى ﷺ وقد كذبتهم الأبحاث العلمية الحديثة التى أثبتت صحة هذه الرسائل .

حادى عشر : يذهب المستشرقون إلى أبعد حدود المغالطة حين يواجهون تاريخ الاسلام بأهوائهم . فهم معجبون ببنى أمية لأن أحدهم (أبا سفيان) كان عدو الرسول ﷺ (ما كتبه هنرى لامانس عن معاوية ويزيد) أما عهد العباسيين فالدولة الاسلامية خرجت من يد العرب .

أما المغرب فيسمونها بلاد البربر . وهذه التسمية دسيسة تافهة لأن أهل المغرب عرب وبربر ولكنهم مسلمون أولا .

وهم لا يتحدثون عن الملوك الذين وطدوا الدولة بل عن الخارجين (بنى رستم الخارجين أيام عبد الرحمن الداخل ، وبنى مدرار أصحاب سلجماسة) ويقولون عن المأمون أن دولته فارسية ونهضة غير عربية ، ولا يتحدثون عن عهد الرشيد إلا عن نكبة البرامكة ، وينقلون رسالة مكذوبة عن أبى يوسف الى ابن المقفع فى معاملة أهل الذمة . لكى يؤكدوا ما يدعيه المستشرقون من سوء حالتهم فى ظل الاسلام ، ويهتمون بمدرسة حران الفلسفية ، ويقفون طويلا عند المعتزلة وينقلون عنهم رأى المسعودى دون غيره ، ويتحدثون عن المعتصم والأتراك ، ويتخيرون فقرات من رسالة الجاحظ فى فضاهم ، ولا يوردون فقرة واحدة عن فضل العرب

أما القرامطة فهم عندهم طلاب عدل وإصلاح ، ويروون قصه مصرع الخليفة المتوكل برواية الطبرى ، وتفاصيل فتنة الزنج فى جنوب العراق برواية النويرى وقصة القرامطة برواية الطبرى ، ويأتون بخطاب أحمد القرمطى الى الخليفة المقتدر وهو خطاب يصورهم فى صوره طلاب عدالة واصلاح .

وعندما يتحدثون عن الدول المشتقة التى انتهت بالقضاء على وحدة الدولة العباسية : الصفاريين والسامانيين والطاهريين والبويهيين . يطيلون الوقوف عندها لأنها دول فارسية .

وفى كتابة تاريخ المغرب حاولوا الوقيعة بين البربر والعرب . وفى المشرق حاولوا الايقاع بين العرب والفرس .

ويعجبون بالفاطميين لان مذهبهم لم يلق قبولا من جماعه المسلمين .

وعندما يتحدثون عن الصليبيين يفخرون بأنهم قتلوا عندما دخلوا القدس ٦٥ (ألفا) من المسلمين

ثانى عشر : وضعوا أساس الشبهات ثم نسبوها إلى كتاب عرب مسلمين فالشعر الجاهلى والادب الجاهلى أساسهما بحث عن انتحال الشعر لمرجليوث ، وكتاب الاسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق أساسه كتاب عن الخلافة

الاسلامية لمرجليوث : ومع المتنبي لطه حسين أساسه بحث لبلاشير ، وعلى هامش السيرة كتاب مسيحى يسمى على هامش الكتب القديمة . ورحم الله شيخ الازهر الاسبق الشيخ الخضر حسين الذى كشف هذه الحقائق على صفحات مجلة الهداية فى الثلاثينات من هذا القرن .

ثالث عشر : غاية التفسير المسيحى على التحليل والعرض ، فدرمنجم يقول أن تعاليم أهل الكتاب هى التى لفتت نظر سيدنا محمد ﷺ إلى الكمال الروحى والمثل الاعلى ،وجملته يتحدث فى ألغاز ، وهذا كذب صراح ،كما يحاولون تصوير أن القرآن جاء من الكتب السابقة . وأن الهجرة كانت إلى الحبشة لانها نصرانية والحقيقة أن الدافع الحقيق ليس لان للنجاشى كان نصرانيا بل لانه كان عادلا كما قال النبي ﷺ: لأن فيها ملكالا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق) ولذلك فليس للعاطفة الدينية أثر فى تصرفاته .

افتراء عجيب

وحاول درمنجم أن يستدل بأن الله رضى للناس الإسلام ديناً مع بقاء سائر الأديان التى سبقت كوحدة مندمجة ؟ وهذا غير صحيح ، لأن الإسلام جاء خاتماً للرسالات ومهيمنا عليها وداعيا أهل الكتاب للدخول فيه ، لأنه دين الحق فضلا عن أن النبى ﷺ لم يكن متصلا بأهل الكتاب .

ويدعى مرجليوث أن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ويتخذ لذلك دليلا من آية (اقرأ) مع أن اقرأ لا تعنى قراءة المكتوب وإنما تعنى قراءة ما يوحى إليه ، فضلا عن أن مرجليوث لم ينتبه إلى جواب الرسول ﷺ للملك : ما أنا بقارىء .

ومن أخطائهم ادعاؤهم أن العرب كانوا قبل الإسلام على استعداد للملك والنهضة ، وأن دور النبي ﷺ لم يكن أكثر من قيادة جماعة مهيئة ، وذلك باطل صراح ، فإن العرب فى مكة أمضوا ثلاثة عشر عاما فى محاربة الدعوة الإسلامية

والاصرار على عبادة الاصنام ، حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع آخر هو الذى تقبل دعوته .

ولقد كانت دراستهم لاحوال العرب قبل الاسلام تستهدف هذه المحاولة المضللة، مع أن الاسلام هو الذى شكل للعرب وجودهم الحقيقى ، وأن دعوة الاسلام إلى التوحيد كانت شيئاً جديداً بالنسبة للوثنية العربية .

وهذه محاولة مضللة فى الاهتمام بالغساسنة والمناذرة وإعلاء الجاهلية واعتبار الاسلام اقتباساً منها .

ومن ذلك إنكار الوحى للوصول إلى القول بأن القرآن من عمل محمد صلى الله عليه وسلم .

وكل محاولات الاستشراق ترمى إلى القول بأن الافكار الاساسية للاسلام مستقاة من الكتاب المقدس ، أو أن طابع الانجيل موجود فى القرآن ، أو أن هناك أصل يهودى للاسلام (بروكلمان — فون كرامر — مونتجمرى وات) وكل هذا باطل .

ذلك لان مصدر الاديان السماوية واحد ، ولذلك فلا بد أن تكون هناك علامات مشتركة لان الدين كله من عند الله وهو التوحيد ولكن رؤساء الاديان حرفوها ، أما الاسلام فقد حفظه الله تبارك وتعالى .

وقد عجز المستشرقون مع الاسف - كما يقول محمد أسد (ليوبولدفايس) - عن استيعاب خصائص التصور الاسلامى ومقوماته الاساسية ، ومن ثم فإنهم لا يستطيعون أن ينفذوا إلى أعماق الحياة الاسلامية ، ويستحيل على المستشرق أن يفهم الوحى ، أو الهجرة ، أو ينفذ إلى أعماقها لانه بعيد بحكم تكوينه النفسى وتفكيره عن هذا النظام .

ولهذا اعتبر (توينبى) الهجرة مبدأ التدهور فى تاريخ الرسالة المحمدية ؟؟ ويزعم مونتجمرى وات حين يتحدث عن المعاهدة التى عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين واليهود بعد الهجرة : أن كلمتى إسلام ومسلم لم تكن مستعملة فى الفترة المبكرة من العهد المدنى ، ويرجع هذا إلى أن — أى وات — تجاوز فى الترجمة وحرف .

ومن الشبهات التي يثيرها المستشرق فون كريمر الادعاء بأن الامامين الاوزاعي والشافعي ـ وقد ولدا في سوريا ـ كانا على علم بكثير من قواعد القانون الروماني البيزنطي ! وقد ثبت أن هذا القول مجرد أسطورة . فمن الثابت أن مدرسة بيروت لم تكن موجودة عند الفتح الاسلامي للشام ، وان الشافعي والاوزاعي لم يعرفا القانون البيزنطي وقد ولدا بعد زوال ما يسمى بمدرسة بيروت بأكثر من قرن من الزمان ، كما أن دراستها لم تكن في بيروت ، وإنما في منابع العلم الاسلامي في الحجاز .

رابع عشر : أن القول بأن مصادر النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن هي التوراة والانجيل ، من المسائل التي يكاد الاستشراق يجمع عليها ويرددها سواء في ذلك مستشرقي اليهود أو النصارى .

والواقع أن هذا الاتهام باطل بدليل واحد هو أن مفهوم القرآن للتوحيد يختلف عن مفهوم التوراة المكتوبة بايدي الاحبار أو الاناجيل الموجودة في ايدي الناس الآن .

فقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمل القرآن لواء الدعوة إلى التوحيد الخالص ، المطلق ، كما يقول الدكتور عبد الجليل شلبي . إله العالم كله واحد . إله مجرد من المادة وعن التركيب .

بينما كان الإله عند اليهود (يهوه) هو إلههم وحدهم ، وقد ظلوا على ذلك ردحاً من الزمن حتى جاء النبي (اليشع) أول من جهر بأنه إله العالم كله ، وظهر بشيء غريب أيضاً على اليهود هو أن حكم الله يجري على الملوك كما يجري على أبناء الشعب .

ولهذا لم تكن الديانة اليهودية موحدة بالمعنى الحقيقي ، وإنما كانت ديانة توحيد بالنسبة لجيرانها ، فقد كان لدى الآخرين آلهة متعددة للزرع والمطر والخصوبة والنجوم . كل له إله خاص ، وإذن فالتوحيد الاسلامي نوع فريد في كل ما أعلن من صفات الله خالق الكون سبحانه .

المسألة الثانية

إن القرآن لم يقتصر على ذكر قصص الاسرائيليين بل ذكر قصص داود وصالح والخضر وشعيب وسبأ ، وكثير من الأمم والقرون الأولى ، أما الكتاب المقدس - بصورته الحالية - فقد اقتصر على ذكر الشعب المختار وتاريخه وهو - ككتاب شامل - لم يتم بوضعه الحالي إلا بعد القرن الثاني الميلادي .

ولأنهم ينكرون الوحي السماوي فانهم يبحثون عن مصدر معلومات القرآن ولا يزالون مختلفين . قال مونتجمري وات : أن محمداً نال معلومات ممتزجه من اليهودية والمسيحية معا ، وبذل جهداً واسعاً فى سبيل الاستدلال على ذلك .

كذلك فعل (درمنجم) ، ولكن الوقائع فى المقارنة بين القرآن من ناحية وبين التوراة والانجيل تكذبهم فى هذا الادعاء العريض ، وتثبت تفرد القرآن حتى فيما يتعلق باليهود والنصارى وأنبيائهم .

خامس عشر : فى محاولة لتأييد النفوذ الاجنبي الذى فرض القانون الوضعى ، كانت حملة الاستشراق على الشريعة الاسلامية ، جولد زيهر وشاخت وغيرهم الذين كانوا ينشرون دعايتهم الرامية إلى القول بأن الفقه الاسلامى جامد ولم يتطور . وسيبقى جامداً إلى الابد أذ أنه لا يحتوى على قواعد عامه كلية . وإنما يتناول النوازل الخاصة .

وذهب بعضهم الى القول بانه لا يوجد فكر سياسى اسلامى . وانما الذى عرفه المسلمون هو الفكر الفارسى واليونانى . وقد كذبت الحقائق الناصعة دعاوى الاستشراق . وكتب كثيرون كاشفين عن عظمة الشريعة الاسلامية وقدرتها على الاستجابة للعصور والبيئات . وكيف أن للمسلمين فكرهم السياسى الخاص . ومن أبرز هذه الدراسات كتابات الدكتور ضياء الدين الريس .

كذلك فان مؤتمرات دولية من رجال القانون . عقدت خلال القرن الرابع عشر الهجرى :شهدت بأصالة واستقلال وعظمة الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى واكدت أن شريعة قائمة بنفسها ليست مأخوذة من غيرها . وأنها خلافا لما قال

خصوصها حية وقابلة لمسايرة الحياة الاجتماعيه فى إطار القواعد الثابتة والمتغيرة على السواء ، وأن مبادئها لهاقيمة حقوقية تشريعية لا مراء فيها .

سادس عشر : كذبت الحقائق دعاوى الاستشراق فى أن التصوف الاسلامى أخذ من افلاطونية الحديثة أو مذاهب النصرانية ، أو أن البلاغة العربية أخذت من كتاب الخطابه لارسطو ؛ أو أن الفقه الاسلامى أخذ من مدونة جوستنيان .

كذلك كذبت الوقائع دعاوى الاستشراق وأتباعهم عن اسقاط الرواية الاسلامية لشعر عصر البعثة النبوية وما كان منه طعنا على الاسلام ، وهجاء النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فان الاسلام لم يصادر هذا الادب والدليل مارواه ابن اسحق فى السيرةالنبوية من قصائدالمشركين واليهود .وهى لا تقل فى الاحصاء عن قصائد الشعراء مع النبى ﷺ وخاصة فى موقعتى بدر وأحد .

سابع عشر : ليس أدل على سوء نية الاستشراق فىالبحث من أصرار لويس ماسنيون علىمتابعةآثار الحلاج خلال أربعين سنة كاملةحتى نشر ذلك المجلد الضخم فى ١٤٠٠ صفحة ، ثم أخذ يتتبع متروكاته فطبع ما ورد عنه فى الفقرات النثرية ، ثم نشر ديوانه الشعرى وقد جمعها قطعاً متفرقة ، من نحو مائة مؤلف بين مخطوط ومطبوع ، وقد ركز اهتمامه على المقاطع التى يوضح بها الحلاج اتحاده بالله بل معادلته له به (جل شأن الله عن ذلك وعلا) .

كذلك ما حرص الاستشراق وأتباعه من إبراز الشخصيات المعـــادية للسنة وللاسلام ، مثل أبحاثهم عن مسيلمة الكذاب . وعن غيلان الدمشقى والإشادة بهما ، أو كذاب اليمن الأسود العنسى ، ووصف كل منهم بالبطولة ، مع أنهم جميعاً خارجون عن مفهوم الإسلام الصحيح .

ثامن عشر : لقد تجمع فى تحرير دائرة المعارف الإسلامية أخبث وأخطر رجال الاستشراق من (يهود) وغيرهم ، ممن يكنون الكراهيه للاسلام . ولذلك فقد حرصوا على صنع مواد الدائرة بمفاهيم كنسية ويهودية ، ويكفى أن تأخذ دائرة المعارف الاسلامية القصة اليهوديه للعهد القديم فى خلق آدم عليه السلام فتجعلها مصادر لقصة آدم فى دائرة معارف إسلامية :

كذلك فهم يأخذون بوجهة نظر اليهود فى إبراهيم وإسماعيل واسحق، ويزيفون مفهوم فلسطين وعروبتها .

ويحاول الاستشراق اليهودى إعطاء فكرة للعالم أن فلسطين كانت يهودية قبل الإسلام ، ويعمل ردنسون فى كتابه عن الرأسمالية والاسلام . على تشويه التاريخ الاسلامى ورفع العنصر اليهودى على حساب العرب .

تاسع عشر : حرص الاستشراق على تصوير المجتمع الاسلامى فى مختلف العصور وخاصة فى العصر الأول . على أنه مجتمع متفكك تقتل الأنانية رجاله . وهم فى كل محاولاتهم المسمومة للانتقاص من الاسلام ولغته وتاريخه وتراثه . يخضعون النصوص للفكرة التى يفرضونها مع تحريف هذه النصوص تحريفاً مقصوداً . وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف . وتحكمهم فى المصادر التى ينقلون منها . فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به فى تاريخ الحديث . ومن كتب التاريخ ما يحكمون به فى تاريخ الفقه . ويصححون ما ينقله الدميرى فى كتاب الحيوان (وهو ليس ذا قيمة علمية صحيحة) . ويكذبون ما يرويه مالك فى الموطا . كل ذلك انسياقاً مع الهوى وانحرافا عن الحق .

وهم يستخدمون كتب التراث استخداماً خبيثاً . فيبرزون كل ما يفرق . ويخفون كل ما يجمع . ويغلب عليهم سوء الظن وسوء الفهم والهوى .

العشرون : يحاول كل من الاستشراق النصرانى خطة والاستشراق الشيوعى خطة مختلفة والاستشراق الصهيونى خطة ثالثة . كل منها يهدف إلى تحقيق غرض خاص ولكنها جميعاً تلتقى عند الاسلام بالعداوة والخصومة والحقد الدفين .

(٤)

في مواجهة الحضارة

(١) حضارتان :

(٢) فى مواجهه الحضارة الغربية :

(٣) حضارة الاسلام المتجددة .

(٤) نحن وحضارة الغرب .

(٥) إعادة بناء الحضارة الاسلامية .

(٦) وسقطت مدرسة التبعية .

(١)

حضارتان : واحدة على طريق الأفول والأخرى تشرق شمسها مرة أخرى

لقد ظل المسلمون أزاء الحضارة الغربية مخدوعون يغرهم بريق المظاهر المادية بينما تنخر السوس فى هذه الحضارة لانها أساسا لم تقم على شرعة الله ولم تلتمس السنن الحقيقيه للحضارات والامم . ولقد تنبه أعلام من مفكرى الغرب إلى فساد هذه الحضارة واضطرابها منذ وقت بعيد ، بل أن منهم من كتب عن علامات انهيارها منذ الحرب العالمية الأولى واليوم يتجدد الحديث ويتوالى من الغربيين أنفسهم ليدفع خدعة التغريبين من قومنا الذين يريدون أن يصورون لنا هذا الطريق المحفوف بالأشواك وكأنه هو الطريق الوحيد لنهضتنا وتقدمنا . فى نفس الوقت الذى تهوى فيه الحضارة الغربية كأنها الكلب الملدوغ الذى يتلوى من الآلام . فما أحرانا أن نتأمل رأى أهل الحضارة فيها لنعلم أننا مخدوعون بالإعجاب بها أو التماس أسلوب عيشها وهى تمر باقسى مراحل انحلالها. ان دراسة منصفة للحضارة الغربية المعاصرة تدل على أن فيضان النهضة المادية قد وصل إلى آخر مداه وأنها غير قادرة على إعطاء السكينة لقلب الانسان وأن موجة من انعدام الثقة والطمانينة النفسية تغزو كل العالم .

ان داء القلق وانعدام الثقة قد غزا الجيل الجديد فى العالم كله وأن حركات الشباب الفوضوية هى نتاج لانعدام الطمانينة وأن العالم كله يتطلع الى نداء السماء . ولو نهض المسلمون يدعون البشرية الى دين الله بعد أن يطبقوه على أنفسهم لاستسلم العالم كله لهم .

أن أبرز ما فى حضارة الغرب هو العطاء المادى ولكنه لا يجد توازنا من عطاء النفس والروح ومن هنا نشأت الأزمة الخطيرة . أزمه مجافاة الأخلاق والدين والالتزام والمسئولية التى بنيت عليها أمانة الإنسان فى الارض كذلك فان المنهج الغربى يقوم على الهوى والاستعلاء ، ويستمد مفهومه من الفلسفه المادية

ولا يصلح المنهج العلمى إلا أن يقوم على ضبط النفس والإخاء البشرى وقد واجهت المناهج والأيدلوجيات الغربية هزائم متوالية فى التطبيق لأنها عارضت الفكرة ولأنها جرت وراء الشهوات ولأنها لبشريتها لم تتمكن من منابع تحولات الزمن والبيئات . ومن مقاتل الحضارة الغربية: العلمانية والفصل بين القيم والانشطارية.

تقول السيدة مريم جميلة الأمريكية المسلمة : ان العلمانية فى أوربا اتخذت من العلم الحديث انفذ وأحد سلاح للغرب لغزو البلاد وقهر الأذهان وتسخير القلوب ، وقد استخدمت أوربا هذا السلاح على الكنيسة الكاثوليكية ثم أبطلت بها سائر الأديان والمعتقدات بوصفها خرافات وأوهاماً فصارت المادية ديناً جديداً ينسخ سائر الأديان السابقة ونالت نظريات هذا الدين الجديد قدسية بحيث أنها تقبل دون نقد أو أعمال رأى أو معالجة فكر ، كما كانت العقائد الدينية القديمة تقبل فى الماضى وتمكنت المادية من الاستيلاء الكامل والقول الفصل فى كل أمور الحياة إلى أن فسدت الكنيسة الرومانية نفسها فساداً كاملا شاملا .

وكانت الدولة العلمانية القوية التى حطمت صلب الدولة المسيحية ثم ألحقت الثورة الفرنسية بالكنيسة الرومانية ضربة قاضية وتمخضت الفلسفات المادية الخالصة التى دفعت إلى الثورة الفرنسية عن ثورة صناعية ومن الثورة الصناعية تبعث الشيوعية . لقد تغيرت نظرة الإنسان إلى الطبيعة فاصبحت نظرة الاستقلال فى اندفاع دون تحفظ ودون قيد فتعمل على استغلال الطبيعة إلى حد تدمير البيئة الطبيعية التى نستمد منها حياتنا ونعتمد عليها فى معيشتنا فنشأت أخطار جديدة كالتلوث وتدفق السكان والكثافه فى البيئة وتدلسها :

ويتجه العالم إلى تدمير الجنس البشرى إذا نضبت الحياة على صفحة الحياة . لقد كان تلوث الأرض نتيجة حتمية لتلوث الروح الذى كان نتيجة عاجلة للتصور المادى الملحد ولدراسة العلم بدون الرجوع إلى الخالق فيجرى استنفاذ المصادر واستنزافها على الأرض لأن العلماء لا يشعرون بواجبهم ومسئولياتهم التى تعود إليهم .

والواجب علينا أن نحرر أنفسنا ونحرر العلم من فلسفة المادية ونقاوم تأثيرها غير الانسانى وتوجد تصوراً موحد العلم فى سبيل إيجاد علم اسلامى جديد بجهود

نفسنا وتفكيرنا الخالص . ويجب التخلى عن التصور الخاطىء للتقدم المادى والرفاهية المادية كهدف للحياة الانسانية . ان المجتمعات التى حاولت سد متطلباتها الخارجية لم تنجح الا فى ايجاد فقر روحى داخلى يحل محل الثراء الخارجى لها فتعانى المجتمعات الغنية نتيجة لذلك من الفقر الروحى معاناة سافرة لا تساويها معاناة . هذه المرحلة المفزعة للتطور كانت مسئولة عن تحويل الغرب الى عبودية الآلات والماكينات فأمريكا تستعبد العالم كله بطريق حياتها ، تستعبدها الآلات والماكينات ، عبيد نمط خارجى للحياة ، للتقدم المادى ، تأسرها المصانع والمختبرات . ولقد ذابت شخصية الإنسان فى بوتقة الحياة الآلية والتكنولوجية بحيث أن أفكاره وعواطفه ومشاعره قد صهرت فيها وصارت ميكانيكية ، فلا يحمل فى صدره قلبا انسانيا وانما يحمل صفات الصخر والفولاذ فاصبح ضيق الفكر ومقرضا شحيحا بارداً لا تثور فية العاطفة ولا تتحرك المشاعر وفقد قلبه الحرارة وعيونه الندى » .

هذا تصوير الحضارة العربية نقم واحدة من أهلها تكشف للمسلمين مدى بشاعة الصورة التى يحاولون التردى فيها فإذا أضفنا إلى هذا ثلاثة ملايين إصابة كل عام بالامراض الزهرية وأن هذه الامراض تنتشر بين أوساط الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٤ سنة ، ومما يبعث القلق أن نسبة الفتيات اللواتى لم يصل سنهن العشرين قد تضاعفت ثلاث مرات إصابتهن .

ويقول الدكتور فولتر أن سبب انتشار الامراض الزهريه يكمن فى التدهور الاخلاقى والانحلال الذى تشهده المجتمعات الغربية .

ويصور والترشوبارت الروح الغربية فيقول أن الروح الغربية يتفشى فيها الخوف والقلق وهى شديدة الاثرة نزاعة إلى الفردية محبة للتنافس وأن الغرب قد جعل الإنسانية ذات تراث واسع بتفوقه فى الصناعة ولكنه جرد الانسان من الروح ، وسيفقد الغرب زعامته ويصبح لا يمثل الطراز الإنسانى الغالب وكثير من ذوى العقول الراجحة يتوقون الى أن يرو نهاية الثقافة الغربية البالية وهم يشعرون لفقرها وافلاسها ويتطلعون الى ثقافة فى تخلفها . ان الفرد من خلال هذا النموذج الثقافى لا يعبأ بخلاص روحه وانما يهمه فرض سلطانه

وتوسيع دائرة نفوذه : وقد نجح الفرد فى تغيير وجه الارض ولكن هذه الثقافه أخذت تمـــلأ سماءها السحب وتومض حولها البروق وتعصف بها الاعاصير وأوربا تنزلق الى الهاوية وتقترب الى النهاية ولا شيء يستطيع دفع هذا المصير المحتوم » .

هذه هى مشاعر الغربيين أنفسهم أزاء حضارتهم المتداعية التى تمر بمرحلة الأزمة والتصدع .

لقد أنشأ الغربيون هذه الحضارة استمداداً من المنهج العلمى التجريبي ولكنهم حجبوا أنفسهم عن نور العدل والحق والرحم والآخاء الإنسانى واستطاعت اليهوديه التلمودية احتوائهم وتمزيق روحهم الدينى وإحلال مفهوم التفسير المادى لتاريخ إلى مفاهيمهم والسيطرة عليهم أخلاقياً وتدمير مقوماتهم الروحية والمعنوية وإثارة روح الفاحشة والإثم والفساد بينهم إلى الدرجـــة التى دمرت قيمهم وأصبحت مجتمعاتهم لقمة سائغة فى يد التلمودية الصهيونية وسوف تسقط الحضارة الغربية ويتطلع العالم إلى مثل أعلى وحضارة جامع للروح والمادة والعلم والدين والدنيا والآخرة ، وأن الحضارة الإسلامية مرجوة لتحقيق هذا الأمل .

وبعد فان ما قدمته الحضارة الإسلامية إلى الغرب هو نتاج الإسلام ولذلك فن الغبن أن يوصف بأنه أثر العرب فى الحضارة الأوربية كما يصوره البعض أو كما يعبر عنه أمثال جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) فان الاسلام فى الحقيقة هو الذى قدم ذلك الأصل الأصيل الذى قام عـــلى أساسه ذلك المجتمع الاسلامى ، أو كما صورته الدكتورة سجريد هنوكه تحت عنوانها الرائع : شمس الله تسطع على الغرب » .

أن عبارة إن المسلمين تلقوا تراث من سبق ولـكنهم زادوا عليه ليس تعبيراً دقيقاً عما فعل المسلمون . إن المسلمين بدأوا من منطلق « لا إله الا الله » ليعيدوا النظر فى كل التراث البشرى الذى كان موجوداً فى عصرهم من مخلفات اليونان والرمان والفرس والهنود وبابل ومن منطلق التوحيد نظر المسلمون ـــ ولا تقول العرب ـــ لان الذين نظروا هم كل من أظلهم الاسلام وكانت لغتهم فى البحث هى العربية ، رفضوا الصنم والاقنوم والتعدد ، وحاكموا هذا التراث كله على هذا

القانون . ومن ثم كان لهم موقفهم الواضح القوى من الفلســفة الاغريق ومن أرسطو بالذات فهم لم يقبلوا منطق أرسطو لانه يقوم على منطق غير منطق التوحيد ولم يقبلوا منطق أرسطو لانه يقوم على خلق عبودية العبيد (وما يقال عن أنهم قبلوا منطق أرسطو ليس من العلم الدقيق) فان علماء المسلمين وقفوا وقفة رجل واحد ازاء فلسفة أرسطو السياسية التى تقدس عبودية العبيد وازاء منطقة القائم على علم الاصنام وكذلك رفضوا مفهوم الدراما الاغريق وتراجيديات سوفوكليس واسخليوس واريسيوفان وإضرابه لانها كانت تحمل مفهوما لا يقره التوحيد فهى حافلة بآلهة تتصارع وأرباب تلهو وتلعب وقدر متربص بالناس .

وعلى الأجيال الجديدة من المسلمين فى مطالع القرن العشرين ان تعيد النظر فى المترجمات الغربية المعاصرة على هذا الضوء فهى امتــــداد لدراما الاغريق فى مفهومها ووثنيتها وهى تعارض تمام المعارضة مفهوم التوحيد الخالص .

وقد كشف عديد من علماء أوربا عن دور المسلمين فى العطاء : ذلك العطاء الذى نمته الحضارة المعاصرة وإن كانت قد غيرت وجهته ، ولديورالت وجوستاف لوبرن سجريد هونكه . وشهدوا إن جامعات قرطبة وطليطلة وصقلية كانت تموج بحركة رائعة ومد متدفق من البحث العلمى ، ومنه أخذ علماء الغرب أصول ... العلمى التجريبى .

وقال ابن أياس فى كتابه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) أنه كان مابين القرن الحادى عشر والرابع عشر الميلادى كان الشخص الذى يمسه الجنون فى أوربا يساق إلى محرقة النار ليحرقوه حيا وعلى رؤس الاستشهاد اعتقاداً بان الشيطان قد فارق روح المجنون بالحريق ، فى ذلك الوقت كان المسلمون يعالجون المجنون أنه حالة مرضية وخلل عقلى ونفسى .

ويتحدث العلماء المؤرخون كيف أن كتاب الحاوى فى الطب والعلاج لا... سينا كان من أكمل دوائر المعارف الطبية فى التاريخ الانسانى وان فرنسو الأول ملك فرنسا أراد مرة أن يطلع عليه فارسل إلى أمين مكتبه العامة يطلب نسخة فرد عليه أمين المكتبة بان على الملك أن يودع لدى المكتبة أنفس جواهر التاريخ الفرنسى رهنا لاعارة الكتاب وضمانا لعودته إلى حوزة الجامعة .

(٢)

يتشكل فى هذه الآونة موقف جديد للغرب من الإسلام فى محاولة جادة بدأت منذ وقت ثم إتسعت حتى أخذت ترسم صورة مضيئة وسط ذلك الأفق المضبب من خلال ذلك الركام المادى شديد الخطر والقتامة وقد ظهرت محاولات الفهم للإسلام والاقتراب منه فى أعمال كثيرة وكتابات متصلة منها كتابات أمثال درابر وجوستاف لوبون وبرنارد شو وكارليل واليوم تتسع الحلقة فتشمل العلماء التجريبيون وبعض المستشرقين ومن هؤلاء رجيه جارودى الذى أصدر كتابه (حوار مع المدنيات) مارس ١٩٧٧ يتحدث فيه عن بدأ اتصاله بالاسلام منذ عام ١٩٤٥ حيث التقى بعدد من المفكرين والعلماء والرؤساء المسلمين ، وفى رأيه أن أزمة الفكر الماركسى لا يمكن أن تجد لها حلا إلا بالاتصال بعدد من المدنيات وفى مقدمتها الحضارة الاسلامية ويتساءل جارودى : هل الالحاد ضرورى ويجيب بان الالحاد كان بالنسبة لماركس موجة عابرة ثم يتحدث عن مفهوم جديد للتنمية ينظم علاقة الانسان بالطبيعة من ناحية وعلاقة الانسان بالجانب الالهى أو العنصر الربانى ومن هنا ينفتح الماركسية على الايمان ولعل هذا الاتجاه قد سبقه قول هورلى دمان فى كتابه الاشتراكية البناءة أن ماركس اندفع نحو العدالة لسبب أخلاقى ولكنه حذف « الأخلاقيه » من مذهبه ولذلك فان هذا المبدأ سينتهى إلى الانتهازية فماركس يدفع الطبقة العاملة (البروليتاريا) إلى السلطة من أجل مصالحها فقط ومن هنا لا يكون هناك فرق بينه وبين الفكر الرأسمالى فإلغاء الجانب الأخلاقى سيدمر مذهبه بالانتهازية وانتهى دومان إلى أنه لا بد من إضافة القيم الاخلاقية إلى هذا المذهب وهنا لا بد من الايمان بوجود الله لأن هذا هو مصدر الاخلاق .

هذا هو الموقف فى مجال الفكر الماركسى ، محاولات جديده لادخال الايمان بدلا من الالحاد ويقول جارودى : نحن نريد إيمانا يتدخل فى السياسة والاقتصاد لا ليستغلها بل ليصلحها .

أما بالنسبة للفكر الديمقراطى الغربى فقد أخذ ينفتح على الاسلام فأصحاب الديمقراطية الليبرالية فى الغرب رغم أن جذورهم مسيحية وهم فى معظمهم يؤمنون

بفصل الدين عن الدولة . وتتطلع الديمقراطية إلى الاسلام . يقول جاك أوسترووى لا تظنوا أن هناك نظامين فقط فى العالم أحدهما اشتراكى والثانى رأسمالى فهناك نظام ثالث متميز ومستقل هو الاسلام وهو نظام كما يقول قابل للحياة والتطبيق إذا عنى أصحابه بأمره . لقد اكتشف هذا الكاتب أن فى الاسلام نظاماً اقتصادياً متميزاً يعالج المسألة الاقتصادية والاجتماعية من موقف مختلف عن موقف المذهبين السائدين فى عالم اليوم .

ومن ناحية ثالثة ظاهرة «نقد المسيحية» وإعادة النظر فى مسلماتها فى الغرب يقول الدكتور محمد المبارك : أن التيار المسيحى فى أوربا وأمريكا فى حالة تفاعل مع المفاهيم العلمانية والالحادية ، إلا أن هناك الاتجاه الذى بدأ باتخاذ مواقف جديدة باتجاه تفهم حقائق الاسلام ، وقد كشف البحث للعلماء حقائق جديدة منها كتاب أصدره سبعة رهبان اقروا فيه بأن المسيح بشر أرسله الله وليس الهاً .

وقد أحدث هذا الكتاب هزة كبيرة فى الأرساط الكنسية وقد توصل هؤلاء الى هذه النتيجة التى أعلنها الاسلام منذ قرون عديدة نتيجة بحثهم الخالص والصارم فى اطار المسيحية .

وكتب أستاذ فرنسى فى اللاهوت رسالة الى الدكتور محمد المبارك يعلمه فيها أنه قرر أن ينشىء مجلة اسمها القناع ليكتب فيها عن حقائق الاسلام للجمهور الأوربى الناطق بالفرنسية وقال أنه درس الاسلام فوصل الى اقتناع بان الوحى امتد من ابراهيم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال : الى متى سيبقى الغرب أعمى عن حقائق الاسلام . وهناك جراح فرنسى شهير ، هو الدكتور موريس بوكاى أصدر كتاباً ترجم الى العربية هو (التوراه والانجيل والقرآن : والعلم) وقد نشأ المؤلف نشأة كاثوليكية معادية لكل ما هو اسلامى ، الا أن هذا الطبيب الجراح تصادف أن أتى الى السعودية لعلاج الملك فيصل فسمع منه كلمات قليلة عن الاسلام وعاد الى بلاده لينكب على قراءة القرآن بالفرنسية ودراسة المؤلفات الأخرى بالفرنسية عن الاسلام لينتهى الى أن هذا الكتاب (القرآن) لا يمكن أن يكون إلا من عند الله تبارك وتعالى ويتحدث فى كتابه الذى يقارن فيه من الكتب الثلاثة عن أن فى الانجيل والتوراه مالا يمكن قبوله علميا ، وهذا دليل كما يقول على أن محمداً

لم يأخذ من التوراة والإنجيل كما يذهب إلى ذلك بعض أعداء الإسلام ، وفى الكتاب تحقيق عن فرعون الذى غرق فى البحر فى عهد النبى موسى عليه السلام وقد جاء فى القرآن الكريم (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) وحول هذه الآية يقول الكاتب : من أدرى محمدا بهذه الواقعة التى تفصله عنها آلاف من السنين . ويقول الدكتور موريس أن المعجزة فى القرآن ليس ما ذكره فقط ولكن الأبلغ إعجازاً هو مالم يذكره فقد تنزه القرآن عن ذكر الأفكار الخاطئة التى كانت سائدة فى قرون مضت .

ويلاحظ بوكاى أن المفسرين القدامى لم يكن فى استطاعتهم تفسير القرآن بشكل كامل فاكتشافات العلم الحديث مكنتنا من إدراك مالم يكن بإمكانهم إدراكه فمسألة تكوين الجنين فى الرحم ومراحل هذا التكوين كانت تنتظر الكشف العلمى الحديث ، حتى نفهم معانيها : العلقة ، الأمشاج ، النطفة ، كما يشير أيضاً إلى أن هذا الكتاب لم يتعرض لما تعرضت له الكتب الأخرى من حذف وإضافات وتحريف

(١) هذا ومن ناحية أخرى نرى أن الغرب يردد الآن صيحات عالية بالمطالبة بايجاد نظام عالمى جديد ، سواء فى مجال الاقتصاد بعد أن اضطربت الرأسمالية والماركسية على السواء ولم تستطع أن يحقق شيئا .

وفى هذا المجال تقدم الاسلام ، كذلك فان هناك من يدعو إلى إيجاد نظام عالمى جديد فى مجال الحضارة بالتحاور مع حضارة الاسلام، وفى هذا يقول الدكتور محمد المبارك : أننا لا نعمل على هدم الحضارات الحديثه فى أوربا والغرب عموما ، ولكننا نكملها باعتبار أن رسالة محمد هى الحلقة الأخيرة من سلسلة الدين الواحد فليس هناك أديان وإنما الدين واحد ورب الدين واحد إبتداء من أبينا إبراهيم ورسالتنا أن نجمع الناس على منهج واحد هو النهج الربانى : إن الدين عند الله الاسلام .

وإذا كنا نجد أن الانفتاح الماركسى على الحضارة الاسلامية ونجد الانفتاح الليبرالى على الحضارة الاسلامية ونجـــد الانفتاح العقائدى على مفهوم التوحيد

الاسلامى ، ونجد فى الغرب ذلك التطلع الواضح إلى أن الاسلام قادر على العطاء فى مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة بعد أن عجزت الأيدلوجيات ، هذه الآفاق تحتاج إلى رعاية وتوجيه لتقديم الاسلام غضاً طرياً :

وهى تعطينا الحصانة الكاملة أزاء نقل حضارة الغرب المتهرأة ، وتعطينا الثقة بأن ما ما نملكه هو أصدق منهج وأعظم أسلوب ، وهو المنطلق الحقيقى لخروج البشرية من أزمتها إلى إقامة المجتمع الربانى .

(٢)

(٣) الحضارة الغربية المعاصرة : بشهادة المصنفين من أهل الغرب أنفسهم تدخل اليوم مرحلة المحاق والأمثلة كثيرة والمؤلفات التى تكشف هذه الحقيقة عديدة .

أمامنا كتاب « إنسان المستقبل » لمارتن باولى :

The Private Futaae

الذى يقول : ماذا حدث للانسان فى الغرب : لقد انهارت سلطة الأسرة ودمرت الوفرة كل الأخطار العظيمة . لقد بدأ الانهيار فعلا فى المجتمع الصناعى بانهيار كيان الأسرة وسلطة الأب بعد ضعف وانقطاع الصلة بين الاصول والفروع والجدود والأعمام . بل أن الأطفال اليوم ينزعون إلى مغادرة البيت فور انتهائهم من الدراسة لا عند الزواج كما كان يحدث من قبل . بل أن الزوجة نفسها التى تعتبر آخر حجر فى بنيان سلطة الأسرة بدأ وضعها يتغير أولا بالتمرد على الالتزامات التى توثقها بالأسرة وثانياً تزايد معدل الطلاق حتى العلاقة بين الآباء والأبناء أصبحت تعصف بها الشكوك بعد سيل الدراسات والنظريات التى تبين العلاقة الوثيقة بين الشذوذ العقلى والعلاقة الأسرية .

لقد دمرت الوفرة الأفكار العظيمة وقضت على الأسرة وأطاحت بنظام الزواج وسفهت الحب الرومانى وحولت الديمقراطية التقليدية إلى أسطوانات دعائية مسجلة . وهى تتجة الى تقليص العقد الاجتماعى الى سلطة محـــددة « غير مرغوب فيها » .

اذا ذهبنا نستقصى هذا الجانب من للكشف عن انحراف الحضارة الغربية

واضطرابها لوجدنا الكثير الذى يقوله أهل هذه الحضارة عن مجتمعاتهم ، والذى اعتقد أننا فى أشد الحاجة الى أن نعرفه ونعى حكمته لنرد تلك الموجة الضالة التى يحاول أن يدفعنا اليها بعضا من المنتسبين الى لغتنا وبلادنا من أهل التبعية والتغريب والشعوبية ، حين يزيفون للناس أسلوب العيش الغربى ويعملون ماوسعهم فى سبيل النقض من أسلوب الاسلام الاجتماعى والحضارى الذى هو الملاذ الاخير للبشرية اليوم بعد أن جربت الايدلوجيات المختلفة والمذاهب المختلفة من الوجودية غرباً إلى البوذية شرقاً دون أن تجد الاسلوب الاصيل الذى يرضى النفس الانسانية ويقدم لها أشواقها الروحية وحاجاتها المادية معاً فى كأس واحدة وهو ما يفعله الاسلام : الاسلام المهج ، وليس هذا الواقع الذى يعيشه المسلمون والذى لا يمثل الاسلام تمثيلا صحيحاً .

ان علينا أن نعرف أن الحضارة الغربية التى بدأت مستمدة جذورها من المنهج العلمى التجريبى الاسلامى ولكنها نقلت ذلك الى أفق آخر هو أفق الفلسفة اليونانية المادية والاباحية وقد أعان على ذلك تقلبها للفلسفات التى قدمها فرويد فى مجال علم النفس والاخلاق ودوركايم فى مجال العلوم الاجتماعية وماركس فى مجال الاقتصاد وسارتر فى مجال الوجودية ، كل هذا هو الذى حول الفكر الغربى من المفهوم الاصيل لرسالة الانسانية ومسئوليته وأمانته وبعثه بعد موته وحسابه وجزاءه .

فان الفلسفة المادية التى انبثقت عنها تلك الدعوات التى وصلت إلى أعماق النفس الغربية فأحدثت فيها تلك الأزمة العصبية ، والتمزق والانهيار هى محاولتها الخروج عن الفطرة والإصالة بانكار أمانة الإنسان ومسئوليته فى هذا الارض على النحو الذى جاء به الدين الحق للانسان .

وبالرغم أن العلماء فى مختلف مجالات النفس والاجتماع والعلم التجريبى قد كشفوا عن فساد هذه النظريات فان الفلسفة المادية تدفعها قوى خطيرة لها هدف بعيد فى إذاعتها وإغراء العقليات الضعيفة والساذجة بها . هذا الهدف هو تدمير البشرية قبل السيطرة عليها وهو ما كشفت عنه بروتوكولات حكماء صهيون ولقد تبين بالوثائق العلمية ان هذه الفلسفات استندت على أساطير قديمة ليست لها أى صفة علمية ، وأن المسلمات التى قدمتها قد كشفت التجارب الاحصائية عن

خطأها ، بل أن علماء النفس التجريبين قد خطأوا فرويد فى فرضيته من أن الجنس هو المصدر الوحيد لطموحه ، بل لقد تكشف أن ما جاء به فرويد على أنه صيغة علم هو من صميم الفلسفة التلموديه وقد كشفت الكاتبة الفرنسية (لوس إيراجراى) عن أن نظريات فرويد تناقض الفطرة وأن رأيه فى المرأة لا يعدو مفهوم أفلاطون الذى يرى أن المرأة ليست كائنا بشرياً ، وإلى ذلك فان فرويد ينظر إلى المرأة على أنها موضع لاشباع الرغبات الجنسية وقال بنيامين نيلسون فى كتابه فرويد والقرن العشرين : إن علم النفس التحليلى عند فرويد يمثل علم الكبت والقمع ، وأنه اعتمد على الأساطير القديمة مثل عقده أوديب والصراع بين ايروس إله الحب والحياه وثاناموس اله الموت ، ويقول سعيد حارب الذى نقلنا عنه هذه المراجعات أن نظريات فرويد فى الدول الغربية وبين مفكريها قد سقطت لأنها عجزت عن أن تلبى فيهم نداء الحقيقة والعلم فهى نظرية جريئة تبحث فى جانب يسير من جوانب السلوك الانسانى ، وهو العامل الجنسى وتهمل كثيراً من الجوانب الهامة .

وكما كشف علماء الغرب فساد نظرية فرويد الذائعه الصيت والتى تدرس فى المعاهد والجامعات على أنها علم — وليس على أنها فروض قابلة للخطأ والصواب ـ كذلك كشفوا فساد نظرية دور كايم التى علمت جيلا ضخما فى البلاد العربية والاسلامية ممن ذهبوا الى جامعات الغرب .

ودوركايم تلميذ أصيل بمدرسة الفلسفة المادية التى أقامها هربرت سبنسر وتلميذ بمدرسة التفسير المادى للتاريخ التى أقامها ماركس وانجلز ، وهو فى ضوء المذهب الماركسى ينكر أهمية الفرد ومسئوليته ، ويعلى شأن الظاهرة الاجتماعية على المسئولية الفردية وهو يرجع الأخطاء إلى المجتمع فى محاولة لتبرير خطأ الفرد وجريمته ولإحلاله من المسئولية فى كل ما يصنع ، ولا ريب أن مفهوم دوركايم الأسرة والجريمة والحياة هو مفهوم عكسى مناقض للفطرة ومخالف لما جاءت فى الاديان ، وينكر التدين الفطرى ، فى الانسان ، وينكر حياة الانسان فى أسرته ، ويرى أن الجريمة هى عمل فطرى ، وهو بذلك فتح الطريق أمام الأفراد للتحرر من المسئولية الاجماعية والالتزام الاخلاقى ليدفعهم إلى عمل كل شىء محطما كل الضوابط والقيود والحدود التى أقامتها الأديان والتزمتها البشرية فى سعيها نحو اقامة المجتمع

الربانى ، وبعبارة أصح أنه يحاول أن يوجد مبرراً أمام الافراد فى أعمالهم المعارضة الأخلاق والضوابط ، وإلقاء التبعة على المجتمع ، ومن ذلك فساد نظريته فى أن المجتمع هو الذى يخلق الأديان والعقائد والقيم الروحية والأخلاقية ولذلك فهو يراها عبث لا طائل منه . وإذا كان ماركس يتجه بالانسان إلى حيوانية العيش والبحث عن اللقمة ، وفرويد يصور الانسان بأنه عبد لشهواته ونزواته ، فإن دوركايم يكمل الحلقة فى افساد البشرية حين يفسر الانسان تفسيراً مادياً حيوانياً صرفا حيث يلغى انسانية الانسان . هذا هو الانسان الذى خلقته الفلسفة المادية فى الغرب اليوم . هذا المفهوم هو الذى يوجه الحضارة المعاصرة وجهتها الى النهاية المحتومة ، وذلك أن سارتر لم يلبث بعد أن عاد الشباب الاوربى مهزوماً متحلل الخلق ، ان دعاه الى الانطلاق فاندفع ينشىء علب الليل وعرى الشواطىء والفساد فى الميادين ، وكانت آخر الصيحات ظهور مجموعات عارية فى الميادين لجأة ثم اختفائها : وقد شهد المفكرون الغربيون بأن الوجودية بمفاهيمها تمثل منحدراً من أشد منحدرات المجتمع البشرى الى الهاوية التى لا قرار لها .

ولا ريب أن المجتمع الغربى اليوم تحت طرقات معاول هذه الدعوات الهدامة يدخل مرحلة اليأس والتمزق والغربة التى بدأها مفهوم « الخطيئة الأولى » والذى أنشأ روح التشاؤم فى الآداب الغربية والفكر الغربى وهـــذا ما يصوره الوجوديون أنفسهم حين يصفون جيلهم بأنه جيل بلا أمل ولا عمق ولا مستقبل

(٣)

ومن هنا نصل إلى حقيقتين هامتين .

أولا : ان هذه الحضارة المنهارة لا تستطيع أن تعطى المسلمين شيئا ذا بال وهم بسبيل بناء حضارتهم الإسلامية الجديدة أو فى مرحلتها المستأنفة .

ثانياً : ان الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية لا يصدران من مصدر واحد، ولا يلتقيان من حيث الزمان والمكان فهذه الحضارة الإسلامية التى كفت عن العطاء خلال القرون الثلاثة الماضية تعود من جديد إلى الحياة بينما تدخل الحضارة الغربية فى مرحلة المحاق والافول بعد تجربتها المريرة مع البشرية وهى أن تمكن

قد قدمت إضافات واسعة فى مجال الماديات فإنها عجزت عن أن تستكشف الجوانب المعنوية والروحية التى هى الشطر الآخر للانسان وللحضارة وكان أكبر أزماتها انهيار الجوانب الأخلاقية وعدم الإيمان بالله صانع الحضارة والعلم والتكنولوجيا ومعلم الإنسان ومن هذا المنعمز عجزت أن يحقق للانسان ما يطمح إليه .

وتجرى اليوم محاولات فى الغرب للتعرف على حضارة الاسلام وعلى الانسان نفسه كمنقذ للبشرية من أزمتها ولكن قوى الصهيونية تفسد هذه المحاولات وتخدع أهل الغرب عن الحقائق الصحيحة وتزيف الصورة المشرقة للاسلام وتجد من بعض أهل الكتاب متابعة للأهواء بالتعصب والكراهية والحقد مما يحول دون فهم حقيقة الاسلام أو الاعتراف بعظمته وقدرته على حل مشاكل البشرية ،ولقد نشأ منذ وقت بعيد تيار واضح وعميق فى الغرب يعرف قدر الاسلام ويعترف بأثره الواضح فى حضارة الغرب وقد جاء هذا رداً على حملة الغدر ومؤامرة الصمت والانكار الذى ظل يسرى سنوات وسنوات بفضل الاسلام ولكن هذا الرافد الذى يعترف فى الغرب بالاسلام منهجاً صالحاً للمجتمع البشرى وبديلا للمنهج الغربى المعاصر (لبيراليه وماركسيه) ما زال نموه لما يكتمل بعد واعتقد أنه سيصل فى القرن الخامس عشر إلى مرحلة النضوج والكمال فمازال أمام الغربيين شوطاً طويلا حتى يتنازلوا عن ذلك الصلف الذى ظل يغذى عقولهم سنوات طويلة عن الرجل الأبيض وحضارته التى لا تهزم وعن سيادته للسود والصفر والملونين ، وعن دوره فى التكنولوجيا والوصول إلى الكواكب وهو ينسى أنه محاصر الآن حصاراً شديداً لا فكاك منه بين القنابل الذرية والهيدروجينية المدمرة لمدنه ومدنيته والمذاهب المادية المدمرة لنفسيته وكيانه الروحى .

(٢)

فى مواجهة الحضارة الغربية

إن حضاره الغرب تمر اليوم بمرحلة الانهيار والهزيمة والتحلل وهو الدور مرت به من قبل حضارات الرومان والفرس وكل حضاره خرجت عن القيم الدينية والأخلاقية وانحدرت إلى الترف والاباحية والفساد.

ومع أن هذه الظاهره واضحة تماما فى عشرات من الصور والمواقف فان بعض دعاة التغريب ما زالوا أمثال حسين فوزى ولويس عوض وغيرهم يكذبون على أهلهم ويخدعوهم بتصوير هذه الحضاره على أنها المثل الأعلى والغاية المرتجاه لكل ثقافة وأمة. ولو أننا تدبرنا قليلا ما يقوله أمثال جيرالد هيرد فى كتابه (القيم الخلقية الثابتة) حين يقول :

« إن الغرب تمس ومتخلف بتحكيمة القانون العلمى فى كل شىء حتى غدا الانسان إلة قابلة للتحكيم والتحكم ما دام كل شىء ما كينة فكل شىء لا هدف ولا أخلاق له ولا قيم له إن كل ما يملك الغرب هو القدره على التصنيع والقدره وحدها قد تدمر والاسلام تحقيق لا بالشفاه ولكن بالقلب والعمل معاً »

وقد أشار إلى معانى الفساد فى الحضاره الغربية باجشون كثيرون فى مقدمتهم (والترشوبارت) الذى يقول : إن الروح الغربية يتفشى فيها الخوف والقلق وهى شديده الأثرة نزاعة إلى الفردية محبة للتنافس.

صحيح أن الغرب قد جعل الانسانيه ذات تراث واسع بتفوقه فى الصناعة ولكنه جرد الانسان من الروح وسيفقد الغرب زعامته ويصبح لا يمثل الطراز الانسانى فى الغالب وكثير من ذوى العقول الراجحة يتوقون إلى أن يروا نهاية الثقافة الغربية البالية وهم يشعرون بفقرها وإفلاسها ويتطلعون إلى ثقافة تخلفها. إن الفرد من خلال هذا النموذج الثقافى — الغربى — لا يعبأ بخلاص روحه وانما يهمه فرض سلطانه وتوسيع دائره نفوذه وقد نجح الفرد فى تغيير وجه الارض

ولكن هذه الثقافة أخذت تملأ سماءها السحب وتومض حولها البروق وتعصف بها الأعاصير وأوربا تنزلق نحو الهاوية وتقترب من النهاية ولا شيء يستطيع دفع هذا المصير المظلم » .

نحن نقول لهم أن هذا المصير المظلم الذى يواجه البشرية يستطيع شيء واحد دفعه هو « الإسلام » بمفهوم العودة إلى الله وربط الأسباب كلها بصانع الأسباب وخالق كل القوى فى عالم الطبيعة وعالم الإنسان

وقد دمغ سولجستين الحضارة الغربية المعاصرة بالهزيمة والتدمير وقال : أن أعجب ما يلاحظه المراقبون الأجانب فى الغرب هذه الايام هو الانهيار فى روح الشجاعة فى مواجهة السوفيتية الشيوعية ، أنهم مصابون بالشلل عندما يواجهون القوى المهددة لأمتهم ومنها الأرهاب الدولى .

ويتساءل : هل انهيارروح الشجاعة هو بداية النهاية . ويقول : أنه مما يساعد على رواجها هذا الغزو الذى يثير الاشمئزاز لحياة الفرد الخاصة بواسطة البرامج الغبية فى التلفزيون والموسيقى التى لا يمكن احتمالها . أن الدفاع عن حقوق الغرب قد وصل إلى أبعاد متطرفة بحيث أصبح المجتمع كله أحياناً يقف عاجزاً عن مواجهة أشخاص معينين . إن السمعة السطحية والاستعجال مرض القرن العشرين . يبدو واضحاً فى الصحافة . لقد أصبحت الصحافة أقوى من السلطة التشريعية والتنفيذية ومن سلطة القضاء .

إن المعركة من أجل بقاء كوكب الأرض قد بدأت فعلا . إن قوى الشر قد بدأت فعلا هجومها ، وتستطيع أن تحس ضغطها فى كل مكان ورغم ذلك فان شاشات تليفزيونات الغرب وصحفه حافلة بالابتسامات والكئوس المرفوعة لتبادل الانخاب . لقد وضعنا كل آمالنا فى الغرب على نظريات الاصلاح الاجتماعى والسياسى وا كتشفنا بعد ذلك أننا مخدوعون » .

وهكذا نجد أن الامور قد صارت واضحة لهم ولكن ما بال أهلنا فى العالم الاسلامى قد ما يزالون يعيشون فى خدعة عميقة تجاه هذه الحضارة المنهارة وما زال بريقها يملأ عيونهم وأرواحهم .

إن الغربيون المنصفون اليوم يبحثون بعد إفلاس الحضارة الغربية عن طريق: هذا الطريق نشعر نحن المسلمون أن لدينا مفاتيحه . نعم أن فكرنا الاسلامى الأصيل قادر على أن يقدم لهؤلاء ما يبحثون عنه . إن هؤلاء القوم معذورون لأن طبيعة المفهوم الذى جاءهم عن الدين لم يكن كاملا والانجيل الذى أنزل على رسول الله عيسى عليه السلام لم يكن ديناً مستقلاولذلك فانه ما كان ليقودحركة الحياة . لقد أنزل الله تبارك وتعالى الانجيل على عيسى عليه السلام ليكمل النقص الذى وجد فى بنى إسرائيل حين انصرفوا إلى المادة انصرافا كاملا حتى انك حين تقرأ التوراة المكتوبه بأيدى الأحبار لا تجد فيها كلمة واحدة عن اليوم الآخر . لقد أعلوا شأن المادية حتى دعوا الى أن يرو الله جهره ، ومن أجل ذالك لابدأن يأتى الانجيل ليقدم شحنة روحية ويكمل النقص الذى منى به بنو اسرائيل ، فلما انفصلت المسيحية عن اليهودية كانت المادية كلها فى جانب والروحية فى جانب .

أما الاسلام فقد جمع بين المادة والروح وأمور الحياة ومطامح النفس ولذلك فقد نص القرآن على أن بنى اسرائيل أهملوا القيم والروحانيات وأن أهل الانجيل (أهملوا الدنيا) أما أهل الاسلام فقد جمعوا بين الجانبين .

لقد قدم الاسلام مفهوم الحضاره الانسانية الجامعة : حضارة العدل والرحمة والاخاء الانسانى على أساس تحرير الانسان من عبودية الوثنية ومن عبودية الانسان وأن يكون الانسان مستخلفاً فى الأرض لبناء المجتمع الربانى وأنه مسئول وملتزم أخلاقياً ويؤمن بالجزاء والبعث والحساب ويؤمن بأن الكون من خلق الله تبارك وتعالى وأنه هو مصدر العلم الشامل والمعرفة الحقيقية لجميع البشر . ولقد أعطت الحضاره الاسلامية البشريه هذا المفهوم العميق كما أعطتها المنهج العلمى التجريبى واذا كانت قد توقفت عن العطاء فترة فانها مؤهلة للعوده كرة أخرى الى أداء واجبها فى بناء الانسانية الراشدة بعد أن أثبتت الحضاره الغربية فشلها فى أداء هذه الرسالة .

ولقد هوجمت الحضاره الاسلامية من الغرب هجوما شديدا وتنكر لها بعد أن أحرز زبدة علومها ومعطياتها ، ولكن الحق يعلو مهما اشتد التنكر له فقد عاد المنصفون يعترفون بالفضل . ويرون أن البشرية لن تستطيع أن تحقق مجتمع

الرحمة والعدل والأخاء إلا إذا عادت إلى الإسلام كرة أخرى. ان الحضارة الاسلامية بمفهوم القرآن تهدف الى قيام المجتمع الإسلامى الصحيح الذى يجمع بين توفير الحاجيات المادية والحاجات النفسية وضمان تحقيق التوازن بين الأمرين ، ولقد صيغت المبادىء الإسلامية على نحو يجعلها رمزاً للضمان الحقيقى الأمن والكرامة والضوابط التى تحتويها لا تعارض سنة التطور فى الحياة البشرية من جهة وتضمن توفير حاجيات البشرية بنوعيها من جهة أخرى ،

ان على المسلمين الذين ما زالوا مخدوعين فى الحضارة الغربية والذين يحاكونها محاكاة عمياء ، على هؤلاء أن يتذكروا ما قاله برتراند رسل الفيلسوف الانجليزى من أن الناس فى الغرب غير قادرين على تطوير الجانب الإنسانى من الحياة بالكمية نفسها التى تتقدم بها الناحية المادية وان كل خطوة الى الأمام فى المخترعات المادية هى خطوة نحو فناء الإنسان ، فعلينا أن نكون دائماً على يقظه فلا نلقى بأنفسنا تحت رحمة هذه الحضارة . ان علينا أن ناخذ منها ما ينسجم واسلامنا ونلقى عن كواهلنا عفنها وفسادها . وهذا أمر ميسور حين نؤمن بالإسلام عن بينه وهدى والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم أو كما يقول المسلم الألمانى محمد صديق من أن الحضارة الغربية لا تضع حلا لغير مشكلات الحياة المادية ونحن نشاهد أثرها المدمر على الحياة الإنسانية فقد تحطمت الأسره كما جمدت صلات الموده بين الأفراد ولذا فاذا شئنا أن نكون بشراً بحق ونتصرف تصرفات الانسانية أن نعرض أعراضا كاملا عن التقليد الأعمى للحضاره الغربية .

(٣)

حضارة الإسلام المتجددة

حاول الاستشراق محاولات متعدده للغض من قدر الحضاره الاسلامية ، فقد كان جارياً على انكار فضلها على الغرب ، حفيا بان يظل اهلها جاهلون اياها ، بل وكارهون اياها . ومن هنا كانت دعاواه بان المسلمون لم يقدموا الا مترجمات اليونان القديمة ، أو قولهم أن عناصر فارسية أو تركية أو غيرها كانت هي مصدر الحضارهوأن العرب لم يكن لهم فيها نصيب فيها أو وصفهم الحضارة بأنها حضارة عربية في محاولة لسحب كل ظل من الاسلام عنها وفي كل الدعاوى الثلاث كان الباطل واضحا فإن المسلمين قدموا للانسانية المنهج العلمي التجريبي الذي لم يسبقهم اليه أحد وأنه هو الحجر الاساسي لبناء الحضاره الحديثة ، وأن مسالة العناصر لا قيمة لها في الاسلام الذي ارتفع بمعتنقيه الى الايمان بوحدة اسلامية ترتفع عن القبليات والاقليميات والتعصب للعناصر أو الاعراق أو الدماء .

ولم تكن الحضاره عربيةلان أساسها هو القرآن والتوحيد والدعوة الى النظر في الكون والرحمة والاخاء الانساني والتحرر من الوثنية ومن عباده الفردوالقيصر والفرعون فهي اسلامية أصلا وليست عربية .

كلمات للتاريخ

يقول وليم كانسفلس : ان كثيراً من كتاب اللغة العربية عندما يذكرون الدول الاســــلامية كدول الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والامارات الاسلامية يعبرون عنها بقولهم (التمدن العربي) وهو تعبير فاسد تكـذب به الحقيقة التاريخية ، فلو قالوا (الدول العربية) لكانوا أقرب الى الصواب ذلك لأن العنصر الغالب والحاكم فيها كان عربياً ، أما التمدن بمعنى ما أنتجت تلك العصور من ثمار العلوم والفنون والصنائع فقد كان (تمدنا اسلاميا) وليس عربيا . والفرق بين اللفظين ظاهر لا يخفى على ذي بصيره .

ويقول : أن العرب بما فطروا عليه من الذكاء وبعد النظر لم يضطهدوا العلوم

والفنون فى البلدان التى فتحوها بل على الضد من ذلك شجعوها وساعدوا على ترقيتها ، ونحن بدورنا نقول للكاتب أن ذلك هو أيضاً فضل الاسلام وأثره ومنهج الحياة التى جاء بها ، وليس العرب هم الذين فعلوا ذلك من عندهم فقد علمهم دينهم السماحة والرحمة والانفتاح على الثقافات فدعاهم رسولهم أن يطلبوا العلم ولو فى الصين شريطة ألا يكون ذلك متعارضا مع عقيدتهم وتوحيدهم لله تبارك وتعالى .

ويعترف وليم كانسفليس بفضل الحضارة الاسلامية ويضيف شهادته إلى شهادات المنصفين أمثال درابر وجورج سارطون وجوستاف لوبون وسجريد هونكه حين يقول : لقد استفادت أوربا النصرانية من الاسلام بعد أن تقهقرت بعد سقوط رومية وظلت أجيالا راسخة فى ظلمات الجهل إلى أن حان وقت يقظتها

ولقد عاشت الحضارة الاسلامية وتدفقت قدرتها عن العطاء ولا زالت مؤهلة لاستئناف أداء دورها مرة أخرى عاشت لأنها قامت على أسس راسخة من مفهوم تحرير الانسان من عبودية الوثنية وتحرير الانسانية من عبودية القياصرة والفراعنة والأباطرة ، ولذلك فإن أرنولد توينبى لم يستطع أن يتجاهل الحضارة الاسلامية من بين الحضارات التى ما زالت قائمة (الحضارة : عربية وشرقية) والحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى . يقول : هذه الحضارات القائمة فى الوقت الحاضر قد استطاعت أن تبقى قائمة يعتنقها مئات الملايين بفضل ما أتيح لها من عوامل النمو والحياة نتيجة لما قام بينها من تفاعل وما حدث من التقاءات على مدى التاريخ . ويتحدث أرنولد توينبى عن مشهدين فى الالتقاء بين الحضارة الاسلامية وحضارة الغرب المسيحية : اللقاء الأول هو لقاء الحروب الصليبية ويقول : كان من نتيجة هذا اللقاء اقتباس أوربا الغربية للتفوق العربى الاسلامى وإثراء الحياة الغربية الوسيطة بعناصر اجتماعية وثقافية كان لها أثرها فى قيام حركة النهضة الأوربية ابتداء من القرن الرابع عشر (عصر النهضة) .

أما اللقاء الثانى فهو اصطدام الحضاره الاسلامية بالحضاره الأوربية فى أواخر القرن التاسع عشر متمثلا فى الاستعمار الغربى فى مصر (حملة نابليون) ثم الاحتلال الانجليزى ، وفى شمال أفريقيا (الاستعمار الفرنسى) . . ويكشف أرنولد توينبى انصاف عن أن الحضاره العربية الاسلامية بالصوره المشوهة التى يحاول بعض الباحثين

أن يصورها فى صوره الأفول والذبول الذى أدى إلى الانهيار السريع أمام الاستعمار بل كانت الحضاره العربية الاسلامية لا تزال تتمتع بقدر كبير من الحيوية بما مكنها من الصمود أمام الغزو الحضارى الأوربى الذى ظل يناوش العالم الاسلامى حتى اليوم ولم تأخذ الحضاره العربية الاسلامية أسلوب الانكماش والعزلة بل راحت بمنطق الثقة والاعتزاز تبحث عن سر التفوق أو الانتظار العسكرى للغرب .

يصل (توينبى) إلى الدعوه إلى اتخاذ أسلوب العيش العربى سبيلا إلى إيقاظ الحضارة الاسلامية . هؤلاء الذين تربوا فى أحضان الغرب وحملوا لواء هذه الدعوه لخدمة النفوذ الأجنبى واستبقائه لتجميدو الحضارة الاسلامية بعد أن فسروها تفسيراً مادياً غربيا أو ماركسياً فى محاولة لانتقاصها ولخلق جو من اليأس فى نفوس أهلها منها ليعتنقوا حضارة الغرب المنهاره التى تمر بمرحلة الانهيار والتصدع ، وقد كشفت حركة اليقظة عن فساد هذه الدعوه وانهزام هذا التيار بعد أن جرب العرب والمسلمين أسلوب العيش الغربى الذى وضعهم فى طريق الهزيمة والنكبة والنكسة بل ووضعهم على حافة فقدان وجودهم نفسه مالم يعودوا إلى التماس منهجهم الأصيل المستمد من القرآن الكريم والاسلام والتوحيد ، وقد تكشف لهم « غش » هؤلاء الرواد وضلالهم من طه حسين ولطفى السيد وساطع الحصرى وسعد زغلول ، ومنذ وقت بعيد عرف المسلمون أن ما ينقصهم هو العلم والتكنولوجيا وأنهم إذا استطاعوا الحصول عليها وصهرها فى إطار فكرهم الاسلامى ولغتهم العربية فانهم يدفعون الحضارة الاسلامية الغافيه إلى طريق اليقظة ، فتوقد مشاعلها من جديد لتمد الانسانية كلها بالضياء والمال والرحمة والاخاء الانسانى بعد أن تصدعت تجربة الحضارة الغربية المادية التى سيطرت على البشرية أربعة قرون وأعطت الناس من المتاع المادى ما دفعها إلى حافة الترف والاباحية والتمزق النفسى لأنها نسيت إطار الحضارة العالم على حدود الله وضوابط العدل واشتغلت بالجنس والعنصر والمادة وانحرفت عن بناء المجتمع الربانى فكان لابد من أن تصيبها سنة الحضارات ، ولا بد أن تنتهى نهاية الحضارة الرومانية وكل حضارة هجرت طريق الله تبارك وتعالى واشتغلت بالباطل والظلم .

واليوم يتزايل هذا الجيل الرائد الذى هدى إلى الضلال بعد أن استحصدت

حركة اليقظة الإسلامية وقدمت مفهوم الإسلام الأصيل : المفهوم القرآنى لا الفلسفى ولا المستمد من جبريه التصوف الفلسفى أو علمانية الاعتزال ، وكلها مذاهب مضطربه تأثرت بالفلسفات اليونانية والغنوصية وعجزت عن أن تقدم المنهج الأصيل المستمد من المنابع الأصيلة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ويتكشف لكل الباحثين والمراقبين أن الحضارة الإسلامية تتأهب لجولة جديدة هذا على الأقل هو ما يتطلع إليه المسلمون على مطالع القرن الخامس عشر : ألف مليون ، ربع سكان العالم لهم كيانهم الاقتصادى ووجودهم المتكامل ، هذا فضلا عن أن البشريه كلها تتطلع اليوم إلى فجر جديد يأتى من قبل الإسلام نفسه بعد أن عجزت الايدلوجيات الغربية عن أن تقدم منهجاً أصيلا .

ولقد كان روجية جارورى فى كتابه (من أجل حوار مع الحضارات) قد أنذر الحضارة الغربية بسبب تحطيمها للقيم الإنسانية (ومن قبله كانت صيحة شبنجلر) الذى أعلن قبل خمسين سنة حين قال : ليس هناك مهرب وإننا الآن فى آخر مراحل التدهور وليس هناك احتمال فى ظهور دين جديد أو فلسفة جديدة لأن تربة الغرب مهوكة ميتافيزيقيا والشك هو الطريق الوحيد الذى ينفتح أمامنا .

أن هذا العصر سيكون المرحلة الأخيرة من الحضارة الغربية وهذه المرحلة النهائية حتمية بالنسبة للتاريخ الغربى . وهناك مجموعة أخرى سبقت ونبعت تحمل هذا الطابع من التشاؤم فى مستقبل الغرب منها برطاردت وتيلولاس ودالفير ، قال دانيفسكى أن الأقطار غير السلافية فى طريقها إلى التدهور . ونحن نرى اليوم أن الشعوب السلافية أيضا قد انهارت بعد أن فشلت فيها التجربة الماركسيه ، أما جارودى فيقول : أن الحضارة الاوربية التى نبتت على فلسفه فاوست (أى الشيطان) والتى جعلت من الإنسان الغربى مجرد آلة للإنتاج والاستهلاك يسير دون هدف ، ولهذا السبب فان الحضارة الغربيه ستعود الإنسان إلى هلاك محتم إلا إلا اذا خرج الرجل الأبيض من جهله وغروره وغطرسته وتفتح على الحضارات العريقة الأخرى. أن الإنسان الذى أنتجته الحضارة الغربيه يسير بلا هدف كالآله فى إنتاجه واستهلاكه وهدفه الوحيد هو أن ينتج أكثر فأكثر ، ويجعل من هذا النحو الاقتصادى المقياس الوحيد الذى يفرق بين دوله متحضرة ودوله متأخرة .

وهكذا نحن لنشهد النهايه . ولكننا لا نتعجلها وإنما نطلب إلى المسلمين أن يقيموا المجتمع الاسلامى فى بلادهم ليستطيعوا أن يقدموا الاسلام الى الناس ،أن البشريه أحوج ما تكون اليه، أن الاسلام يملك مفهوم الحضارة الوحيد الذى تتطلع اليه الدنيا كلها ، وهو القادر على أن ينقل الناس من البشريه الضاله الى الانسانيه الراشدة ، ذلك هو التوحيدوالعدل والرحمهوالآخاء الانسانى والتحرر من عبادة الوثنيه فى العقيدة وعبادة القيصر والمادة فى المجتمع .

لقد حاولت الحضارة الغربية قهر الحضارة الاسلامية وابادتها فى محاوله استمرت أكثر من مائه وخمسين عاما ولكنها عجزت لأن الحضارة الاسلاميه على تعتمدعلى أسس ثابتة من الفطره والأصاله والعدل وهى أسس لا يمكن أن تنهار أمام زيف الماده أو بريق الاباحيه أو ضلال العنصريهوالفرديه والاستعلاء بالجنس او المال .

نحن وحضارة الغرب

(١)

فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى يجب أن يكون المسلمون قد تحرروا تماما من عقدة الأجنبى ومن الاعجاب بالحضارة الغربية التى تمر اليوم بمرحلة الافول والتدهور . وذلك بشهادة الغربيين أنفسهم فى ذلك أن هذه الحضارة قد قطعت شوطا طويلا فى الطريق المضاد للفطرة والطبيعة حين فصلت بين العلم والدين والروح والمادة، والدنيا والآخرة واستعلت بالنظرية المادية ،واستطالت بثمرات العلم ، وحاولت أن تؤكد قدرتها على تنظيم الحياة بأسلوب لا يدخل فيه الدين ولا تنتظمه الاخلاق ولاثبات القيم وجرت وراء مفهوم للتطور والنسبية يرفض إقامة إطار ثابت تجرى الحركة من داخله ثم حاولت بعد ذلك إقامة الدراسات الانسانية على أساس التجريد والمادة فافترضت أن الانسان حيوان وأنه خاضع للمادة أو للجنس واسقطت اسقاطا تاما مفهوم الروح والمعنويات والدين وما للعقائد من تأثير فى الناس ، وما لها من قوة فى تفسير الاحداث والوقائع والمواقف ومن ثم دخلت فى مرحلة الازمة وتركت بصماتها على المجتمع الغربى بالتمزق والغربة والخطر الشديد وخاصة حين أخذت مفهوم الاباحية وحرية الجنس والترف وإنهيار الاسرة وكراهية المرأة للولادة وتربية الطفل والجرى وراء الشهوات وبذلك دخلت مرحلة الافول التى دخلتها من قبل الحضارتين الرومانية والفارسية ونحن المسلمون لنا حضارة قد توقفت عن العطاء ثمة بعد أن أعطت العالم والانسانية أعظم تراث من العدل والرحمة والاخاء البشرى وحطمت قواعد الظلم والعبودية التى عرفتها حضارات الفراعنة واليونان والهنود والفرس وإقامت المجتمع الربانى وأقامت المنهج التجريبى أساس الحضارة الحديثة ، ورفعت البشرية عن وهدة الوثنية والمادية وحررتها من الطفولة والاخلاد إلى الأرض والشهوات والظلم ، وكانت الحضارة الغربية قد ورثت تلك المعطيات جميعا ولكنها شاءت أن تصور مفاهيمها العلمية فى أطار

الفكر البشرى الوثنى القديم ومن ثم تقدمت مقدما ماديا بعيد المدى فى معطيات الحياة والعناء والعمل ولكنها عجزت فى نفس الوقت أن تلبى مطالب الروح أو تحقق أشواق النفس أو توازن بين الماده والروح أو تجمع بين العقل والقلب، أو تجعل الدنيا مزرعة للاخرة فانصرفت عن أدق مفاهيم الاستخلاف فى الارض ، وعجزت عن فهم المسئولية الفردية والإلتزام الأخلاق والجزاء الاخروى .

وكان أكبر المحاذير أن جاء النفوذ الغربى ممثلا بالاستعمار السياسى والعسكرى والاقتصادى ففرض على المسلمين مفاهيم فى الاجتماع والتربية والقانون ، وحجب أسلوب الحياة الاسلامى تماما ، وحاولت جميع النظريات الوفده التى ظهرت فى العالم الاسلامى وهى مجموعة من النقائص والاوشاب ، من ركام النظريات الغربية أن تشكل بالمزج والتركيب نظرية ملفقه ولذلك لم تستطع أن تبقى طويلا لانها ضد طبائع الاشياء وضد الفطرة ومن حيث حاول بعض القادة الجمع بين الاسلام والقومية والماركسية أو بين الوحدة والحرية أو بين الديمقراطية والاشتراكية ، فلم تستطع هذه النظريات أن تحقق شيئا ، وكشفت بفساد تطبيقها ، عن حاجة البلاد الاسلامية إلى النظرة الاسلامية الاصيلة الجامع . لقد فشلت تلك المسميات الوافدة كلها أن تعطى شيئا ، وكانت ميزة الاسلام أنه صنع وحدة الفكر الجامع التى تحول دون الصراع الفكرى التمزق النفسى .

ولقد كشف كثير من الباحثين الغربيين عن فساد هذه التجربة الغربية فقال والتر شوبارت : أن لروح الغربية يتفشى فيها الخوف والقلق ، وهى شديدة الاثر نزاعة إلى الفردية محبة للتنافس ، وأن الغرب قد جعل الانسانية ذات تراث واسع بتفوقه فى الصناعة ولكنه جرد الانسان من الروح ،وسيفقد الغرب زعامته ويصبح وهو لا يمثل الطراز الانسانى الغالب ، وكثير من ذوى العقول الراجحة يتوقون إلى أن يروا نهاية الثقافة الغربية البالية وهم يشعرون بفقرها وإفلاسها ويتطلعون إلى ثقافة تخلفها . أن الفرد من خلال هذه النموذ الغربى لا يعبأ بخلاص روحه وإنما يهمه فرض سلطانه وتوسيع دائرة نفوذه وقد نجح الفرد فى تغيير وجه الارض ولكن هذه الثقافة أخذت تملأ سماءها السحب وتومض حولها البروق وتعصف بها الاعاصير وأوربا تنزلق إلى الهاوية وتقترب من النهاية ولا شىء يستطيع دفع هذا المصير المحتوم .

لذلك كان علينا أن لا يندفع وراء حضارة خرجت عن الفطرة وعن طاعة الله سمت الاشياء بغير أسمائها الحقيقة وتنكرت للخالق العظيم فوصفت مصدرها بالطبيعة وادعت أنها ليست فى حاجة إلى وصاية الدين أو حماية الاخلاق .

ومن أخطر محاذيرها أنها تحاول أن تطرح أسلوبا للعيش يخرج المسلمين من مفاهيمهم وقيمهم ويدفع بهم إلى التخفف من التماسك الخلقى وفتح الباب أمام الرشوة والهدية فى مقابل خدمة مقدمه على حساب المجتمع ، وإلى السهرات الصاخبة والخمر وما يتصل بها من اختلاط الرجال والنساء وإلى الولع بالترف والزخرف والاوانى والزينة والنجف والموسيقى والرقص والتخفف من التبعات وخلق مجتمع فيه كثير من التحلل والرخاوة ومن شان تقبل المسلمين لمفهوم الحضارة الغربية هذا أن يجعل الجماعة الاسلامية عاجزة عن مواجهة النفوذ الاجنبى والغزو الخارجى ومقاومة السيطره الاجنبية المتغلغلة وعن شان تقبل هذا أن يخلق نوعا من الاعجاب بالغاصب وتقليده التعلم فى مدارسة والبعثة إلى بلاده ، وفهم الاسلام على غير حقيقة والتأثر بالتفسير المسيحى للدين باعتباره دين عبادى لاهــــوتى محض لاعلاقة له بالنظم الاجتماعية والسياسية . وقد احتوت هذه الاساليب المجتمعات الاسلامية إلا قليلا فى نظام اقتصادى ربوى ومفهوم ليبرالى ديمقراطى أو ماركسى اشتراكى مع مفهوم إقليمى وقومى ضيق وكل هذا مما يتعارض مع العدل الاجتماعى الاسلامى والشورى والاخاء الاسلامى الجامع .

نحن وحضارة الغرب

(٢)

تحديات مجتمع الاستهلاك

يقول أحد الخبراء الاجتماعيين الغربيين : إن المجتمع البشرى اليوم قد سئم ويئس من منبع أوربا الذى فقد زيته ولم يستطع خلال هذه النهضة الهائلة الطويلة أن يضيف إلى رصيد الانسانية إلا الحديد والنار والقنابل المدمرة والغازات السامة والآلات المبيدة . وإن الفراغ الذى حدث فى قيادة الإنسانية اليوم هو فراغ رهيب ولكنه فراغ لا يستطيع أن يملأه أحد إلا العالم الاسلامى » والحقيقة إن كتاب الغرب المتصفين اليوم قد أخذوا يقومون التجربة كلها وقد وجدوا ثمرتها قبض الريح وحصاد الهشيم .

لقد نضبت موارد الأرحام فى أوربا ونسبة المواليد فى أغلب بلاد أوربا هى خمسة أطفال لكل ألف من السكان وما تزال النسبه تتضائل . بينما هى تنمو نمواً مضطرداً فى عالم الاسلام ، وهناك الحديث عن افلاس الغرب والتضخم ، وجرى الحديث حول صياغة نموذج اجتماعى جديد والعجز عن تحقيق ذلك لأن الزعامات فى الغرب اليوم غير قادره على تغيير نوعية الحياة التى يعيشونها أو الانتقال من حضارة الاستهلاك إلى حضارة جديدة أكثر استقراراً واسبب وصول رجال عاديين الى الحكم أصغر بكثير من الازمات التى تواجه بلادهم نرى العجز واضحا فى تجاوز المشاكل والتخبط يمينا وشمالا .

وقد أجمع صفوة علماء الغرب على فساد النضامن الرأسمالى والاشتراكى والتطلع الى نظام جديد وقد عرض علماء المسلمين عليهم النظام الاسلامى بوصفه الحل الوحيد الذى لن تجد البشرية امامها سبيلا للخروج من أزمتها الا به .

وقد توقع أرنولد توينبى انهيار الدخل القومى والاجتماعى للبلدان الصناعية

مما يؤدى إلى توقف النمو الصناعى فى هذه الدول بل وتدهوراً مستمراً يسيطر على هذا النمو مما يجعلها تواجه تحدياً مرعباً سببه الحصار الاقتصادى الدائم الذى ستعانى منه نتيجة أحوال مادية قاسية .

وكتب مؤخراً كلود جوليان عن سقوط الامبراطورية الامريكية فى العالم فقال:أن هذا السقوط سيكون أسرع كثيراً من المدة التى اقتضاها إنحسار الشمس عن الامبراطورية البريطانية وقال أن عوامل التفسخ والتآكل التى قضت على جميع الامبراطورية بما فيها الامبراطورية الرومانية التى ظلت تتهاوى بشكل انحدارى لمدة ثلاثمائة سنة .

ويواجه الغرب موجة عاصفة فى مجال الأمراض الخبيثة التى يجتاحه بنسب عالية نتيجة الإسراف فى الطعام والخمر وأكل لحم الخنزير وأمراض القلب والقرحة والصداع .

وقد تكشفت فى السنوات الأخيرة فى المجتمعات الغربية عشرات الوقائع من الفضائح الأخلاقية .

وهكذا يعانى الغرب القلق والاضطراب والغربة والانتحار نتيجة المشاكل التى يواجهها الإنسان فى حياته اليومية العادية ، وهى حالات عصبية وهمية لاعلاقة لها بالواقع ومنها ظاهرة الاكتئاب وتعارف الجميع على ما يسمى بالحبوب المهدئة والمنومة التى يستعملها اليوم الملايين ، وقد جاء فى بعض الاحصائيات أن ٢٠٠ مليون أمريكى يتناولونها كل يوم لكى ينام بعضهم أو يهدىء أعصابه وأصبحت المصانع تنتج منها بالمليارات .

وما يزال مجتمع الاستهلاك يفرز مزيداً من الأخطار ويعقد الأمور ويخلق الأزمات ولعل أخطر هذه الأزمات التى تهدد بفناء البشرية استهلاك الطاقات استهلاك الوارث السفيه الذى يبذر ماأورثه الله له من ثروات طبيعية هائلة وكأنه يعتقد أن هذه الموارد من المواد الخام والأراضى الزراعية ومياه الأنهار والبحيرات لا حد لها ، يستطيع أن يغترف منها إلى مالانهاية فهو يستخدمها بإفراط وإسراف يهدد العديد من هذه الموارد بالنضوب والاستنزاف .

وقد أعلن العلماء محذرين أن النمو الذى يشهده العالم منذ سنوات بعيدة له حدود سيقف عندها وإن الموارد الطبيعية التى يبددها الإنسان بحماقة سوف تنفذ يوما ما قد تكون أقرب ما يظن .

يومئذ سيواجه الجنس البشرى مأزقا لا يدرى كيف يتخلص منه، هذا ما كشف عنه العلماء نتيجة السفه فى الاستهلاك وفى وسائل الترف وما يزال عالم الغرب يخدع المسلمين وأصحاب القارة الوسطى الزاخرة بكل الثروات ليستلب منها هــذه الثروات بأقل التكاليف ويثير تلك الدعاوى الباطلة عن الانفجار السكانى وغيره من محاولات ترمى إلى إنقاص تعداد المسلمين وتنمية خصومهم ، والحقيقة أن الازمة ليست فى تزايد السكان ولكنها فى سوء توزيع الثروة من حيث يمتلك عدد قليل من أصحاب الثروات تلك المقادير الضخمة ويعيش أصحاب الموارد أنفسهم عيش الفقراء ثم يراد أيضا أن يحال بينهم وبين النمو حتى تظل هذه الموارد فى أيدى الجشعين من المغامرين الاجانب وأغلبهم اليهود .

كذلك فان هناك ذلك التطاول الخطير من بعض أدعياء العلم فى تجاوزهم الحدود المسموح للبشر بالسعى والاجتهاد من خلالها فى محاولة إنتاج ما يسمى الإنسان النموذجى ، وقد أغراهم النجاح الذى أحرزه فى بعض الجزئيات فدفعهم إلى اقتحام ميادين جديدة تعتبر خارجة عن الحدود التى يجوز للانسان أن يعمل فى نطاقها وخاصة تلك الميادين التى اختص الله نفسه بها ولا يستطيع بشر مهما أوتى من العلم والمقدرة أن يتعرض لها وفى مقدمة هذه الميادين معجزة الخلق بكل ما فيها من تعقيدات وإعجاز حتى فى أصغر مخلوقات الله .

وقد أخذ بعض العلماء فى التورط فى أبحاث ودراسات قد تكون نتائجها وبالا على الانسانية بدلا من أن تفيدها ، ومعنى هذا أن العلم ترك مجاله الحقيق فى خدمة الإنسان للبحث عن ميادين أخرى عابثة يحاول اقتحامها بروح الغرور وبذلك يواصل خروجه عن مهمته الحقيقية تمد إنكاره للخالق والصانع والمدبر والاعتداد برأى باطل ظانا أنه يستطيع أن يكتشف مالم يأذن به الله .

بل أن عالم الغرب يمتلك فائضا ضخما من الثمرات يحول بينه وبين الوصول إلى الجماعات الفقيرة المتناثرة فى أنحاء العالم ويلقى بها فى البحار .

وقد تبين منذ فترة أن لدى دول العالم المتقدم مليونا طن من الألبان المجففة التى تكفل إطعام ٢٠٠ مليون طفل من أطفال العالم الثالث القليل التغذية لمدة عام، ولكن الجشع الذى عرفت به الحضارة الغربية ما زال يحول دون عدالة التوزيع وحصر الثمار فى أيدى قليلة تملك كل شىء وتحرم ما يفيض منها على الناس وتحول دون وصوله إليهم ،

هذه المفاهيم التى يعيشها المجتمع الغربى الاستهلاكى تتعارض تماما من قيم الدين الحق من العدل والرحمة والآخاء الإنسانى ولذلك فان هذه الحضارة معرضة للزوال والسقوط ولا بد أن تصيبها قارعة تحطم هذا الظلم وهذا الطغيان .

خاصة وأنها تنفق على الأسلحة الذرية والهيدروجينية ألوف المليارات وتكدس تلك القنابل الخطرة وتضع البشرية لمدى سنوات طويلة عرضة للخطر الذرى المدمر ، ومايترتب على ذلك من آثار خطيرة على المجتمع الغربى والمجتمعات الأخرى من حيث ظهور روح الخوف المتصلة بإحساس دافع الى اقتناص اللذات وانفجار الشهوات ما دامت النهاية المختومة هى الفناء أن على الشرق المسلم أن يعى درس هذه الحضارة المتردية وأن يكون حريصا على أن لا يقع فى براثنها وهى فى مرحلة الأفول .

(٣)

نحن وحضارة والغرب

عجزها عن الاستجابة لأشواق الإنسان

أعلن كثير من الباحثين المنصفين أن الحضارة الغربية لم تعد تملك امكانية حل أزمتها الخانقة (مخالفين بذلك أرنولد توينبي ومالك بن نبي وفاليرى) ويردون ذلك الى عقم التربة التى تقف فوقها والى فساد الهواء الذى يكتنفها كما يقول الدكتور عماد الدين خليل — وهي تقفز كالمحبوس من النقيض الى النقيض الى أن وجدت أغرب حل حين اقترح (الدوس هكسلى) تعميم المخدر وجعله فى متناول الجميع كالمشروبات الروحية والتبغ وذلك لأنه يغير نهج الإنسان الغربى لتطوير اللذات العارضة وقد تبين من بعد هذه الجولة الضخمة فساد التجربة :

فشل الدين وفشل الالحاد : فشل الدين لأن تفسيراته لم تكن مطابقة للدين المنزل فقد انحرفت عنه .

فشل الديمقراطية وفشل الدكتاتورية : لأن كليهما كان من الفكر البشرى القائم على الأهواء والظلم وسيطرة طبقة .

فشل الوجودية وفشل إلغاء الحزبيات :

وكان الانسان هو الضحية فهو الذى دفع أعصابه ودماءه وكرامته وفطرته وانسانيته مما أدى الى الانقلاب النهائى من أحضان اللاانتماء أو الفكر بكل الكلمة الى الايمان بذاته وتأليهها وتقديسها والى الوقوع فى براثن الوجودية (سارتر وكامو) ويرجع ذلك الى غياب الأساس الثابت : نقطة البدأ أو النهائية بعد الجولة الواسعة لابد من وجود أساس تبدأ اللعبة منه وتنتهى عنده :

ويشير الباحثون الى أنه بعد أن عجزت الديمقراطية والماركسية اليوم بدأت تجمعات الشباب الهيبي يقدم البديل للمجتمعات التى ثارت عليها وبدأت

ثقافة المخدرات يستوطن عقول الشباب وتنخر فى أجسادهم وتتالت صور الضياع وتعاقبت بمضل تهور الشباب حيث ظهرت أخيرا فى شوارع لندن وفى حى (لشلسى) تقليعه جديدة أطلق عليها (ابونك) يلبسون الثياب المقلوبه ويزينون أذانهم بدبابيس الثياب المعروفة ويضعون شفرة الحلاقة التى تتدلى من القلادة التى تحيط بالعنق كما يحيط اللجام باعناق بعض الحيوانات .

وجاءت تقارير تقول : أن كل أمريكى يعادل خمسمائة هندى بالنسبة لما يستهلكه ساكن الولايات المتحدة من منتوجات غذائية . ويتحدث التقارير عن التلوث المتزايد بنسبة خمسة كلما ازداد عدد الأمريكيين بنسبة واحد فى المائة وهل ادركت الحد الأقصى الذى يستحيل بعده اجتناب دمار البيئة الطبيعة وزوال الحضارة من أصلها وقال التقرير أن الدول المصنعة تنصح البلدان الفقيرة كل يوم بتحديد النسل وبتخفيض عددها البشرى على اعتبار أن منتجات الأرض لا تكفى لسد حاجات البشرية التى يبلغ عدد أفرادها اليوم أربعة مليارات والحال أنه يتضح من إحصاءات المنظمات الدولية أن الشعب الأمريكى يستهلك حاليا مايعادل استهلاك ٤٠٠ مليار هندى مما يعنى أن النظرية القائلة بأن العدد البشرى هو أصل الداء ليست صائبة فإن أصل الداء هو طريقة توزيع منتوجات الأرض على سكانها بدليل ان سكان الولايات المتحدة لايمثلون سوى ٦ بالمائة من مجموع سكان الكره الأرضية ولكنهم يستهلكون ثلث نفطها وربع حبوبها ونصف فوسفاتها فضلا عن أنهم يملكون ثلث مجموع المواد الأولية الرئيسية فى العالم .

وتقول التقارير أنه فى مواجهة تناقص المواليد فى الغرب فإن الغرب يقوم بعملية الأول الضغط على العالم الاسلامى لتخفيض سكانه وصرف مئات الملايين لدفع عملية تحديد النسل وتقديم أقراص منع الحمل وفى نفس الوقت تعمل دول الغرب على تشجيع الانجاب بسبل ووسائل غاية فى الاغراء فالمانيا الغربية تدفع ١٠٨ دولار شهريا للطفل الثالث و٥٤ دولار للطفل الثانى ، أما فرنسا ودول الغرب الأخرى تتجه إلى دفع مرتب ثابت لايقل عن ٨٣٠ دولارا فى الشهر الواحد .

وما يزال الغرب يدعى أنه "غرب المسيحى مع أن اليهودية قد احتوت المسيحية والفكر المسيحى و هذا الاحتواء اليهودى الذى فرضه العهد القديم بمفاهيم المغايرة والمضادة للانجيل لخدمة الفكرة اليهودية وجعل العهد القديم مرتبطا بالانجيل وجعل

أكذوبة أرض المعاد من القضايا التي انشأ عليها الأجيال المسيحية الجديدة ، وقد كانت عملية التبشير التي قامت بها الكنائس والجماعات في العالم الاسلامية ذات أهمية كبرى في خدمة الاستعمار وتركيز النفوذ الأجنبي السياسي والنفوذ الربوي واليهودي السائر في ركاب الاستعمار ولقد كان الفكر الليبرالي الغربي الذي حاول السيطرة على المجتمع الاسلامي فكرا مسيحيا كنسيا محتوى بالفكر اليهودي الربوي وله جذوره اليونانية ومفاهيم الرومانية ، ولذلك فقد طرح منذ اللحظة الأولى فصل الدين عن السياسة واعلاء شأن العلمانية التي تقرر اتخاذ القانون الوضعي نظاما للمجتمع في شئون القضايا والاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم وعمل على حجب الشريعة الاسلامية بكل معطياتها ، ومن ثم فتح القانون الوضعي والنظام الربوي الباب واسعا أمام الخمر والاباحة والانحلال الأخلاقي وحطم الحصانة التي كان يعتز بها المجتمع الاسلامي قبل الاحتلال .

ولقد استطاعت اليهودية تطويق المسيحية مرتين ، مرة في بولس ومرة في العصر الحديث فاذعنت لقبول الربا ولقبول الخمر ، ولقبول التأييد لاسرائيل ، ولأن لليهود السيطرة على الاقتصاد فقد اضطر الفاتيكان إلى اعلان تبرئة اليهود من محاولة قتل المسيح (والمسلمون يؤمنون بأن المسيح لم يقتل ولم يصلب) ،وقد نجحت اليهودية في أن تشكل لدى المسيحيين عقدة ذنب لاحقهم لتاييد وجودهم في فلسطين والاعتراف بالتفاسير الكاذبة لما يسمى حق اليهود في فلسطين .

ويقول بعض الباحثين : أن هناك ضربتان وجهتا إلى المسيحية : الصهيونية والماركسية وتطويق اليهودية للمسيحية وتحريف مفاهيمها وتحطيم اتجاهها وإدخالها في زمرة أديان التعدد والوثنية .

واليوم تعمل الكنيسة الغربية في خدمة أهداف التلمودية الكبرى وتبنى موضوع الحوار لتسد الباب أمام المستنيرين الذين لا يعقلون مفاهيم المسيحية عقلا ويودون أن يهتدوا إلى التوحيد الخالص ، وهم يحاولون احتواء بعض التغريبيين ليحصلوا منهم على أبحاث اسلامية تقول أن الخلافات بين المسيحيه والاسلام فرعية وأكاديمية على حد تعبيرهم وذلك ليواجهوا بها أولئك الذين يرغبون في دخول الاسلام وليثيروا في صدورهم اليأس من أن الاسلام سوف يعطيهم عطاء الروح ويحجبون

منهم أن الاسلام يخالف المسيحية فى ثلاث مسائل هامة وخطيرة وهى التثليث والصلب والخطيئة .

واليوم تكشف دراسات جديدة عن فساد نسبة التوراة والانجيل الموجودتين اليوم إلى المصادر الالهية ويؤكدون أنها كتبت بأيدى الأحبار والرهبان وأنها ليست منزلة من السماء وأن هذه الكتب تعارض الحقائق الدينية والعلمية وأن الكتاب الوحيد الذى تثبت آياته صدق مصدره الربانى هو القرآن الكريم .

(٤)

نحن وحضارة الغرب

مستقبل الحضارة الإسلامية

بعد إفلاس الحضارة الغربية يبحث الأوربيون عن طريق نحن المسلمون نشعر إن لدينا هـــذا الطريق . أن فكرنا الأساسى قادر على أن يقدم لهؤلاء ما يبحثون عنه .

إن هؤلاء القوم معذورون لأن طبيعة الانجيل أنه ما جاء ليقود حركة الحياة وإنما أنزله الحق تبارك وتعالى على سيدنا عيسى ليكمل النقص الذى وجد فى بنى إسرائيل حين انصرفوا إلى المادة إنصرافا كاملا حتى إنك تقرأ التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار فلا تجد فيها كلمة واحدة عن اليوم الآخر :سيطرة المادية،يريدون أن يرتقوا بالقوانين المادية إلى الإله : حتى نرى الله جهرة ، من أجل ذلك كان لابد أن يأتى الانجيل وليس به سوى الشحنة الدينية الروحية ، وليس به نظام حياة حتى يكمل النقص الذى فى بنى إسرائيل ، ولقد حدث بعد ذلك أن انفصلت المسيحية عن اليهودية فكانت المادية فى جانب والروحية فى جانب وحين يريد المسيحى أن يجد حلا لأى قضية من قضايا الحياة المادية فلن يجدها فى الانجيل لأنه لم يجىء لهذا وإنما جاء لا كمال النقص الروحى : ثم جاء الاسلام يجمع بين أمور الحياة وشئون الروح ، ولذلك نجد القرآن ينص على أن بنى إسرائيل أهملوا القيم والروحانيات وينص على أن أهل الانجيل أهملوا الدنيا ،

أما المسلمون فقد جمعوا بين الجانبين .

وهذه هى نقطة الحسم فى الموقف كله فى أمر الحضارة الغربية والمجتمع الغربى وفى المواجهة القائمة الآن بين قيم الاسلام وأسلوب العيش الغربى :

إن الحضارة الاسلامية المتجددة مع مطالع القرن الخامس عشر ستعطى البشرية نموذجاً جديداً فقد صيغت المبادىء الاسلامية على نحو يجعلها قادرة على ضمان التنسيق والتوازن والتكامل بين حاجيات المادة والحاجيات النفسية والروحية ، إن الضوابط التى وضعها الاسلام لا تعارض سنة التطور ولكنها تقيم حركة المتغيرات داخل إطار الثوابت .

إن خضوع المسلمين اليوم وتحت تأثير انفتاحهم الذى لا ضابط له على الحضارة الغربية ، يتنازلون عن كثير من عاداتهم وقيمهم ومميزاتهم الخاصة تحت الضغط المادى والقهر النفسى ويفقدون هويتهم وطابعهم الذى شكلهم به القرآن وصنعهم به الاسلام ليكونوا « نموذجا » خاصاً فى البشرية كلها ، شاهدين عليها ، هادين لها ، يحملون ذلك اللواء « لا إله الا الله » وذلك القنديل المضىء « القرآن » وهم اليوم يتنازلون عن خصائص كثيرة وينصهروا فى أتون الأممية والعالمية المظلم ، وخاصة فيما يتعلق باللغة العربية وأسلوب المعمار والمأكل والملبس وترك المترجمات الضارة يجتاح أفق فكرهم بما يقدم الأجيال مزيداً من الضعف والتحلل والانقياد للشهوات والأهواء ، وتقدم وسائل الاعلام باخطر دور فى هذه المؤامرة الضخمة فى متابعة مجتمع الاستهلاك ودور مفاتن السلع الغربية وتقليد النمط الغربى للحياة

ولا ريب أن دراسة المجتمع العالمى المعاصر تدلنا على أن فيضان النهضة المادية قد وصل إلى آخر مداه وأنها غير قادرة على اعطاء السكينة لقلب السكينة لقلب الانسان وأن موجة من التحلل والغربة والتمزق وانعدام الثقة والطمأنينة النفسية تغزو العالم ولكن العالم أخذ اليوم يبحث عن مخرج ، عن النور ، عن كوة صغيرة من الضوء ، وسوف لا يجد ذلك كله الا فى الاسلام ، ولو نهض المسلمون يدعون إلى دين الله لفتح الله لهم ولكنهم مع الأسف ما زالوا مكبلين بأصفاد الأهواء المادية التى تحول بينهم وبين اقامة المجتمع الاسلامى فيما بينهم قبل أن يكونوا قادرين على تبليغ الاسلام الى العالمين .

ان فهم الاسلام فهما حقيقياً على أنه نظام مجتمع ومنهج حياة هو العقبة التى يجب أن يتحملها المسلمون ليقيموا المجتمع الاسلامى الربانى المصدر وبذلك يكونوا مؤهليهم لأداء دورهم فى بناء الحضارة الاسلامية الجديدة .

واليوم تتحطم فى الغرب تلك الصورة التى كانت تقوم على الاستطالة والاستعلاء بالكذب والباطل وبالادعاء بأن هذه الحضارة هى من صنيعهم ، وقد كشفت الأبحاث الجادة فضل المسلمين ودورهم الأساسى فى بناء المنهج التجريبى وتقديم العطاء فى عشرات الميادين فضلا عن مفهوم الحرية وحرية الفكر وحرية العقيدة وتحرير البشر من الوثنية ومن عبادة الفرد .

يقول سجريد هونكه : إنه من خطل الرأى أن يدعى الاوربيون أن أوربا هى فقط العالم الحديث ومن الحماقة أن يدعى الاوربيون أن تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم، فالحقيقة التى لا شك فيها أن سائر القارات التى يتكون منها عالمنا هذا ساهمت وتساهم فى تكييف الأحداث العالمية التى تخضع لها شعوب المعمورة ونحن لا نجد فيما كتب الاوربيون إلا إشارة عابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى ساعى البريد الذى نقل إليهم التراث اليونانى .

إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم فنا وأدباً وعلما وحضارة كما أخذوا بيد أوربا وأخرجوها من الظلمات إلى النور ، كما نشروا لواء الحضاره إنى حلوا سواء فى آسيا وأفريقيا أو أوربا ثم أنكر الاوربيون عليهم فضلهم .

وفى أحدث كتب جارودى (من أجل حوار الحضارات) يكشف عن عظمة الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية يقول : لقد جاءوا بنظام اجتماعى أرقى بكثير من النظام القائم وسرعان ما ظهروا فى مظهر المحررين وذلك بتخليص عبيد الأرض من وصاية الملوك . ثم بعدم الاستيلاء على الأرض فالقرآن يحرم ذلك مكتفين بالخراج ، ويقول إن الغرب مدين بالنهضة إلى حد كبير للتصليح العربى الذى استطاع أن يخلق الظروف العسكرية لتفتحه .

ويؤكد أرنولد توينبى الدور الجديد الذى ستقوم به الحضارة الإسلامية فتقول أن هذا المستقبل متوقف على الاكثرية المؤمنة بتراثها والتى زادها الصراع مع الغرب حيوية ونشاطا والمؤمل أن هؤلاء الاكثرية سوف يوجهون الطاقة العربية (الإسلامية) للخلق والإبداع والنمو ، وبالتالى إلى تجديد شباب الحضارة العربية (الإسلامية) والعمل على إحلالها المحل اللائق فى الحضارة العالمية .

إن مستقبل الحضارة العربية (الإسلامية) يتوقف على الأكثرية المطلقة من الجماهير الواعية التى تدرك ذاتها وتعمل على تقوية نفسها لصد السيطرة الغربية والتحرر من الاستعمار بأوسع مظاهرة والعمل على تنمية حضارتها الذاتية .

ان الثقة بالنفس التى تميز بها العرب لم تصل الى حد التعصب الأعمى المغرور أو الى روح العزلة شأن الحال عند بعض الغربيين فقد تميز العرب بالقدرة على الاختلاط بالآخرين والتعاون مع من لا يريد تحديهم أو العمل على اذلالهم .

ان العرب لا يعيشون فى فراغ روحى وحضارى لأن تراثهم الحضارى الغنى بمؤسساته ونظمه وتقاليده وأفكاره يملأ روحهم ويكون ثروة عظيمة اذا أحسن تنميتها وتوجيهها فإنها ستعين على فرض مستقبل زاهر على أن أهمية التراث فى حياتنا الحضارة لا تكون بالجمود عليه بل فى محاولة تنميته وتطويره ليكون قوة حيوية ملائمة للحياة الجديدة بما يواجه من تحديات وأن هذا التطوير ينبغى أن يقوم به العرب أنفسهم بوعى وادراك وهذا هو السبيل الذى مكن العرب فى الماضى من تكوين دولتهم العظيمة التى دامت قرونا وهو السبيل الذى إذا اتقن تنظيمه سيضمن العرب مكانتهم فى المجتمع الإسلامى المستقبل ثقة فى النفس وسعة فى الصدر ومرونة فى الفكر وعمق فى البصيرة وتعاون بناء .

وجملة القول : إن مستقبل الحضاة العالمية رهن بمستقبل الحضارة الإسلامية ولقد دخلت الحضارة الغربية مرحلة المحاق ولم يعد فى استطاعتها أن تعطى شيئاً إلا عطاء القلق والتمزق وأزمات التدمير الاجتماعى والخلقى .

ويجب أن يعرف شباب الإســـلام أن الأمل معلق بالقوة القادرة على منح الإنسان مطامحه الروحية إلى جانب المعطيات المادية وأن المعطيات المادية نفسها لم وان تكون قادره على إسعاده ، فقد ارتفعت نسبة الدخول والموارد فى بعض بلاد أوربا على النحو الذى جعلها فى القمة وما زالت هذه الدول تقاسى أشد ألوان التمزق النفسى وفيها أعلى نسب الانتحار والقتل .

والحضاره الغربية اليوم تقدم أبشع صوره للإنسان فى مجال التدمير ولاريب أن أخلاقية الحضاره هى حجر البناء الأول فإذا فقدت الحضاره هذا الأساس فانها مهما تطل بها الحياه فستظل الملايين القائمة بها مدمره منهاره .

ولاريب أن أكبر الخطأ هو الاستسلام للنمط الغربي ونسيان الهوية وفقدان الأصالة ، إن الهدف من الغزو التغريبي القائم هو أن ينصهر المسلمون في بوتقة الأممية . ولا ريب أن الأنماط الحضارية الغربية التي يراد احتواؤنا في داخلها هي جد فاسدة :

ولذلك فنحن نطالب بالعودة إلى المنابع ونشجب أسلوب العيش الغربي لقد كان الغربيون في أخذهم بالتجريب الإسلامي أصدق منا فقد احتفظوا بقيمهم وعقائدهم والشيوعيون والغربيين لهم استقلال ايدلوجي ، واليابان مع حضار: الغرب لها استقلال فكري .

فلماذا لا يكون للمسلمين هويتهم وذاتيتهم ازاء الحضارة والعلم وأسلوب العيش الغربي حتى لا ينصهروا في بوتقة الأممية وتزول هويتهم وشخصيتهم المتميزة .

(٥)

فى مواجهة الثقافة الإسلامية

(١) فى مواجهة الثقافة الواحدة

(٢) الإسلام والثقافة الوثنية

(١)

فى مواجهة الثقافة الوافدة

إن محاولة النفوذ الغربى لإخضاع ثقافة الإسلام وفكره الثقافة الغرب ماتزال مستمرة وهى تتم فى إطار السيطرة وليست تجرى فى إطار الإرادة الحرة ، أنه ليس تقارباً حرا بين الثقافيين ولكنه تقارب فى ظل عدة ضغوط تحت نفوذ الاستعمار وسلطان الغزو الثقافى فى محاولة فرض هذا اللون نتيجه مرحلة ضعف الغرب والمسلمين ومرحلة سيطرة الغرب وقد جاء ذلك نتيجة تكوين عناصر ذات سيطرة سياسية تؤمن بالفكر الغربى وتحتقر الفكر الإسلامى ومن ذلك قولهم أن التراث الغربى له جذور إسلامية (ولذلك فإننا نستطيع أن نأخذه) وهى مقوله غير دقيقة فان هذه العلوم حين كانت أسلامية ونقلها الغرب إلى لغاتهم من اللغة العربية ،نقلها بحذر دون أن ينصهر فيها وحولها إلى إطار فكره ولكنها حين تعود اليوم فهى ليست خالصة من طابعها الغربى الذى أضفى عليها طابعا مادياً فتحولت إلى شىء آخر غير الثقافة الإسلامية الأصيلة المبالغ التى تستمد من القرآن والسنة وتقوم على التوحيد .

٢ ـــ لقد كانت الثقافه الإسلامية ـ كما يقول هاملتون جب ـ ولاتزال عاملا هاماً فى تكوين الشخصية الاسلامية على مدى العصور فقد حمت الثقافة الاسلامية القائمة على (التوحيد والعدل والرحمة والآخاء الانسانى) المسلمين من دخول تقاليد غربية الجوهر عن كنهه الصحيح . وبذلك بقى لها ذلك طابع الاختلاط الدائم الذى ظل قائما بين أنحاء العالم الاسلامى لاسيما بين الأطراف ومركز الإسلام فى مصر وآسيا الغربية وأهمها . الحج والطرق الصوفية واللغة العربية والتجارة .

كذلك عملت الثقافة الاسلامية على أضعاف ذكرى الثقافات الموروثة بل على محوها فى بعض الأحيان من نفوس معتنقيه واحلال تاريخ الاسلام وتقاليده عليها ونسى الناس فى كل الأقطار تقريبا ما كان لهم من ماض قبل الاسلام ، نسى

المصريون فراعنتهم وبطالستهم ، ونسى الاتراك خواقينهم ذلك أن المشاركة فى دين واحد وشريعه واحدة وثقافة واحدة أوجدت الى جانب الشعور بالوحدة الاجتماعية (القرب بين المسلم فى المغرب والمسلم فى جاوه له الحق فى أن يغدو ويروح .

ويقول جب : ليس عجيبا أن تتمايز الثقافات ولكن العجب أن أصول المدنية ونزعات الفكر فى الإسلام بقيت واحدة بوجه عام برغم كثرة العوامل التى تعمل على الاختلاف ومن أعظم إثار هذا الاتساع المتوثب أن الإسلام لم يتعرض أثناء تنسيق مدنيه لثقافات متباينة تنافس فى التأثير فيه .

٣ — لقد علمنا الاسلام أن نقف من المعرفة المعروضة علينا موقف التعرف الصحيح عليها فى ضوء قيمنا ونورها الهادى ، ومن أجل ذلك فان علينا التعرف على أكبر قدر من المعلومات المقدمة لنا عن طريق الصحافة أو الإذاعة أو المؤلفات المترجمة وغيرها ، هذا الركام من خبرات العالم المتراكمة ، ماهو موجود هنا وهنالك وهل كل هذه المعلومات نافع وضرورى وإيجابى أم هناك زيف كثير وتفاهات إن لكل أمة ثقافتها التى شكلتها عقيدتها وفكرها وتاريخها وتراثها لذلك فانه علينا أن يكون لنا « موقف » من هذه الثقافات والفلسفات ، ماذا يمكن أن تعطينا ، هل نقف مما يعرض علينا موقف النقل والاقتباس ، كيف يمكن ضمان أن لا تصبح المعلومات المعروضة علينا وسيلة للسيطرة على الأمم ، وماذا عن فكرة تقليد الغرب وإنماط الغرب ، وللترف ، والاستهلال ، التحرر من القيم ، عن انتماء الأقطار العربيه إلى الاسلام .

٣ - ويجب علينا تركز دائما على حقيقة أساسية تدحض كل الشبهات أن الثقافة العربية تستمد وجودها الراهن من التعاليم الاسلامية وترتبط بالاسلام ارتباطا لازما وشاملا ، وهى كما يقول الدكتور إبراهيم حسان - أن البلاد العربية وحدة ثقافية تقوم على وحدة الدين ووحدة التراث ووحدة اللغة ، هذه الوحدة هى الدرع المكين الذى حفظ للعرب سماتهم الخاصة وحفظ لهم كرامتهم كما كانت المرتكز الأساسى للتحرر والانطلاق ، وهى التى مهدت للعرب فرص اللقاء فى وحدة شاملة ونعنى إذابة الفوارق التصورية والحسيه والشكوكيه بين المجتمعات العربية والاستفادة من ضرورة

الترابط الوجدانى الذى نبته العقيدة الاسلامية فى حلق ترابط وتعاطف اجتماعى فى نطاق الوطن العربى .

٤ — أن النظرة الاسلامية هى النظرة الجامعة التى لا تقنع بالجانب المادى أو الدنيوى أو الجانب الروحى وحدة فى أى تجربة من تجارب الحياة .

ذلك كما يقول الأستاذ العقاد أن كل ما يحاول أن يصل إليه العلم من سر عرفناه بالايمان ، أن هذه الكرة الأرضية فى مكان خاص من الكون الواسع ولا يغير هذه الحقيقة كشف من كشوف الفلك ولا يزال سر الحياة مستعصيا على العلم والعلماء ولكنه ليس مستعصيا على المؤمن بالله لانه قد أعطاهم إياه من قبل دون أن يحتاجوا إلى الخبرة الطويلة فى البحث وكل ما أعطاه العلم مهما بلغ قليل بالنسبة لما أعطاه الإيمان

وما تزال كل ما أعطت العلوم عاجزة عن تفسير سر الحياة الذى عرمه المومنون أن سر المادة اليوم أصبح أحوج الى الايمان من سر الروح .

٥ — إن أخطر ما يواجه الاحتكاك الثقافى بين عالم الاسلام وعالم العرب هو خطر المصطلحات الوافدة : وإن أول ما تدعو اليه الأصالة ويهدمن للعقبات على طريق دخول حركة اليقظة عصر النهضة هو خضوعنا للمصطلحات الغربية وعجزنا عن تحريرها ولقد ارتفعت الصيحات من الدعاة المخلصين بالعمل على صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الاسلامية من التحريف أو اخضاعها للتصورات العصرية الغربيه أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التى نشأت فى أجواء خاصة وبيئات مختلفة ولها خلفيات وعوامل وتاريخ فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الاسلامية — كما يقول السيد أبو الحسن الندوى — غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات بل وعلينا أن نحول دون اخضاعها ولكنه ليس مستعصيا المؤمن التصورات الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية ،

وأمامنا المحاذير التى وقع فيها الفكر الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى عندما دعا بعض الزنادقة والشعوبية الى احتضان مصطلحات وافدة ، ومنها فكرة الباطنية ودعوتهم الى أن للقرآن ظاهرا وباطنا فقد أزالوا الثقة بالكلمات المتواترة الاصيله التى هى أسوار الشريعة الاسلامية وحصونها وشعائرها وأدخلوا المسلمين فى دوامة

خطيرة من التبعية والزيف . ويقول السيد أبو الحسن البدوى : أن الكلمات هى الوسيلة الوحيدة لنقل المعانى والحقائق من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر ومن انسان الى انسان فاذا وقع الشك فى مدلول هذه الكلمات أو صار التلاعب بها اضطربت دعائم الدين وتزلزلت أركانه وليست قضية الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذى يتصورة بعض الناس ، فانها تؤثر فى النفس تأثيراً خاصاً وتثير معانى وأحاسيس ذات الصلة بالماضى وذات الصلة بالعقائد والاعراف أحياناً ولذلك كره رسول الله أن يقال العتمة مكان العشاء ويوم العروبة بدل الجمعة واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة . لقد توارثت الامة الإسلامية هذه المفاهيم المعينة كما توارثت أشكال الصلاة والصوم والحج وتنافلتها وحافظت عليها من غير أقل انقطاع أو أقصر فترة » :

ومن هنا فان تثبيت المصطلحات الاسلامية : الشورى والعدل الاجتماعى والرحمة والمروءة والاخاء الانسانى وغيرها عامل هام فى خلق التصور الاسلامى الصحيح الذى لا تستطيع المصطلحات الغربية الحديثة تحقيقه لانها تختلف عنه اختلافا واسعاً .

الإسلام والثقافة الوثنية

(١)

رفض المسلمون فى القارة الهندية الانصهار فى بوتقة الامية الهندية وحافظوا على وجودهم وكيانهم الخاص : يصور هذا أحد الباحثين المسلمين فيقول :

أن المسلمين فى القارة الهندية مع إيقانهم بصدق الاسلام وادراكهم تمام الادراك عظمة ثقافتهم وتراثهم لم يمتنعوا عن إتخاذ بعض أوجه الثقافه الهنديه والتى يمكن التوفيق بينها وبين مثلهم العليا وحاجاتهم وكانوا ينبذون كل مايخالف عقائدهم وأفكارهم نبذاً شديدا ولم يقبل مسلمو الهند أن يتسرب إيما شيء ويزحف الى مذهبهم وعقيدتهم ولا أن يؤثر فى أى بيئه جديد على وجوتهم وكان حكام البنغال حماة اللغة والأدب وكانوا يؤمنون بان المسلم إذا قام بنشر ثقافة هندية غير مسلحه فقد هند نفسه . لقد أراد المسلمون أن يعيشوا فقاوموا كل الجهود التى بذلت للقضاء عليهم وكانت أجابتهم على حركة الأحياء الهنديه أن قووا رابطتهم بمصادر ثقافتهم الاسلامية وزادوا نسبة الكلمات الفارسية والعربية فى لغتهم اليوم .

وإذا نظر الهندى إلى العهد الماضى السابق على الاسلام باعتباره عصره الذهبى فقد أجاب المسلم بتمجيد أعمال اسلافه فى الهند واعتبرها مثلا أعلى . أن أسطورة الفتح الاسلامى التى يعتبرها الهنود قصة الاذلال القومى كانت فى نظر المسلم أوج مجد أجداده . كل هذا سبب فتورا ونفورا فى علاقات المسلمين بالهند وجعلت المسلمين يدركون أن لهم كيان قائم بذاته . وهكذا زاد احساسهم وقوى إدراكهم لالانهم ينتمون إلى ديانة مختلفة وكفى بل وإلى نظام اجتماعى مغاير ولثقافة متباينة .

أن العناصر الاسلامية لهذا النظام وتلك الثقافة ماوهنت قط ، وزادها قوة ذلك التبديل البارز فى نظم الهنود خلال عشرات السنوات الاخيرة وتجلت

حقيقة الكيان المستقل للشعب الاسلامى فى الهند بصورة واضحة فى لباسه وفى هندسته المنزلية والعامة وفى اللغه والشعر وفى الأدوات والالآت ذات الاستعمال اليومى وفى العادات والاساليب وجد وجد الهنود فى مذهب القومية الهندية فرصة لتدعيم مركزهم لانهم أملوا الحصول على موارد الدولة بفضل عددهم ووجد المسلمون انفسهم أمة قائمة بذاتها وتركتهم ، وتركوا حركة الاحياء الهندى كاشفين عن كل المميزات والخصائص التى تنوه بهم كأمة منفصلة وتلك ظاهرة ذات مغزى لدارسى علم الاجتماع .

نعم : يعتقد الباكستانيون أن لهم ثقافة جديدة يستطيعون أن يدفعوها قدما ويرون أن تاريخهم : أقام الدليل على ولعهم العزيزى بالتسامح والتحرر فوجب عليهم اذن أحياؤها وممارستها فى حياتهم ونشرها والدعوة اليها فى العالم .

ومن ذلك طموحهم على جعل حياة الامة ترتكز على المبادىء الاسلامية لاخوة الانسان والتسامح والديمقراطية والعدالة الاجتماعية . أن إصرار الباكستانين على المبادى الخلقية والروحية التى نادى بها الاسلام ادى بالمغتربين عليهم أن تقولوا أن باكستان دولة الهيه أو دينية وليس شىء أبعد عن هذه الحقيقة أن السلطه الالهية معناها الحكم المستبد المتعصب لطائفة الكهنة المتعنتين الذين يحكمون باسم الله . أن هذه النظرية غريبة على الالة العربية فضلا عن غرابتها على الاسلام الذى لايسمح باى نوع من الرهانية :

(ا . ج . فريسى)

(٢)

« تعمل الهندوكية مع الصهيونية والشيوعية الأممية بتعاون وثيق سعيا إلى ضرب المجتمع الإسلامى القائم فى الهند وفى باكستان وفى بنجلادش عن طريق الغزو الثقافى الهندوسى، وعن طريق الحلف الهندى الاسرائيلى ضد العالم الاسلامى الاسلامى الذى كشف عنه الأستاذ محمد حامد فى كتابة (الحلف الدنس) عن التعاون الهندى الاسرائيلى فى مختلف الميادين وقد أشار إلى الكوارث الثلاث التى حلت بالمسلمين فى بداية هذا القرن من انهيار دولة الخلافة وتأسيس دولة للهندوس وأخرى لليهود وأشار إلى أن هذه الكوارث هى نتيجة مباشرة لتأخر المسلمين وعجز زعامتهم ونتيجة غير مباشرة لمؤامرات اليهود العالمية ومكائد الاستعمار والشيوعية .

وقد عمد غاندى ونهرو إلى إعاده إحياء التراث الوثنى الهندوكى واعتباره التراث القومى للهند بعد أن عاست الهند أكثر من ألف عام فى كنف الحضار الاسلامى والفكر الاسلامى .

وحين يكتب كاتبهم عن تاريخ ثقافة الهند القومية (كتاب دكتور عابد حسين) يقول : لقد جاء المسلمون الى الهند كغزاة عام ٧١٢ ونشروا حكمهم فى اقليمى السند ومولتان والمرجح أنهم جاءوا للتجارة فى جنوب الهند قبل ذلك بمدة ، ثم اشار الى أن المسلمين نشروا الحرية والنظام فى ربوع البلاد ومنحوا رعاياهم من الهنود الحرية الدينية والثقافة فغـــيروا القوانين المدنية والجنائية وأدخلوا عليها بعض بنود الشريعة الاسلامية السمحاء » .

ويحاول أن يصور اقبال الهندوك على الاسلام بأن ما دعا اليه الاسلام كان لايختلف كثيرا عن وحدة الأصل والمصدر الذى كان الهندوكيون يؤمنون بها وأن ذلك جعل من الطبيعى أن ينجذب الهندوكيين الى تلك التعاليم التى تشبه فى كثير من الوجوه تعاليم الفلسفه الفيدية .

ولا ريب أن هذا التبرير خاطىء وغير صحيح ولو أن الدكتور عابدحسين

قال أن الاسلام هو الفطرة وان الهنود حين سمعوا كلمة لا اله الا الله نفضوا أيديهم من أوثانهم وتماثيلهم وأحجارهم وكهنتهم واتجهوا الى صوت الحق لكان خيرا له . ولـكنه لا يستطيع أن يقول ذلك ويقول : ان أعظم ما جذب الطوائف الدنيا من الهندوكية هو التنظيم الاجماعى فى الاسلام والمبنى على أساس المساواه والاخوه بين جميع البشر بغض النظر عن الجنس واللون والدين فوصل عدد ضخم من الهنود الى رحاب الاسلام .

(٦)

فى مواجَهَة اللغـة العَربيّة

(١) تحديات فى وجه اللغة العربية

يقول خصوم اللغة العربية :

تحديات فى وجه اللغه العربية

ه أن اللغة العربية غير قادرة على أن يتحدى اللغات المعاصرة .

. أن عدم قدرة اللغة العربية لإثبات وجودها فى عالم اليوم إنما هو نتيجة اعتمادها على أصول وقواعد فى النحو والصرف منذ القدم ولكى تمكون اللغة العربية لغة معاصرة حية لابد من أن : (١) أن تتخفف من كثير من من قواعد النحو - أن يتساهل فى قواعد الإملاء (٢) أن يتساهل فى قواعد الصرف .

. إن اللغة العربية وسيلة وليست غاية ولذلك يجب التخفف من كثير من قواعدها ، ا . ه

ماتزال اللغة العربية تعبر على مر الأيام بمعارك ومساجلات عل امتداد الوطن العربى ، وفى مواجهة التحديات التى لقيتها خلال فترتى الاحتلال وما بعد الاستقلال خاصة فى البلاد التى سيطر عليها النفوذ الفرنسى والبريطانى حيث تنافست الثقافتين اللاتينية والسكسونية وحاولت كل منهما فرض نفوذها عن طريق ثقافتها ولغتها وعلى حساب اللغة العربية الفصحى ، حيث حاولت مخططات الاستشراق والتبشير إحلال اللغة الأجنبية أو اللهجة العامية أو الحروف اللاتينية (كما حدث فى تركيا وأندونيسيا حيث استبدلت حروف اللغتين العربية بحروف لاتينية وقد جرى ذلك بشأن بعض اللغات أفريقيا) .

لقد كان لخصوم اللغه العربية والاسلام دعوات عريضة حول اللغة العربية فى محاولة اتهامها بالقصور أو الجمود أو العجز عن استيعاب مصطلحات الحضارة والعصر وقد نوقشت كل هذه القضايا وثبت فساد دعواها ، كما ثبت صلاحية اللغة العربية فى الحاضر صلاحها فى الماضي لحمل رسالة الحضارة والعلوم والتكنولوجيا.

(١) قضيتان تثاران فى الوقت الحاضر للهجوم على اللغه العربية :

(الأولى) اتهامها بالعجز عن تلبته حاجات المجتمع .

وإذا كانت معاصرة اللغة للحضارة إنما تتحقق بأن تفى بحاجة أبنائها من الكلمات والمصطلحات وتعينهم على استخدام كلمات ومصطلحات أجنبية كما يقول الدكتور محمد رشاد صالح - فان خطوة اللغة العربية من القيم التى يحتويها هذا المعيار لا تقل عن خطوة اللغات الأخرى منها .

فاللغة اليابانية من أجل أن تواكب العصر اضطرت إلى قبول ما يتراوح إلى ٣٣ فى المائة من مجموع مفرداتها من المصطلحات الأجنبية المعدلة وغير المعدلة وغير المعدلة كجزء من لغتها الأم الأم كاللغة العبرية التى اضطرت أن تصل إلى ١٧ فى المائة من مجموع مفرداتها .

واللغة الفارسية ضمت إلى بنائها الحديث من المفردات العربية ٢٢ فى المائة ومن المفردات الأوربية ١٥ فى المائة .

واللغة التركية تستخدم عن المفردات الأجنبية ٢١ فى المائة من مجموع مفرداتها

أما اللغة العربية فاذا وضعناها وما حققه لمواكبة العصر فى كفة ووضعنا اللغات التى ذكرناها وما حققته هذه اللغات لتطوير نفسها وملاءمة العصر وحضارته فى كفة أخرى وجدنا أن اللغة العربية تأتى فى المقدمة بل تقف على القمة لانها استجابت لحاجة العصر قدر استجابة اللغات التى ذكرناها واعتنى أبناؤنا باغناء هذه اللغات بعطاء أكثر حيث استطاعت أن تفى بحاجة أبنائها بوضع البدائل العربية وتوظيف المفردات القديمة وأن تعاصر حضارة العصر أكثر من معاصرة اللغات المشابهة لها فى جغرافية المناخ وحيثيات الظروف من غير أن تقبل من الاجنبية والدخيلة حتى بنسبة ٢ ٪ من مجموع مفرداتها الامر الذى يجعل اللغة العربية تستحق صفة المعاصرة بجدارة ومن غير ما جدال بل يجعلها على رأس قائمة اللغات المعاصرة والعالمية الاولى .

الثانية : يقول بأن معاصرة الثقة للعصر إنما تتحقق بأن تكون اللغة سهلة فى قواعدها ، بسيطة فى أدائها ، غير مستعصية على التناول .

وفى هذا يقول الدكتور محمد رشاد صالح : لمعرفة مدى ما تتمتع به اللغة العربية بالقيم التى يحملها هذا المعيار تحتاج إلى إجراء مقارنة بين أوسع لغة عالمية وهى اللغة الانجليزيه وبين اللغة العربية حيث يضع كلا منهما ومن المزايا التى يحملانها مقابل بعضها البعض .

أولا : اللغة الانجليزية لغة عالمية راقية لاتدانيها اللغات الأخرى فى تداولها وعالميتها . قواعدها بسيطة لابأس بها ومؤيدوها وعشاقها أكثر من الكثير وقد نجحت فى السيطرة على العالم ولكن السؤال هو : هل يعود نجاحها إلى مقومات المعاصرة وعناصر السهولة التى تملكها أم إلى عناصر خارجية . لا يجد الممعن فى الانجليزية الا أن يحكم بالشق الثانى لأن الجوانب التى تعيب اللغةالانجليزية وتقلل من شأنها وتجعلها صعبة المراس عند الامعان ليست بقليلة فهى فى أكثرها قائمة على الشواذ وتعتمد على السماع كما أن عماد اللغة نفسها يدور على نبرات صوتية كائمة وجرس رنينى لا يخضع لاداء صوتى محدد وقواعد محدودة . وقل نفس الشىء فى أملاء الانجليزية حيث يعزوه نقص القواعد والضوابط من البداية إلى النهاية . فهناك الكثير من الكلمات (أكثر من نصف المفردات) الانجليزية التى تلتق مع بعضها فى الصوت والجرس والرنين وتختلف عن بعضها فى الاملاء بل أن حروف اللغة الانجليزية هى الأخرى تدور على عشرات أنواع من الاملاء مما جعل وجود عالم واحد يلم باملاء جميع الكلمات الانجليزية على مستوى العالم من باب المحال . هذا إلى جانب أن حروف الهجاء الانجليزية غير كافية لرسم صوت الكلمات الانجليزية حتى أن القواميس الانجليزية تضطر إلى إضافة على رسم صوت بحروف الهجاء الانجليزية المعروفة إلى رسمها فى أشكال ورسوم مختلفة توصل الاحرف الانجليزية وأصواتها إلى أكثر من مائة صوت وحرف على أحسن تقدير وهكذا فان اللغة الانجليزيه الحاملة صفة « المعاصرة » ولقب أرقى لغة لاتطاولها فى عالميتها لغة ، هى لغة لاتحمل من مقومات المعاصرة وامكانية مواكبة العصر إلا ما هو أقل من القليل وهكذا وهذا يؤدى بنا إلى حكم واحد هو أن الانجليزيه ليست فى ذاتها معاصرة وأن معاصرتها وعالميتها مدينه لمنحنيات الزمان ونتوءات التاريخ التى ترتفع طورا باقوام وتنحدر طورا بالاخرين .

أما العربية فاذا قسناها بالمعيار الذى قسنا به الانجليزية فاننا نجد انها على عكس

الانجليزية لغة قياسية تتبع قواعد وضوابط محدودة، وما التي لا تخضع للضوابط وكذلك ما يستند على السماع فيها قليلة لا تؤلف نسبة كبيرة من مجموع مقرراتها، وهذه القليلة هي التي يمثلها بعض مصادر الثلاثي وبعض أسماء الفاعلين من الثلاثي وبعض جموع التكسير وبعض صيغ النسب والتصغير وهي بالنسبة للمجموع الخاضع لقانون الصرف لا تؤلف أكثر من ٧ فى المائة من مجموع المفردات العربية، أما فيما يتعلق بالشواذ فى النحو المدرسى فان الشواذ عن قواعده تكاد تكون لا شىء إذا قسناها بالشواذ من هذا النوع فى اللغات الأخرى أما إملاء العربية فمن السهولة بمكان جد عال له قواعد بسيطة يسهل على المتعلم فهمها وحفظها فى جلستين أو ثلاث وله بعد ذلك أن ينفذ هذه القواعد فى كتابه كل كلمة تحتويها قواميس اللغة العربية منذ القدم وإلى اليوم ولا يمكن أن ينسب عملة إلى حظاً ما طالما هو ملتزم بقواعد الإملاء التى استوعبها.

وهكذا فان المقارنة بين الانجليزية والعربية تنتهى بنا إلى حقيقة واحدة هى أن العربية لا تعانى من النقص فى شىء إذا قيست بما تعانى منه اللغات الآخرى وعلى رأسها الانجليزية: اللغة العالمية الأولى.

وليست المقومات اللغوية هى السبب فى معاصرة الانجليزية وعالميتها وإنما يعود كل شىء إلى أبناء الانجليز الذين استعمروا نصف العالم أو يزيد لأكثر من قرن استطاعوا أن يفرضوا لغتهم على العالم . وتصـــدروا عالم الصنعة والعلم والاكتشافات العلمية لبرهة من الزمن قادوا عالم السياسة والفكر لقرون فجعلوا لغات العالم تابعة لهم وآكلة فتات موائدهم ويوم كانت العرب سادة العالم، ولهم زمام المبادئة فى السياسة والفكر والعلم والاقتصاد والأخلاق والفن كانت اللغة العربية سيدة الموقف بلا منازع ويومها استطاعت أن تدفن العبرى وعليقه . والفارسية القديمة واللغات الأخرى التى طال بها الزمن لأكثر من ثلاثة آلاف سنة .

ولغة هذا شأنها لا محالة تغالب الزمن وتكسر كعوب خصومها لأن التجربة هى التجربة والحضارات هى الحضارات .

(٢)

ويقول الدكتور عبد الله محمود أن اتهام اللغة العربيه بعدم قدرتها على أن تنى

بحاجات أهلها كما تفي اللغة الانجليزية بحاجات الانجليز فيه إقرار صريح بنزع عنصر التحدى الذى تميزت به اللغة العربية طوال أربع عشر قرنا من الزمان لأن لغة القرآن كانت لغة الدول الإسلامية والأمة الإسلامية طوال قرون عدة أما دعوة التخفف من كثير من قواعد النحو والصرف والاملاء فهى تعنى فى لغة العرب انتقاص وإزالة كثير من قواعد النحو والصرف والإملاء .

وقد جاءت هذه الدعاوى المتجددة (جامعة الامارات والدكتور الأشتر عام ١٩٨٠) ترديدا لما جاء فى مؤتمر دمشق . ١٩١٩ المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية)حيث دعا الدكتور طه حسين وإبرهيم مصطفى وأحمد حسن أحمد الزيات وغيرهم إلى التساهل فى بعض قواعد الاعراب وعدم التشدد فى قبول المستحدث من الألفاظ والأساليب التى تجرى على كل لسان لكى يسهل تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية (الزيات) أما طه حسين فانه ألقى محاضرة دعا فيها إلى العدول عن قواعد النحو الثابته المتدارسة زاعما أنها لم تعد صالحة (انظر إحياء النحو ص ٢٢٨) .

وقد واجه الدكتور محمد محمد حسين هذه الدعاوى قائلا : إنك تجد دعوتهم إلى العامية وتبديل الخط العربى وقواعد النحو والصرف والبلاغة إذا أعوزك أن تجد ذلك سافرا صريحا فستجده مستورا خفيا يلبس زى الناصح الغيور، هذه الدعوة لم تنشأ إلا فى ظل استعباد الغرب لبلاد العرب والمسلمون وفى حمايته من ناحية وفى حضانة التبشير من ناحية أخرى ، ويكفى أن اذكر لك على سبيل الاختصار أسماء سبينا ، فولارز ، باول ، فيلوت ، بوريان، مسبيرو، الذى قادوا الدعوة فى مصر منذ ١٨٨٠ أن أول ما يلفت النظر فى هذه الدعاوى ما انحدرت إليه مجامع اللغة العربية من ترويج الدعوات المريبة إلى تطوير اللغة وقواعدها ورسمها وهو تطوير يختلف أصحابه فى تسميته ولكنهم لا يختلفون فى حقيقته ، يسمونه تارة تهذيباً وتارة تيسيرا وتارة اصلاحا وتارة تجديدا ولكنهم فى كل الأحوال وعلى اختلاف الاسماء يعنون شيئا واحداً هو التحلل من القوانين والأصول التى صانت اللغة خلال خمسة عشر قرنا أو يزيد فضمنت لجيلنا وللاجيال المقبلة أن تشرح بفكرها وتمرح فى معارض فنون القول وأثار العبقريات الفنية والعقلية لا تحس بقيود الزمان ولا المكان فكأنما القـــرآن قد نزل فينا اليوم وكأنما شعراء العربية وفقهاؤها

وفلاسفتها وكتابها وأطباؤها ورياضيون وطبيعيوها وكيمائيوها على اختلاف أزمانهم قد كتبوا وألفوا ماألفو فى الأمس القريب وهذه ميزة من الله من بها علينا ولم تحظ بها أمة من الامم فاذا تحللنا من القوانين والأصول التى صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة تبلبت الألسن حتى تصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربى والفكر الإسلامى كله متعذرة على غير المتخصصين من دراسة الآثار ومفسرى الطلاسم . وليس الخطر الكبير فى الدعوة إلى أبطال النحو وقواعد الإعراب أو اسقاط بعضها فالداعون بهذه الدعوات من صغار الهدامين الذين ليس لهم حظ المتاة ممن يعرفون كيف يخدعون الصيـــد باخفاء الشباك وكيف يستدرجون الناس بتزوير الكلام ، أن الخطر الحقيقى هو فى الدعوات التى يتولاها خبثاء الهدامين ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويضعونها فى أحب الصور إلى الناس ولا يطمعون فى كسب عاجل ولا يطلبون انقلابا سريعا :

الخطر الحقيقى هو فى قبول مبدأ التطوير نفسه على أن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم تكن فى يوم من الأيام داعيا الى تحجر اللغة وجمود مذاهب الفن فيها ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة . ويقول الدكتور عبد الله محمود معلقا : أن الدعوة الى تطوير اللغة بحجة أنها غير معاصرة هى من آثار وقوع الأمة الاسلامية ضحية الغزو الفكرى الشرس للعقلية العربية الاسلامية ووقوع جميع البلاد الاسلامية بين براثن الاستعمار الذى فرض لغته على أبناء المسلمين فرضا لأن اللغة وعاء الفكر فاذا فسد الذوق اللغوى للامة فسدت أفكارها وتاهت شخصيتها فى دوائر التقليد الغالب احتى لا يعود للاسلام ليتصدر أحداث المسرح الدولى فلننظر كيف تكون لغة القرآن هى لغة المسلمين .

فى مواجهة التبعية والاقتباس من الغرب

(١) سقطت مدرسة التبعية

(٢) فى مواجهة قضية الاقتباس من الغرب .

(٣)فى مواجهة النفوذ الاجنبي .

(١)

سقطت مدرسه التبعية

صدعت المدرسه الاسلامية بالحق ، وسقطت مدرسة التبعية للحضارة الغربيه وأصبحت الان تلملم ركامها وتحاول أن تعيد تشكيل مؤامرتها من جديد ، فنجد أن الاستشراق والتشير يغير جلدة ، ليخدع المسلمين من جديد ، ولكن التجربة التي خدعت المسلمين بان الوسيلة التي تمكنهم من النهضة والتقدم هو التبعية للغرب في منطلقاته ومفاهيمه ، وكانت تلك دعوتهم للاجيال التي خدعت، دعا هؤلاء واتباعهم الناس إلى أن الحضارة الغربية هي مصدر النهضة في الشرق ، هكذا علموهم في الغرب ، وكان للدعوة جانب كهنوتي منذ الحروب الصليبية يخاف الاسلام ، ويخشاه ، ويتمثل هذا الجانب في إنكار الحضارة الاسلامية وقيمها وانتقاصها لحماية ، الغرب نفسه من غزو الاسلام ، ثم انصدع صوت الحق ومن قلب هذه الجماعة قال الدكتور هيكل : أن البذر التي وضعناه في الارض لاينبت سواء كان فرعونيا أم غربيا وأن هذا الطريق لايؤدى وأن الطريق الوحيد هو طريق الاسلام . قال هيكل ذلك بعد أن استعلنت كلمة المدرسة الاسلامية ودوت في الافاق .

ولقد ظلت تتوآلى الحقائق تنكشف أمام المسلمين : كشفت عن حروب النكبة والهزيمة والنكسة جميعها عن فساد دعوى المدرسة الضالة المضلة : مدرسة طه حسين وسلامة موسى ومن ورائهم زكي نجيب محمود ولويس عوض ، خداع وأغراء ، خدعهم المستشرقون بالنظرية وأغروهم بالنفوذ ، لقد حاول هؤلاء تقديم ذلك الركام من النظرية الليبرالية ، والماركسيه والفرويدية ، والوجودية بغير نقطة بدأ أصيلة من الفكر الاسلامي الذي طرحت في افقه هذه الاعاصير ، أن نقطة البدأ يجب أن تبدأ من الاسلام نفسه ، من كلمة التوحيد التي ترسم للانسان مسئوليته في الحياة والتزامه الاخلاقي .

لقد أعادوا طرح ركام الفكر الوثني القديم ، ممثلا في إخوان الصفا والباطنية

والحلول والاتحاد وجروا وراء أوهام الفكر الافريقي والغنوصي وسموم الاباحيين من الشعراء (أبو نواس وبشار) وسموم ابن عربي والحلاج ورسائل إخوان الصفا .

لقد كانوا قناطر تنقل السموم من الغرب إلى الشرق ، ولم يكن أحد منهم صاحب فهم أصيل مستمد من الفكر الاسلامي ولاصاحب أيدلوجية ولايمكن أن يضاف اسمه إلى قائمة العلماء فهؤلاء تابعون رددوا شبهات المستشرقين والمبشرين وزينوها في نفوس الشباب المسلم .

ولكن حركة اليقظة أستطاعت أن تضرب هذا الاتجاه وأن تدمره ، وأن تكشف فساد هذا المنهج وفساد الفكر البشري الوثني المادي ، لقد كان يغمر نفوس هؤلاء المتغربين ، شعور البغض ومحاولة الاستعلاء بالتقليد ، كانت عقدة التخلف في نظرهم لاترفع الابالتقليد ، تقليد الأجنبي ، وقد عجزوا عنفهم أبعاد المسائل والقضايا ، وخلفيات الاشياء . ونسوا أن مصدر النقص هو الغفلة عن المنبع الأصيل .

هزت نفوسهم ، ماديات الحضارة . كانوايكتبون عن باريس ولندن وعن المتاحف والقصور والكاندرائيات وكانها كل شيء في الحضارة .كانالتقدم المادى يلهب عقولهم ويسيطر على نفوسهم فينظرون إلى أوطانهم على أنها ظلمات ولايرون الا بابا واحداً لتقدمها هو نقل هذه الحضارة المادية ، ولقد كانوا يعلمون أن أصحاب الحضارة مكرة وظلمة فهم لايقدمون هذا العلم الذي صنع التقدم المادى إلى أمة الاسلام وإنما يقدمون لها سموم الحضارة وأباحياتها ويقدمون معها فلسفتها أدبة ضالة تفسد العقول القلوب فقد غزوا هذا الشرق الاسلامي بالايدلوجيات والنظريات وأيقظوا النحل والدعوات الهدامة القديمة لتصارع روح الاسلام الحق وتمزق وحدة فكر الامة الاسلامية .

وكان من دراء ذلك فكر الصهيونية في تحويل مفاهيمها إلى مذاهب وعلوم تدرس بجامعات العالم الاسلامي ، وأستطاعوا أن يبهروا الناس ثمة ولكن أنظر الآن تجد أن كل ما تركوه هو ركام مظلم أسود ، وتجد جريرتهم واضحه فانهم هم الذين خدعونا حتى أوصلونا إلى مرحلةالتصدع . لقد قطع هؤلاء الناس صلتهم

بالماضى ، بالعروبة والاسلام وصنعوا صلات جديدة وهمية بالغرب والفكر الغربى والفكر الماركسى والفكر الصيهونى .

لذلك فقد كانوا عاجزين أن يحدثوا فى القلوب رضا أو فى النفوس ولاء لانهم كانوا يسبحون ضد التيار ، فلما أرتفعت كلمة الله ودعوة الاسلام ووجدت الاستجابة الحقيقية لانها تمثل الفطره وتقدم للنفس البشرية والقلب الإنسانى مطامحه وهداه ، فلما وجدوا أن الدعوة الاسلامية تغلبهم حملوا عليها وهاجموها ، ثم حاولوا أن يدخلوا الميدان ويقتحموه بالكتابة عن الاسلام والسيرة ليوجدوا بديلا تحمله أقلام لامعة لها شهرتها وليكون ذلك عاملا أساسيا فى تقديم البديل قبل ضرب الأصيل والقضاء عليه .

هذه البدائل تتمثل فى كتابات التاريخ الاسلامى والسيره لم تكن التى خالصة لوجه الله ولكنها كانت تستجيب لاهواء دفعت الاحلام اليها .كانت تحاول ضرب الموجة الزاحفة ، أو التنكر لمعجزات النبي ، أو تصوير الاسلام عن أنه دين عبادى لامنهج حياه ونظام مجتمع ، أو أنكار الغيبيات . ثم حاولوا بعد ذلك على أمتداد تطوير هذا المنهج تفسير الاسلام تفسيرا ماديا .

ولقد عمدوا إلى حجب التراث الاسلامى الصحيح وراء فكرة الانقطاع بين العصر الحديث والعصور التى سبقت سواء الادب أو التاريخ والثقافة فلما بدأ التراث الاسلامى يشرق ويكشف عن جوهره الأصيل زيفوه بكتابات طه حسين عن الفتنة الكبرى وهامش السيره ثم جاءت المرحلة التالية على أيدى الماركسيين الذين أعتبروا أن طه حسين هو عميدهم ورائدهم الذى فتح أمامهم الطريق وازال من طريقتهم العقبات ثم جاء زكى نجيب محمود ليكشف الصفحات المظلمة والباطنة والوثنية التى تجددت بعدالاسلام تحت اسم أخوان الصفا والمعتزله والباطنية والفكر الفلسفى والفكر الصوفى الفلسفى . وحاولوان يعطو تلك الفرق الضالة كالزنج والقرامطه الذين قتلوا حجاج بيت الله وسرقوا الحجر الأسود صوره البطولة والدعوة إلى العدل الاجتماعى وحاولوا أن يعتبروا أن هذا هو التراث الاسلامى الذى يجب تجديده .

لقد جددوا التراث بالفعل ، ولكنهم جددوا التراث الزائف المسموم وحجبوا التراث الحقيق : تراث التوحيد الناصع القائم على العدل والرحمة والاخاء البشرى .

(٢)

فى مواجهة قضية الاقتباس من الغرب

مازال الفكر الغربى يطرح فى آفاق الفكر الاسلامى سموما زاعقة، وشبهات خطيرة ، ومفاهيم ضالة.وما تزال هذه السموم والشبهات ترسم فساد وجهة الفكر الغربى وتكشف عن أن الغربيين بعد أن عزلوا الدين حكموا العقل فى ناحية ماوراء الطبيعة والضمير فى ناحية الاخلاق .

ويخطىء العقل لانه يختلف من إنسان لآخر ومن بيئة إلى أخرى، ومن زمن إلى زمن ومن مكان لآخر ومن ثقافة لاخرى . كذلك فان الاعتداد بالضمير خطأ، لانه يوحى باتجاهات مختلفة ، فالضمير ليس إلا أثراً للبيئة والثقافة والوسط الذى يعيش فيه ، ليس الضمير معصوماً قط وأنها لفكرة ضالة أن يكون الضمير معصوماً ، وإذا تخلف الضمير عن سيطرة الدين فانه قد يوحى بالفساد ، وإذا كانت البيئة أوربية فالضمير أوربى ، وإذا كانت البيئة شرقية فالضمير شرقى ، ومن الواضح أن ضمير الأوربيين لايؤنبهم قط على سفك الدماء الذى يستبيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه بل هو يبرر القتل والتنكيل والاستعمار وليس هناك شيء ثابت مستقر معصوم إسمه الضمير، وليس هناك قضايا يتفق عليها فيما وراء الطبيعة

ومن أخطائهم دعوى رجال العلم بأن الانسان له حريته واستقلاله وحدوده ، وكان ذلك رد فعل الكنيسة ، كذلك كانت دعوة سارتر إلى حرية الفرد هى رد فعل الحرب العالمية الثانية وسقوط فرنسا ، أنهم يحولون بين البشرية وبين الوصول إلى مفهوم الاسلام ويوجهونه إلى مفهوم العلمانية وهدم الدين .

٢ — كذلك فان هناك فساد فكرة التطور فى الدين والاخلاق ويعنى مفهوم التطور فى الفكر أنه ليس هناك قضية ثابتة وأن جميع القضايا الفكرية متطورة

ومتغيرة وأن هذا التطور قد لاينتهى عند حد ، وأذن فهناك النسبية باستمرار ، هناك النسبية المطلقة ، وهناك أيضا الخطأ المستمر ، مادام هناك قول بالنسبية والتطور فليس هناك ثبات ، وإذن لايكون هناك ثبات فى الدين ولايكون هناك ثبات فى الاخلاق .

ومن أكبر أخطائهم فساد إدخال فكرة التطور فى الدين .

فاذا فهمت فكرة التطور على حقيقتها وفكرة الدين على حقيقتة فليس هناك مناص من الاقرار بان الدين الحق لايدخله التطور، ذلك أن التطور الفكرى هو تغيير من حال إلى حال وهو تعبير مستمر دائم ، ولا ريب أن الحقائق الدينية ثابتة لاتتغير بتأثير الأهواء والعواطف .

١ — أن جذور الفكر الغربى المعاصر (ماركسى ووثنى وليبرالى) .

هى صلب المسيح وتألية الانسان والرهبانية والربا وعبادة الذهب ونظرية الأبوة وسقوط الغيرة إزاء المرأة وسقوط الرحمة إزاء الاباء والاسرة والتثليث وإنكار الاخرة والبعث وعبادة الاجساد وكل هذه المفاهيم تشكل النظريات الخاصة بالاجماع والسياسة والثقافة والتربية والاقتصاد ومن هنا كانت الفوارق العميقة بين أصول وقيم ومقومات الفكر الاسلامى وبين أصول وقيم ومقومات الفكر الغربى وأبلغ هذه المقومات أن الثقافة الاسلامية لم تعرف ذلك الانفصالى الذى عرفته الثقافه الاوربية بين الفلسفة والدين حيث لايوجد فى الاسلام الفصام بين العلم والدين أو بين الدين والمجتمع أو بين الدنيا والآخرة .

ومن هنا تأتى قضية الاقتباس : وهى قضية هامة وخطيره بالنسبة للفكر الاسلامى المعرض اليوم لتحديات الفكر العالمى (الوثنى والمادى والماركسى) والحقيقة الأولى فى مجال الاقتباس: أنه يؤدى إلى نقل النواقص التى يشكو منها أهل الفكر المنقول منه ، وهذه النواقص عندما تنتقل إلى بيئه أخرى قد تصبح أشد خطرا بكثير مما كانت فى بيئتها الأولى والحقيقة الثانيه : أن الاخذ من الغير مقيد بشرط المحافظة على الاصالة الاسلامية ، فاذا كان عاملا على القضاء على الذاتية الخاصة فانه مرفوض تماما .

٣ — ولا ريب أن الحلول الوافدة قد جنت على امتنا الاسلامية جناية كبرى ، حتى قبل أنها بمثابة قتل الشعوب بغير إطلاق الرصاص ، ويتمثل هذه الحلول فى الدعوات المسمومة إلى الاقليمية والقومية الغربية والليبراليه والديمقراطية والماركسية ولدى المسلمين مناهج أكثر أصالة وأقدر على حفظ العطاء وعلى نقاء الاخوة الاسلامية الجامعة .

ولاريب كم تكون النظرة ناقصة وغير قادرة على الاحاطة وحاضره عن استيعاب الأمور عندما تكون قومية أو وطنية أقليمية ، أو عندما تكون أدبية ذلك أنها تكون جزئية وناقصة .

أن علينا تأصيل القيم العليا التى ورثناها عن الدين الحق والتى هى أساس وجودنا وأن أخطر الاخطار هى حجب الثقافة الاسلاميه عن طابعها الاصيل المميز لها أو عزل الثقافة والفكر الاسلامى المعاصر عن جذوره وامتداداته منذ نزول القرآن وأخطر من ذلك الدعوة إلى مايسمى ثقافة عربية حديثة مرتبطة بالفكر الغرب مع تجاهل كل مايتصل بتاريخ ثلاثة عشر قرناً .

ومن ذلك خطر التخيير الغربى للمسلمين بين الاسلام والعلمانية أو القول بأن الاسلام لايستطيع أن يواجه التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى يواجهها العرب والمسلمون ، ولا ريب أن العلمانية التى يدعون اليها هى فراغ ، والفراغ لايمكن أن يحمى المنطقة من الأخطار وأن الاسلام هو الحل الوحيد الذى يحمى الاقطار العربية ، لقد حمى الاسلام الاقطار العربية فى الماضى وسيحميها فى المستقبل فالاسلام هو السلاح الوحيد .

٤ — أن الاسلام لم يحذر من شىء قدره تحذيره من التبعية والتقليد، إيمانا بان الاسلام له منهجه الاصيل ونظرته الواضحة لكل أمر من أمور العيش والحياة . وثبات الشخصية والقيم فى الاسلام لايحول مطلقا دون تلقى أحدث معطيات العلم والفكر والمعرفة واستيعابها والترقى بها فى مختلف مجالات النهضة والتقدم والحضارة ولقد كان المسلمون فى مختلف العصور حتى فى أشد العصور ضعفا وتخلفا قائمين بالحق فى وجه محاولة احتوائهم أو صهرهم فى بوتقة الأممية، وكانوا فى أسوأ عهود الاحتلال العسكرى والاستعمار السياسى غاية فى اليقظة تجاه محاولة صهرهم فى بوتقة

الغرب وأخشى أن يكونوا بعد أن تحرروا من النفوذ العسكرى والسياسى قد دخل عليهم احساس خادع بالامن بينما يدعونا الاسلام ونحن فى أشد حالات القوة إلى الحذر الدائم والمرابطة فى الثغور . وهناك صيحة تحذير عامة صدرت من كثير من الناصحين تشير إلى أننا نفقد أصالتنا تدريجيا ونتنازل عن الصفات المميزة لنا يوما بعد يوم نتيجة غزو أسلوب العيش الغربى لنا وسيطرة قيم وافده على مفاهيمنا وسلوكنا ،

٥ — أن قضية الاقتباس قضية مثارة ولكن لها محاذيرها ، فإنها قد تؤدى إلى نقل النواقص التى يشكو منها ويسعى لازالتها المفكرون فى البلاد التى أنشأت ذلك النظام وهذه النقائض عندما تنصل إلى بيئة جديدة قد تصبح أشد ضرراً بكثير مما كانت فى بيئتها الأولى .

إن الأخذ من الغير مقيد بشرط المحافظة على أصالتنا .

ولا ريب أن المنهج العلمى الغربى تشاد له كل يوم قداسة جديدة وبطولة زائفة ذلك لاننا وجدناه فى أيدى الباحثين وخاصه المشرقين والمبشرين يقوم على الهوى والتعصب وتحمل طابع استعلاء الغربين بالجنس الابيض وبالحضارة ، وتحمل طابع الانتقاص من حضارة الاسلام صاحبة الفضل الأكبر على الحضارة الحديثه ولاريب أن المنهج العلمى الصحيح هو الذى أقامه الاسلام وكل منهج يدعى العلمية ولا يقوم على ضبط النفس والاخاء البشرى والسماحة هو منهج زائف . ولقد واجهت المناهج والايدلوجيات الغربية هزائم مترالية فى التطبيق لانها :

(١) عارضت الفطرة (٢) صانعت الاهواء والظنون (٢) لانها لبشريتها لم تتمكن من الارتفاع إلى أفاق الايجابية والموالاة مع تحولات الزمن والبيئات ولا يقدر على ذلك إلا المنهج الربانى .

(٣)

فى مواجهة النفوذ الأجنبى

لقد حرص النفوذ الأجنبي على استدامة وجوده فى بلاد المسلمين ، وتلك محاولة ضخمة تطلبت منه أن يعمل على القضاء على روح السيادة والقوة والاعتزاز النفسى بالكيان القائم المتصل بأساليب خادعة وماكرة ، وكان أخطرها هو تحطيم مفهوم الإسلام القائم على الحفاظ على الذات ومدافعة العدو والإعداد بالقوة والمرابطة فى الثغور واستبقاء روح الجهاد قوية غلابة والحيلولة دون السقوط فى حمأة الترف والدعة وهى التى تعمل على التحلل والضعف والاستكانه .

ولعل من أكبر المعانى التى حاول النفوذ الأجنبى إسقاطها من النفس الإنسانية هو دور الاسلام كعقيدة وتربية حيث لم يكن يوما من الأيام راضياً لأهله بالذل ولا مسانداً للخضوع ولا معينا على العبودية .

ولقد ربى الاسلام معتنقيه على الاعتزاز الكبير بكرامتهم وأقامهم على الايمان بأنهم خلقوا ليفرضوا وجودهم فوق هذه البسيطة ولنتزعوا مكانهم تحت الشمس لا ليكونوا عبيداً ولكن ليكونوا سادة .

ولذلك فان الاسلام لم يكن حليف الطغيان ولا حليف الظلم .

وفى العصر الحديث فان الاسلام هو الذى استطاع أن يحرر العرب والمسلمين من رق دول الاستعمار ذات العدة والعدد رغم أن المسلمين لم يكن لهم سند ولا قوة وأن قوتهم الأساسية التى واجهوا بها الاستعمار لم تكن إلا قوة الروح والايمان والفكر والعقيدة ولقد كان على الاسلام بعد أن حرر المسلمين من عبودية النفوذ الاجنبى أن يدفعهم إلى إقامة دولتهم ومجتمعهم وأن يكون عامل تقدم بعد أن كان عامل تحرر .

ولذلك فان على المسلمين اليوم أن يحذروا محاولات كثيرة تجرى تحاول تمكين النفوذ الأجنبي من أن يستعيد سلطانه عليهم :

أولا : محاولة خداعهم بالادعاء بالصلة بين الديمقراطية والاسلام أو الاشتراكية والاسلام فان الاسلام منهج ربانى أصيل له طابعه المستقل عن هذه المذاهب البشرية وأبرز وجوه الخلاف أنه منهج جامع بينما هى انشطارية . وله طابع الاستمرار بينما هى مؤقتة ، وله جوهره العالمى الصالح لمختلف البيئات والعصور ، بينما هى مرحلية تعجز عن أن تتواصل مع الأزمنة والبيئات إلا بتعديلات وإضافات وحذف .

ثانياً : هناك محاولة ضرب الاسلام من الداخل عن طريق بعض الطوائف الدخيلة مثل القاديانية والبهائية والأغاخانية واليزيدية وكلها تلقى المعونة والتوجيه من المستعمرين والمبشرين واليهود وهم يعدونها لما أسموه ضرب الاسلام بالاسلام ، هذه الطوائف تقدس زعمائها وترفعهم فوق مرتبة البشر وتشرع لأتباعها من الدين ما لم يأذن به الله مستغلة باسم الاسلام هدم الاسلام .

إن من أخطر محاذير النفوذ الأجنبي فى مطالع القرن الخامس عشر التى تعوق حركة اليقظة من الدخول مرحلة النهضة هى تلك التبعية الاقتصادية للشرق والغرب مما جعل المسلمين مجرد مستهلكين وليسوا منتجين .

وأخطر من هذا تنازل المسلمين عن كثير من عاداتهم الاسلامية وقيمهم ومميزاتهم الخاصة تحت تأثير الضغط المادى وتحت اسم الانفتاح الذى لا ضابط له ، فى حين أن امتلاكهم بمميزات ذاتيتهم الخاصة هو أكبر عوامل القوة والقدرة على بناء عصر النهضة الاسلامية .

ومن ذلك تضحيتنا بالفصاحة فى اللغة وقبول الكلمات الأعجمية وتضحيتنا بأسلوبنا الاسلامى العربى فى المعمار وفى المأكل والمشرب درن أى مبرر وقبول الترجمات للآلات الغربية والفكر الغربى دون ضابط ودون تعرف صحيح لمدى ضررها أو نفعها ودون تعريف القارىء المسلم بظروفها فى مجتمعها ، وأخطر من ذلك كله النظر إلى هذا الفكر البشرى الوافد أنه علمى المنهج مع أنه قائم على الهوى ، أو الادعاء بأنه علم مع أنه فروض قابلة للصحه والخطأ .

أن المترجم من الفلسفة واليونان أو الفلسفة الحديثة يجب أن تكون له أصالته

بتعريف الفوارق ، أما المترجم الخاضع للفكر الغربى فإنه لا يستطيع أن يقدم لنا إلا مزيجاً من السموم والتفاهات .

إن علينا أن نحمى المسلم المعاصر من الانهيار النفسى والتبعية لحضارة طاغية دخلت مرحلة الانهيار وتبرأ منها أهلها .

ولا ريب أن اكتشافنا لمؤامرة « النفوذ الأجنبى » بقواه الثلاث : غربية وماركسية وصهيونية يجب أن يجعلنا على يقظة تامة .

إن المؤامرة تستهدف تجريدنا من مصادر القوة فى نفوسنا وتحطيم إيماننا بقدرتنا الذاتية على التطور وقدرة حضارتنا الاسلامية على العطاء .

ولا ريب أن العودة إلى الأصالة وتعرف ذاتيتنا الاسلامية هو الحصن الحصين الذى يحمينا من الذوبان فى أتون الحضارة العالمية وفى الأممية العلمانية الضالة . علينا أن نتعرف على تاريخنا وتراثنا التى ظللنا نجهله القرون الطوال بحكم ظروف التخلف وبحكم الاستعمار وفى هذا يقول عالم جليل « لقد عشنا فترة على موائد المستعمرين نتجرع سمومهم فنزداد كرهاً لأنفسنا وحضارتنا فتتقاص بالتالى أصالتنا وتنهار إرادتنا فنوغل فى التقليد حتى نصبح نسخاً ممسوخة لغيرنا .

إن بداية الانطلاق تكمن فى تحرير النفس من كل سلبيات الماضى وتأكيد إيجابياته وذلك لا يتم الا بمعرفة هذا الماضى والايمان به قيمة عالية لها أثرها على حاضرنا ، إن أخطر المخاطر هو خطر الذوبان أو الموت الحضارى » .

إن علينا أن نعلم أن النفوذ الأجنبى كان فى الماضى سياسياً وعسكرياً فكنا نقاومه لأنه كان واضحاً ومكشوفاً ، أما اليوم فقد تحول وتخفى ولبس أثواب العلم والثقافة ودخل بسمومه إلى مفاهيم التربية والفكر يحاول أن يغير القيم الثابتة ويحتوى الصفحة البيضاء ويغير جوهر التوحيد والجهاد والايمان القائم على الاصرار بالمقاومة وحماية البيضة والدفاع عن الكيان .

وهكذا أخذ النفوذ الاجنبى صوره جديدة خادعة ماكرة ولكن علينا ألا تخدعنا وأن نكون على وعى بها .

أن النفوذ الأجنبي اليوم يتحول إلى إيدلوجيات ونظريات تريد أن تقضى على ذاتيتنا وأن تقهرنا فى بوتقه الأمميه وأن تميع كياننا ووجودنا كله حتى نصبح من غثاء الأمم ولكن إيماننا بالرسالة التى وضعها الحق تبارك وتعالى على عاتقنا والمسئولية التى يحملها أهل لا إله إلا الله فى تبليغ كلمة الله إلى العالمين تدعونا إلى أن نحافظ على كياننا الإسلامى الخاص وذاتيتنا القرانية الصريحة حتى نكون مؤهلين لاداء الامانة وتبليغ الرسالة وإقامة المجتمع الربانى فى الأرض ،

(٨)

في مواجهة العلوم

(١) ماذا بعد فرويد

ماذا بعد فرويد

(١)

أقام فرويد التحليل النفسى للانسان على « الجنس » واعتمد فى ذلك على « الأسطورة » وعارضه علماء النفس ، ومع ذلك فقد جرت نظريته مجرى الريح ، ووجدت من يحملها إلى كل الافاق فتدخل الجامعات ، وتسيطر على الآدب والقصه ، والدين وعلوم الاجتماع ، خلال خمسين سنة كاملة ، ثم لاتلبث أن تنهار لأنها تضاد الفطرة والعلم وطبائع الإنسان والأشياء ، وتعارض مفهوم الدين الحق ، وكان الذين دفعوه إلى نظريته والذين حملوها وروجوا لها هم اليهود التلموديون الذين كانوا يصنعون مذهب الإنسان الحيوان التى بدأوها بتحريف نظرية دارون وأكملوها بنظرية ماركس ودور كايم وكلها تهدف إلى تصوير الإنسان بصورة الجرى وراء الطعام والجنس ويرى فى الجريمة الفطرة وفى الزواج والاسرة مفارقة للفطره ، ولكن ذلك كله مالبث أن تكشف فساده وزيفه خاصه فى مواجهة نور الإسلام ، يقول الدكتور حسن الشرقاوى : يزعم رجال مدرسة التحليل النفسى أن النفس البشريه مغلوبة على أمرها رضيت بذلك أم أبت، تسيرها دوافع قسرية وتحركها غرائز حيوانية ونزعات أنانيه ، وأن الانسان مثله مثل الحيوان يسعى لتحقيق حاجاته البيولوجيه وإشباع شهواته البهيميه ؛ وأن الشخصية الانسانية يحكمها قانون الغاب من الداخل . ويرون أن أصحاب مكارم الاخلاق مرضى نفسيون باعتبار إن الانسان حيوان وحشى مصاب بالشبق الجنسى فلا هم له إلا تحقيق لذاته والتنفيس عن غرائزه الجنسية فإن لم يستطع فهو مريض نفسيا وأن الانسان السوى هو الانسان المتوحش .

وكانت دعوة هذه المدرسة إلى علاج الأمراض النفسيه فى ضوء عقدتى أوديب والكترا وقد إتخذ فرويد من هذه الشخصية الاسطورية مسرحا لعلاجاته النفسيه وجعل العلاقة الجنسية المحرمه بين الام ووليدها هى الصورة المعبرة عن الشخصية الانسانية : وروج لهذه الاسطورة اليهود فى كتبهم وعملوا على تلقينها للشباب

والكحول باعتبارها حقائق يقينيه بغية هدم العلاقات الأسريه والعمل على التفكك الاخلاقى وألغاء القيم الأساسيه والمثل العليا من على الأرض . وقد إستعار فرويد عقدة أوديب ليجعلها أساس العلاقة بين الام ووليدها ، وإستعار عقده الكترا لتمثل العلاقة الجنسية بين الأب وابنته وجعل فرويد من الأسطورتين الخياليتين حقيقة واقعة وأخذ تنتشر هذه الآراء فى المجتمعات الغربية التى كانت قد سقطت فى أوائل فى هذا القرن فى الانحلال الخلق وتفشى بين الأسر الزنا والعلاقات غير المشروعة فوجدت آراؤه أذانا صناعيا وتمسك بها الشباب الساقط والزوجات العاهرات ليكون مسوغا علميا لتصرفاتهم اللاأخلاقية ومبرراً لفعل الفواحش ، وظهرت روايات ومسرحيات تعاون على ترسيخ هذه الموجة الانحلالية فى عقول الشباب الأوربى . ظهرت مسرحية المومس الفاضلة التى عرضت مئات المرات ، هذه تمثل الحالة التى تردت فيها أوربا فى نهاية القرن ١٩ وبداية القرن الـ ٢٠ حيث اتضح أن الزوجات يمارسن الجنس مع غير أزواجهن وجاءت المسرحية لتدافع عن العهر والعاهرات وترى قصة امرأة عاهرة أحبت شابا فى أسرة محافظة، ذهب الأب إليها يرجوها أن تترك الشاب فهجرته وتخلت عن أملا كها لتعيش بعيداً فى كوخ حقير حيث تموت بداء السل ، هذا هو المغزى الخطير للقصة فهى تشجع على البغاء وتعاون المنحرف على الانحراف وتزعم أن للعهر أخلاقيات وأن للمرأة العاهرة مثلا للتضحية والإيثار وهكذا أعانت فكرة فرويد على الانحلال الخلقى والشذوذ الجنسى وترويج مفترياته عن طريق اليهود ونشرها بين العام والخاص ، وامتد أثرها ليغزو المجتمعات البشرية باعتباره حقائق علمية لا يحتمل التشكيك فيها ، وقال شفيتسر وهو أكبر علماء التربية الألمان : نحن نعيش عصر انهيار الحضارة بين الحضارة والبربرية .

وهكذا أخذت مدارس التحليل النفسى فى تبرير السلوك الجنسى الشاذ وينصح الشباب بالتنفيس عن نزعاتهم الجنسية ومتطلباتهم البيولوجية وحاجتهم الغريزية بدعوى أن كبتها يولد الأمراض النفسية ، وهكذا هبط هؤلاء الأطباء بالانسان إلى البهيمية والحيوانية .

ومن مساوىء فرويد قوله أن الانسان معدة تسعى على الأرجل وأن الحضارة تنحصر فى البطن والفرج فهو وماركس لا يجعلون للعقل أو الروح البشرية أى قيمة فى الوجود .

ولقد وقف الفكر الاسلامى أمام هذه السموم موقفا واضحا فالاسلام يحرر النفس الانسانية من هذه الشبهات ويقود الانسان الى ما هو أسمى وأغلى وفى نفس الوقت يكشف زيف هذه النظريات التى حاولت أن تجرى مجرى العلوم بينما هى مجموعة من الفروض التى لم تثبت أمام البحث العلمى الصحيح ، يقول دكتور فؤاد أبو حطب أن علم النفس الفرويدى ليس علما بالمعنى المتعارف عليه للعلم ، بل لا ينطبق عليه شروط العلم الواجبة وأهمها اليقين والموضوعية وهى شروط العلوم الطبيعية وهذا النطبق على العلوم الاجتماعية جميعا فهى علوم زائفة .

وأبرز أسباب فساد منهجيه التحليل النفسى كعلم هو غلبة الاتجاه المادى فى علم النفس بحيث جعله يتصور النفس الانسانية تصورا ماديا ، على أنها مجموعة غرائز تتطلب الاشباع المادى المباشر والانسان فى إطار هذه النظرة المادية مدفوع دائما بقوى لا معقولة ومغلوب على أمره تصدر عنه أفعال قهرية وكل ما يملكه العقل من « حيل » هى تبرير هذه الأفعال أو البحث عن وسائل مقبولة لاشباعها أو التسامى بها ليزاولها بصورة أجمل ، ومعظم النتائج التى توصل إليها بعض أصحاب الاهتمامات النظرية فى علم النفس وعلى رأسهم فرويد استخلصت من الحالات المرضية ثم عممت على حالات الاسوياء وتبنت نماذج نظرية كاملة فى هذا الاطار الزائف وكذلك فقد تبين أن علم النفس التجريبى هو كذبة كبرى ، لأن النفس « ذات كلية » ولا يمكن تحويلها إلى موضوع أو تشريحها تحت المجهر ولا يوجد فرع من فروع العلم التجريبى — ومنه العلوم الفيزيائية — يؤدى إلى المعرفة اليقين ، ولا توجد ملاحظة بشرية معصومة من الخطأ .

ويقول الدكتور فؤاد أبو حطب : أن هذا هو أحد مصادر التحدى الحضارى التى يتعرض إليه المسلمون اليوم وما يحمله تيار العلم الوافد إلينا من الغرب ومن الشرق من خلفية الحادية واضحة فى طياته جعلت من الكفر بكل ما هو غير مادى هو سمة هذا العصر، إذلك هو غلبة المادية على علم النفس والمادية فلسفة حياة وجراثيمها مضمرة فى العلوم الطبيعية وأهمها الصراع بين الدين والعلم :

أن مصدر الخطأ هو قاعدة سيطرة المادية على العلوم الطبيعية ، ومضمونها الالحادى ، مثل مبدأ أزلية المادية ، والطاقة ، ونسبة كل شىء فى الكون إلى

الطبيعة وقوانينها ومحاولة تفسير التدرج فى عمران الأرض على أنها عملية مادية تلقائية بحتة .

والذى تكشف عنه الأيام اليوم ، هو أن آراء فرويد وأصحاب مدرسة التحليل النفسى عامة تواجه بالنقد العنيف داخل الاطار السيكولوجى ذاته وتتسع دائرة هذا النقد ابتداء من فرويد شخصا وشخصية حتى التحليل النفسى مدرسة ومنهجا وفلسفة حياة

ومن أبرز الظواهر فى مجال الدراسات النفسية بعد فرويد كما يقول الدكتور يحيى الرخاوى : أن المعلومات الشائعة فى عصرنا المستسهل عند الانبهار بالحديث عن اللاشعور الفرويدى بكل محتواه الغريزى قد توقفت ، لأنه تبين أن هناك شعور أعمق ، قد نبه عليه زميله كارل يونج ومن قبله ومن بعده كل المتصوفة وبخاصة من المسلمين وهو الجزء من اللاشعور الذى إذا ما أصبح شعورا ويقينا غمر الإيمان الحى وعرفنا أين حبل الوريد .

وقد أعلنت هذا الاتجاه مدرسة جديدة هى مدرسة علم النفس الإنسانى حيث تركز حديثها على حاجة الإنسان إلى التكامل بما نطلق عليه الفضيلة أو السمو أو الصدق أو الإيمان مما ينبغى أن نذكره . وتضع هذه المدرسة حاجات الإنسان فى ترتيب تصاعدى يسمح بظهور الحاجة الأعمق متى أشبعت الحاجة الأولى والمفروض فى التطور الطبيعى أنه إذا ما شبعنا طعاما وجنسا انتبهنا إلى بقية تكويننا وسعينا لتشبع صدقا ويقينا فلا تستغرقنا المرحلة الأولى . وفى الإسلام فان شهر رمضان يعطى هذه الفرصة . إذن ليست القضية (ولا الحضارة) مجرد إعلاء لغريزة جنسية بل هى إكمال لما بعدها إذ أنها حاجة أصيلة فى تركيب النفس البشرية وما اغتراب الانسان ووجدته وشقاوها إلا لاهمالها أو كبتها أو إنكارها ، وكما أن غرائز الفضيلة إن صح التعبير ـ قد آن لها أن تجد طريقا شرعيا من خلال العلم أيضاً فى حياتنا التعسة المريضة .

وكما أن فرط الحرمان من الطعام قد يؤدى إلى الحقد أو سوء التغذية وفرط الحرمان من الجنس قد يؤدى إلى الكبت وما شاع عنه من عقد نفسية فان فرط الحرمان من الفضائل يؤدى إلى أمراض محددة لها من الاضرار والمضاعفات

ما يفوق مثيلاتها من أمراض نفسية إلا أن انتشار نقص الفضائل لا يظهر بيننا شكل صريح اسببين .

الأول : إنها أمراض شائعه شيوع الوباء وكأنها القاعدة وليست الاستثناء والثانى أن الحديث عن الفضيلة كثيرا ما يغنى عن ممارستها وكأنه التخدير المسكين مرض الوبف ينتج الحرمان من فضيلة الصدق، مرض الظلم يتجه ليقف فى إطلاق فضيلة العدل .

مرض التعقيد والغموض الناتج من كبت فضيلة البساطة .

هذا قول(إبراهيم ماسلو) من المدرسة الإنسانية المذكورة ولا أجد أنه فى هذا قد جاء بالحديد المبهر عما تحدث به أبو حامد الغزالى عن هذه الآفات فى تحديد حتى تصورته يكتب (روشتة) يحدد فيها التشخيص والأسباب والعلاج فقد شخص أمراض الحسد والمنافسة والعداوة، والكبر ، والتعجب، والخوف وحب الرئاسة وحب النفس ، وحدد مرض الحرص والطمع ووصف لعلاجه ثلاثة أركان الصبر والعلم والعمل .

وهكذا نجد أن الإسلام هو الذى كشف فساد هذه الدعوات المسمومة التى إنبعثت من تفسيرات ضالة أو منحرفة ، وقد تبين أن هذه معالم علم نفس يهودى أو مسيحى فى أوربا والولايات المتحدة وهى مرتبطة بالتحديات التى واجهت التفسيرات الدينية ودعوات الاصلاح الدينى ونظريات الفكر المادى ومن هنا فنحن نحس بالفوارق العميقة بين هذه المذاهب وبين مفهوم الاسلام الذى يمثل علم نفس إسلامى ، جامع بين النفس والروح ، والعلم والدين ، والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة ، فللإسلام علم نفس خاص يختلف عن علوم النفس اليهودية والمسيحية والبوذية والذى يختلف هنا مع خصائص كل دين من هذه الأديان .

في مواجهة التاريخ

(٩)

(١) تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات

(٢) أخطاء في كتابة التاريخ الحديث

(١)

تاريخ الإسلام فى مواجهة التحديات

فى مجال دراسة تاريخ الإسلام فإن هناك محاذير كثيرة يقع فيها المحللون والباحثون وأخطر هذه المحاذير هى محاكمة تاريخ الإسلام من خلال مناهج وضعت لتفسير تاريخ أمم أخرى لها ثقافتها وعقيدتها وتحدياتها ، بينما لا يمكن فهم تاريخ الإسلام إلا بتفسيره وفق منهج أصيل مستمد من عقيدته .

وتتمثل فلسفة التاريخ الإسلامى على هذا النحو :

مبدأ تاريخ الاسلام « جماعة » لها منهج تستمده من الاسلام : هذه الجماعة كونت المجتمع الاسلامى وتبنت الحضاره الاسلامية وفق مقومات فكرة أساسية قوامها . « دعوة إنسانية للعالمين » : إلى الحرية والعدل والحق والمساواة .

وفى طريق هذه الحركة إلى غايتها فانها تواجه أمرين :

أولا : معارضات قوية وقوى مضادة تحول بينها وبين طريقها .

ثانياً : هذا المجرى يصيبه بين الحين والحين ركام يعوقه ويسد مجراه .

والاسلام يبدو فى خلال تاريخه فى صورة « كائن حى » له جناحان : فكر وحضاره . متجدد الخلايا يمر بمراحل القوة والضعف خلال حركته الدائبة وأبرز ظواهره : ظاهرة التجدد والتغيير وتصحيح المفاهيم من خلال إطاره الجامع ، يتصل ذلك فى كلا جناحيه : جناح الفكر الذى يتجدد بظهور أعلام الفكر وقادة الرأى . وجناح الحضارة يتجدد بظهور بناه الدول وصناع الأحداث .

نعم : لم يجمد الاسلام أمام حركة التاريخ خلال العصور أوتطور الحضارات والمدنيات ولم يتوقف عن مدها بتفسيره فى إيمان وقدرة على السير بخطوة التاريخ نفسها بل ربما سبقها خطوات .

(١) تحرير الانسان

والاسلام فى التاريخ : حركة أوسع من الأمة العربية أو الدول الاسلامية أل الحضارة الإسلامية وأعمق من الحدود التى تربطه بالسياسة أو تقصره على الحضارة والثقافة ، أو تقف به عند قيام الدول وسقوطها ، أو الفتوحات والحروب ، وإنما تتمثل فيه كل هذه القطاعات وتتشابك .

فالاسلام فى الحق هو حركة التاريخ نحو الحرية : تحرير الانسان من بوتقة الظلم وإقرار حقوق الأفراد والجماعات وتحريرها من الاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية ، بعيدة المدى ، فى كل الأمم والشعوب التى اتصلت به ، سواء من دانت له أو أساغت له فكره دون أن تأخذ عقيدته .

ولقد كان لبزوغه فى محيط الأمة العربية معنى واضح الدلالة هو « اصطفاء » هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث الرسول من أهلها ونزل القرآن بلغتها ومن ثم فلا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الاسلام منذ فجر الاسلام إلى اليوم فمنذ بزغ الاسلام ارتبط تاريخ العرب به أوثق رباط ، لقد ظهر فى الأمة العربية أولا ثم فى حياة الرسول حيث دانت الجزيرة العربية له ، فكانت أشبه بالبحيرة العربية التى امتدت منها روافده وفروعه ، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التى تحركت شرقاً وغرباً وشمالا وحملته الأمة العربية إلى العالم أجمع وكانت اللغة العربية الفصحى أداة لفكره وثقافته ، وحضارته ، فالفكر الذى كونته الأمة العربية من خلال جوهر الاسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعا بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربى وكذلك الحضارة فهى فكر عربى اللغة إسلامى الجوهر وهى الحضارة إسلامية شارك فيها الجميع ، وانصهرت فيها مختلف الثقافات الانسانية . هندية وفارسية ومصرية ويونانية ، تبلورت جميعها فى إطار الاسلام وفق مفهومه ومضمونه وفق شارك فى هذه المرحلة العرب وغير العرب فى مجالات الحضارة والفكر والحكم .

(٢) قادة الفكر

وقد رسم الاسلام مفهوم الوحدة بين معتنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر وليس على أساس الجنس، وسع دائرة الآخاء الانسانى وأسقط العصبية والتفرقة العنصرية وجعل أساس التمييز والتفوق والتفاضل مستمداً من العمل لا من العرق ولا من الشخصية ولا من الوراثة .

ولقد اتسم تاريخ الاسلام بسمات جعلت له طابعه الخاص ومفهومه المتميز .

ذلك : أنه لما كان الاسلام هو دين وفكر وحضارة ومجتمع ، فان التاريخ السياسى فى تاريخ الاسلام هو أقل هذه الجوانب أهمية حيث تبدو الجوانب الضخمة الحافلة بالأمجاد فى تاريخ الاسلام الفكرى والعلمى والعقلى وفى مجال الدراسات العقلية والفقهية والاجتماعية .

وتتمثل أبرز جوانب التاريخ الاسلامى فى القادة والأعلام والمفكرين الذين بنوا القاعدة العريضة للفكر الاسلامى مستمدة من القرآن : أولئك المصلحون المجددون ، حملة لواء اليقظة وتصحيح المفاهيم الذين حفل بهم تاريخ الاسلام خلال مختلف مراحله وأدواره ، وفى هذا المجال نجد طبقات الأطباء وأخبار الحكماء والنحاه والرواة والأدباء وطبقات الفقهاء والمؤرخين والاجتماعيين وتاريخ أعيان كل عصر ، فليس تاريخ الاسلام إذن تاريخا سياسيا فحسب وليس التاريخ السياسى إلا جناحا من أجنحته بل ربما كان أقلها خصوبة وعمقا وأثراً فى حركة التاريخ ونموه .

(٣) من هو المسلم

ومن هنا تسقط تلك الشبهة التى يرددها البعض من اقتصار تاريخ الاسلام على حياه الخلفاء والملوك ، بل يتناول مختلف مظاهر حياه المجتمع والحضارة .

ويمثل تاريخ الاسلام : حركة تطور شامل متصل ، وحركة اجتماعية يدفعها مفهوم وعقيده فى مختلف ميادين الحياه . ولا تستوفى دراسة تاريخ الاسلام إلا إذا قامت فى ظل مفهوم جامع شامل ، كما أن اتصالنا بالغرب اليوم يجب أن يقوم

على مفهوم مرحلة هى رد فعل لمفهوم مرحلة سبقتها ، بحسبان أن هذه الحضارة العصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الاسلام ، وإنما أقامت قواعدها على المنهج التجريبى الاسلامى وعلى بناء صاغه العرب أوالمسلمون . فنحن حين نتصل بها اليوم لا نكون غرباء عن جذورها ، فهى ملك البشرية كلها التى صاغتها وشاركت فى تكوين جوانبها المختلفة : فقد قدم الفكر الاسلامى لهذه الحضارة علومه وجامعاته وبنى قاعدتها العريضة فى الأندلس .

فى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نقول أن لتاريخ الاسلام « طابعا متميزا » ولذلك فان تفسيره لا يمكن أن يخضع إلا لمنهج جامع ، ليس ماديا خالصا وليس روحيا خالصا وليس اقتصاديا ، أو جنسيا .

فالمسلم كما فهمه الباحث الغربى الأستاذ ولفرد كانتول، يحس بالتاريخ إحساسا جادا أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ويؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر فى الأرض فى إطاره . ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده .

(٤) المحاولات القاصرة

هذه العبارة للكاتب الغربى تقرب من الحقيقة وتكشف عن الفارق العميق بين فهم المسلم للتاريخ وبين فهم الطوائف الأخرى ، ويتابع (اليان وايد غراى) : هذا المعنى حين يقول أن وجهة نظر المسلمين للتاريخ هى نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تتطابق وإرادة الله ، وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ممثلا بالفيلسوف ابن خلدون وكان هذا الفيلسوف قد حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمل عملها فى الحياة الانسانية وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ المسلمين : المفهوم الحركى والمفهوم القدرى وكلها تظهر بوضوح فى تقلبات القوى الاجتماعية وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بما هو وقتى وفورى وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوذية والهنود ليس إلا وهما ويؤكد

الأستاذ تريتون فى كتابه « الإسلام : عقيدته وعبادته » : أن التفسير المادى لا يصلح لفهم تاريخ الإسلام يقول : « إذا صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها فأن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيره وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد : ألا وهو الإسلام » .

وهذا ما نريد أن نصل إليه : فى أن أية محاولة ليفسير تاريح الاسلام بغير منهج التفسير الاسلامى للتاريخ هى محاولة باطلة وأن جميع مذاهب التفسير التاريخى : المادية والاقتصادية والجغرافية والمناخية ، لا تستطيع أن تستوعب مفهوم . التاريخ الاسلامى ولكل أمة وعقيدة مقاييسها التى تشكل قانون تفسيرها .

ولذلك فان كل المحاولات التى تجرى الآن لتفسير تاريخ الاسلام من خلال النظريات الغربية هى محاولات قاصرة ، ذلك أن الاسلام الذى يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة ، والحياة والموت ، والدنيا والآخرة ، والنفس والجسد والثوابت والمتغيرات والكلى والجزئى ، لا يمكن أن يفسر الكلى بمنهج جزئى سواء أكان ماديا أم روحيا خالصا ، ولذلك فإن هذه المحاولات كلها التى ترمى لأن تضع الاسلام فى صف الديمقراطية مرة ، وفى وصف الاشتراكية مرة أخرى و كلها قاصرة فالاسلام له ذاتيته الخاصة وتكوينه الجامع المتفرد الذى قد يلتقى ثمة مع جانب من هذا أو ذاك ولكنه لن يكون إلا هو وحده الذى تعجز المناهج المادية ونظريات التفسير الجزئية عن استيعابه وفهمه .

(٥) حملات التغريب

كذلك واجه التاريخ الاسلامى حملة ضخمة من حملات التغريب والغزو والثقافى تستهدف إثارة الشبهات والشكوك حوله ، بقصد وضعه موضع الازدراء والانتقاص فى نظر أهله وحتى يفقد أهميته من حيث أنه قوة انبعاث ويقظة ، وقد حرص التغريب عن اختلاق تاريخ إسلامى منفر عسى أن ينتزع من المسلمين ثقتهم فى ماضيهم الاسلامى وفى أنفسهم كمسلمين ويسلخهم من تراثهم الفكرى وتاريخهم الاسلامى فيصبحون بلا ماض ، فتضعف معنوياتهم وتسهل السيطرة عليهم عسكريا

واقتصاديا وقد جرت المحاولات لاحلال مناهج الغرب فى تفسير التاريخ بديلا للدراسات الاسلامية وفرضت كتب الغرب فى المدرس والجامعات وجعلت مناهج الغرب فى دراسة التاريخ هى الجواز إلى تخريج المؤرخين العرب وإلى وضعهم موضع الصدارة .

وقد حفلت هذه الدراسات بالتطاول على أعلام الاسلام وقادته ونوابغه والتشهير بهم فى كل عصر عن طريق تزييف طائفه من الأخبار المشكوك فيها والقصص اعتمادا على مصادر غير أصيلة أو مطعون فى صحتها لالتماس هـــذه الشبهات .

وهناك محاولة أخرى فى حاجة إلى الكشف عنها ودحضها : تلك هو محاولة القول بأن تاريخ الاسلام هو الاسلام نفسه ، والواقع أن التاريخ الاسلامى ليس بالضرورة ممثلا للإسلام ، وأنه لابد من التفرقة الواسعة بين مبادىء الاسلام الربانية الثابتة الممثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وبين التجربة التى قام بها الحكم الإسلامى والتى قد تلتقى مع مبادىء الاسلام فى بعض المراحل وقد تختلف عنه حين يذهب قادة المسلمون بعيدا عن منهج الاسلام .

ولا ريب أن هناك نفرا ممن تولوا زمام الحكم فى الدولة الاسلامية بعد الخلافة الراشدة بعدوا عن منهج الاسلام ، فمن غير الحق أن يصور سلوك هؤلاء الحكام على أنه هو الاسلام نفسه ، وأهم ما فى ذلك الفهم الخاطىء من محاذير هو محاولة نسبه الاستبداد إلى الاسلام ، ومحاولة الاستشراق تبرير الاستبداد بالاسلام نفسه حيث يقول بعضهم وهو كاذب : أن نظام الحكم فى الاسلام نظام استبدادى ونسى هؤلاء أن للاسلام مبادىء الواضحة التى تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم نفسه .

(٦)

حقائق التاريخ

كذلك فان التفسير التاريخى الغربى (المادى المصدر) يعجز عن استيعاب حقائق التاريخ الاسلامى التى تعلو على التصور المادى فسرعة انتشار الاسلام على هذا النحو المذهل وتمكنه من خلال فترة تقل عن قرن من أن يبسط جناحيه من

حدود الصين إلى حدود فرنسا . هذا فى تقدير التفسير الغربى مشكوك فيه لان الفكر الغربى لا يؤمن بأثر ، الايمان العميق القادر عن طريق الارادة الانسانية إلى التغيير الواسع ؛ كذلك يعجز التفسير الغربى عن فهم واستيعاب قاعدة اسلامية أساسية هى « كم من فئة كبيرة باذن الله » ذلك أن التقدير المادى يرى أن الكثرة العددية هى الغالبة أبدا بينما يجعل الاسلام من الايمان قوة جديدة مضاعفة إلى قوة العدد والعدة ، وقد أكدت الفتوح الاسلامية هذه الظاهرة بما لا يدع مجالا للشك ، وقد ثبت فى مختلف الغزوات والمعارك التى المسلمون أن عددهم فيها كان أقل من عدد خصومهم بمراحل . وأن عدد عدوهم كان مضاعفا أكثر من مرة بل مرات ، فالنصر هنا يرجع إلى عنصر الإيمان الذى لا يعتد به فى الحساب عند التفسير الغربى للتاريخ . .

وهناك ظاهرة من التعصب ترجع إلى الاختلاف بين الاديان وتفسيراتها للحياة ومن اختلاف وجهات النظر ومن الصراع القائم بين الشرق والغرب ومن وجهة نظر الاستعمار التى ترى ان الغرب هو الجنس الأبيض معدن البشرية وأن بلاد الاسلام هى العناصر الملونة التى يرى أنها أقل فى الدرجة والقدرة والكفاية ومن خلال نظرة الاستعلاء . العنصرى والتعصب الغربى تجرى تفسيرات خاطئة فى مقدمتها الادعاء بأن انتشار الاسلام أنما جاء بالسيف وهى دعوى مبطلة ، والحق أن الاسلام لم يرفع السيف إلا دفاعا عن كيانه حين يتعرض وجوده للخطر وذلك فى مقاومة محاولات المتآمرين عليه .

وهكذا نجد ان الاسلام فى عقيدته وحركته له ذاتيته الخاصة التى تعجز النظريات عن استيعابه النظريات الجزئية .

ومن هنا فلابد أن يكون للتاريخ الاسلامى تفسيره الاصيل ،

(٢)

أخطاء فى كتابة التاريخ الحديث

تعرض التاريخ الحديث لموجات من التحليل والتفسير أختلفت باختلاف المدارس التاريخية الغربية التى حاولت أن تصدر أحكاما من وجهة نظرها أولا الغرب وخاصة فيما يتعلق بتاريخ الاسلام وعلاقات المسلمين بالغرب ، صدرت هذه الاحكام تحت تأثير طابع الاستعلاء الغربى فى النظر إلى الأشياء وتفسيرها، ومن حيث النظرة المستمده من غرب حاكم مسيطر ومستعمر على عالم الاسلام الذى وقع تحت تأثير النفوذ الغربى منذ سقطت الدولة الاسلامية فى الهند تحت النفوذ البريطانى وسقطت منطقة أرخبيل الملايو تحت النفوز الهولندى بل يرجع إلى أبعد من ذلك ، عندما تدافعت قوات اسبانيا والبرتغال لضرب المغرب العربى والزحف على غرب أفريقيا فى بدأ مرحلة يمكن أن يطلق عليها جولة الاستعمار الغربى الحديث التى وصفها الغرب بانها تتمة للحروب الصليبية التى سبقتها با كثر من ثمانمائة عام ، ولقد كان من شأن هذا الصراع بين عالم الغرب وعالم الاسلام أن شكل من خلال حركة الاستشراق مفهوما خاطئا وتفسيرات متعصبة لحركات الاسلام الحديث ومراحل تاريخه ، فقد صدرت هذه المفاهيم وهذه التفسيرات من وجهة نظر الغرب القائمة على التعصب والخلاف والخصومة فهى ليست خالصة لوجه الحق ، وانما يغلب عليها الهوى والحقد ، هذا فضلا عن أن مقاييس التفسير التاريخى الغربى ، هى مقاييس مستمدة من التاريخ الغربى نفسه ولذلك فهى ليست صالحة لتفسير التاريخ الاسلامى الذى يستمد قوانين تفسيره من أصوله ومقوماته ، ولاريت أن هناك خلاف عميق بين أصول التاريخ الغربى ومقوماته التى تقررت عليها مقاييس تفسيره : ترجع هذه الاصول إلى العقيدة والثقافة والتاريخ القديم ، ولا ريب ان التاريخ الغربى يتصل اتصالا عميقا بمفاهيم الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية والتفسيرات المسيحية ، وهذه كلها تشكل نظرة خاصة إلى الاوضاع والاحداث والمواقف ، ومن هنا فهى

تختلف أختلافا عميقا عن أصول التاريخ الإسلامى التى تقوم على أساس عقيدة التوحيد والنبوة والبعث ومسئولية الانسان والتزامه ومفاهيم الاخاء الإنسانى والعدل والرحمة وفى إطار المنهج الذى قدمة القرآن الكريم والذى يختلف بل ويتعارض مع تفسيرات العقيدة والقيم التى تقررت فى الفكر البشرى المختلط ، وخاصه فيما يتعلق باضطراب مفاهيم العقائد اليهودية والمسيحية ، وهى التى تشكل الاساس الأول للثقافة والفكر الغربى : ويتجلى هذا الخلاف فى تفسير التاريخ الاسلامى حيث يقوم الاستشراق بتطبيق مقاييس غربية مختلفة كل الاختلاف عن مفاهيم وقيم الاسلام التى تتشكل من خلال مفهوم جامع بين الروح والمادة والقلب والعقل ، والدنيا والآخره ، بينما يقوم مفاهيم الغرب على التفسيرات الماديه الخالصة ، التى لاتستطيع أن تستوعب التوحيد والوحى والنبوة وأثار الجنوانب الروحية والمعنوية فى قيام الدول فى أماكن قصيرة وانتصار الجيوس ، بالعدد الأقل وانتشار الاسلام ذاتيا ، كل هذا يستدعى من الباحثين إعادة النظر فى هذه التفسيرات .

(١) لتكون الحقيقة أكثر جلاء ووضوحا

يجب التفرقة بين حكم العثمانيين للعرب وبين حكم الاتحاديين والتفرقة بين حكم المماليك فى مراحل الاولى وبنيه فى مراحله الأخيرة

(٢) القول بان الاتراك سبب تاخر العرب قول مردود ،

لقد كان الحكم العثمانى فى البلاد العربية مختلفاً عن الحكم الاستعمارى ذلك لان الترك انفسهم كانوا متاخرين فى العلوم والفنون

(٣) خطأ القول بأن الاتراك هم الذين سيطروا على البلاد العربية واحتلوها

فقدكان دخول العرب فى الدولة العثمانية فى النصف الأول من القرن ١٦ بمثابة التقاء الجزء بالكل والتئام الاجزاء الضعيفة مع الجزء الاقوى لصد خطر الافناء الصليبى الذى صاحب مطالع عصر الاستعمار والثانى رأس الرجاء الصالح .

ولاريب أن إرتباط العرب بالترك كان عاملاهاما ، فى تأخير سقوط البلاد العربية فى قبضة الاستعمار الغربى أربعة قرون ، وكان مصدر صمود الجبهة فى مواجهة ضربات أوربا .

٤ — فساد مفهوم الإصلاح المنقول من اصلاح المسيحية باعتبارها قامت على تفسيرات بشرية جعلتها غير قادرة على مواجهة تغييرات الأزمنة والبيئات .

أما الإسلام فإنه لايقر الاصلاح بمفهوم تعديل مقررات الشريعة الاسلامية الثابتة ، وكلمة التجديد أقرب إلى مفهوم الاصلاح « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » والتجديد هنا هو العودة إلى المنابع ومصطلحات الاصلاح والتطور والتجديد بمفهومها الآن الاستعمار الغربي في تغريب الاسلام أو تمسيحه هي مصطلحات باطلة .

كذلك لاينطبق على الاسلام مفهوم التطور لأن التطور مرتبط بالمناهج البشرية القاصرة التي سرعان مايتجاوزها الزمن فتحاول اصلاح نفسها بالتطور أما المنهج الاسلامي الرباني فإنه قادر على العطاء في مختلف العصور والبيئات وهو منهج مرن واسع الجنبات قادر على العطاء والاستجابة مع تغير الأوضاع .

٥ — فساد محاولة القضاء على فريضة الجهاد على النحو الذي تقدمه القاديانية والبهائية بهدف ايقاف الكفاح ضـــد المستعمر والغاصب وهي محاولة لتغريب الاسلام وتمسيحه وإعطائه طابع الفاندية والتولستوية الذي لا يمثل مفهوم الاسلام .

وتعد محاولة على عبد الرازق ، والقادياني ، وأحمد خان ، والبهاء محاولات باطلة تستهدف تغيير مفهوم الاسلام الأصيل .

وقد حاول على عبد الرازق الادعاء بأن الخلافة ما كانت إلا ملكا أو سلطانا وأن النبوة ليست حكما ولا ملكا وقال أن الملك الذي شيده النبي ﷺ عمل دنيوي لاعلاقة له بالرسالة وأن زعامة الرسول ليست إلا زعامة دينية وهذا فهم باطل للاسلام الجامع بين الدين وبين نظام المجتمع .

وقد جرت محاولات النفوذ الأجنبي لضرب حركات التحرر الاسلامية والقضاء عليها .

١ — القضاء على ثورة المسلمين في الهند .

٢ — القضاء على ثورة الأمير شامل في القوقاز .

٣ — تحطيم القوه المصرية في نفارين .

٤ — تحطيم القوة الوهابية الصاعدة فى الجزيرة .

كما جرت محاولة تمزيق وحدة العالم الاسلامى إلى قوميات وإقليميات ، بدأت هذه المحاولة قبل الغاء الخلافة فانقسم المسلمون إلى نحو سبعين جنسية وفرقه كل منها معزولة عن الأخرى ومحبوسة وراء فواصل مادية وأدبية لاحصر لها .

(٢)

قضى الاستعمار على الزعامات الأصلية التى كانت مفاهيمها تربط بين الوطنية والاسلام بمفهومه العام وكانوا يرون كفاح الاستعمار جزء من النضال فى سبيل الله وصنع مدرسة أخرى من تلاميذ الاستعمار هم الذين قاموا بحركاتهم فى دائرة الاستعمار وفكره ومنهجه الداعى إلى قبول الأمور الواقعة ثم المطالبة والذين كانوا مبهورين بالحضارة الغربية ، ومعجبون بأولياء الاستعمار متعاونون معهم .

وقد كانت معركة الجزائر تختلف عن ذلك فقد قامت على أساس مفهوم الجهاد فى الاسلام ، ولولا أنهم أكدوا ذلك لما استشهد منهم مليون شهيد ؛ فالشعب الجزائرى لم يدعى لخوض للمعركة التحريرية إلا باسم الاسلام ولولا ذلك لما استطاع أن يحمل فى هذا العصر لواء المقاومة للاستعمار المدجج بأحدث الأسلحة ، ولكن التجربة لم تكتمل فقد خشيت أوربا مغبة هذا الاتجاه ولذلك فقد أجهض قبل أن يقيم الجزائريون دولة اسلامية .

إن تجربة الجزائر اعادت القيم الاسـلامية إلى الظهور مرة أخرى بعد صلاح الدين وبعد أن غابت عن مسرح الحياة الإنسانية سنوات طويلة ولا يمكن أن يتحقق تحرير القدس إلا بمثل هذا الأسلوب الذى تحول كل القوى دون تحقيقه .

وقد كان الاستعمار والنفوذ الآجنبي حريصا على إجهاض الاتجاه الاسلامى فى الجهاد حتى لا يؤدى إلى مواجهة عقائدية مع النفوذ الأجنبى ، وقد خدع مصطفى كمال الاتراك والعالم الاسلامى حين حمل القرآن ودعا الى حرب اليونان ثم كانت جولته فى مواجهة اسقاط الاسلام والغاء الخلافة .

(٣)

انطلقت فكرة الدولة الباكستانية من مفهوم الإسلام ولكن الدولة الباكستانية لم تقم عليه ، فقد حالت حوائل كثيرة دون تحقيق هذه الغاية ، بل أن المدرسة التى كان رأسها محمد على جناح لم تكن إلا مدرسة غربيه شبيهة بالمدارس التى كونها النفوذ الأجنبى فى البلاد العربية ، فقدكان من المؤمنين بالليبرالية الغربية.

قال الأستاذ المودورى : أنه بالرغم من أن هذه الحركة (حركة جناح) تثار باسم الإسلام ولكنها ليست حركة إسلامية وطرح نظريه العمل الإسلامى الصحيح وهو أن ينتشر الإسلام أولا حتى إذا ما انتضر الدين الاسلامى فى أعماق الجماهير فإن هؤلاء المسلمين سيقيمون الاسلام فى الهند كجزء من عقيدتهم وقال غلام أعظم (أمير الجماعة الاسلامية فى باكستان الشرقية) بما أن هذه الحركة لم تتبلور كحركة إسلامية فان غالبية قادتها منذ قيام الباكستان تنكروا لمفهوم الاسلام ، لقد قامت باكستان على تصور إسلامى ولكنها بعد تأسيسها لم تتخذ هذا التصور وبالتالى لم يترسخ فى أعماق الجيل الجديد ولذلك حينما بحث هذا الجيل عن قوميه وجدت الاقليمية طريقها إلى تفكيره .

(٤)

طرحت عناصر مختلفة فى أفق كل بلد عربى أو إسلامى :

١ — عنصر قديم متصل بالتاريخ السابق للإسلام ، فى مصر الفرعونية وفى الشام الفينيقية وفى العراق الآشورية ، وفى المغرب البربرية ، وفى الهند الاسلامية : الهندوكية القديمة وفى إيران تاريخ كورش والمجوسية القديمة وفى تركيا الطورانية وتاريخ الذئب الأغبر وكلها محاولات للعودة إلى القديم البالى الذى حطمه الاسلام .

٢ — عنصر قومى وإقليمى متصارع ، كالمصرية ، أو السورية والعراقيه تحاول أن تلتقط من التاريخ صفحات ومراحل وشخصيات فى محاولة لتقسيم أعلام الفكر الاسلامى إلى عرب وفرس وترك ، وإلى مصريين وسوريين وعراقيين .

٣ — عنصر غربي أوربي (فرنسي ، بريطاني أو أمريكي) ، وعنصر ليبرالي أو ماركسي ووراء كل عنصر من هذه العناصر مفاهيمه ، فالبلاد التي خضعت لفرنسا إبان الاحتلال ما زال ولائها الثقافي للفكر الفرنسي (لاتيني) والبلاد التي خضعت لانجلترا مازال ولائها (سكسوني) وقد قامت الصراعات بين اللاتينية والسكسونية ، وبين الولاء للغة الانجليزية والفرنسية ، وبين الولاء الغربي نفسه فرنسي ، وإنجليزي ، وأمريكي من خلال الثقافة والمترجمات .

ثم جاء الصراع الآخر بين الايدلوجيات : الرأسمالية الغربية والماركسية السوفيتية ، وما يتصل باتباع هذين الايدلوجيين .

والهدف هو الحيلولة دون قيام وحدة إسلامية أصيلة مستمدة من القرآن واللغة العربية والاسلام والغاية هي الصراع بين المدارس والمناهج .

(٥)

لما كان الغربيون يرون في ابطال النضال الوطني خصوما لهم لأنهم قاوموهم وهزموهم فانهم يحاولون أن يسموهم بأشياء زائفة ، فالرئيس حيدر القائد الجزائري المشهور الذي أخضع دول أوربا لبأس للجزائر وسلطانها حتى كان الاوربيون يؤدون للجزائر مغرما سنوياً وكانوا لا يدخلون هذا البحر المتوسط يعطوا الجزية ، هذا القائد البطل يصفه المؤرخون الفرنسيون بأنه قاطع طريق وبأنه هو وأصحابه الأبطال قرصان ومتوحشون .

(٦)

ان ظهور سعد زغلول (مصر) ومصطفى كمال (تركيا) ورضا شاه (ايران) في مرحلة واحدة بعد الحرب العالمية الأولى كان يستهدف القضاء على صيغة العالم الاسلامي الاسلامية وارساء مفاهيم الاقليمية والقوميات الوافدة ، والوطنية الضيقة ، والقضاء على الوحدة الاسلامية والخلافة) بل أن بعض المورخين يردون هذه المحاولة إلى محمد على الذي فتح الباب لأول مرة أمام الحكومة العلمانية التي حطمت نظام الحكم الاسلامي وقد سجل السيد رشيد رضا هذه الظاهرة فقال أن لمحمد على ثلاثة أعمال كبيرة كان كل منها موضع خلاف :

(أولا) تأسيس حكومة مدنية فى مصر (أى علمانيه) كانت مقدمة لاحتلال الأجانب له .

(ثانياً) قتاله الدولة العثمانية بما أظهر به للعالم كله ولدول أوربا خاصة ضعفها وعجزها وجرأهن على التدخل فى أمور سياستها

(ثالثاً) مقاتلة الوهابية والقضاء على ما نهضوا به الإصلاح الدينى فى جزيرة العرب فى مهد الاسلام وأحد معاقله :

وان محمد على هو أول من تجرأ فى العالم الإسلامى على استبدال القوانين الأوربية بالشريعة الاسلامية ولا ينسون قتالة لخليفة المسلمين مما بعد حرابه ، ولا ينسون أن (توفيق) هو الذى تآمر على ثورة عرابى واستدعى الانجليز لاحتلال مصر واحتمى بجيشهم بعد أن عاهد جمال الدين على تطبيق حكم الشورى بمصر ثم نفاه وزعم أنه رئيس عصابة من المفسدين .

ويعد هذا فى تقدير الباحثين هو التمهيد لما قام به سعد زغلول فى مصر وكمال أتاتورك فى تركيا ورضاشاه وإبنه محمد فى ايران فى محاولة تغريب مصر وتركيا وايران .

(٧)

ظهرت دعاوى باطلة تحاول أن تصور العالم الاسلامى وكأنه قبل الاحتلال الغربى كان فى سبات عميق، وأنه تجمد فى القرون الوسطى وأن أوضاعه السياسية والاجتماعية كانت فاسدة وان لم ينهض الا حين نهض به النفوذ الأجنبي وأن الحملة الفرنسية على مصر هى بدأ اليقظة وان الارساليات الأجنبية هى التى حققت له الصحوة .

كذلك شوه الاستعمار حركات اليقظة التى قامت قبل قدومه وادعى أنها لم تحقق شيئا بينما كانت البلاد العربية والاسلامية قبل الاحتلال على درجة عالية من الوعى السياسى والاجتماعى وكانت بها نظم سياسية جيدة ، مثلما كان فى مصر وكانت الحياة الحضارية والثقافة فى أوج التقدم فى مختلف مناطق أفريقيا التى احتلها الاستعمار البريطانى والفرنسى وحاول تشويه ثقافتها وحضارتها وأطبق عليها بنفوذه وثقافته ليزيل الوجود الاسلامى العربى بها .

ولا شك كان الأزهر حافلا بحركات اليقظة قبل الحملة الفرنسية وكانت الجزيرة العربية (فى نجد ومنطقة الخليج) فى أوضاع ثقافية وإجتماعية طيبة بدعوة الإمام محمد بن الوهاب . وقد جاء احتلال الجزائر بعد فترة من إنجازات ضخمة كان لها شأنها لولاء الاحتلال الفرنسى الذى أعاد البلاد إلى العبودية الفكرية والسياسية ثم جاء التدخل الأجنبى بعد أن اوشكت هذه الحركات على النجاح فاجهضتها وأدخلتها فى صراع مع بعضها البعض يقصد ضرب بعضها ببعض والقضاء عليها .

ولا ريب أن الحركات الوطنية والفكرية فى مصر وتونس غير القرن التاسع عشر قد ألزمت الفئات الحاكمة على الشورى والعدل وتمكنت من الحصول على مزيد من حرية العمل والفكر ، ووضع أسس دستورية وتشريعية كانت كفيلة بالمساهمة الشعبية فى الحكم ، بل أن هذه الحركات الاصلاحية قبل الاحتلال الأجنبى كانت تستمد مفاهيمها من الأصول الاسلامية فى تحديد وجهتها ، غير أن النفوذ الأجنبى قد حطم هذه المحاولات كلها ووضع البلاد الإسلامية فى دور التبعية الكاملة لنفوذه وقوانينه تحت أسماء الانتداب والوصاية بادعاء أن أهالى هذه البلاد لم يكونوا على أى قدر من الوعى السياسى وكان فى ذلك كاذباً ومضللا ذلك لأنه كان يطمع فى القضاء على تلك الروح الإسلاميه الأصيلة فى الاصلاح، وكان يهدف إلى القضاء على هذه المدرسة الإسلامية فى السياسة والحكم والاجتماع ، وبناء مدرسة من أوليائه التابعين الخاضعين المزيفين ، الذين يوالون سيطرته يقبلونها ويعجبون بها ويلتمسون بقائها ليستمر بقائهم ، من هؤلاء سعد زغلول فى مصر وعدد كبير من الحكام الذين أنشأوا فى مدارس الارساليات وعملوا على تثبيت دعائم الاستعمار ، ثم تحولت التنظيمات السياسية والاجتماعية والتربوية فاقتبست الأنظمة الغربية والقوانين الوضعية ، فافسد ذلك المجتمع الاسلامى إفساداً تاماً . حيث انتشرت عوامل الفساد الاجتماعى نتيجة حجب الشريعة الاسلامية بحدودها فى الربا وفى العلاقات الاجتماعية ، وغيرها وفتح باب الاستدانة والرشوة والفساد الحلق لتمكين الغاصب من عصر هذه الشعوب والحصول على ثمرات نتاجها .

وهنا حجبت القوى الغاية أهل الأصالة والحق عن مواقع القيادة ،وسمحت للقلة الموالية للغرب أن تسيطر وظهر من يدعو الى تبنى فكرة ارتباط العالم الاسلامى بالحضارة الأوسطية والغرب ، وتبنى الولاء الغربى وانكار الأصول الاسلامية والعربية فى العلاقات والثقافة والعقائد والاعراق وظهرت تلك الدعوات

الاقليمية . والقوميات الوافدة ، والوطنية وأخذت البلاد الاسلامية تطبق على فكرها ومجتمعها مقاييس الاستعمار ومعاييره فى مفهوم التقدم والتخلف ، وفى التنظيمات الاجتماعية والسياسية .

وكانت هذه المحاولات كلها ترمى إلى تمزيق وحدة الفكر الاسلامى والجامعة الاسلامية التى تقوم على الاسلام والقرآن والتوحيد .

(٨)

حاول كتاب الغرب تفسير التاريخ الاسلامى تفسيراً مادياً واقتصادياً وغفلوا عن جانب المعنويات والقوة الروحية والايمان الذى كان عاملا أساسيا فى النصر الذى حققه المسلمون بالاعداد القليلة على القوى الكبيرة وباندفاع هذه القوى التى لم تكن تملك من التكنيك العسكرى أو العدد والمدد وما يوازى عشر معشار ما يملكه عددهم ، ثم انتصارهم عليها ، وإذا نظرنا نظرة عامة قلنا أن عدد المسلمين فى المعارك الاسلامية لا يزيد عن مائة ألف مقاتل فتحوا فى ثمانين عام ثلاثة أرباع المعمورة وهذا هو المد الذى لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل وهذه الظاهرة هى التى أزعجت أصحاب مقاييس التفسير المادى للتاريخ عن معرفة السر فى هذه المعجزة

ولقد جاءت محاولات تفسير هذه الظاهرة تحمل طابع الجهل بالجوانب الروحية والمعنوية وأثرها البعيد فى التعبير ، أو طابع الحقد الدفين فى هذا التفرد الاسلامى فى مواجهة الأرض التى كانت خاضعة للرومان .

إن دعوى القول بأن العرب خرجوا من جزيرتهم تحت ضغط الفاقة والحاجة لا يمكن أن تكون اجابة صحيحة لهذه الروح من الايمان والاستشهاد وعدم المبالاة بالغنائم ، إن أن الوقوف عند هذا التفسير بالعامل الاقتصادى وحده لا يمكن أن يوصل الى الحقيقة : ولقد أجاب المجاهدون المسلمون أنفسهم عن هذا التساؤل حين قال رستم للمغيرة بن شعبة : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه ألا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تشبعون به

قال المغيرة : إن الله بعث إلينا بنبيه ﷺ فسعدنا بإجابته واتباعه وأمرنا بجهاد

من خالف ديننا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده والايمان بنبيه فان فعلت والا فالسيف بيننا وبينكم .

وقال ربعى بن عامر : أتيناكم بأمر ربنا نجاهد فى سبيله وننفذ أمره وننجز موعوده وندعوكم الى الاسلام وحكمه فان أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا معكم كتاب الله وان أبيتم لم يحل لنا الا أن نعاطيكم القتال أو تفتدوا بالجزية فان فعلتم والا فالله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم فاقبلوا قولنا فوالله لاسلامكم أحب إلينا من غنائمكم ولقتالكم بعد أحب من صلحكم » .

ومن المؤسف أن تصور غزوات الاسلام التى كانت مثلا عاليا فى الرحمة والخلق بأنها أعمال السلب والنهب .

وإذا كان العامل الاقتصادى هو واحد من جملة عوامل فى تفسير التاريخ فان ذلك يكون قريبا من الواقع ، غير أن وقائع التاريخ كلها تشهد بأن منازعات الأمم وحروبها ترجع فى أغلبها الى الدين والاعتقاد وأن محاولة قصر عوامل التاريخ على الاقتصاد لا تنطبق على التاريخ الاسلامى بل لا تنطبق أيضا على التاريخ الاوربى .

(١٠)

فى مواجهة الفكر الإسلامى

(١) فى مواجهة الفكر الاسلامى

(٢) الفكر البشرى القديم

(١)

لاريب أن الفكر الاسلامى نشأ فى حضانة الدعوة الاسلامية وله جذوره العريقة وأصوله المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة واللغة العربيةوسيرة الرسول وتاريخ الاسلام والأدب العربى وقد اكتمل مفهوم الاسلام فى حياة الرسول ﷺ « اليوم أكملت لكم دينكم »وكانت قواعد الفكر الاسلامى الأساسية قد بدأت ونمت فى حياة الرسول ﷺ مستمدة من القرآن وأن القواعد لم تتغير من بعد ولم تجر إضافة أى شىء إليها فظلت قيمها الأساسية كما جاء بها وحى السماء (القرآن) وسنن النبى فى تفسيرها وتطبيقها وإنما جرت حركة العمل من داخل الاطار الذى رسمه القرآن ولقد كان اتصال المسلمين بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية تجربة قاسية انتهت بانتصار الاسلام بمفهوم (السنة الجامعة) وهزمت جميع محاولات السيطرة والاحتواء والغزو الفكرى كما نسميه بلغة العصر وبقيت الحقائق الأساسية قائمة .

أولا : الاسلام دين مميز .

إن الاسلام ليس دينا كسائر الأديان ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والمجتمع والدولة ومختلف نظم الاقتصاد والسياسة والأخلاق وأن ميزة الاسلام أنه نظرية كلية شاملة وأنه لم يجزىء الحياة بل نظر إليها نظرة كلية كما نظر إلى الانسان كوحدة نفسية وجسمية لاتنفصل .

ثانياً : وحدة الفكر الاسلامى وتكامله

وفى الفكر الاسلامى المستمد من الاسلام يقوم منهج تكامل القطاعات والعناصر فى نسق واحد ، فالاجتماع والسياسة والأدب والتربية والاقتصاد هى أجزاء وعناصر من شىء واحد هو الاسلام وإذا كان الفكر الغربى يجرى على الفصل بين العناصر والوحدات والاجزاء فإن الفكر الاسلامى لا يقر هذا الفصل ويرى فيه تدميراً

الشخصية الانسانية وللمجتمع نفسه ويرى منه قصورا فى النظرة باعلاء عنصر على عنصر ، فالاسلام لايرى مايراه الفكر الغربى من استعلاء عناصر المادة والعلم والعقل والمحسوس على العناصر الآخرى . ويرى أن الروح والمادة يتكاملان والقلب والعقل هما بمثابة عينين فى وجه واحد ، والدنيا والآخرة متصلان صلة جذرية فالحياة كلها تدور حول رسالة وتتصل بإنسان له مسئوليته الفردية إزاء عمله وجزائه على هذا العمل ، وإنسان متصل بمجتمع متفاعل معه ، وإنسان له قلب وعقل وروح وجسد لا انفصال بينهما .

ومن هذه الوحدة القائمة بين العناصر فى الفكر والحياة والالتقاء بين الأجزاء فى الفكر الاسلامى لانجد قضية للخلاف بين العلم والدين ولا بين الدين والأخلاق ولا بين الدين والدولة .

وفى ضوء هذا كله فإنه ليس هناك فكر دينى أو لغة دينية على النحو الذى يفهمه الغربى الذى يفصل بين المفاهيم وكذلك تختلف نظرة الفكر الغربى فى أمور كثيرة : فى الثوابت والمتغيرات ومفهوم التطور والنسبية .

وفى مفهوم البطولة .

ومن هنا فقد أقام الفكر الاسلامى منهجا للمعرفة خاصاً به يختلف عن منهج المعرفة الغربى ، وهو غير المنهج العلمى التجريبى الخاص بالعلوم .

ثالثاً : منهج المعرفة الاسلامى

أقام الاسلام منهج المعرفة المتكامل إذا الجناحين المستمد أصلا من المصادر الأولية الأساسية : الفطرة والعقل والقلب والوحى : هذا المنهج القائم على المادة والروح والعقل والقلب مخالفاً بذلك الفكر البشرى الانشطارى : القائم فى أحد قطبيه على الروح وحدها أو المادة وحده أو الذوق أو البصيرة أو الحدس ، وكل من هذه المناهج مستقل بأسلوبه وطريقته لايعترف بالأخرى ولا يرى أنه وسيلة صالحة للمعرفة ، وفى الصورة المعاصرة الآن : المنهج المادى فى عالم الغرب والمنهج الروحى فى الشرق الاقصى معتمداً على البوذية ومفاهيم الأديان الهندية وكذلك كان الأمر قبل ظهور الاسلام : كان هناك الفكر الهلينى اليونانى القائم

على التأمل والمنطق المحسوس والفكر القائم على الحدس والاحساس الباطنى ، فى وسط هـــذه التيارات والفلسفات من الفكر البشرى المنحرف ناحية لوثنية أو المادية أو الأباحية تقدم الإسلام منهجه الجامع فى المعرفة وإقامة على أساس التوحيد .

وما تزال مناهج المعرفة تصطرع وتتضارب ولا تستجيب لفطرة الإنسان ولا لأشواقه الروحية ، ويبقى منهج المعرفة الإسلامى الجامع وحده على مفهوم التكامل الذى يربط بين قوى الحواس والعقل والوجدان والروح وبين السمع والبصر والبصيرة والعقل قائماً أشبه بالمنار السامق الذى يهدى الإنسان ويهدى الفكر الإنسانى وينقذها من لجج الشك والالحاد والوثنية والمادية جميعا .

وتتمثل أبرز معالم منهج المعرفة الاسلامى فى الأصول الآتية :

أولا : التفرقة الواضحة بين مقاييس العلوم ومقاييس الانسانية فقاييس العلوم مقاييس مادية مستمدة من التجربة والاختبار الدائم المتماثل الذى لا يتغير. وهذه المقاييس تعجز عن لن تخضع الانسان والمجتمعات والنفوس والأخلاق إلى نتائجها ، فاذا حاولنا تطبيق مقاييس العلوم فى مجال النفوس أخطأت وفسدت .

ثانيا : الجمع بين لطار الثوابت الأساسى وحركة المتغيرات . وقد وضع الاسلام قاعدة الكليات ذات الاطار الواسع والأفق الرحب ، وهى الثوابت التى تقوم عليها دعائمه ، هذه الدعائم التى تمثل الاطار المرن والذى تجرى من داخله حركة التغيير والاجتهاد فى الفروع المتجددة والمسائل المتغيرة بتغير الزمان والمكان .

ثالثاً : تكامل العناصر وتلاقيها وتأثر بعضها ببعض فالنظرة الاسلامية متكاملة لا تتجزأ ولا تاخذ بفرع دون الآخر فكل فرع منها مؤثر فى الفرع الآخر متأثر به .

رابعاً : لكل قيمة وجهان مادى ومعنوى ، لا انفصال بينهما بل تكامل :

خامسا : لكل نظرة دعامتان : الوحى والعقل :

سادسا : رفض أسلوب التقليد الموروث ، والتبعية وقيام النظرة على أساس الفحص والايمان المتجدد .

سابعا : إن معرفة الانسان لقوانين الطبيعة لا تغنى عن الايمان بصانع الطبيعة بل من الحق أن تهدى إليه وتدل على عظمته .

واجه الفكر الاسلامى التحديات منذ اتصل بالفكر البشرى الذى كان يتمثل فى ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية بما حملت من مفاهيم الوثنية والالحاد والاباحة والمادية وتعدد الآلهه فدخل معها فى معركة ضخمة استمرت قرونا ثلاثة حتى استطاع أن يتحرر منهم بإقامة مفهوم أهل السنة الجامع : وقد امتدت هذه الفلسفات إلى مجال العقائد والتفسير والفقه والتصوف وأدخلت عليها كثيراً من الشبهات أو ما أطلق عليه الاسرائيليات . وقد جددت حركة التغريب والغزو العثمانى هذه الشبهات وأعادة طرحها فى أفق الفكر الاسلامى مرة أخرى فى العصر الحديث وفى ظروف تختلف عن ظروف القرن الثالث الهجرى وهى ظروف التحدى التى فرضها النفوذ الآجنبى وقد أطلق على هذه الحركة زعماؤها وعلى رأسهم هاملتون جب : حركة التغريب : أى صبغ العالم الاسلامى بصبغة الغرب واخراجه من طابعه الاسلامى المميز وصهره فى بوتقة الأممية وقد عمل الاستشراق على إثارة السموم فى مختلف المجالات وحملت رياح التبشير الغربى ذلك كله إلى المدرسة والجامعة والصحيفة وبعد أن كان دوره مقصوراً على دور التعليم ظاهراً فقد تخفى وتدسس الى جميع فروع الثقافة تحت اسم نظريات جديدة وشاركت قوى التغريب فى مجال الاستشراق فتجمعت على طرح شبهات بعضها لخدمه الاستعمار والنفوذ الآجنبى وبعضها لخدمة الصهيونية وبعضها لخدمة الشيوعية فكان على حركه اليقظة الاسلامية مواجهة هذه الحديات التى تحاول أن تخرج الفكر الاسلامى من ذاتيته الخاصة وطابعه القرآنى .

لقد قامت هذه المحاولة منذ وقت بعيد وكان أول من تحدث عنها لويس التاسع وذلك حينما قاد الحملة الصليبية السابعة الى مصر وهزمت هزيمه نكراء فى المنصورة . هناك ابان اعتقاله فكر ودبر وتأمل ، وكتب فى مذكراته هذه الأطروحة الخطيرة قال : ان نتائج الحروب الصليبية بعد أكثر من قرن ونصف قرن تؤكد أن المسلمون لا يمكن هزيمتهم عن طريق الحرب والقتال فإن دينهم قدم لهم منهجاً خطيراً فى هذا الشأن هو الجهاد فى سبيل الله والموت

فى سبيل حماية الدين . ولذلك فاعتقد أن الأسلوب الصحيح للغرب للسيطرة على المسلمين هو السيطرة على فكرهم وتحويله عن أصوله الحقيقية . إن أوربا إذا أرادت مقاومة الاسلام والقضاء عليه فانما يكون ذلك عن طريق الكلمة ، وعن طريق تحريف هذه المفاهيم وتفريغ الاسلام من تلك المقومات التى تعطيه القوة والصمود ولذلك فاعتقد أنه لو قامت مؤسسة مسيحية أوربية بهذا العمل فإن ذلك من شأنه أن يصير الاسلام دين عبادة وبذلك يمكن تفريغه من قوته الذاتيه الخطيرة التى مكنته خلال القرون من الصمود فى وجه القوات الغازية . ومن هنا نشأت تلك المحاولة الخطيرة التى اسموها التغريب واطلقت عليها الغزو الثقافى والتى قامت عليها مؤسستا التبشير والاستشراق واستهدفت تغيير « أصالة الإســــلام » ومقوماته الأساسية وأثارة الشبهات حول تاريخه ولغته وعقيدته ورسوله بهدف « توهين » هذا الدين فى نظر أهله وأعلاء شأن مناهجهم وأيدلوجياتهم وإخراج المسلمين من الاسلام .

وقد جرت تلك المحاولة فى عدة طرق :

أولا : إثارة الشبهات حول حقائق الاسـلام وخاصة مفهومه الأساسى من حيث أنه منهج حياة ونظام مجتمع وإثارة الشبهة بالقول بأنه دين عبادى وتأويل مفهوم الجهاد فى الاسلام الذى هو كبرى فرائضه .

ثانيا : ضرب الاسـلام من الداخل عن طريق قوى تحاول أن تحتضن ظاهرا مفاهيم الاسلام ثم تعمل على إثارة الشكوك والشبهات حول حقيقة تطبيق الشريعة الاسلامية أو مناهج التربية الاسلامية أو حول الضوابط القواطع فى الاسلام كالحدود والربا ومحاولة التشكيك فيها .

ثالثا : تبنى دعوات ضالة كالقاديانية والبهائية واعتبارها من حركات التجديد الاسلامى ، وفتح الطرق أمامها فى المجتمعات الاسلامية .

رابعاً : محاولة تفسير القضايا الكبرى تفسـيراً خاطئا ، على نحو ما يقول به البعض عن الحوار المسيحى ، وغيرها من القضايا بما يخالف الحقيقة التى تتمثل فى ذاتية الاسلام التى تختلف عن تفسيرات الأديان .

خامساً : إحياء الفكر الباطنى والاباحى والمادى سواء فى الفلسفات اليونانية أو الفكر الغنوصى الشرقى .

ولقد عرف المسلمون مدى الاخطار التى واجهتهم عندما تركوا منهجهم الربانى والمصدر الانسانى الطابع والتمسوا مناهج الغرب سواء منها ما يتصل بالسياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد . وقد جاء هذا نتيجة اضطراب أساليب التربية والتعليم التى وجهت الرواد إلى الانبهار والاكبار لفكر الغرب فى نفس الوقت الذى جهلوا فيه أبسط القيم الاسلامية ، كذلك فان القيم الخلقية الغربية التى نواجهها اليوم إنما ازدهرت فى جو الانحلال الذاتى فى بيئة غلبت عليها طوابع المنفعة والأنانية والفردية بينما يقدم الاسلام للبشرية طوابع الرحمة والغيرية والبذل والفداء .

كذلك فإن الفكر الاسلامى يؤمن بأن القديم ليس فاسد كله أو مضطرباً . ذلك لأن قديمنا نحن المسلمين خاصة إنما هو ثمرة أصول ربانية جاءت بوحى السماء ثم كان هذا التراث تفسيراً لها وتعميقاً وفهما ، فهذه الصيحة المسمومه التى تقول بانتقاص القديم جملة إنما تحاول أن تنال من هذا الميراث العظيم الذى جاءت به النبوة للبشر من رب العالمين هدى وضياء ، ولذلك فإن معارضة القديم على إطلاقه هى من دعوات التغريب وما أظن أن أمة ما حتى هذه الامم التى تدعونا إلى ترك القديم ، سواء أكانت أمم الغرب أم الصهيونية ، قد تركت قديمها وتخلت عنه ، والحضارة الغربية عندما تجددت فى القرن الرابع عشر الميلادى بعد سقوط روما فى القرن الرابع وبعد انقطاع دام ألف عام عادت تربط نفسها بالخط الهلينى فى القانون الرومانى والاجتماع والأدب، فكيف يترك المسلمون ميراثهم الممتد خلال أربعة عشر قرنا خوفاً من أن يتهموا بأنهم يحبون القديم .

فالمحافظة قانون طبيعى ومن سنن الكون التى لا تتخلف والمحافظة ـ لا الرجعية ـ هى التى تعصم المسيرة من الانحراف وتجعلنا فى إبان الأزمات والأحداث نتلفت لنرى هل نحن حقاً نلتمس من منابعنا الأصيلة أم انحرفنا عنها .

ثانياً ، التبعية : ذلك هو الخطر الثانى الذى يواجه الفكر الاسلامى ويجىء هذا نتيجة التصور بأن فكر الأمم الأخرى التى لها قدر من القوة والسيطرة فى

العصر الحاضر هو الآصلح وأنه مادامت هذه الأمم قد نجحت بهـــذا المنهج فإن علينا أن نقلده ونتبعه حتى نصل إلى ماوصلوا إليه من تقدم وظاهر المعادلة يبدو صحيحا ولـكنه فى واقـع الأمـر وفى النظرة الأعمق لايؤدى إلا إلى إذابة الشخصية وتحللها حتى تصبح صورة مهلهلة مضطربة لذلك الأصل الذى تحاول الاقتداء به .

إن أخطر ركائز الفكر الاسلامى وهو الاصالة والتميز واستحالة الاندماج والذوبان أو الاحتواء فى دائرة الفكر الأممى . ذلك لأن الاسلام منهج متكامل بينما تتسم مناهج الفكر الأخرى بالتجزئة والانشطار وهو الذى يمثل قمة الدين والفكر فى وحدة لاتنفصل وهو الذى يعتمد على الوحى والنبوة ورسالة السماء أساساً له ، ثم يكون العقل وسيلة من وسائله والعلم منهجاً يجرى فى مجراه .

إن أخطر ماحذرنا منه ديننا هو متابعة الناس بغير برهان والخروج من ذاتيتنا ومقوماتنا تحت سيطرة الاهواء والبريق . ولقد كانت أمتنا قادرة فى أشد أوقات المحن على أن تحفظ كنزها فى أحضانها فلا تفرط فيه حتى تزول أزمة الاستلاب من حولها : ذلك أن الأمم التى استهانت بقيمها ومركبات شخصيتها من لغة وعقيدة وتراث وتاريخ ، هذه الأمم ضاعت أدراج الرياح ووضعت فى توابيت المتاحف . أن محاولة مضللة تحاول أن تقول بوحدة المعرفة أو وحدة الفكر وهى دعوة تنبعث من المسيطرين بالنفوذ ، وأدوات الغزو ، تريد أن تحتوى فكر الأمة الاسلامية التى تمر الآن بمرحلة اليقظة والتى لم تمتلك إرادتها بعد كاملة . ومن هنا فإن علينا أن نواجه هذه الدعوات إلى التبعية المقنعة بحذر شديد وأن نعترف بأنها إنما تريد أن تبتلعنا فى أتونها الضخم .

نحن نؤمن بوحدة الجنس البشرى فى مصادره ووحدة الفكر فى أولياته ، ولـكن المحاولات البشرية التى عملت منذ وقت بعيد على تشكيل مناهج لها تختلف عن الفكر الربانى وتغاير قيمه التى جاء بها الوحى عن طريق رسالات السماء ، هذه تحول دون تقبل دعوتها إلى وحدة الفكر ، ذلك لأنها ترمى إلى إخراج البشرية من إطار التوحيد والإيمان والمسئولية الفردية والأخلاقية والبعث والجزاء وقد نجحت هذه المحاولة فى بعض أطراف الأرض ، وهى التى تمتحننا نحن المسلمين

أخطر امتحان ومحنة لتحطيم هذه القوة القائمة بالحق فى وجه الوثنية والمادية والالحاد والاباحية .

فضلا عن أن منهج أية أمة لايصلح لاية أمة أخرى .

والواضح أن هناك محاولات لصهر الفكر الاسلامى فى مفاهيم المسيحية ، والوثنيه والاغريقية والمجوسية والفلسفات عن طريق إحياء مفاهيم الاعتزال والفلسفة وفلسفة التصوف والتأثير على تكامل العقيدة والشريعة والأخلاق عن طريق مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية والفرويدية والوجودية فعلينا أن نحافظ أصالة الفكر الاسلامى وذاتيته الخاصة .

* * *

(٢)

الفكر البشرى القديم

إعادة طرحه فى أفق الفكر الإسلامى

المؤامرة الخطيرة التى تواجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث هى محاولة قوى التغريب (الاستشراق والتبشير) إعادة طرح الفكر البشرى القديم الوثنى والاباحى مرة أخرى ، لتزييف هذا الفكر القرانى الربانى وتمييعه واحتوائه .

ولقد كان الفكر الاسلامى دائماً متفتحا لثمرات الفكر الانسانى ، ولكنه كان قادرا حتى فى أشد مراحل الضعف والتخلف على المحافظة على ذاتيته والحيلولة دون إنصهاره فى الفكر الأممى ، ذلك لأن مقوماته الأصيلة وقيامه أساسا على التوحيد ، حال دائماً دون هذا الانصهار وهـــذا الاحتواء الذى فرضه الغزو الخارجى عليه .

وقد كان الفكر الاسلامى فى الجولة الأولى (أبان ترجمة علوم اليونان والفرس والهنود) فى نهاية القرن الأول وبدايه القرن الثانى وحتى الثالث ، قادرا على أن يتوقف دون ترجمة الفلسفة والقانون والشعر أول الأمر ثم لما ترجمت الفلسفات واجهها علماء المسلمين فى قوة ، وكشفوا عن أن منهجها لا يتفق مع منهج التوحيد

أما فى الجولة الثانية (هذا العصر) فقد استطاع النفوذ الأجنبى أن يفرض ترجمات كل ركام الفكر البشرى ووثنياته وإباحياته ، من أساطير وشعر وفلسفات مادية، دون أن يكون هناك حائل دون ذلك،وأن تمكن أعلام حركة اليقظة الاسلامية من كشف زيف هذا الركام البشرى .

ولقد كان هدف دعاة الغزو الفكرى من هذه الخطة إعادة الفكر إلى الايمان بالجبر ، وعودة الانسان إلى الوثنية . والدعوة الملحة إلى الانطلاق من القيم والتحرر من الأخلاق إلى حيوانيه الطعام والجنس .

ولعل أخطر ما طرح الفكر البشرى فى أفق الاسلام فى العصر الحديث :

١ ـ النظريات المادية الماركسية .

٢ — الأخطار الفلسفية والوجودية .

٣ — الكشوف الانثروبولوجية التى دعت إلى استغلال الاسطورة فى تفسير الحياة الانسانية .

٤ — المذاهب الفلسفية التى ردت الانسان إلى الحيوانية .

٥ — نظرية دارون .

٦ — مقارنات الاديان التى تقوم على أكذوبة أن البشرية كانت وثنية ثم اعتنقت التوحيد مع ظهور اليهودية .

ولقد دعا الاسلام معتنقيه إلى اليقظة تجاه الفكر الوافد وحرر إتباعه من التأثير الاجنبى بكل أنواعه ، ودعا إلى الحرص إزاء محاولة أعداء الاسلام تغيير المعالم الاصلية للعقيـــدة الاسلاميه وللفكر والثقافة ومحاولة تزييف مزاج المسلمين النفسى .

٢ — وكان أعداء الاسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى القضاء على « وحدة الفكر الاسلامى » هو ضرب الامة من خلال قوائم فكرها باثارة الشبهات وإدخال مفاهيم وتفسيرات غريبة تختلف عن التفسيرات الاصلية .

كذلك كان من أكبر مميزات الفكر الاسلامى ، هى قدرته الواضحة على التماس المنابع حين يفتقد النص القرآنى أو التوجيه النبوى ، فهو حين ينفتح على الثقافات العالمية يأخذ منها بحذر ولا ياخذ كل شىء ، ويرد الباقى من السيل المتدفق الذى يقدم إليه ، فهو لا يأخذ إلا ما يتفق من الاساليب والوسائل لا الاصول ، وما يتفق مع طابعه وما يزيده قوة وكل ما يأخذه يصهره فى بوتقته صهرا تاما ويحيله إلى طابعه .

ولقد كان الفكر الاسلامى ولا يزال ـ وسيظل ـ قادرا على أن يعمل داخل الاطار الذى رسمه القرآن وحده وأن يحكم المسلمون على كل ما يواجههم فى ضوء القرآن والسنة لا يتعداهما إلى مصدر اخره .

وفى هذا المجال فرق الفكر الاسلامى بين المعرفة والثقافة خاصة ، ولكل أمه

ثقافتها المستمدة من عقيدتها وشريعتها وأخلاقها كذلك فرق بين العارض والاساسى وبين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهريه ، ودعا إلى وحدة الفكر فى قطاعاته المختلفة فلا سبيل لفهم قطاع من الفكر الاسلامى وحده منفصلا عن قطاعاته الاخرى .

كما فرق بين مقاييس العلوم التجريبية ، ومقاييس الدراسات الانسانية التى لا يمكن أن تخضع لاساليب العلوم التجريبية والمادية ، لانها تتصل بالنفوس والاخلاق ، كما رفض الفكر الاسلامى مبدأ التقليد الاعمى ومبدأ التبعية واقر مبدأ الاصالة والتماس المنابع .

وقد قام الفكر الاسلامى فى تكامله على أبعاد ثلاثة :

أولاً : عمق زمنى : يربط الانسان بالتاريخ والزمن الواقع وقضايا الحياة .

ثانيا : اتساع مكانى : يربطه بالاحداث العالمية فى العالمية فى العالم المحيط به ، وهذا هو الشطر الذى يعتبره الفكر الغربى الحديث أساسا وحيدا الفكر ، أما الاسلام فإنه يعترف بعلاقة البيئة ولكنه لا يراها العلاقة الوحيدة .

ثالثاً : تكامل موضعى بمعنى وضع الجزء فى مكانه من النظرة الكلية الجامعة :

وقد عارض الفكر الإسلامى : « الجمود » الذى يزرى بقيمة العقل ويحط من كرامة الانسان .

وعارض التعصب : الذى يمنع الانسان من تقليب وجهات النظر المختلفة .

كما عارض التقليد : الذى يجعل الانسان تابعاً للقديم أو الوافد دون فحص أو تمحيص .

ثم أن الفكر الاسلامى يعارض كل ما يصادم قوانين الكون ونواميس الوجود والحياة ويرى أن كل شىء يبدأ من نقطة ثابتة وينتهى إليها (حركة فى إطار الثبات) وأن كل شىء يبدأ صغيرا ثم ينمو حتى يكتمل ثم يعود مرة أخرى (كالطفل والقمر) .

وقد رفض الفكر الاسلامي المنطق اليوناني الذى يقوم على القياس والاستدلال النظرى وأقام منطقا جديدا مستمدا من خصائصه وهو المنهج الحسى التجريبى ، وأعلن أن القياس المنطقى ليس كافيا وحده فى إقامة النظريات خاصة إذا تعارضت مع واقع التاريخ ، وأن الاستشهاد بوقائع غامضة من التاريخ — كما فعلت نظرية ماركس المادية — هو أيضا زيف .

وأسوأ أنواع القياس : القياس الفاسد الذى لا يؤيده حقيقة علمية وكشف الفكر الاسلامى عمق الارتباط بين الفكر واللغة وأن « منهج البحث » لأى فكر وهو ما يطلق عليه لاتينيا اسم « الاورجانون » يستند أساساً إلى خصائص اللغة ولذلك فإن منهج المعرفة الاسلامى لا يمكن أن يستند إلى خصائص لغة غير اللغة العربية ، ذلك لأن لكل لغة منهجها القائم على معانيها ومضامينها ، وقد هاجم المسلمون المنهج الأرسطى ، وكشفوا عن أنه قائم على خصائص اللغة اليونانية ، التى تخالف اللغة العربية ، ولذلك فهم لا يقبلون به .

كذلك الأمر بالنسبة إلى المنهج الغربى الوافد ، ذلك أن الفكر الاسلامى لا يستطيع أن ينطلق إلا من خلال منهج البحث الخاص به المستمد من اللغة العربية أولا .

كما أعلن عن أن كل نظرية أو مذهب قامت أو قام فى مجتمع ما ، إنما أقامها أهلها على مقياس مجتمعهم ، وفى ظل تحدياته الواقعية والتاريخية معا . فهى ليست سوى إستجابة ظرف وبيئة ، وكذلك فهى سرعان ما تتحول مع مرور الزمن إلى أداة عاجزة عن تحقيق الهدف فيضاف إليها ويحذف منها ، ولذلك فإن نقلها فى حد ذاته إلى بيئات أخرى لا يحقق نتيجة ما ، لأنها كالبذر الغريب لا ينبت فى غير تربته ، ولقد كان المفكرون المسلمون على يقظة تامة إزاء هذا الملحظ الدقيق .

ولقد كان لطرح المذهبين الديمقراطى والماركسى فى أفق الفكر الاسلامى . أبعد الأثر فى الاضطرابات التى أصابت المجتمع الاسلامى خلال القرن الماضى . فقد اقتسم المذهبان مؤامرة الهدم .

فاحتضنت الماركسية هدم الدين والعقائد والتشكيك فى القيم الانسانية والنفسية والمعنوية .

واحتضنت الديمقراطية هدم الأخلاق ونشر الاباحية والتحلل وتوجيه السلوك توجيهاً يعلى شأن الغريزة وانطلاق العاطفه والشهوات والأهواء .

وقد تبين أن جميع أنظمة الغرب : لليهودية العالمية أصبع فى وضعها أو فى إحتوائها أو تعديلها وتفسيرها ونشرها ، وقدخضعت أما لمصلحة أصحاب رءوس الاموال ، وأما لمصلحة طائفة أخرى من أهل النفوذ والسلطان ، والنظام اليهودى قائم على تبادل المنفعة ، والقانون عندهم هو الذى يتمشى مع القانون ولا تعاقب عليه المحاكم ، أما النظام الاسلامى فهو قائم على مبدأ « الايثار المتقابل » .

وقد تبين للفكر الاسلامى أن المذهبين الفردى والماركسى يتقاربان فى عديد من وجهات النظر . بل أنهما يقومان فعلا على مفهوم التفسير المادى للتاريخ ، الذى أوشك أن يكون أساسا للرأسمالية والماركسية معا وأن كان الغرب لا يعتمدها وحدها فى تفسير الوقائع ويضيف إليها التحليل النفسى الفرويدى (أى ماركس وفرويد معاً)

وقد ظهرت نزعات العنصرية تحت اسم القوميات ، كمقدمة لظهور العنصرية اليهودية ، وكانت اليهودية العالمية تحمل لواء الرأسمالية والاشتراكية معا ، وهى التى خلقت الصراعات والمعارك بين الأمم تحت هذا اللواء أو ذاك ، وهى التى حملت النظرية المادية فى الغرب والنظرية الاشراقية فى الشرق ، ومن وراء الهيبز والبوذيين فى نفس الوقت ، ودعوات العلمانية والثيوصوفية جميعا .

وهى التى قامت من وراء الروحية الحديثة التى تدعو إلى ظهور آلة جديد اسمه « سلفريرش » ومن وراء العقلانية التى تنكر كل ما وراء الحس ، وهى التى دعت إلى أن الجنس عملية بيولوجية لا علاقة لها بواقع الحياة ، فى محاولة لهدم الأسرة والأخلاق ، أو القول بأنه لا علاقة بين اللباس والأخلاق ، أو أن المجرم مريض ، وليس مذنبا ، أو السخرية بعفاف المرأة والبكارة فى محاولة لدفع البشرية كلها إلى الوثنية والاباحية .

وهكذا يطغى الفكر البشرى فى هذا العصر مكتسحا مفاهيم الخلق والدين

والرحمة والكرامة الانسانية ولم تعد هناك قوة قادرة على مواجهته وصد موجته غير الاسلام : دين الله الحق الباقى ، على حمل رسالة التوحيد الخالص إلى العالمين .

ولقد حاولت قوى التغريب والغزو الفكرى إثارة الشبهات حول الفكر الاسلامى وانتقاصه بدعاوى عدة : منها .. أولا : وصف الفكر الاسلامى بالذرية « أى بالتجزئة والانفصال » .

وهذا خطأ محض ، ذلك لأن الاسلام إنما يقوم أساسا على التكامل وعلى التقاء العناصر المختلفة فى كل موحد وهو فى هذا يختلف عن الفكر الغربى القائم على على الانشطارية أساسا وعلى الفصل بين الدين والدولة ، بين الدنيا والآخرة ، والذى يعلى من شأن المادية .

وقد استمد شبهة الذرية من إنتاج مرحلة الضعف والتخلف ، حين علت نزعة جبرية الصوفية ومن قبلها علت نزعة عقلانية الاعتزال ، وكلاهما لا يمثل الاسلام، ويحكم الاسلام بأحدهما وإنما يحاكم بمفهومه الاصيل فى عصر قوته وهو المفهوم الجامع الذى يقوم على أساس ترابط القيم والعناصر ، وربما ارتبطت صفة الذرية بالعقل حين يعجز عن النظرة الكلية ، التى تلتمس الابعاد الكاملة ولكنها فى الواقع تتعارض مع مفهوم الفكر الاسلامى المستمد من جوهر الاسلام والقائم على التكامل والوسطية .

ثانيا : القول بأن الفكر الاسلامى فكر تجريدى ..

وهذا خطأ محض ، وأمامنا ثمرات الفقه والتشريع والعلوم كلها تكذب هذه النظرية فان الأصول كلها ترينا واقعية الفكر الاسلامى ، كيف أنه يتناول كل حادث يقع فى حينه ، ثم تناوله بالبحث ويضع له الحلول ، بل أن الفكر الاسلامى أكثر إيغالا فى الواقعية من الفكر الغربى حيث يتناول الفقه مفردات الحياة اليومية ولا يقتصر على مسائل العبادات كما هو فى بعض الأديان .

ثالثا : وصفه بالضعف وأنه مثل التولستويه أو الغانديه ذات طابع الاستسلام ولا ريب أن الاسلام بعيد عن طابع هذه الدعوة التى تقوم على القضاء على مفهوم الجهاد الاسلامى على القوة والرحمة معا ، كل فى موضعه ، ودعاة هذا المذهب

يحاولون تصور الاسلام معهم , أو هم يريدونه هكذا ، وهم بذلك ينكرون جانباً هاما من جوانبه فالاسلام يقوم على السلام والتسامح فى نفس الوقت الذى يقوم فيه على المقاومة والقوة إذا انتهكت أرضه أو قيمه .

رابعاً : خطأ القول بديمقراطية الاسلام أو اشتراكية الاسلام . فالاسلام ليس منهجا خاضعاً للايدلوجيات البشرية وليس مبرراً لأوضاع المجتمعات العالمية المنحرفة الفاسدة ، وقد تلتقى بعض الخيوط هنا وهناك مع العدل الاجتماعى الاسلامى أو الشورى الاسلامية ، ولكن يبقى الإسلام منهجه الكامل الجامع الربانى المصدر ، الانسانى الوجهة . الذى يستطيع أن يعايش الأمم والحضارات والعصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . دون أن يعتوره نقص أو يحتاج إلى إضافة .

وبعد . فيجب أن يكون موقفنا من الفكر الغربى « والفكر البشرى بعامة» حاسما فاصلا ، وقد آن الأوان أن تبدأ رحلة المواجهة الفاصلة حتى يعرف كل دارس للفكر الغربى مدى صلته بالفكر الاسلامى أو بعده عنه ومدى سلامته أو عجزه ، ومدى صلاحيته أو فساده،ونعجب أن نقرأ فى بعض المجلات العربية الإسلامية دفاعا عن الفكر البشرى الوثنى المادى .

ولقد بدأ مع مشرق القرن الخامس عشر « عصر المواجهة » أو عصر الرشد الفكرى ، وأمامنا قول الرسول ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين » .

ولا ريب أن الغرب يخاف نهضة العالم الإسلامى من خلال الإسلام ، ذلك أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع ومدنية كاملة .

ولما كان الفكر الاسلامى الأصيل « فكر أهل السنة والجماعة » لم يستسلم طوال أربعة عشر قرنا أمام الفكر الوافد الغريب فإنه لم يستسلم فى هذا العصر وقد أعلن وجهة نظرة واضحة فى مختلف القضايا . وكشف زيف الدعوات الهدامة والإيدلوجيات الوافدة ، وقد ظل دوما وجيلا بعد جيل يواجه هذه النظريات

ويدلى برأيه فيها ، لا يتوقف عن المعارضة ولا يتقبل كل شيء كما هو بل يرفض قبول كل مالا يتفق مع أسسه وأصوله مع سماحته المعهودة فى القبول والرفض .

ويقول سنوك هروجنيه : لا أعتقد أن الاسلام يسقط أمام النصرانية لأن المسلم يحتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الأجنبي فهو يرى أن النصرانية شيء مضى ويرى تدينه بها خطوة إلى الوراء .

ويقول ولفرد كانتول سميث : ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم . أن الغربى لا يفهم الاسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه « أسلوب حياة » تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطنا وليس مجرد أفكار وعقائد يناقشها بتفكيره .

ويقول بارتلمى سان هيلر : أن الاسلام قد أحدث رقيا عظيما جداً فقد أطلق العقل الانسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة وأن تحريم الاسلام للصور فى المساجد قد خلص الفكر الاسلامى من وثنية القرون الأولى واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن خالقه » .

وهكذا شهد علماء الغرب بأصالة الاسلام وفساد الفكر البشرى ولكن القوى التى تستهدف السيطرة على العالم بعد تدميره أخلاقيا هى التى تعمل على طرح الفلسفات والوثنيات والمذاهب الهدامه والمادية فى الفكر الاسلامى باعتبار الاسلام هو العقبة الوحيدة والصخرة الكبرى أمام تلك المؤامرة الخطيرة . وهذا كله اجمال له تفصيل .

(١١)

الفلسفة الغربية

١ ــ الفلسفة اليونانية

٢ ــ الفلسفة المادية

٣ ــ طريق الفلسفة والقرآن

٤ ــ طريق الفلسفة الغربية لا يؤدى

٥ ــ هل استطاعت الفلسفة

(١)

الفلسفه اليونانية

أولا فساد الادعاء بأن الفكر الإسلامى خضع للفكر اليونانى .

ثانيا: مؤامرة نقل الفلسفة اليونانية إلى الفكر الإسلامى العصر الحديث .

دعويان طرحهما التغريب والغزو الثقافى لتزييف أصالة الفكر الإسلامى ، القرآنى المصدر .

أما أولاهما : أن الفلسفه اليونانية هى مصدر الفلسفة العربية . وأما الثانية : فهى القول بأن المسلمين أخذوا الفلسفه اليونانية وبنوا عليها مفاهيمهم ومصطلحاتهم فى الفقه والنحو والبلاغة .

وقد ارتفعت الصيحة بأن أرسطو هو شيخ الفكر الإسلامى ، وأن المسلمين اعتبروه كذلك وأن الازهر قد اعترف له بهذه المنزله ، وبذلك دعا لطفى السيد وطه حسين وغيرهما ، أن أساس النهضة الحديثه فى العالم الإسلامى هى إحياء الفلسفة اليونانية كمصدر لها ، ومتى كانت الأمة الاسلامية قد أخذت هذه الفلسفة اليونانية أساساً لفكرها فى الماضى ، ولما كانت ثمرة الفلسفة اليونانية : الفلسفة الغربية الحديثة ، فان على المسلمين أن يأخذوا فى العصر الحديث هذه الفلسفة الغربية بالتبعية .

متى كان أساسياً ؟ :

ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة ومضللة . فان الفلسفة اليونانية ما كانت يوماً أساساً للفكر الاسلامى ، وأن الفلسفة الغربية المعاصرة لن تكون أساساً للفكر الأسلامى الحديث ، الذى تحرر من مدرسة التغريب التى كانت تعلى من شان آراء المعتزلة وتراها مصدر النهضة ، لأن الاعتزال فى مصدره كان يونانيا بينما كانت المدرسة الأصيلة التى ظهرت بالوعامة الحقة فى العصر الاول ، وهى التى ستنتصر فى معركة هذا العصر إن شاء الله ، « المدرسة القرآنية » وحدها ، التى تستمد نهجها

ومصادرها من المنابع الاولى وحدها : القرآن والسنة . وليست فى حاجة إلا إلى جهد وجهاد ، ويومئذ ينصرها الله .

ومن يراجع تاريخ دراسة الفلسفة فى العصر الحديث، يجد أن الجامعة المصرية القديمة بدأت بدراسات الكونت دى جلازرا الذى فاجأتلاميذه العرب والمسلمين منذ اليوم الاول بأنه لا توجد فلسفة عربية ، وإنما هذه الفلسفة المنسوبة إلى (الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد) : هى فلسفة يونانيه مكتوبة باللغة العربيه .

وكان أرنست رينان قد ردد هذا فى كتبه على نحو يراد به إنكار فضل الاسلام فى ميدان الدراسات العقليه ، ونسارع فنقول أن الشيخ مصطفى عبد الرازق - شيخ الازهر الاسبق — ما لبث حين تولى تدريس الفلسفه فى الجامعه المصريه أن أعلن : أن الفلسفه الاسلاميه تبدأ بالامام لشافعى . فى كتابه (أصول علم الفقه) . وأن الامام الشافعى هو أول الفلاسفه فى الاسلام . وأن مقامه فى العربيه بمثابه مقام أرسطو فى الفلسفه اليونانية . وأن أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد . هؤلاء هم المشاؤون المترجمون للفلسفه اليونانيه إلى اللغه العربيه فحسب .

ولقد جاء ذلك بعد أن استشرت دعوى لطفى السيد . الذى ترجم باسمه كتاب علم الاخلاق لارسطو (ترجمه بارتلمى سانتهلير) وعلم السياسه . وجاء طه حسين فأدخل اللغه اليونانية مادة أساسيه فى كليه الآداب بغير ضرورة ملحة لذلك . وتعالت صيحه الفكر اليونانى فى مصر : وترجمت مؤلفات وكتب ومسرحيات وأساطير كثيرة بقصد غزو هذا الفكر الوثنى من جديد الفكر الوثنى من جديد للفكر الإسمى المعاصر . وقد تحرج المسلمون فى الصدر الاول من ترجمته . واعتبروه ثقافة خاصه لليونان . وعرفوا أنه مستمد من علم الاصنام عند اليونان .

ولكن مدرسة التغريب كانت حريصه على إغراق المسلمين فى هذا الاتون . فى نفس الوقت الذى أطرحت النهضه العلميه الاوربية منذ القرن الخامس عشر

فلسفه أرسطو ومنهجه اليونانى فى مقابل الاخذ بالمنهج التجريبى الاسلامى الذى أنشأ الحضارة الغربية المعاصرة .

ولقد هاجم فلاسفة الغرب فلسفه أرسطو بنفس العبارات والنصوص التى عارض به منهجه أئمه المسلمين فى القرن الرابع الهجرى حين أعلنوا : أن الفلسفة اليونانيه تمثل (أرجانون) خاص للعبودية اليونانيه والوثنيه الاغريقيه وأن هذا (الارجانون) مخالف لمنهج الحضارة الاسلاميه القائم على التوحيد الخالص وعلى الاخاء البشرى: فقد حرر الانسان من العبودية التى عرفتها حضارات الرومان واليونان والفراعنه والفرس . « جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد » — النعمان بن مقرن . فاتح نهاوند وشهيد معركتها — وفى نفس الوقت الذى أخذ الغرب فيه المنهج التجريبى الاسلامى لبناء حضارته . فانه أراد عن طريق حركة التغريب الغازيه أن يربطنا بمنهج أرسطو الذى لفظته حضارة الغرب . حتى ندور فى هذه الدائرة المظلمه .

تبرير التبرير :

وقد حاول التغريبيون تحسين هذه المؤامرة لنا ، حيث نجد « أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد يقول فى مقدمة كتابه المترجم عن أرسطو : هى « مع أن نقل كتب الفلسفه لم يكن مقصوراً على كتب أرسطو ، فان فلسفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها ، والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئاً آخر غير فلسفة أرسطو طاليس بالطابع العربى ، وسميت الفلسفة العربية ، وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة إلى حد أن الجامعات الاوربية فى العصور الاخيرة من القرون الوسطى ، كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين ، أى فلسفة أرسطو » .

وقد علق الدكتور يعقوب صروف فى المقتطف (يناير ١٩٢٥) ، على هذا المعنى فقال : أن ماقاله الأستاذ — « يعنى . لطفى السيد » — يؤيده الكتاب الاوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية ، واستشهد بما يقوله الاسكيس وليم رتس أن مايعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة ، فهو فكر يونانى منظم ، عبر عنه بلغة سامية ، وحور بالمؤثرات الشرقية ، وأدخل بين أهل

الاسلام بمؤازرة الواسعى الصدر من خلفائهم ، وبقى حيا بغيرة جماعة من المفكرين ـ الذين لم يخشوا من المجاهرة بآرائهم ـ على أن أمتهم أساءت به الظن واضطرتهم لهجره .

ثم ذكر لطفى السيد مايراه سبباً فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين إلى فلسفة أرسطو ، فقال « وكما أن النهضة الاوربية الحديثة عمدت إلى درس فلسفة أرسطو عن نصوصها الأصلية، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة ، فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو ـ لا سيما أنها أشد المذاهب ائتلافا مع طبعنا ، والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها ـ رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .

وقال أن فلسفة المعلم الأول خالدة، ماحدها وطن ولا أخنى عليها زمن ، فقد بنت عليها كل مدنية صروح مجدها العلمى حتى مدنيتنا الجديدة » .

هذا هو الاتجاه عام ١٩٢٥ ، فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الأهلية إلى جامعة رسمية ، وجىء بلطفى السيد الذى وصفه تلاميذه واتباعه ، بأنه أستاذ الجيل ، رئيسا للجامعة ، وجاء طه حسين وغيره يدعون إلى الإيمان بفكر ووثنية اليونان وأرسطو .

فهل كان حقا « لطفى السيد » أستاذ الجيل ، صادقا فيما قال ؟ ؟ وفيما دعا إليه العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقا إلى النهضة الجديدة ؟ ! وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعده ، دعوة ملحة إلى هذا الطريق ؟ أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة .

هل كان حقا أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضة وما بعدها ، أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه واعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قرونا ، حتى جاء منهج التجريب الاسلامى ، الذى أطلق الطاقات إلى عصر العلم الحديث .

ندع هذا الباحثين : لقد كان انبعاث مناهج علماء المسلمين انطلاقا من

القرآن ، وهم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى ، الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم ، بشهادة : درابر وبريفولت ، وجوستاف لوبون فى العصر القديم ، وسارتون وهونكه وغيرهم ، فى العصر الحديث ، وآخر كتاب فى هـــذا الشأن عنوانه : « شمس الله تشرق على الغرب » وكتاب « أوربا ولدت فى آسيا » .

إذن فلم يكن أستاذ الجيل — لطفى السيد — صادقا، ولم يكن عميد الأدب « طه حسين » أمينا حين نقلا إلينا الينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ، ثم جاء الغربيون فنقدوه ورفضوه ، والتمسوا منهج المسلمين الذى رفعهم إلى ذروة التكنولوجيا الآن .

الاستشراق المستعمر أو الاستعمار المستشرق

إذن فلماذا هذا التعارض ؟ يسأل عن هذا « الاستشراق » والاستعمار ، ذلك بأنهم ، على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « نقلوا المسلمين إلى أرسطو ، ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين « جابر وابن الهيثم والبيرونى » ، ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المظلمة « قوقعة المنطق الصورى » ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب ، الذى سموه بلغتهم « براجماتيزم » والذى أنشأوه هم زعماء الغرب . وهكذا نجد أن هذا المنطق على يد طه حسين ، وجماعة من أتباعه « يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم » ولما كان الفكر الحديث هو ثمرة فكر اليونان فان تبعية المسلمين له لاتعد شيئا جديدا ولا غريبا ، لأنهم كانوا تابعين لليونان ، فلا عجب أن يتبعوا ما جدده أحفاد اليونان ، لم يكن أستاذ الجيل صادقا اذن ، ولم يعتنقوا فكر اليونان ، وانما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن ، ولقد تصدى لهم كثيرون ، من أبرزهم الغزالى وابن تيمية .

وإذا كان الخلاف ما زال واسعاً حول ما كتبه الفارابى وابن سينا « وهل هو فلسفة إسلامية ، أو متابعة المشائين اليونان من المشائين المسلمين ، فان رجلا كريما قد ولى قسم الفلسفة فى كلية الآداب ، هو الامام الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

شيخ الازهر الاسبق — قد فصل فى هذا الامر على نحو صحيح ، ومن خلال دراساته فى الجامعة نفسها ، وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الآداب حين ذاك ، فإن الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق، أعلن فى حسم هذه القاعدة التى غيرت منهج البحث كله حين قال : « إن الفلسفة الإسلامية إنما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء ، وإن الإمام الشافعى واضع أصول علم الفقـــه ، هو أول الفلاسفة فى الإسلام ، وأن مقامه فى العربية هو بمثابة أرسطو فى اليونانية .

مدرسة الاصـالة :

وبذلك نشأت « مدرسة الاصالة » ، فى مجال الفلسفة وامتدت من بعدو اتسعت وكان من اتباعها الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة وعلى سامى النشار ومنذ ذلك الوقت صدر كتاب « تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية » عام ١٩٤٧ وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذلك بوقت طويل .

وقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الاصالة فيها وهو ما يزال عسيراً أن يحدث مثله فى مجال الادب والنقد الادبى فان التبعية لمذاهب النقد الغربى الوافد ما زالت قوية .

ولقد أثبتت مدرسة الاصالة « فى الفلسفة الاسلامية ـــ عبد الرازق أبو ريدة ـــ النشار » ـــ إن المنطق الارسطاطاليسى ـ منهج الحضارة والفكر اليونانى ـ لم يقبل فى المدارس العقلية الغربية وأن المنهج التجريبى الاسلامى هو الذى عرفته أوربا ـ بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة ـ لمباينته للحضارة اليونانية وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين ، يفسر « روح الحضارة الاسلامية » ، فالحضارة الاسلامية حضارة عملية تجريبية ، تتجه إلى تحقيق الفعل الانسانى فى ضوء نظريه حية ملموسه كذلك .

وقد كشفت الابحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها الفارابى ـــ وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ـــ « إن الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والاغريق ، لم يكن صحيح الاصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم، وكانت تهدف إلى خدمة

المفاهيم الدينيه المسيحيه ، ومن هنا كان فسادها وعجزها عن أن تعطى الفكر الاسلامى شيئاً .

ومن ناحيه أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية — ومذهب أرسطو بالذات — قد بدأت منذ أن تمت الترجمة ، وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الاول ذلك أن الفكر الاصلامى كان قد تم تشكيله قبل الترجمة ، على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والاخلاق ومن الربط بين الوحى والعقل . ولذلك فإنه كان من العسير أن ينصهر فيها .خاصة وهى فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية وإعلاء العقل وعبادة الجسد فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف النصوص .وإن كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليها إسم المشائين المسلمين قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة لادخال الفلسفه اليونانية فى إطار الاسلام ولكن المحاولة فشلت تماما .

تهافت الفلاسفة :

وكانت وقفة الامام الغزالى فى وجه الفلسفة الالهية اليونانية وقفة صارمة ردت السهم إلى صدور أصحابه فقد كشف الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية وبين الفلسفة الالهية ورفض الاخيرة لانها متعارضة مع التوحيد وأعلن أن الكلام فى الطبيعيات برهانى أما فى الالهيات فهو تخمينى . وفى الفلسفه الالهية عارض الغزالى القضايا الكبرى الثلاث التى تقرها الفلسفة اليونانية . وتختلف مع مفاهيم الاسلام .

ما يقولون به من قدم العالم وأن الله (جل وعلا) لا يحيط علما بالجزئيات وإنكارهم البعث . وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم قديم كالدهرية والزنادقة والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود . ومن أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الامام الغزالى بالنسبة للفارابى وابن سينا وجهة نظر أخرى حين عرفت روابطهم بالدعوات الباطنية الهدامة وإخوان الصفا وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الاسلامية من قرامطة ومزدكية وغيرهم وفى كتبهم نصوص توحى بهذه الصلة .

آراء ابن تيمية :

ثم جاء الامام ابن تيمية فاستحالت غربا فقد كشف كتابه : « الرد على

المنطقيين ، عن أن للفكر الاسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة وقد استخرج منهما قواعد هذا المنطق الجديد الذى أسماه : (المنطق الإسلامى) وقال أن هذا المنطق فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الاشياء وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى — المنطق الصورى — ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما . ومما قاله : إن ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلاسفة من الدلائل العقليه فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه ، منزها من الاغاليط الموجودة عند هؤلاء . ويقول الدكتور النشار :

كان ابن تيمية رائدا لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو ، من أرجانون فرنسيس بيكون الى الفلسفة الوضعية . وقد عنى بنقد فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد ، وكل من وافقهم على التشيع لمنطق أرسطو ، وأشار الى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عندهما الفارابى وابن سينا ، بين الاسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل .

ومما عرف فى هذا المجال — وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن إبراهيم الوزير الحسنى اليمنى الصنعانى المتوفى ٨٤٠ هـ

هل أثرت الفلسفة فى الفقهاء :

وبعد فقد كان لابد لمدرسة الأصالة أن تواجه المدرسة التى ما تزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية والتى تبلورت بعد فى مدرسة طه حسين وبيومى مدكور حيث يقول مدكور ، إن أرجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس : كلامية وفقهية وعلمية وفلسفيه بينما يقول الدكتور النشار : أن المنطق الارسططاليسى فقد نقل إلى العالم الاسلامى وأثر فقط فى المدرسة المشائية الاسلامية وبقيت المدارس الاخرى المنبثقة عن النظام الاسلامى بعيدة كل البعد عنه تحاربه وتجاهده وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تمام الاختلاف فى روحه وجزئياته .

إن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الإسلامى فى القرن الخامس فاختلط بما يسمى علوم اليونان ولكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء الآخرين ،

ولم يوافق متكلمى الأشاعرة من ناحية ، ومتكلمى السلف من ناحية أخرى ، على استخدام هذا المنطق لحاربوه أشد الحرب .

ويقول الدكتور النشار : أن محاولة الفارابى كانت غريبة عن روح الإسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وأن فلسفة الإسلام إنما تنبثق من الإسلام نفسه: عن القرآن وعن السنه ، لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق ، وأن فلاسفة الإسلام المشائين قد ابتعدوا عن الإسلام روحا ونصا . وعن المجتمع الإسلامى فكراً وعقيدة وحياة،وأن الفلسفةالمشائيةماتت فى العالم الإسلامى منذعهد بعيد .

ويقول الدكتور النشار : أن مدكور يرى فلسفة اليونان غاية الغايات وأن إليها يعود كل فكر، ويرى أن فكرنا الإسلامى المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوربا وحضارتها ، تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها مدرسة طه حسين، على مسرح تفكيرنا ، والتى تقول أنه ما دام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان ، وبما أن فلسفة أوربا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة ، فعلينا ان نأخذ من هذه المدرسة الأوربية كل شىء ، أ . هـ

(٢)

الفلسفة المادية

انتقل « العلم التجريبي » من العالم الاسلامى إلى أوربا فكانت به نهضتها ؛ فلما نهض الأوربيون صدروا إلى المسلمين « الفلسفة المادية » : دارون، وبجنر ، ونيتشه وفرويد ، وأوجست كونت ، ومندل ، دور كايم ، بكل مايحمل فكر هؤلاء من سموم ، قدموها إلينا على أنها علم وفلسفة ، وليس على أنها نظريات وفرضيات تناقش وتدرس .

إن أوربا أخذت المنهج العلمى الاسلامى ، فهو الذى أطلق العقل الغربى من قيوده التى كبلتها الوثنية والرهبانية ، فاندفعت تنشىء الحضارة الحديثة ، غير أنها صاغت ذلك فى أطار الفلسفة اليونانية ، فانحرفت من اللاهوت النصرانى إلى الفلسفة المثالية إلى الفلسفة المادية التى يعيشها الغرب اليوم

وقام الصراع أول الأمر بين مفاهيم الدين الغربى التى عارضت معطيات العلم ومنجزاته ، ثم استعلى العلم وقطع علاقته بالدين كله ، وانتهت معركة الصراع بين العلم والدين ، بانتصار « الفلسفة » التى كان قادتها من اليهود ، والتى تلقفت هذا الصراع فنحت الدين كله عن مجال الحياة ، ودفعت العلم إلى طريق محفوف بالمخاطر وقد سقطت عنه كل الضوابط والمقومات التى تجعله فى مأمن من الخطر بما يحقق للانسانية غاية كريمة

فى هذه المرحلة ونتيجة للبوارق الأولى التى لمعت فى أفق العلم ظهرت (النظرية المادية) ، التى حاولت أن ترد أصول الأشياء كلها إلى المادة ، والتى أنكرت ماسوى المحسوس كله من غيب ودين ووحى ، وأنكرت وجود الخالق - جل وعلا - واستعلت استعلاء كبيرا حين أعلنت أن « الطبيعة » تصنع نفسها ، وأنها موجودة وجودا ذاتيا وباقيا لانهاية له وأن « الكون صدفة » .

وهى التى أعلنت « نظرية الحتميه » وأذاعت بأن العلم يستطيع أن يفسر كل الأمور ويجيب على كل الأسئلة ، وأنه حين يسيطر يستطيع أن يقيم للبشرية نظاما اجتماعيا خاليا من العقبات وأن يحل مشاكل البشرية كلها .

سقوط الدعاوى الباطلة : وقد سقطت من بعد كل هذه الدعاوى الباطلة، وعاد العلم يعترف بأنها كانت فروضا ، ولقد كان « للفلسفة » دورها الخطير فى دفع عجلة « المادية » إلى غايتها فى إفساد المجتمعات ، وفى تدمير الحضارة .

فقد اتخذت فروض العلم الأولى أساساً لاقامة أيديولوجيات فكريه .وكانت تلك الفروض بمثابة « المسلمات » فقد تحدثت عن قداسة العقل وجلال العلم ، مما زاد التفرقه بين العنصرين المتكاملين ، وعمقت الهوة بين الروح والمادة ، والجسم والنفس ، وبين العلم والدين ، وبين الدنيا والآخرة ، حين طمست مفهوم الإيمان بالله وأخلاقية الحياة .

ولقد كانت كل محاذير العلم وأزمته ـ التى هى أزمة الحضارة البشرية والإنسان المعاصر ــ كلها مركزة فى تجاهل العلم للمصدر الأول والأوحد للكون والعالم والإنسان والعلم جميعا وهو الحق تبارك وتعالى خالق كل شىء وكان خطؤها الأكبر فى رد كل ظواهر الحياة إلى ما أطلق عليه : المادة أو الطبيعة ، كما أنه دفع العلم إلى مجال السيطرة المادية فى عنف وقسوة بالشعوب الضعيفة دون تقدير للأخاء الإنسانى أو الاخلاقيات التى تقضى بالرحمة والعدل والسماحة، وهو الاطار الذى دعت الأديان العلم إلى التحرك فى داخله .

غزو الفكر المسموم : ثم جاءت مرحلة النفوذ الأجنبى والغزو الثقافى التى عمدت إلى نقل نظريات « الفلسفة المادية » إلى عالم الاسلام ــ دون حقائق العلم التجريبى نفسه ــ التى حجبت عن الشعوب المتخلفة فى محاولة لإثارة الشبهات فى النفوس وخلق أجواء من الشك والارتياب وإنشاء مفاهيم فلسفية معارضة لمفاهيم الدين الحق تقوم على المادية الخالصة ، بالاضافة إلى المحاولات الأخرى التى جرت لبعث مفاهيم الوثنية والفكر البشرى القديم .

ومن ثم ظهرت تلك الدعوى التى حمل لواءها شبلى شميل وأصحاب المقتطف وأعوان الاستعمار وتلاميذهم : يعقوب صروف وسلامه موسى وفرح انطون ، وجماعة الماديين من بعدهم والتى حاولت أن تنقل إلى أفق العالم الاسلامى مفاهيم التطور والمادية والتحليل النفسى، مما دعا إليه دارون والتى قدمها فى أسوأ تفسيراتها عن ترجمة للمادى العريق « بخنر » وفى أشد تحولاتها التى قام بها سبنسر هيجل ،

وغيرهما من زعماء المادية فى محاولتهم التى جرت إلى خلق منهج اجتماعى عام أساسه المفهوم المادى الذى أنشأة دارون .

الاسلام يرفض دارون والجامعات تمامه : وقـــد رفضت حركة اليقظة الاسلاميه هذا المفهوم وكشفت عن زيفه وفساده . ولكن مناهج التعليم والدراسات والجامعات فى العالم العربى والاسلامى حتى اليوم ما تزال تقدم مفهوم دارون المادى فى بدء الخلق وهو مفهوم مخالف للفطرة والعقل والدين والحق .

كما تقدم نظريات فرويد ودور كايم على أنها علوم لا على أنها فروض علميه قابلة للنقض وقد أنشأ ذلك اضطرابا وصراعاً فى نفوس الشباب المسلم وعقولهم وأوجد ازدواجا خطيرا بين مفهوم الدين الحق وبين مفهوم الفكر المادى .

وهكذا شاعت مفاهيم الفلسفة المادية فى أفق الاسلام على نحو كثير الاضطراب .

فساد نظرية دارون : تفترض نظرية التطور وصاحبها دارون أن جميع الكائنات الحية التى كانت تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول ترجع فى جملتها إلى الخلية الواحدة وأن التغيرات المختلفة التى حدثت لها جملتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى كائنات أخرى أكثر تعقيداً والانسان هو آخر تطور فى هذا التسلسل وقد تبين فســاد هذه الفرضية من عدة وجوه :

أولا : عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الاحياء الأرضيه منذ ألوف عديدة من السنين ، وقد أعلن العلامة « والاس » ، أنه من المستحيل أن يكون الانسان قد تم تكوينه على طريقة التطور والارتقاء حيث أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الانسان .

وقال فرخو : أنه تبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيداً، فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان من سلالة قرد أو غيره .

وقال أجاسير : أن النشوء لا يتم إلا وفقا لخطة الهية حكيمة، والاصطفاء الطبيعى إذا ما حل محل الخلق الالهى فإن الانسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء وأن التفسير الحرفى لنظرية داروين يفسح المجال لتأليه« سوبرمان نيتشه » وتمجيد

القوى البدنية على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس ، وأن الفكرة التى يعتنقها الداروينيون عن تناسل نوع جديدة بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضا اعتباطيا يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة(١) .

ثانيا : كشف العلم التجريبى فساد نظرية داروين وأعلن أنها أسطورة قد أنهارت، فإن الكشوف العلمية الجديدة قد أثبتت أن الانسان خلق جنسا مستقلا ، وأنه لم ينحدر من فصيلة القرد، وأن أجناس الخلق كلها مستقلة منفصلة ،يقول. حال بنفو رئيس المجمع العلمى الفرنسى: وقد وقف هذا العالم نصف قرن تقريبا على دراسة أصل الانسان ، واستطاع أن يؤكد أخيرا أن الانسان ليست له علاقة تجانس بالقرد ، وقد ثبت بالأدلة أن النظرية القائلة بوجود جذع مشترك يتشعب منه كل من الجنس البشرى وجنس القردة الكبيرة لم تزل مفتقرة إلى البرهان الحاسم . وأن هذه المشابهات بين القرد والانسان غير كافية للجزم بوجود أصل واحد للانسان والقرد ، وليس من المعقول أن الانسان الحاضر الذى : ربما يكون قد انحط من منزله فى غضون ملايين السنين القادمة، ليترك المجال لحيوان من الحيوانات يترقى ليحل محله ويسيطر عن الكون . وهذا الافتراض مرفوض لأن الانسان لم يظهر على الأرض بمجرد صدفة ، بل إنما جعله الله تعالى خليفة فى الكون ، ولذلك ظهر مركبا فى أكمل تقويم ، بعد أن خلق الله للسموات والأرض(٢) .

ثالثاً : اتخذت القوى التلمودية فكرة التطور منطلقا الى الالحاد ، ووسيلة للقضاء على الأديان وجعلها البعض سندا فى إنكار العقيدة الدينية واتخذت مصدرا لفلسفة نفى الخالق — جل شأنه — وأعطاء المادة صفة القادر على كل شىء .

ومن ثم جاءت دعواهم إلى تأليه الطبيعة ، ومن ذلك قولهم بالتطور المطلق، الذى ينسحب على الأديان والقوانين وذاتية الأمم ، باعتبار أن كل شىء بدأ ناقصا شأنها يثير السخرية والاحتقار لم تطور ، فلا قداسة فى نظرهم لدين ولا لوطنية ولا لقانون .

وقد تركت النظرية أثار الصراع من أجل البقاء فى أوساط السياسة والحرب وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره فى مخططات الاستعمار التى دعت إلى أبادة الأجناس

المغلوبة على أمرها وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصرى والشعوب المختارة كما صيغت نظرية نيتشه ومن ذهب مذهبه ، وبها انتفع دعاة الارستقراطية وتلقفها معلنو الحرب على الأديان ، فأخذوا يضربون بها فى جدران الدين وأعلاء العلم .

رابعاً : كشفت حركة اليقظة الاسلامية أن نظرية التطور البشرى ليست إلا استنتاجا، وستظل كذلك حتى توجد العظام الحقيقة التى تثبت دعواها، ولم يستطع اتباع دارون أن يحولوا فروضهم إلى حقائق حتى جاءت الكشوف بعظام الانسان الأول من قبل أكثر من ثلاثة ملايين سنة لتسفه رأيهم كما كشفت حركة اليقظة الاسلامية أن التطور قانون اجتماعى وليس قانونا أخلاقيا ، وأنه يتحرك فى دائرة الثوابت ولكنه لايقتضى مطلقا تفضيل الطور الاخير على الطور السابق فليس كل طور أفضل من الطور الذى سبقه لان التطور فى الحياة قد يكون ارتقاء وقد يكون ترديا وانتكاسا .

الدعوة إلى القوة والبطش بالضعفاء : كما طرحت الفلسفة الماديه فى أفق الفكر الاسلامى سموما كثيرة :

أولا : كانت دعوة نيتشة إلى أبادة الضعفاء دعوة ظالمة ومضلله فى الوقت الذى دعا إلى قتل العاجز أو تركه يموت دون العمل على شقائه أو أبادة الضعفاء .

وقد لقى نيتشه مصيرا مظلما غاية الظلام نتيجة دعوته التى اعتمدها الاستعمار مبررا لظلمه ، فقد عاش نحو عشرين سنة وهو فى جنون يكاد يكون مطبقا ، إذ كان فى الدور الأخير من السفلس — وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه حتى مات مغمورا — فلم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة ، حتى بعثه اليهود من بعد وقالوا فى البروتوكولات :

« لقد رتبنا نجاح نيتشه كما رتبنا نجاح دارون وغيره » .

ولقد كانت صيحة أوربا فى محاولة انقاص البشرية بالقضاء على الضعفاء محاولة ضالة ، جفت فيها ينابيع السخاء البشرى عندما دعت إلى قتل العاجز أو تركه ليموت .

وكان أقسى تلك الصيحات ، القول بالقضاء على الزنوج السمر والحمر لحساب

شعوب أرقى منهم ، وكان هذا تبريرا كاذبا للاستعمار والاستغلال لأن الأقوياء هم الذين يستعمرون ويقتلون الضعفاء بالوراثة .

. . ونظرية وراثة الخصائص : ثانيا : طرحوا فى أفق الفكر الاسلامى نظرية منـدل ، وقد ثبت أن قواعد مندل فى الوراثة غير محكمة ، وأن مندل لم يكن على علم بالآفاق الجديدة للطاقة التى أوشكت أن تستشرفها البشرية من بعد وأهمها البترول ، الذى كان ظهوره عاملا هاما فى قلب نظرية مندل والاطاحة بها .

كما طرحوا نظرية تنازع البقاء ، وقد تبين فسادها ، وتأكد من بعد أن التعاون فى الطبيعة أكبر أثرا من التنازع .

والنظرية الثلاثية : طرحوا نظرية أوجست كونت فى الدين البشرى الذى يحل محل المسيحية وقد فشلت نظريته من قريب ، وتبين خطؤه فى قانون المراحل الثلاث (البدائى والميتافزيقى والوضعى) ففى طوره البدائى وقف حائرا عاجزا أمام الظواهر الطبيعية وخاصة ظاهرة البرق المصحوب بالرعد وفسرها بأنها أصوات الآلهة عند ما تغضب وتتصارع وقد تبين من بعـد أن أوجست كونت (أستاذ زكى نجيب محمود) كان مصـابا باختلال فى عقله وأنه حاول أن ينتحر غرقا فى نهر السين ولابد أن يكون لاضطراب عقله أثر فى مذهبه الذى وضعه والذى خضع له دعاة الاتحاديين فى تركيا وزعيمهم .

والتحليل النفسى : رابعا : طرحوا نظرية فرويد فى التحليل النفسى القائمة على الجنس ، وقد زيف زملاء فرويد (أدلر ويونج) ، مفهومه فى أن الجنس هو الأساس فى كل الدوافع الإنسانية ، ولكن القوى اليهوديه التى كانت قد عقدت آصرة التفاهم بين هرتزل وفرويد على تدمير العقلية الإنسانية ، هى التى حملت آرائه إلى مجال الدراسات فى مختلف الجامعات — حتى فى العالم الإسلامى — على أنه علم لا مجرد فروض علمية أثبتت التحاليل والتجارب العلمية فسادها وقد أثبت يونج ومكدوجل . أن العقل الباطن ما هو إلا خرافة .

ونوقش فرويد فى مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب (اللذين أخذهما من الأساطير اليونانية) ففرويد لم يقابل فى حياته أكثر من مائة مريض هم الذين وضع على أساس تفكرهم مذهبه . أما الأسوياء وهم الملايين فلم يقابل منهم أحداً .

وقد أنكر فرويد فى آخر حياته معظم أفكاره ، وقد أصيب فى أخريات حياته بالسرطان فى الحلق . وأمضى سنوات مظلمة .

وتسفيه القيم والأخلاق باسم النسبية : خامسا : طرحوا فكر دوركايم اليهودى ، الذى أخذ يعمل بمعاول هدامة فى تحطيم كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية ، والذى أخذ تلميذه اليهودى ليفى بريل ينهج منهجه ويسير على طريقه: منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والاخلاق .

ومن أبرز تلاميذهما : طه حسين وزكى مبارك ومنصور فهمى — فى مرحلة تلقيهم فى السربون — والقاعدة التى يقوم عليها فكره : أن كل الظواهر والمظاهر نسبيه متغيرة متبدلة لا تثبت على حال ولا تستقر على وضع :لانها كل يوم تتبدل بحال أخر ، وهم يستخدمون هذا المفهوم فى دراسة (الاجتماع والنفس والاخلاق وتاريخ الاديان) لافساد المجتمعات والعمل على تحللها أخلاقيا ودينيا ، والهدف هو أن يكون المجتمع شا كا ملينا بالفتن وذلك سبيلهم إلى الهدم .ومن أجل هدفهم هذا تكانفوا لتكون لهم الكلمة الاولى فى الجامعات والعلوم الانسانية «وهل يمكن أن يقال أنه إذا كانت الاخلاق نسبية فسيأتى الزمن الذى نعتقد فيه أن الصدق رذيلة ، وأن الشهامة شر : وأن الشجاعة سوء . وأن العفة جريمة .(الدكتور عبد الحليم محمود

الهدف الحقيقى : وتهدف هذه الدعوات كلها إلى إنكار نظرة الاسلام الاصيلة إلى الثوابت والمتغيرات . وإحلال نظرية التغير الدائم ونسبية الاخلاق .

وقد كشفت حركة اليقظة الاسلامية فساد هذه النظرية المادية ، وأبانت عن أن مفهوم الاسلام هو أشد أصالة ، لأنه يقوم على أساس ثبات القيم الاخلاقية والآداب الانسانية . التى هى من أصول ثبات الطبيعه البشرية : هذه القيم الثابتة من الدين والاخلاق والحدود والضوابط . هى التى تقى المجتمع الانسانى من الفناء والهلاك وهى القانون الثابت الذى لا يتغير مع تغيير العناصر المختلفة فى المجتمع .

ومن هنا فإن الفكر الغربى تحت تأثير الفاسفة المادية هو فكر انشطارى أما الفكر الاسلامى فإنه فكر متكامل جامع يربط القيم فى توازن وثيق وتناسق معجز وليس وجود الاضداد دليلا على خصومتها وتعارضها ولكنه سبيل إلى تكاملها

وبالتقائها فالضد يولد من الضد ، فالحياة يقابلها الموت والفقر يقابله الغنى والجبن تقابله الشجاعة والروح تقابلها المادة فهى ثنائيات متقابلة متلاقية والواحد الفرد هو الله تعالى وقد وفق الاسلام بين المتناقضات فى أطار التكامل .

وبذلك يقيم الاسلام «قانون الثوابت والمتغيرات» فالاسلام يجمع بين الأصول العقائدية الثابتة وبين الاجتهاد فى الفروع والتفاصيل والتطبيقات — وهو مانسميه التطور — ويقول بتغير الأحكام النوعية مع تغير الأزمنة والأمكنة والاسلام منهج إلهى من حيث الأصول، إنسانى من حيث التطبيق والتفاصيل، يقيم الحدود والضوابط فى الاطار العام ويسمح بالحركة والتغيير داخل هذا الاطار ودون مساس بالثوابت فى العقيدة والشريعة والأخلاق مما جاء به نص قاطع البيان محدد القسمات .

فساد فكرة الحتمية :

تعتقد الفلسفات الغربية المادية — أن القوانين التى اكتشفها الانسان للكون — عن طريق العلم الحديث دون معرفة حقيقية لمصدر هذه القوانين أنها قوانين طبيعية حيث تدير الطبيعة نفسها فهى لا تتخلف، وفى هذا الاعتقاد خطأ أكبر وخطأ أصغر أما الخطأ الأكبر فإنه من المستحيل أن تدير الطبيعة نفسها بمثل هذه الدقة ، لأنها لا تخلق نفسها ولابد لها من خالق أساسا ثم هو نفسه - تبارك وتعالى - الذى يديرها لحظة بعد أخرى ، ومن هنا فان هذه القوانين مخلوقة لله تبارك وتعالى وهو القادر على إبطالها متى شاء .

ولا ريب ان غياب هذا الفهم عند الفكر المادى جعل النظرية قائمة على شق واحد منها، هو حتمية هذه القوانين . واغفال الجانب الهام منها وهو صانعها ومدبرها والقادر على أبطالها .

ومن هنا يصور العلماء الماديون : «الحتمية» بأنها هى خضوع الأشياء لمبدأ التغيير للقوانين الضرورية وهذا يعنى أن الأحداث تترابط فيما بينها وفق قوانين موضوعية . ومن هنا فان الحتمية هى إنكار ماتظن أنه مصادفة أو احتمال كما أنها تنكر حرية الارادة ، ذلك لأن الحتمية لاتتفق مع إرادة التغيير ومن هنا فهى

تعطل هذا الجانب الهام الذى هو مصدر أصيل فى إنشاء التاريخ، ومن ثم فهى تلغى دور الإنسان فى التغيير .

وهى فى هذا تخالف الفطرة الانسانية من جانبين : من جانب عجزها عن فهم قدرة الله المطلقة وقدرته على خرق القوانين وتغيير الواقع ، وقصورها عن فهم إرادة الانسان التى منحها الله تبارك وتعالى أياه داخـــل الارادة العليا لله، إثراء للكون كله .

والفارق يسير جدا وكبير جدا ، فهو فى نظر المسلم : أن العوامل الظاهرة للحدث أو للقانون ليست هى وحدها العوامل الحقيقة ، وأن هناك عوامل أخرى غير منظورة وهى إرادة الله ومشيئته التى هى أكبر من الأسباب نفسها والقادرة على تعطيل الأسباب أو أمضاء الأسباب من غير أن تحقق النتائج المترتبة عليها ، وهناك قدرة الله على التغيير بغير عوامل ظاهرة أو خفية تقاس بمقاييسنا المعروفة .

وهكذا فان الحتمية أو الجبرية كلاهما يقوم على نظرية مادية خالصة لا تنظر إلى الجانب الغيبى ولا تقدر قدرة الله تبارك وتعالى : التى هى من وراء الكون الظاهر والتصرف الظاهر .

أما الإنسان فله دوره وإرادته الذاتية التى تحقق له التصرف الذى به يكون مسئولا عن عمله فى دائرة صغيرة ولكنها بعيدة الأثر فى إحداث التغيير .

« إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال » الرعد .

والفرد يستطيع أن يمارس إرداته فى تغيير الواقع والمجتمع بقدر استفادته من قوانين الحركة ، والانسان له إرادة فاعلة وهى ممكنة بتمكين الله تبارك وتعالى يتميز بها عن الحيوان ، وهى تتحرك فى دائرة خاصة ويكون مسئولا فى حدودها ولكن الإدارة الكبرى هى ارادة الله التى تخلق التأثيرات العامة للمجتمعات والأكوان ، أما الحتمية فهى لا تتفق مع إرادة التغيير لأن الحتمية تفرض أنه

لا إرادة من جانب الانسان وهى بذلك تعد انسان (متفرجا) إزاء حركة التاريخ يرى ما يحدث له وللمجتمع دون أن يشارك فيه ، وهذا القول يخالف الواقع ولطبائع الأشياء .

الزيف فى قولهم :

ومن هنا فإن القول الذى يردده جبريو التاريخ ، كماركس وغيره ، والذين يقولون أن التاريخ محكوم المسار فى مستقبله هو قول زائف وغير صحيح، وكل النبوات التى قدمها ماركس فى هذا الصدد قد تبين كذبها ولم تتحقق جميعها وما وقع من بعد ماركس مخالف بل مضاد تماماً لكل ما قرره بناء على حتمية التاريخ أو جبريته فى حدود النظرية التى قدمها ، ذلك لأن ماركس ليس إلا بشراً يعجز عن الإحاطة ونظريته ليست إلا شطيرة ترتبط بعنصر واحد من عناصر التأثير — وهى الاقتصاد وتقوم فى مرحلة زمنية محدودة ، وبيئة لها طابع خاص ، ومن هنا فقد عجز وعجزت عن تفسير المستقبل ، فضلا عن إخفاق ماركس فى تحليل التاريخ القديم .

ولا ريب أن النموذج البشرى تقوم عليه فكرة « الجبرية » هو نموذج لإنسان سلبي خامل كسول مستسلم للواقع . متنازل عن حقه الطبيعى فى الاختيار . مؤثر الجبن وعدم المجازفة . وبذلك يفترض فى هذا الإنسان أنه تطبيق للحتمية المادية الخادعة . والمسلم لا يقر هذا المفهوم السلبي ويؤمن بإرادة الإنسان وبالقدرة على الاختيار والحركة لتغيير الواقع ويجعل من إرادته البشرية قوة قادرة على حكم الغرائز وقيادتها والسيطرة عليها .

ومن هنا فإن الأمم التى تخضع للجبرية تموت وتفنى لأنها تستسلم وتداس بالأقدام .

هدم الفرد والمجتمع المسلم :

وهذه الدعوة محاولة لهدم إرادة الفرد المسلم والمجتمع المسلم لحساب قوى مغتصبة غازية . ومن هنا كانت دعوة الإسلام الملحة إلى بناء الإرادة وعزم الأمور .

ولا ريب أن التقدم مرتبط بتنمية إرادة التغيير ، فاذا فقدت الأمة هذه الإرادة استسلمت للجبرية التي هي الانحطاط .

وهكذا نجد أن الفلسفة المادية هي صناعة يهودية ترمى إلى هدم كل القوى التي نماها الدين الحق فى الأفراد والمجتمعات وخاصة المجتمع الاسلامى ، الذى صاغه الاسلام صياغة خاصة ليكون متميزاً ومتفرداً بطابعه الأصيل القادر على البقاء ولقد طرحت الفلسفات المادية فى أفق الفكر الاسلامى عموما كثيره ولكن مفهوم الاسلام الأصيل المستمد من المنابع الأولى:وما يسمى مفهوم السنة الجامعة فهو قادر على دحض هذه السموم والشبهات .

---

١ — والقرآن الكريم يقطع بأن الانسان قد صور إنسان لأول خلقه ـ حيث يقول تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات » غافر : ٦٤ ، ويقول : « وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير » التغابن : ٦٤ ، والخلق من غير الانسان يراهم الله أمماً متكاملة النظام والخلق حيث حيث يقول : « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » الانعام : ٣٨ : وهذا واضح فى تنوع المخلوقات وتوفير الوظائف والبيئات :

٢ — أنظر من سورة النحل من الآية ٣ إلى ١٨ حيث يبين أن كل ما للكون من مادة ودأوات قد خلقه الله تعالى ثم سخره للإنسان على سطح هذه الارض — فتبارك الله أحسن الخالقين وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها :

(٢)

طريق الفلسفه . وطريق القرآن

إن من أهم ماتكشف من آفاق الاصالة على أبواب القرن الخامس عشر تلك التفرقة الواضحة بين الفلسفة المادية وما وصل إليه العلم التجريبي من حقائق .

لقد قامت الفلسفة المادية على احتمالات البحث العلمى حين كان يخطو خطواته الأولى وحين لم يكن قد حطم الذرة بعد وحين كان متغطرسا مستعليا يظن أنه قادر على الكشف عن كنه الوجود والحياة ، ولكنه الآن قد تحول كثيرا عن هذه الوجهة بعد أن ثبت عجزه إزائها واكتفى بالعمل على تفسير ظواهر الأشياء ثم جاءت انحناءته الكبرى أمام عظمة صنع الله بعد أن تبين أن هناك خفيا من العلم لا يمكن كشفه أو تفسيره إلا بالاعتراف بوجود وصانع وهو الذى يدير هذا الكون لحظة بعد لحظة بالدقة البالغة التى تدهش الألباب وتعجز أمامها كل قوى الضبط والتقدير ، هذا هو موقف العلم التجريبي اليوم ، فهو على طريق الله بعد أن كشفت التلسكوبات الضخمة عظمة الكون واتساعه وتعدد المجرات التى تحفل بألوف الملايين من الأقمار والكواكب ، وبعد أن وصل الانسان إلى القمر وإلى بعض كواكب المجموعة الشمسية ثم تبين له أنه لم يقطع إلا قدر يسير من تلك المساحات الشاسعة هذا موقف العلم وهو يختلف عن موقف الفلسفة المادية أو مايسمونه فلسفة العلم ومع أن الفلسفة المادية تعرف أن العلم آمن أو أوشك أن يؤمن فهى ماتزال سادرة فى طريقها المظلم المسدود ، وقد أخذت تقوم فى السنوات الأخيرة بدراسة الإنسان والمجتمع والأخلاق فقدمت مفاهيم ضالة زائفة لأنها عجزت عن أن تفهم الإنسان فهما جامعا (روحا ومادة وقلبا وعقلا وجسدا) وتوقفت عند فهمه كمادة وكجسم وكمجموعة من الأهواء والشهوات والمطامع تجرى حول الطعام والجنس .

أما الاسلام فإنه يقدم مفهوما جامعا للنفس الانسانية ، كما يقدم مفهوماً للوجود والطبيعة والكون ، تستمد مفاهيمها من الفطرة وتتكامل فيها القيم ، وهى بذلك

جامعة تأخذ الانسان من جميع أطرافه وهي مانعة تستطيع أن تواجه كل تطورات الحضارة والمجتمع والبيئات . ولذلك فان المسلم يريد منهجا للحياة ونظاما للمجتمع فقد قدم له الاسلام هذا المنهج لفهم الوجود والكون والانسان فان القرآن قدم له فهما وافيا كاملا لا يحتاج بعده لانفاق الجهد الوصول إلى عشر معشار هذا المفهوم الجامع الكامل لذى قدمه الاسلام ليحمى الانسان من الضلال وليصرفه إلى ماهو فى حاجة إلى استعمال العقل فيه وهو عمران الكون وكشف ذخائر الأرض وإذا كان المسلم يريد منهجا للحياة ونظاما للمجتمع فقد قدم له الاسلام هذا المنهج وهذا النظام على نحو إنسانى شامل جامع صالح لكل زمان ومكان :

وإذا كان المسلم فى حاجة إلى دراسة الانسان فان مفهوم الاسلام للإنسان أوفى مفهوم ، فهو سيد الكائنات تحت حكم الله وهو المستخلف فى الأرض لعمارتها وهو الذى حمل أمانة العمل على أساس المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاق والجزاء الأخروى :

وهكذا تكشف نظرة الاسلام إلى الكون والحياه والانسان أوفى مفهوم بينما تقدم الفلسفة الغربية نظرات متباينة أشد التباين بين عقلية استنباطية ، أو مثالية متطرفة أو حسية مادية بعيدة عن الواقع أو بعيدة عن العقل والروح وأحيانا لا تتفق مع موازين العقل ولا تلتق مع الفطرة ومع هده السعة فى معطيات الاسلام مما يتطلبه الانسان من مفاهيم فإن قومنا يحجبون هذا كله ، ويسرفون فى ترجمة تلك الفلسفات المادية المتضاربه ويتركونها بين أيدى شبابنا حتى دون أن يطلعوهم على الظروف التى وجدت فيها هذه التيارات ودون أن يقولوا لهم إنها نظريات وفروض قد تصدق وقد لا تصدق، ودون أن يوجهوهم إلى أنها من نتاج مجتمعات أخرى لها ظروفها وأوضاعها وتختلف معنا حتى فى أدق دقائق العقائد والآداب والأخلاق .

بل أن الأمر أخطر من هذا كله ، فإنه قد ظهرت فى أعقاب أزمات الحضارة المادية والحروب الشاملة المدمرة (الحربين العالميتين) فلسفات قاصرة فى قيادة الفكر والحياة لأنها فلسفة أزمات لا تتناول الانسان ككل ولا تهتم اهتماما جادا بمكانه فى الكون ورسالته على الارض بل تعبر عن الجانب المادى فى الانسان وهو

على كل ليس بالجانب الحقيقى فى طبيعته هذا فضلا عن أن تطور الحضارة المادية واتجاه الأمم إلى أسباب القوة من جهة وإلى الترف من جهة أخرى ، وإلى جانب قصور النظم التربوية على مستوى العالم كله - كما يقول الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده - وعجزه عن تكوين النموذج الانسان المتزن من الناحيتين الفكرية والخلقية - كل هذا حد من تأثير الدين الحق بروحانيته وأخلاقياته وتصوره للكون والانسان وقدرته على تنظيم أمور الحياة .

هذه الخلفيات للفلسفات الغربيه المطروحة الآن فى أفق فكرنا الاسلامى يجب أن نعرفها لنلق الضوء الكاشف على فسادها وعدم حاجتنا إليها ، لقد كانت تحديات الحرب العالمية الأولى والثانية عاملا أساسيا فى ظهور جميع الايديولوجيات والفلسفات المعاصرة من وجوديه وماركسية ومادية وتفسير مادى للتاريخ ولذلك فهى ليست فلسفات ناتجة عن مجتمعات طبيعية ولكنها جاءت كرد فعل لأحداث عارضة . فكيف يمكن للمجتمع الاسلامى الذى يختلف تماما عن المجتمع الغربى والذى لم تكن له مثل تلك التحديات والأحداث أن ينقل هذا أو يحاول أن يطبقه فى مجتمعه هذا فضلا عن أن المجتمع الغربى بشقيه هو مجتمع مسيحى الأصل، والمسيحية دين وصايا ولم تحمل معها نظام مجتمع - لأن نظامها الاجتماعى وشريعتها موجودة فى الموسوية - وهى عندما انفصلت عن اليهودية حاولت أن توجد نظاما اجتماعيا فاستعملت الفلسفة وأسلوب العقل ومن ثم انبثقت أيديولوجيات الرأسمالية والقومية والعلمانية والماركسية وغيرها . أما المجتمع الاسلامى فالأمر فيه يختلف كل الاختلاف .

ونجد اليوم دعوة ملحة من الغربيين والشعوبيين ودعاة الفكر الوافد إلى طرح المذاهب الفلسفية فى أفق فكرنا ، وهى دعوة معروفة الهدف والهوى والغرض ذلك لأن الفلسفة التى ترجمت فى القرن الرابع الهجرى هى أكبر ضربة وجهت إلى مفهوم الاسلام الصحيح وإلى التوحيد الخالص ولولا أن القوى الاسلامية واجهتها مواجهة صادقة لافسدت مفهوم الاسلام الصحيح ولأثرت فيه تأثيرها فى المسيحية واليهودية .

لقد بدأ المسلمون صلتهم بالفكر الغربى من خلال ترجمة العلوم والطب والفلك

والكيمياء ووقف المسلمون موقف المعارضة لترجمة الشرائع وترجمة الآداب ولكن أسلوب الترجمة انحرف فى عهد المأمون واستطاع نصارى نصيبين والرها وحران وجند سابور أن يجدوا فرصتهم لإدخال مفاهيم نصرانية إلى الفلسفة التى ترجموها وقد تبين أن ترجماتهم كانت زائفة ومحرفة .

وهكذا فقد كانت الفلسفة دخيلة على الفكر الإسلامى ، وكانت آثارها فى الكلام والاعتزال والتصوف بعيدة الأثر من حيث تحريف المفهوم الأصيل .

ولا ريب أن الفلسفة وعلم الكلام تفسيرات بشرية غير منزهة عن الخطأ وقد استمدت مفهومها من المنطق اليونانى الذى هو أصله علم الأصنام، وقد واجه علماء المسلمون هذا التيار وقاوموه وكان الغزالى من أقوى المخاصمين لها فقد انتقد الغزالى الفلاسفة فى مسائل قدم العالم والعلم الإلهى والبعث ،وقال أن ماذهب إليه الفلاسفة فيها مناقض للقرآن .

وبعد الغزالى رفض علماء المسلمين أسلوب المنطق الارسطى وكان الغزالى مقدمة لدور ابن تيمية القوى الحاسم لقد رفض الغزالى الفلسفة كتصور ايديولوجى يونانى من حيث الخلط بين عالمى الغيب والشهادة وقد أعلن ابن تيمية منطق القرآن بديلا لمنطق ارسطو ، وتبين من بعد صورة واسعة من الرفض والاهمال لكل ما ذهب إليه الفارابى وابن سينا وقد عدت هذه المدرسة تابعة للفكر اليونانى .

وكان الامام الشافعى بمنهجه القرآنى هو أول خطوة للتحرر من التبعية وبناء منهج إسلامى أصيل للبحث ، وقد تبين أن انتشار الفلسفة وسيطرتها فى هذه المرحلة كانت العامل الأول فى الانهيار الذى أصاب المجتمع الاسلامى إلى جانب عوامل أخرى سياسية واقتصادية وخارجية كالتتار والصليبيين ولكن محاولات الغزو من خلال الفكر التى قامت بها قوى الشعوبية والباطنية والمجوسية كانت أكبر ضربات المعاول التى مهدت للغزو الخارجى ومكنته من هزيمة المسلمين .

ولقد تبين للمسلمين أن منهج أهل السنة والجماعة : المنهج القرآنى هو وحده

المنطلق إلى النصر وإلى امتلاك الارادة . واليوم يحاول المستغربون أن يدفعوا تيارات الفلسفة إلى السيطرة على الفكر الاسلامى وتزييفه وحجبه عن الاصالة التى تستمد من المنابع ومن القرآن والسنة ، فى محاولة لاحداث فتنة شبيهة بفتنة العصر العباسى ، وصولا إلى هزيمة مفهوم الاسلام الاصيل ولقد كانت الفرصة مهيأة فى هذا العصر لترجمة سموم الفكر الغربى وأوحاله وشبهاته جميعا ، وهى متضاربة مختلطة لتدمير العقل الانسانى والقلب المسلم ، ولكن المسلمون تنبهوا إلى هذا الخطر وكشفت حركة اليقظة هذا التيار الاسود وعرفوا أن طريقهم الواحد الوحيد: هو طريق القرآن .

(٤)

طريق الفلسفه الغربية لا يؤدى

جنحت الدراسات الفلسفية وجهة خاطئة حين تابعت مفاهيم المستشرقين الغربيين الذين استقدمتهم كلية الآداب فى العشرينات والذين رددوا ما كتبه رينان من أن الفلسفة الإسلامية هى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ولكن هذا الاتجاه لم يلبث أن أدخل عليه تصحيح سريع بفضل جهود الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى حرر هذه القضية وأنشأ مدرسة الأصالة ، باكراً فى الأربعينات وهو مالم يحدث بالنسبة للأدب أو الثقافة أو التاريخ وكلها ما زالت إلى وقت قريب خاضعة لمفهوم التغريب ولقد تشكلت مدرسة الأصالة فى دراسه الفلسفة من عدد من الأبرار أمثال : الخضيرى والنشار وتوفيق الطويل وزيان .

ومع ذلك فقد استمرت مدرسة التبعية لليونان والفكر الغربى تلقى سمومها فى أفق الفكر الإسلامى من أمثال زكى نجيب محمود وزكريا إبراهيم وعبد الرحمن بدوى .

وكان أبرز ما أشار إليه النشار هو أن أرجانون أرسطو (اليونانى الإغريقى) قد وجد رفضاً كاملا فى أفق البحث الإسلامى منذ ظهوره والذين تابعوه كانوا قلة لم يطلق عليهم يوماً من الأيام إسم العلماء وإنما كانوا دائماً من مدرسة المشائين اليونان باللغة العربية أمثال : الفارابى وابن سينا .

وأن المسلمين عرفوا منهجاً للمنطق مستمداً من القرآن على النحو الذى كشف عنة الإمام بن تيمة وكان أكبر منافح عن إصالة المنهج الاسلامى الامام الغزالى الذى رد الفلاسفة العرب المتابعين لمنهج اليونانى فى عدة أمور تخالف التوحيد أما الدكتور توفيق الطويل فقد عرف بمفهومه الواضح فى التفرقة بين العلوم الرياضية والعلوم الانسانية فى الخضوع لمنهج التجريب وقد كشف عن أن مايتصل بالنفس والمعنويات والروح لايصلح أن يطبق عليه المنهج الذى يطبق على المادة .

وقد كشف الدكتور الطويل أن بعض فلسفات المعاصرين قد ماتت وأصحابها لا يزالون أحياء (ولعله يقصد من ذلك الفكرة الوجودية التى قدمها سارتر) .

أما الفلاسفة المعتنقون للمذاهب الفلسفة المادية كالبرجمانية أو الوجودية أو الماركسية فإنهم يجدون أنفسهم أمام مفاهيم ليس لها ثبات أو استقرار ، وما تزال مفاهيم العلم تضرب فى جذار المادية وتكشف زيفها ومع ذلك فإننا نعجب حين نرى أحدهم — كالدكتور زكى نجيب محمود — يقول إن الأمة العربية ليس لها فلسفة خاصة بها وأنها تستعير الثقافة والفكر الأوربى والأمريكى فى كل شىء وهذا رأى غريب حقاً ، لا يثبت أمام الحقائق التاريخية والثقافية ، إذ كيف يمكن القول لأمة تملك منهج الاسلام منذ أربعة عشر قرنا وهو منهج جامع قد أقام نظاما كاملا فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأدب والتربية ، له مفهومه الربانى فى الطابع الانسانى المرتبط بين الروح والمادة . والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، والذى له طابعه الواضح فى مختلف قضايا الحياة والعصر والمجتمع ، وكيف يمكن أن يقال أن للعرب والمسلمين ليس لهم فلسفة حياة وهم الذين يؤمنون بأن الإنسان رسالة فى الحياة وأمانة والتزام أخلاقى وله بعد الموت والبعث حساب وجزاء ، وهذه الفلسفة تختلف إختلافا عميقا عن الفلسفة الغربية التى يدعى الدكتور زكى نجيب محمود إننا نستعيرها ، وإذا كنا قد تابعنا بعض مظاهر الحياة ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية تحت ضغط النفوذ الأجنبى فترة فإن الضمير العربى الاسلامى ماقبل أبداً وما رضى وما خضع لهذه المحاولة التغريبية التى فرضت عليه خاصة بعد أن تكشف له زيفها ومن ثم فقد عاود النظر إلى أسلوب العيش الإسلامى المنطلق الأصالة وللتحرر من التبعية الأجنبية .

(٢)

نحن بإزاء الفلسفة اليونانية الاغريقية فى العصر الحديث أشبه بالمحاصرين ، وهو حصار كان قد حاول اجتياح المسلمين من قبل فتغلبوا عليه ، ونحن فى أشد الحاجة إلى أن نعرف أخطاره لنتجاوزه : هذا الفكر اليونانى الذى ورث الحضارة الغربية مفهومه المسموم : القائم على الاباحيه وعلى مرح الجسد وفرحة البدن وتقدير الجمال العارى وخلق الالهة وعبادتهم ومن ميراث الفكر اليونانى نزعيان متضادتان أولهما السعادة فى اقتناص اللذات وهى النزعة الأبيقورية والسعادة

فى التقشف والزهادة فى اللذات وهى النزعة الرواقية وكل منهما مبالغ فى الدفاع عن رأيه والدفاع عن مخالفيه ، ومن هذه نشأت نزعتان متضادتان أخريان هما الفردية المسرفة والجماعية الساحقة، والاسلام ينكر تفرد المذهبين والنزعتين . ولقد واجه الفكر الاسلامى العاصفة الاغريقية مواجهة حاسمة ، فهم أولا نبذوا كتاب أرسطو عن الدراما والنماذج التى طاف بها فى تراجيديات سوفوكليس واسخليوس وكوميديات أريسيوفان وإضرابه فقد رواها حافلة بآلهة تتصارع وأرباب تلهو وتعبث وقدر متربص بالناس ، يلحق بهم ضروب الأذى ، ولم يرقهم هذا فقد كانوا بجيوا ابن على نظرة التوحيد ورفض الشرك ، ولو كان شبهة أو أداة من أدوات صناعة الفن والتخيل .

وهم لم ينقلوا إلا ما يتصل بالعلوم ثم قاموا بتصحيحه وتحريره من الأساطير والوثنيات ولكن قوى الشعوبية استطاعت أن تغلب فترجم الفلسفات فوقف علماء المسلمين لها موقفا حاسما وكشفوا عن زيف منطق أرسطو واضطرابه وارتباطه بعلم الأصنام وعجزه عن العطاء فى محيط الفكر الإسلامى القائم على التوحيد .

ولقد وقف الاسلام أمام غنوص الشرق (فارسيا أو هنديا) كما وقف أمام غنوص الغرب (الأفلاطونيه المحدثة) موقف العداوة والبغضاء يجالدها أشد مجالدة وأعنف جهاد فقد كشف عن زيف مذهب الفرس الثنوية (النور والظلمة) وعارض ما انبثق عن مجوسية الفرس بعد الاسلام من بابلية وخرمية ومزدكية وغيرها ، هؤلاء الذين استباحوا كل المحرمات واستمرت الحرب معهم عشرون عاما ، ومن هؤلاء طوائف القرامطة والاسماعيلية والنصيرية والدرزية والحاكمية وسائر العبيدية الذين يسمون أنفسهم باطنية :

ولقد واجه مفكرو الاسلام فضائح الباطنية من قرامطة وحشاشين ، ولقد كان من ثمار هذا الفكر الفلسفى الباطنى مولفات كرسائل إخوان الصفا كتابات الحلاج وابن عربى وغيرهم وقد رفضها المسلمون كما رفضوا فلسفات ابن سينا والفارابى وكشفوا تبعيتها المذاهب الباطنية (وإن قبلوا منهم مفاهيمهم فى العلوم والطب) وقد تأثر بهذه المدارس كثير من أمثال أبى العلاء والمتنبى وأبى تمام فى مجال الفلسفة وأبى نواس و بشار فى مجال الشعر والاباحية .

وكذلك وقع فى شرك التبعية السكاكى وقدامه فى مجال البلاغة وأخطر ما صنعه

قدامه بن جعفر فى كتابه نقد الشعر هو الرجوع إلى أرسطو فى كتابه نقد الشعر وقد استطاع الفكر الاسلامى أن يتحرر من هذه الموجة العاصفة واستعاد أصالته ومفهومه الجامع. بعد دفاع الغزالى وابن تيمية وغيرهم وبرز مفهوم مذهب أهل السنة والجماعة قاضياً على تلك التجاوزات .

ولكن هذا الركام الذى تجاوزه الفكر الاسلامى الأصيل لم يلبث أن أعاده الاستشراق إلى الحياة ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين ترجموا تلك التراجيديات والكوميديات الفاسدة الضالة إلى اللغة الغربية فى العصر الحديث لتكون واحدة من عوامل التغريب فكانت بالاضافة إلى إحياء رسائل إخوان الصفا وكتابات الحلاج وابن عربى وكتابى ألف ليلة والأغانى بمثابة محاولة جامعة خطيرة لاحتواء الفكر الاسلامى الأصيل :

(٥)

هل استطاعت الفلسفة الغربية المادية

أن تعطى نوراً

هل استطاعت الفلسفة الغربية أن تعطى الفكر الاسلامى فى العصر الحديث شيئا إيجابياً أم إنها – كشأنها فى القرن الرابع الهجرى – قدمت عشرات من الشبهات والسموم والاهواء التى عصفت ببعض النفوس وأفسدت عددا من العقول الناضجة والارواح النقية، بما حملته إليها من فكر مادى ووثنى وإباحى كان بعيد الاثر فى تدمير بعض النفوس التى لم تكن لها حصانة حقيقية من الإيمان بالله تعالى.

لقد كانت الدعوة إلى طرح مفاهيم الفلسفات الغربية والوافدة فى الفكر الاسلامى تتردد فى إلحاح خطير بعد أن أصبحت الفلسفة مادة تدرس فى المدارس والجامعات فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى، وقد قدمت بأسلوب ماكر خبيث حال دون الكشف عن أخطائها أو عن أنها تراث أمم أخرى كانت فى حاجة إلى أن تفسر أمور الطبيعة بعيداً عن الدين أو لان الدين لم يقدم لها فى هذا المجال مايشفى الصدور. والواقع أن الفلسفة كانت اجتهاداً عقليا فى هذا المجال أو بمثابة محاولات هى عرضة للخطأ والصواب بينما كان الفكر الاسلامى قد تنور منذ وقت بعيد بفهم أبعاد هذه الامور من حيث إن القرآن قدم تفسيراً واضحاً كاملا لعالم مابعد الطبيعة أو مايسمونه (الميتافيزيقا) أو عالم الغيب كما يطلق عليه القرآن ولم يكن المسلمون بعد ذلك فى حاجة إلى تفسيرات بشرية تخطىء فى الاغلب فى أن تقدم التفسير الصحيح لعجزها الطبيعى عن أن تفهم ماوراء الطبيعة ولاعتمادها على الجواب المادية وهى ليست كل شىء ولانها تستمد مفاهيمها عن طريق العقل الذى ليس من مهمته فهم ماوراء المحسوس والظاهر. كل هذا أحدث اضطرابا كبيرا فى النفوس وخاصة فى نفوس النشء الذين لم يكونوا قد ثقفوا ثقافة إسلامية أصيلة جامعة.

ومن هنا كان أكبر أخطاء الفلسفة الغربية — التى هى فى مرحلتها الحالية فلسفة مادية خالصة بعد أن مرت بمراحل الفلسفة المسيحية اللاهوتية والفلسفة المثالية — أن ترى نفسها بديلا عن الدين فى تفسير أمور الطبيعة والحياة أيضا ، ويرجع قصورها إلى أنها تعتمد على العلم التجريبى المتغير والذى يفسد فى سرعة نتيجة المتغيرات المتوالية .

وحين يقول الفكر الغربى أن الدين عائق عن التطور فإنه يقول ذلك فى حدود الفكرة الدينية التى عرفها عن اليهودية والمسيحية فقط ، ولو عرف الاسلام ما قال ذلك بحق . ولما كان الغرب يؤمن بأن الدين لاهوت أو أنه علاقة خاصة بين الله تبارك وتعالى والإنسان مما يجعله يستبيح لنفسه أن يتصرف فى جواب الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، ولكن الأمر فى الاسلام يختلف فالاسلام دين بمعنى العبادة ومنهج حياة ونظام مجتمع وهو يتكامل بين العلاقتين مع الله تبارك وتعالى ومع المجتمع ، ولما كان الغرب لا يملك منهجا متكاملا جامعا بين العقيدة والمجتمع — كما يملك المسلمون — فإنه يبحث عن أيدلوجيات . أما المسلمون فإنهم لا يحتاجون لذلك ! .

ولا ريب أن جميع تطورات الفكر الغربى قد جاءت نتيجة التحدى ، وكرد فعل على الجمود الذى واجهه به الدين الغربى ، فالنظرية المادية هى رد فعل الكنهوت وكذلك الماركسية فهى رد فعل الرأسمالية .

ولا يستطيع الفكر الغربى أن يقدم أحكاماً مجردة صادقة بعيدة عن تحديات العصر والتاريخ ، أو متحررة من الهوى .

وأخطر مفاهيم الفلسفة الغربية : نظرية التطور . ونظرية نسبية الأخلاق ، ونظرية المنفعة ، والنظرية المادية ، ونظرية الجنس . وكلها نظريات تقوم على الانشطارية والنظرة من جانب واحد هو الجانب المادى ، فنظرية التطور لا تقوم على إطار من الثوابت الأساسية . فليس الأمر كله تطورا مطلقا . والأخلاق جزء من الدين لها صفة الثبات ، أما المتغير والنسبى فهى العادات والتقاليد التى يصنعها البشر ، ولابد بجوار المنفعة من القيم الرفيعة التى يفرضها الإيمان بالله والخلق ، والتى يقدم منها الإنسان التضحية دون أن ينتظر الجزاء المادى ، والنظرية

المادية تفترض إنكار الجوانب الروحية والمعنوية للانسان. ونظرية الجنس تقوم على أن دوافع الإنسان كلها جنسية ، وهو ماثبت أنه غير صحيح ، وأن للانسان دوافع مختلفة . وأن الاقتصاد ليس هو العامل الوحيد فى تفسير الحياة والمجتمعات والتاريخ .

إن أخطر ماتتسم به الفلسفات الغربية : النظرية الانشطارية ، والشك والارتياب . والإباحية والتشاؤم، وأبرز معالم إنحرافها أنها تنكر عنصراً أساسيا من عناصر النفس الإنسانية هو جانب الايمان والعقيدة والروح، والعالم الداخلى والغيبى كله ، هذا العالم الذى أنكرة الفكر الغربى والحديث ورفعت المعاول لهدفه وتحطيمه وتدميره فكريا بالفلسفات وعمليا بالاباحية ولا ريب أن هذا العالم العقائدى كامن فى أعماق الانسان لاسبيل إلى إلغاءه أو إنكاره وهذا هو مفهوم الانشطاريه التى تقبل بالعقل والجسم وترفض النفس والروح وتقبل بالمادة وترفض الوحى وتقبل بالايدلوجيات وترفض الدين .

ومن هنا كان أبرز مظاهر الفكر الغربى اليوم « التشاؤم » نتيجة السرف فى الاباحة وآية على الشك والارتياب !

ولعل أخطر ماطرحه الفكر الغربى على أفق الفكر الاسلامى هى : النظرة الانشطارية التى تفصل بين المادة والروح والدين والدنيا وطابع التشاؤم والفكر الاسلامى بطبيعته فكر إنسانى الطابع قائم على الفطرة التى فطر الله تبارك وتعالى الناس عليها فهو متكامل يفيض بالرحمة والطمأنينة والسماحة ولا يقبل الانشطاريه أو التشاؤم ذلك لأنه يقوم على تكامل القيم وانسجامها ولا يفترض إمكان قيام شطر منها دون الشطر الآخر فضلا عن أنه لايملى جانبا منها على مختلف الجوانب.
ولقد كان من نتيجه انشطار الفكر الغربى أن خرج من النقيض إلى النقيض : من الرهبانيه إلى الاباحية دون قدرة على التوسط أو المواءمة أو التكامل بينما لم يعرف الفكر الاسلامى هذه التجزئة ولم يقرها ومن الانشطارية سقط الفكر الغربى فى أزمة المادية عن طريق إعلاء العلم وتقديس العقل ومن هنا عمت ظاهرة التشاؤم وجدانه وفكره كله وطبعته بطابع الملل والتمزق والتمرد والصراع والخوف من الموت والرغبه فى اعتصار الحياة ! وإنكار الآخرة والجزاء . وقد جاء هذا

نتيجة خضوعه للفكر التلمودى القائم على الربا والاباحية وإنكار البعث ، وهو ما يضاد مفهوم الاسلام فى أخلاقية الحياة والمسئولية الفردية ، لقد استطاع اليهود عن طريق الفلسفات والايدلوجيات أن يجعلوا مفاهيمهم بمثابة منهج عالمى ، جمعوا له كل ماحمله الفكرى البشرى القديم من وثنيه وإلحاد واحتقار للاخلاق فى سبيل إشادة إمبراطورية الربا وعبادة الذهب والتكالب على ماديات الحياة ، وبذلك سيطر اليهود على الفكر البشرى ، وعمدوا إلى احتواء الفكر الغربى ، ولم يعد هناك منهج قادر على مواجهة منهجهم ودحره وتدميره غير منهج القرآن الذى تبناه الاسلام ، وهو منهج التوحيد الخالص ، والإيمان بالبعث والمسؤوليه والاخلاقية والالتزام الفردى ويتضح طابع التلموديه فى مناهج علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاخلاق وعلم الانترويولوجيا وعلم مقارنة الأديان . ويتمثل فى طغيان المفهوم المادى ، الاقتصادى ، الجنسى ، على تفسير المجتمعات وتفسير التاريخ بهدف احتواء الأمم واحتواء الثقافات .

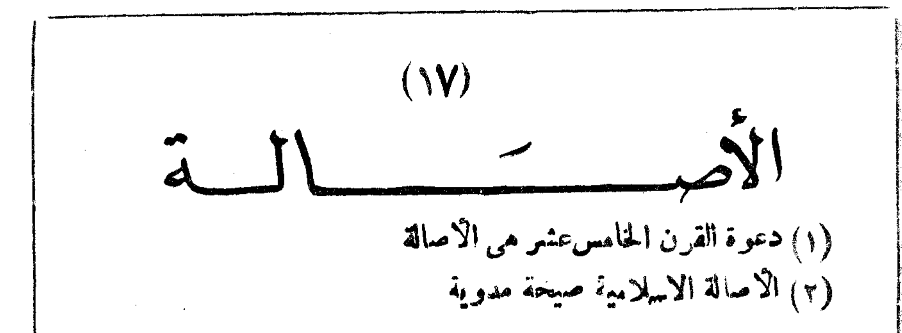
وإذا نظرنا إلى تراث الفكر الغربى وجدناه مصبوغا بصبغة الاهواء ، غير خالص للحقيقة العليا . فقد ثبت أن قواعد « مندل » فى الوراثة غير محكمة ، وأن « مندل » لم يكن على علم بالآفاق الجديدة الطاقة التى أوشكت البشرية أن تستشرقها من بعد ، وأهمها البترول الذى كان ظهوره عاملا هاما فى قلب نظرية «مندل» والاطاحة بها . ولقد كانت صيحة أوربا هى محاولة انقاص البشرية بالقضاء على الضعفاء محاولة ضالة ، فقد جفت فتها ينابيع السخاء البشرى عندما دعت إلى قتل العاجز أو تركه يموت دون أن تعمل على شفائه ، وكان أقسى تلك الصيحات القول بالقضاء على الزنوج لحساب شعوب أرقى منهم ، وكان هذا تبريراً كاذبا للاستعمار والاستغلال ، لأن الأقوياء هم الذين يستعمرون ويقتلون الضعفاء ، وقد تبين للباحثين أن رأى « دارون » فى تنازع البقاء الذى أخذت به الفلسفات الاستعمارية هو خطأ محض ، وأن التعاون مع الطبيعة أكبر أثراً من التنازع ! .

وكانت دعوة « نيتشه » دعوة ظالمة ومضللة فى نفس الوقت حين دعا إلى القضاء على العاجز أو تركه يموت دون العمل على شفائه ، وقد لقى نيتشه مصيرا مظلما غاية الظلام نتيجة دعوته التى اعتمدوها الاستعمار مبررا لظلمه ، فقد عاش نحو

وهو فى جنون يكاد يكون مطبقا ، إذ كان فى الدور الأخير من السلق ، وهو مرض لم يقعد جسمه فقط ، بل أمات ذهنه . وقد مات مغموراً ولم ترثه صحيفة واحدة ! !

ولم تذكره جامعة حتى بعثه اليهود من بعد ، وقالوا لقد رتبنا نجاحه كما رتبوا نجاح دارون وغيره ، ولقد كانت كل كتابات الذين لمعوا - كانت بهدف تدمير المجتمع كان أبطال دستوفسكى شواذ ومرضى ، وجميع أبطال فرويد شواذ ومرضى . وكره نيتشه أوربا لأنها اعتنقت المسيحية ، وكذبت التجربة قولة فرويد : بأن كظم الشهوة الجنسية يؤدى إلى اضطرابات الشخصية . وتبين فساد استغلال فرويد للاساطير وخاصة ماأطلق عليه « مركب أوديب » ، وهو أن الطفل يحب أمه حبا جنسياً ، ويجد لذة جنسية فى الرضاع !

ولقد روج سلامه موسى وطه حسين وغيرهم لهذه الكتابات ، وعاش التغريبيون ينقلون عن فرويد وماركس وسارتر تلك السموم لتدمير مجتمعنا وفكرنا بها ، وإذا كان الغرب دعا إلى هذه الآراء أو اعتنقها فلانه لم يكن له منهج يهديه ، أما بالنسبة للمسلمين فإن الأمر جد مختلف كما قلنا . والله تعالى أعلم .



(١٧)

الأصالة

(١) دعوة القرن الخامس عشر هى الأصالة

(٢) الأصالة الإسلامية صيحة مدوية

دعوة القرن الخامس عشر : هى الإصالة

إذا كانت دعوة العصر الماضى هى « التكيف » :

فإن التأصيل هو دعوة هذا العصر بعد أن كشفت دعوة التكيف عن كثير من الاخطار وقليل من المعطيات. ذلك لأن التكيف يجب أن يكون خطوة تالية للتأصيل الذى يضع القاعدة الصحيحة لمواجهة التيارات الوافدة والنظر إليها ووزنها بميزان دقيق على قاعدة الحفاظ على الذاتية الاسلاميه وعدم التفريط فى أى جزئية منها ، أو التضحية بها فى مقابل وافد ما . وأن تكون كل المعطيات الوافدة بمثابة مواد خام وأن تكون المعطيات العامية والمادية هى التى يراد صياغتها وتشكلونها فى أطار المفهوم الأساسى ، أما أسلوب العيش الغربى بمختلف مفاهيمه وأساليبه وما يتصل به من فنون وآداب ومسرح فإنه معزول تماما . ذلك لأنه يمثل نتاج ثقافى وعقيدة مختلفة عن عقيدتنا وثقافتنا ولقد وضع المفكرون المسلمون منذ وقت بعيد القاعدة الذهبية فى هذا : أن ينقل المسلمون ماديات الحضارة والعلوم ويشكلونها فى داخل دائرة فكرهم ولغتهم ويصهرونها فى أخلاقيات الاسلام ويقيمونها على مفهومهم الجامع بين الروح والمادة فالمسلمون يؤمنون بالتقدم الجامع بين العنصرين وهم لا يضحون بالمعنويات من أجل الماديات ويرون أن التقدم المادى وحده لا يحقق هدف المجتمع الاسلامى الربانى الوجهة القائم على مفهوم مسئولية الفرد أمام الله تبارك وتعالى وأمانته فى إقامة المجتمع الصحيح والتزامه الأخلاق وقد دحض المفكرون المسلمون تلك النظرية المسمومة التى روج لها طه حسين وحسين فوزى وغيرهم بالدعوة إلى تقبل الحضارة الغربية جملة : خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب وهى دعوة ضالة فهل قبل الغربيون فى عصر النهضة الحضارة الاسلامية بمفاهيمها القائمة على التوحيد والعدل والرحمة والاخاء الانسانى أم أنهم أخذوا معطياتها المادية وصهروها فى أصولهم المسيحية واليونانية والرومانية .

ولا ريب أن دعوة العودة إلى الاصالة هى أساس الحركة الفكرية الاسلامية فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى وهى ليست قيدا يعوق حركة التطور

والتقدم ولكنها علامة على تأكيد الذات والحرص على دعائم الشخصية الاسلامية حتى لا تنهار ولا ينصهر فى الأممية أو العالمية فتفقد ميزتها الوحيدة التى تميزها وهى التوحيد الخالص الذى لا يحمل لوائه فى هذا العصر فى العالم كله غير الاسلام أهله وهم الموكلون بإذاعة هذا الدين فى العالمين وحمله إلى كل الافاق .

ولقد مر المسلمون بالمراحل التى فرضت عليهم فيها — وإرادتهم مغصوبة — أسلوب العيش الغربى فى الحكم والاقتصاد والاجتماع حين فرض عليهم القانون الوضعى وحين حجبت الشريعة الاسلامية عن العمل وحين سيطرت مدارس الارساليات على مناهج التعليم وقد مرت التجربة دون أن تجد تقبلا حقيقياً أو تلتقى مع مشاعر المسلمين أو عواطفهم ، بل ظلت معارضه لفطرتهم ومضاده لطبيعتهم سواء فى اتجاهها الرأسمالى الليبرالى أو الاشتراكى الماركسى فقد رفض المجتمع الاسلامى كلا الأسلوبين فى الفكر والحياة والحضارة جميعاً وتكشفت له بعد سنوات طويلة عمق الخدعه وضخامه المؤمرة وخطورة المحاوله التى كانت تستهدف استئصال وجوده والقضاء على كيانه وقد تبين له ذلك من خلال الهزيمة والنكبة والنكسة وتبين للغرب — بشقيه — استحالة احتواء الاسلام والمسلمين أو فرض حضارة مادية متعصبة عليهم ، أو فرض أسلوب عيش معارض لمفاهيمهم وقيمهم ، وتكشف زيف كل دعاوى التغريب والشعوبية والاستشراق والتبشير من القول بحضارة واحدة ، أو فكر واحد وتأكد أن الأمة الاسلامية وهى فى أشد مراحل ضعفها لا يمكن أن يحتوى وأن الفكر الاسلامى له أصالته القادرة على تبين طريقه وانبثاق حركة يقظته من داخله وتصميمه على الوقوف فى وجه الانصهار أو الاحتواء ، وتبين فساد عبارات الموائمة والتكيف واشرأبت الذاتية الاسلامية مرة أخرى قوية بفضل حركة اليقظة تلتمس أصالتها من منابعها الأولى ، ولا ترى غيرها بديلا ولذلك فإن مطالع القرن الخامس عشر الهجرى تتميز بظاهرة الدعوة إلى التأصيل فى كل مجالات الفكر : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وقيام النهضة الاسلامية فى إطار المفهوم الاسلامى الجامع بين الروح والمادة ، القائم على مفهوم الثوابت والمتغيرات والملتمس للمثل الأعلى الاسلامى فى كل مجالات العمل ، فى التعليم والتربية والثقافة ، مؤمنا بأن لكل حضارة (ولكل ثقافة) حضارتها المميزة المستمدة من عقيدتها وقيمها ، وهى فى الاسلام واسعة الافق ، مرنة الأطر ، قادرة على تقبل كل صالح ونافع من تجارب الأمم ولكنها

لا تقبل بحال الانصهار أو الاحتواء أو أن يفرض عليها ما يخرجها عن معدنها الأصيل: القائم على التوحيد الخالص ، ولقد كان جهاد المسلمين قائماً وممتداً على مدى العصور فى سبيل حماية هذه الذاتية .

ولقد صدق قول القائل : « إن الخطر المحدق بالأمة الاسلامية لا يكمن فى السلاح الحديث الذى يمتلكه الأعداء أو الطائرات التى تتربص بها أو التفوق التكنولوجى أو الالكترونى الذى يحيط بها من كل جانب بقدر ما يكمن فى الخراب الفكرى والعقائدى الذى يطلقه العدو ومن هنا جاءت الهزيمة ، النكسة »

ولقد أكد الباحثون أن المسلم ملتزم فى سبيل عقيدته يسترخص كل شىء من أجلها ، ولا تقاس المعارك بحساب الحياة والموت والخوف والخسائر .

ولقد رفض المسلمون الاستلاب الحضارى ، الذى يستهدف اقتلاعهم من تراثهم الاسلامى وقيمهم القرآنية ، ويؤكد الاسلام ثقة المؤمنين بأنفسهم واستنفارهم لمقاومة الظلم والخسف بدلا من الخضوع له ، ولقد تبين بوقائع التاريخ أنه من الصعوبة أن يقبل المسلمون سيطرة أى أمة عليهم وهم يملكون ذلك التراث العريض وهم لا يبيتون على الضيم ازاء ما يجدونه من عمل التغريب والاستشراق على تزييف هذا التراث وهدمه والتسلط عليه وبث السموم حوله ، وقد فشلت دعوى دعاة الانصهار التى رددها طه حسين وغيره من أن مصر ليست شرقية ولا عربية بل بل أنها غربية العقل ويجب أن نظل أوربية وكانت حركة اليقظة هى الرد الحقيق على هذه المؤامرة ، حيث فرضت التماس المنابع الأولى ، والثبات على القيم الأساسية والكشف عن خطر النظرية الغربية والنظرية الماركسية على الشخصية الاسلامية وقد حملت لواء الدعوة إلى التذود باليقظة والحذر حتى تسد جميع المنافذ والكوى على كل متسلل يريد أن يبث سمومه بيننا .

(٢)

الإصالة الإسلامية : صيحة مدوية

أن الصيحة المدوية فى أذان المسلمين اليوم هى الحفاظ على الخصائص والذاتية فهى مفتاح العودة إلى الاصالة ، وعودة الحضارة الاسلاميه إلى العطاء ، ولقد تبين للمسلمين كذب وضلال وفساد كل دعوة تدعوهم إلى الانصهار فى الحضارة الغازية أو الثقافة العالمية أو الفكر الأممى بحجة أن هذا هو منطلق التقدم ، ذلك أن لكل أمة أسلوب للتقدم والنهضة والمسلمون لا يملكون كيانهم إلا إذا حافظوا على ذاتيتهم وكيانهم بل أن الذين يعلمون خصائص الأمم والحضارات يؤكدون بأن المسلمين إذا لم يقدروا على إبقاء الخصائص الحضارية المميزة لأمتهم فإن هـــذه الأرض لن تبقى أرضا اسلاميه ، ويقول واحد منهم « إذا أردنا أن نخلد فى هذه البلاد حضارتنا وثقافتنا وتدوم مدنيتنا ومنهاج حياتنا فلن يتحقق هذا إلا بأن ننقل بأمانة ونزاهة ما أثورماوثناه عن أسلافنا من ميراث إلى أجيالنا القادمة ، بل نجعل أجيالنا القادمة كذلك تصلح لحمل هذه الأمانة بكل كفاءة وشعور لتتمكن هى كذلك بدورها من نقل هذه الأمانة إلى ما يعقبها من الأجيال . أن الذى يتوقف عليه حياة شعب من الشعوب ويرجع إليه بقائه واستمراره على المعمورة هو عنايته باعداد جيل قادم على مستوى يجعله كفوا للمحافظة على شخصيه . أما إذا انصهرت أمة فى بوتقه شخصية أخرى فإن معنى هـذا أنها فقدت خصائصها ، ومعناه أيضا أنها اندثرت وفنيت .

أن أعظم مهمة الأمة هى نقل تراثها الحضارة الى الأجيال القادمه وأن تستمر عملية نقل التراث هذه على الأجيال ، هذه الحقيقة يجب أن نقف بازائها موقف التقدير الكامل ونجعلها كالمنار أمام السفن العابرة فى المحيط لتهتدى بها . وهذا هو مفهوم الاصالة الحق ومن حول هذا المعنى تنشأ مدرسة تصحيح المفاهيم وتحرير القيم فتكشف زيف المفاهيم الوافدة وتحرير المصطلحات ، من التبعية والخضوع وتحرر مناهج التعلم العام والجامعى وما يلحق بها من مركز البحث العلمى من قيود التبعية الثقافية والتخلص من المصطلحات الأجنبية المعبرة عن تصورات ومصالح

أجنبيه غربية عن كيان الأمة الاسلاميه وعقائدها ومصالحها مع تأكيد أهمية الالتزام بمصطلحات نابعة من عقائد الأمة وتاريخها وتراثها وجوهر فكرها وشخصيتها الاسلامية .

وفى هذا الاطار يجب الكشف عن زيف نظريات الاقتصاد الغربى والماركسى وزيف القانون الوضعى وزيف مناهج الثقافة والتربيه والتعليم .

وعلينا أن نواجه تلك المحاولة الخطيرة التى ترمى إلى عزل عالمنا المعاصر تحت اسم الفكر العربى أو التاريخ العربى ، فى محاولة لحجبه عن استمراريته المتصلة منذ فجر الاسلام إلى اليوم فهناك اليوم من يحاول تفسير معارك حطين والقدس ودمياط والمنصورة وعين جالوت التى وقعت مع الصليبين والفرنجة والتتار على أنها معارك صراع عربى أوربى خلال العصور الوسطى وهو تصور خاطىء مضلل فإن هذه الحملات كلها قامت تحت اسم (الاسلام والغرب) .

وهناك محاولات تفسير التاريخ على أنه مصرى أو عربى (اقليمى أوقومى) وهى محاولات مضللة فما كان لهذه الأمة الاسلامية إلا تاريخا واحداً متصلا ، وإذا كانت ايدلوجيات الغرب ومفاهيم الديمقراطيه والليبرالية هى التى أوقعت المسلمين فى النكبة واسلمت فلسطين للصهيونية العالميه فإن تجارب القومية العربية والماركسيه هى التى أثمرت نكسة ١٩٦٧ ، ومن ثم فان المسلمين قد عرفوا اليوم طريقهم الوحيد الذى يحقق لهم وجودهم وهو شرعتهم ونظامهم الربانى الجامع ، أن محاولة فصل الدين عن السياسة وهى نظريه غربيه صنعها الغربيون للتحرر من سلطان الكنيسة وهم الذين فرضوها على العالم الاسلامى لعزل دينه عن مكان القيادة والتوجيه ، ولكنها لم تجد تقبلا من الشعوب المسلمة ولم تستطع أن تحقق للمسلمين مايتطلعون إليه من عدالة وسماحة ورحمة الاسلام وشريعته ونظام التكفيل بتنظيم المجتمعيات وتحريرها من الفساد والاضطراب والتمزق .

ولقد كان فصل الدين عن الدولة وإثارة دعوى القوميات والاقليميات هى المفتاح الذى حقق للصهيونيه الوصول الى فلسطين وكانت الخلافه الاسلاميه والنظام الاسلامى هى الحاجز القوى أمام تحقيق هذا الهدف الخطير ، ولقد عرفت الأمه الاسلاميه أنها لا تستطيع أن تتقوقع فى الاقليميات والقوميات ولكن طريقها الحقيقى

الإسلامية الجامعة وأنه — كما تقول لومدند — أمام الوحف ألاسلامى لم تعد القومية العربية تتمتع بالتأثير الذى كانت عليه منذ عشرة أو عشرين عاماً عند ما كانت أى محاولة من المحاولات الوحدوية تثير حماس الجماهير من الرباط حتى بغداد. إن تجربة القومية العربية الحديثة التى قادها البعث والناصرية وقننها ميشيل عفلق وساطع الحصرى قد فشلت وأن العرب الآن يتجهون إلى التجمع مع المسلمين تحت لواء الوحدة والتضامن والاخاء الإسلامى وقد سقطت التجربة الماركسية الاشتراكية لأنها عجزت عن أن تحقق شيئاً .

أن تمايز الأمم وتباينها - كما يقول الدكتور محمد محمد حسين - مقصود لذاته لأنه هو الأصل فى تمايز الأمم ودفع بعضها ببعض وهو من سنن الله الكبرى ، وإذا كانت النظريات الرياضية والتجريبية واحدة لا تختلف باختلاف الأمم فإن النظريات السلوكية التى تقنن سلوك الفرد وسلوك الجماعة مختلفة متباينه تباين الأمم (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ويتميز المسلمون بالمقدار الذى يعتمدوا فيه على قيمهم وعقيدتهم وطريق الاتحاد هو نظم يحيل تعدادهم إلى جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد ومن طريق المخالفة لغيرهم الذى يصونهم من الذوبان والفناء فى غيرهم وهذا واضح من قوله تعالى (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فالآية تدعو المسلمين إلى الاجتماع عن طريق الاسلام من ناحية وينهاهم من ناحية أخرى عن اتباع طرق غير المسلمين لأنها تؤدى إلى تفرق جماعتهم . ولقد انكشف المخطط الاستعمارى الصهيونى الذى يدبر لتمييع الطابع المميز لشخصية الأمة الاسلامية تمهيداً لامتصاصها . والتجديد صفة لحركة إسلامية يمكن أن ترد جدته ليعود إلى صورته الصحيحة كما بدأ أو لينفى عنه ما شابه وخالطه مما انحرف به عن الجادة والاصلاح هو تخليص المجتمع الإسلامى الاسلام مما اعتراه من تحلل أدى إلى تخلف المسلمين، هذا هو تجديد الإسلام وإصلاح المجتمع ، أما الخطر فهو تطويع الاسلام لأشكال الحضارة الغربية ومفاهيمها وتطوير المجتمع ليكون فى نهاية المطاف صورة من صور المجتمعات الغربية ، أن النظم الجمهورية والديمقراطية التى تبدو فى ظاهرها تأييداً لسلطة الشعوب فى اختيار قادتها وزعامتها كانت تستهدف فى حقيقتها سيطرة اليهود بالتحكم فى اختيار أوليائهم لهذه القيادات والزعامات واستبعاد أعدائهم وخصومهم منها بسيطرتهم على الرأى العام والانتخابات عن طريق السيطرة على

رءوس الأموال ووسائل الأعلام ، هذا ومن ناحية أخرى فان علينا أن نثق بأن جميع النظريات الوافدة التى ظهرت فى البلاد الاسلامية هى مجموعة من النقائض حاولت أن تشكل بالمزج والتركيب نظرية ملفقة واضح منها التمحل والصناعة ولذلك فهى لم تستطع أن تثبت طويلا لأنها ضد طبائع الأشياء وضد الفطرة ، وستسقط هذه التلفيقات التى تجمع القومية والماركسية والثورة ، أو التى تجمع الوحدة والحرية والاشتراكية وليس هناك أصلح من النظرة الاسلامية الأصيلة الجامعة ، لقد فشلت هذه المسميات كلها فى أن تعطى عطاء حقيقيا وكانت ميزة الاسلام أنه صنع وحدة الفكرة الجامعة التى تحول دون الصراع الفكرى أو التمزق النفسى .

ولقد انتصر المسلمون فى كل معارك الغزو بالمعنى الاسلامى لا بالمعنى القومى وكل قضاياهم التى عالجوها بالمفهوم الوطنى أو الاقليمى أو القومى لم تحقق نجاحا يذكر ، ذلك أن المفهوم الاسلامى هو الذى احتوى المغول وحولهم إلى حماة للإسلام ، فى موقعة عين جالوت كانت صيحة « واسلاماه » وفى الحروب الصليبية برز عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين والظاهر بيبرس ، بل أن حركات التحرر من الاستعمار فانها لم تنجح إلا عندما ارتكزت على الاسلام ويبدو ذلك واضحا فى حرب التحرير الجزائرية وفى معركة العاشر من رمضان وكان قادة اليقظة والنهضة كلهم إسلاميون وكان غيرهم مشبوهون دائما ، وكذلك كانت جمعية العلماء وابن باديس والرابطة السنوسية والأزهر الشريف والسلفيون فى المغرب .

ويدرك اليهود وأنصارهم أن قضية فلسطين هى قضية إسلامية ولا بد أن تعود كذلك رغم كل ما يبذلونه لابقائها خارج دائرة الاسلام .

ومن هنا كان حرص أعداء الاسلام على إبعاد قضية فلسطين عن الحل الاسلامى ، باعتباره الخطر الحقيقى الذى يحطم وجود الصهيونية ويوصفه الصخرة الشامخة التى تدمر فوقها كل المطامع والمؤامرات .

ولقد ترددت كتابات كثيرة تتحدث عن معضلة التحدى الذى يواجهه العالم الاسلامى بين أصالته وعصريته وتلك مسألة يسيرة جد اليسر ، هو أن يلتمس

منهج الإسلام الصحيح عندئذ يأخذ بآخر اكتشافات العلم ومعطيات العصر وإنجازات الصناعه والزراعة ليدبرها فى دائرة مفهومه للحضارة الانسانية : عدلا ورحمة وأخاء بشرياً وهو فى نفس الوقت يحافظ على عناصر شخصيته ويبقى متمسكا بجذوره لا يفرط فى شىء منها فيقيم التقدم على معناه الجامع معنويا وماديا ويهىء المجتمع ليسير على سنن الله وشريعته ويدعو الانسان المسلم على أن يفهم رسالته وأمانته فى بناء المجتمع الربانى لا أن يخضع هذا المجتمع لأهواء الحضارة وسمومها وفسادها . إن رسالة الله الحق هى الاطار الذى يجب أن تتحرك فيه الأمم والمجتمعات والحضارات تحل حلاله وتحرم حرامه وتقيم حدوده وضوابطه حتى تستقيم على أمر الله وحتى يفتح الله لها بركات من السماء وتشهد البشرية مرة أخرى منهج الله مطبقاً والمجتمع الربانى قائماً على وجه الأرض يعز عزيزاً ويذل ذليلا وأنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً .

(١٨)

الذاتية الإسلامية

١ ـ تأصيل ذاتية الأمة الاسلامية

٢ ـ الاسلام والغرب

(٩)

تاصيل ذاتية الآمه الإسلاميه

لاريب أن أبرز معالم حركة اليقظة الإسلامية فى مطلع القرن الخامس عشر هى محاولة التأصيل الواسعة التى تطرح نفسها بقوة فى أفق الفكر الإسلامى لتحرير الحقائق وتصحيح المفاهيم وكشف الزيوف ودحض النظريات الباطلة وتقويض ذلك المخطط الاستشراق التبشيرى التغريبى الذى رسمته مؤسسات الغزو الثقافى فى الجبهات الثلاث : غربية وماركسية وصهيونية ولكل منها أهـــداف وقضايا ووجهات نظر وكلها توجه إلى الإسلام ورسوله وتاريخه ولغته وتحاول أن تنال من « ذاتية الاسلام » الخاصة المتميزة التى تختلف فى جوهرها ومظهرها عن تفسيرات الأديان والأيدلوجيات المتعددة .

وتصل حركة التأصيل اليوم إلى أبعاد مختلفة ، ولا تقف عند مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، بل تتعدى ذلك إلى كل مجال من مجالات الحضاره والأدب والتعليم والثقافة إلى أن تصل إلى فن المعمار أيضاً فى سبيل إحياء أسلوب العمارة الاسلامية بعد أن طغت ظاهرة العمارة الغربية كجزء من خطة التغريب التى تهدف إلى تقبل الوافد فى كل مجال دون تقدير لوجوه الحاجة والمنفعة والمظهر الجمالى وهوية الشخصية العربية الاسلامية المتمسكة بتراثها الحريصة على وجودها الخالص .

ولقد كانت محاولة ضرب ذاتية الاسلام والأمة الاسلامية هدفاً قديماً من أهداف الغزو والتغريب لصهر المسلمين وفكرهم فى بوتقة الفكر الأممى والوثنى والمادى العالمى وكان جهاد الأبرار من أعلام الاسلام منصباً على الحفاظ على هذه الشخصية الاسلامية القائمة على التوحيد الخالص أساسا والتى تختلف به وتتباين مع مختلف شخصيات الأمم الأخرى .

ولقد كانت محاولات الغرب فى إعلاء حضارته الادعاء بأن هناك حضارة

واحدة ، وأن الحضارة الاسلامية جزء منها وقد ثبت فساد هذا الرأى تماما كذلك فقد حاول الغرب فى صلف واستعلاء فرض منهج التاريخ على العالم قوامه التاريخ الغربى وعمد إلى تقسيم العصور التاريخية تقسيما مستمداً من ظروفه وأوضاعه فأذاع فكرة العصور الوسطى وحاول أن يعممها على البشرية كلها وتجاهل أن العالم الاسلامى إبان العصور الوسطى الاوربية المظلمة ظل ينشر الضياء والعلم على العالم ألف سنة كاملة ، وكذلك من أخطائهم تقسيم شعوب العالم إلى فئات وأجناس عليا وأجناس دنيا وقالوا إن تخلف الامم يرجع إلى أسباب عقلية وخصائص أصيلة فى عقلية تلك الامم وقد أثبت البحث العلمى المنزه من الاهواء أن تركيب الزنجى الذى يعيش فى أحراش أفريقيا واستعداداته الذهنية هى بنفس القدر ما ركب منها فى عقل الرجل الابيض الذى يعيش فى نيويورك ولكن الفارق هو الادوات والعوامل والظروف التى أتاحت لاحدهما أن يعمل وينتج بينما عجزت بيئة الآخر أن تحقق له هذه الفرصة .

ولقد أحيت الحضارة الغربية مفهوم الاستعلاء العنصرى ، والتفوق العرقى ، لتبرر استعمارها واستعبادها للشعوب الآسيوية والافريقية وهى فى هذا لم تخرج عن مفهوم الإمبراطورية الرومانية القديم : روما سادة وما حولها من عبيد .

لقد أخذت الحضارة الغربية مفهوم العبودية القديم الذى عرفته حضارات الفرس والفراعنة والرومان وحاولت أن تضعه فى صيغة براقة ولكنها فى أعماقها ما تزال تنظر إلى الاجناس الملونة نظرة الاحتقار .

كما تنظر إلى ما سوى الفكر الغربى المادى الوثنى المستمد من الفكر اليونانى والرومانى نظرة انتقاص ، ولا تحاول أن تكون منصفة فى نظرتها إليه أو إلى أهله مع أن الفكر الإسلامى قدم لها تلك الارضية التى قامت عليها الحضارة الاوربية الحديثة وهو المنهج التجريبى فضلا عن عطائه فى مجال الاقتصاد والاجتماع والتربية وأما الغرب فإنه حجب عن المسلمين كل أسباب القوة فى حضارته وعلومه ، بل إنه حجب عنهم تراثهم الذى سرقه من مكتباتهم ومساجدهم حتى لايستطيعون به أن يمدوا حضارتهم بما يمكنها من العطاء .

ولقد تعددت محاولات الغرب فى حصار الفكر الإسلامى واحتوائه والعمل على هدمه وتزييف وجه الإسلام الناصع ، وتم ذلك عن طريق :

أولا : أكاذيب الاستشراق .

ثانياً : مؤمرات التبشير .

ثالثاً : محاولات التغريب .

رابعا : دعاوى الحوار .

خامسا : مناورات الشعوبية .

سادسا : بعث الفكر الوثنى والباطنى والاباحى القديم وترجمة الفكر الوافد والهدف من هذا تحقيق غايات واضحة منها :

١ — محاولة هدم مشروعية الجهاد وتأويله تأويلا يخرج به عن طابعه الذى قام عليه الإسلام ، وهو مضى الجهاد إلى يوم القيامة وما يتصل بذلك من إعداد المسلمين للقتال والمرابطة والتأهب لكل محاولات الغزو .

٢ — محاولة هدم ترابط الدين والدولة بدعوى أن الإسلام دين عبادى وإنكار طابع النظام الجامع للمجتمع والدولة الذى قام عليه الاسلام وطبقه خلال أربعة عشر عاما .

٣ — محاولة انتقاص الشريعه الاسلامية واتهامها بأنها شريعة صحراوية ، أو أنها جاءت لعصر أو لبيئة مختلفة انكاراً لربانية الشريعة وإنسانيتها وصلاحيتها لكل البيئات والعصور .

٤ — محاولة التشكيك فى التاريخ الاسلامى وسيرة الرسول واللغة العربية الفصحى بقصد إثارة روح الانتقاص من أهل الاسلام لتاريخهم ودينهم ولغتهم .

٥ — محاولة تصوير الأديان كلها على أنها متلاقية وأن الخلافات التى بينها هى فى مسائل فرعية وأكاديمية وذلك لانتقاص ذاتية الاسلام وتفرده بخاصية التوحيد الخالص وتكامل الدين والدولة .

٦ — محاولة تمزيق الوحدة الاسلامية بإثارة روح العصبيات ودعـوات الأقلية والقومية وتفكيك الجماعة القائمة على أن الاسلام جنسية وأن كل أرض بها مسلم هى أرض إسلامية .

ولذلك ومن أجل هذا كله فإننا مدعون إلى تأصيل القيم العليا التى قدمها لنا هذا الدين الحق والتى هى أساس وجودنا ومقاومة الدعوات الضارة والهدامة وخاصة تلك التى تدعو إلى نبذ الماضى والتراث الاسلامى ، وإحياء الفلكلور والتراث الوثنى والجاهلى والفرعونى الذى قضى عليه الاسلام ، والتى تدعو إلى مهاجمة الشعر العربى والفصاحة العربية والخطابة بالدعوة إلى إحياء لغة وسطى وإحياء العاميات فإن هذه الدعوات ترمى إلى الفصل بين مستوى ثقافة الأمة وبين مستوى بلاغة القرآن ولسنا ضد الانفتاح أو الاقتباس ولكن على قاعدتنا الأساسية : وهى أن نعرض ذلك على قيمنا ومناهجنا فلا نقبل ما يعارضها وقد بين الباحثون المنصفون أن لكل دعوة من هذه الدعوات محاذيرها فإنها قد تؤدى إلى تقبل النواقص التى يشكو منها أهلها ويسعون لازالتها ، كذلك فان هناك خطر العمل على حجب الثقافة الاسلامية عن طابعها المميز لها وعزلها والدعوة إلى ثقافة عربية حديثة مرتبطة بالفكر العربى مع تجاهل كل ما يتصل بتاريخ ثلاثة عشر قرنا ، أن الأخذ من الغير مقيد بشرطين : الأول أن لا نأخذ المناهج ولكن نأخذ الأساليب والثانى أن لا نتجاوز طوابعنا وأصالتنا ولقد كان ذلك شأن الأبرار من أسلافنا ، فقد وفدت على البلاد الاسلامية دعوات ودعوات ولكنها لم تستطع أن تصهر الأصالة الاسلامية ، وقد تميزت الثقافة الاسلامية بأنها لم تعرف التجزئة ولا الانشطارية ولا ذلك الانفصال بين المادى والمعنوى ، وبين العلم والدين ، وبين الدنيا والآخرة ، وأن الفكر الاسلامى قادر على تجديد وضعه إذا انحرف عن المنهج الصحيح ، بالعودة إلى المنابع . وهو مؤهل اليوم لهذه الغاية ، فالحضارة الاسلامية التى توقفت عن العطاء تعود مرة أخرى لتجدد شبابها بمفهوم القرآن والسنه ولتؤدى دورها فى دورة جديدة بعد أن قدمت للإنسانية لمدة ألف عام شعاع النور والايمان ، وكذلك فان الحضارة الاوربية تغرب بينما تشرق مفاهيم الاسلام ، وتلك حتمية الحضارة التى خرجت عن

الفطرة وعن سنن الله فى الكون والتى انحرفت إلى المادية والاباحية وقد وصلت بتقدير الباحثين من أهلها إلى مرحلة التربية وإن تأخر بها السقوط ثمة .

والفكر الاسلامى المتجدد يفهم القانون الأساسى للحركة داخل إطار الثبات ويقيم قاعدة المواءمة بين القيم وبين الثبات والتعبير ، ولا يجرى وراء خداع صيحة التغيير المندفعة العشوائية ، حتى لا يقضى على الجوهر الثابت ، ولو اتهم هذا الأسلوب بالجمود أو المحافظة ذلك أنه من الحرص على الجوهر القائم الأصيل .

والفكر الإسلامى المتجدد يؤمن بأن أى إصلاح اجتماعى لا يجدى بدون والالتزام الأخلاقى ، فلا بد أن يتمسك المسلمون بقيمهم المعنويه والروحية والأخلاق فى مواجهه ارتفاع موجهه الاندفاع إلى الاستهلاك والترف واستعلاء الاستمتاع المادى فان الحضارات لا يسقطها إلا الترف والتحلل من الأخلاق الكريمة والعصبية ، والظلم وبذلك سقطت حضارة اليونان والرومان والفرس بل إن من قاعدة النصر أن يتحول المجتمع من الأنانيه إلى الغيريه ومن الشراهة الى انكار الذات . ويتحتم انقاذ الاقتصاد الاسلامى من براثن الربا حتى يظهر من هذا الاثم الذى حرمه الحق تبارك وتعالى ويمكن تغيير النظام القائم فى المصارف الى نظام المشاركة فى أرباح القروض .

وعلى المسلمين أن يحرروا مواريثهم الحضارية التى أفاء الله عليهم من الأحقاد والأطماع التى صبها عليهم أعدائهم وأن يدركوا أن طبيعة أعدائهم تدفعهم إلى أن يتآمروا على الاسلام كى يقضوا عليه وقد سجل القرآن هذا المعنى (ود كثيراً من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) .

وعلى الفكر الاسلامى أن يقاوم الموجه المادية الالحادية التى تنكر الايمان بالله الخالق وما يتصل بها من التفسير المادى للتاريخ وأن لا يحصر الانسان حياته فى مسائل العيش المادى وحدها ، وهو المكلف بحمل أمانة بناء المجتمع الربانى .

(٣)

الإسلام والغرب

حاول الغرب فى زحفة الاستعمارى على عالم الإسلام أن يحقق هدفاً أساسيا عاش فى أعماق النفس الغربية أكثر من ثمانمائة عام حتى عبر عن ذلك اللورد الليني حين دخلت قوات الاحتلال سوريا بقولته المشهورة : الآن انتهت الحروب الصليبية وذلك أن الغرب حين زحف ظلما وعدوانا للسيطرة على بيت المقدس تحت اسم الحروب الصليبية التى استمرت قرنين كاملين لم يستطع أن يحقق هدفه فى السيطرة على بلاد الإسلام فقد عاش حياة المقاومة المتصلة من أهل البلاد حتى انتهى هذا الوجود إلى هزيمة كاملة اضطرت فلول المحاربين الصليبيين إلى العودة إلى بلادهم .

ولم تلبث موجة المد الإسلامى أن تعالت فاقتحم العثمانيون قارة أوربا ووصلوا إلى أسوار فينا مرتين وسيطروا على البلقان أربعة قرون كاملة ، كانت أبعد أثرا وأعمق تأثيراً فى النفس الغربية حتى ضعفت القوة الإسلامية وجاءت الموجة الغربية للسيطرة على هذه البلاد . ومن هنا فقد كان الهدف الأكبر للنفوذ الغربى : هو قطع الجذور الأساسية لهذه القوة التى سيطرت على أوربا من ناحية آسيا الصغرى أربعة قرون ومن هنا لم يكن الاستعمار العسكرى والسياسى فى نظر الغرب كافيا ولكن كانت هناك محاولة للقضاء على مقومات القوة والقدرة التى تمكن هذا العالم الإسلامى من امتلاك إرادته مرة أخرى ، ومن هنا كانت محاولة التغريب والغزو الفكرى هى العمل الأساسى الذى يرمى إلى تجريد الاسلام من مقوماته الحقيقية التى تعطى أمته هذه القدرة على المقاومة والصمود والعودة إلى السيطرة مرة أخرى وهو ما أطلق عليه عبارة «حرب الكلمة» ، وهو العمل الذى حاولته مؤسسات التبشير والاستشراق ، والتى استهدفت التركيز على عوامل معينة منها تزييف مفهوم الجهاد فى الاسلام ، وفصل الدين عن الدولة ، والقضاء على النظام الاسلامى القائم على تطبيق الشريعة الاسلامية ، وإثارة الشبهات حول العقيدة والقرآن والتاريخ واللغة وسيرة الرسول الكريم .

وكانت عملية طرح مفاهيم الفكر الغربي في أفق الفكر الاسلامي وتوسيع دائرة اللغات الأجنبية وإحياء العاميات واستخدام المستشرقين وإرسال البعثات إلى الغرب كلها من العوامل والأدوات التي تستهدف إقامة « جيل » و أجيال من أهل التبعية والخضوع لمفهوم الاسلام على أنه دين عبادي والاعتزاز بالبطولات والأمجاد الغربية والتنكر للقيم الاسلامية والغض من قدر تاريخ الاسلام .

ومن هنا بدأ ما أطلق عليه المعركة بين الشاطئين : الشرق والغرب خاصة ميراث الفلسفة اليونانية والوثنية والمادية والفكر البشرى .

وكان اللقاء الغربي لعالم الشرق الاسلامي مختلفاً عن اللقاء الاسلامي لعالم الغرب فقد قدم المسلمون خلاصة تجاربهم وعلومهم في الأندلس وجزيرة صقلية دون أن يحجبوها عن أرادوها هذه الأصول التي أقام عليها الغرب حضارته الحديثة . أما الغرب فقد ادعى زمنا طويلا أنه لم يأخذ من المسلمين إلا الفلسفة اليونانية وعمل خلال فترة التقائه بعالم الاسلام على أن يحجب عن المسلمين تطورات العلوم والتجارب كلها وأن لا يقدم للمسلمين إلا أدوات الاستهلاك مع الجوانب الفاسدة من حضارته التي تتصل بالترف وأدوات الزينة والرفض والتحلل ، بعد أن مهد لها بالقوانين الوضعية التي دمرت المجتمع الاسلامي وأصابته بالادواء . لقد حرص الغرب أن يقدم للمسلمين شبهات الفلسفة وأن يحيى فيهم الفكر الباطني والوثني وشعر الماجنين ومؤلفات الاباحة والافساد أمثال ألف ليلة والأغاني ورسائل إخوان الصفا .

يقول الفريد كانتول سميث : إن الغرب كان ولا يزال يخاف القوة المعنوية الكامنة في عالم الاسلام الذي يجمعه وحدة التوحيد الخالص ، يخاف هذه القوة ويخشاها ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها والقضاء عليها وتمزيقها وبعث الخلاف والفرقة والصراع والخصومة والتناحر بين أجزائها . ولعل حماقة الغرب في مقاومة هذه القوة هو الذي دفعها على الالتقاء والتوحد والتجمع في كتلة واحدة. ويقول : لم يستطع الغربيون خلال هذه المدة الطويلة أن يكسبوا ود المسلمين بل حصلوا على شعور اجتماعي بالانتقاص عليه : هم ومن حاول أن يعنيهم داخل أرض الاسلام ، زاد هذه الكراهية قوة أن الغرب استعمل عمليات التبشير والتغريب والغزو الثقافي وسيلة للاذلال إلى جوار السيطرة الاقتصادية والمالية :

وكان شعور القسوة والعنف والحقد والتعصب واضحا فى الغرب أزاء كل ماهو عربى واسلامى، وآية ذلك حرق المجلدات الاسلامية فى ساحات مدينة قرطبة وتجمع الغرب كله لاخراج المسلمين من أوربا : الفاتيكان وايطاليا والفرنجة والجرمان والسكوت . كل القوى تضافرت من ناحية الأندلس ثم تضافرت من ناحيه البلقان ، وجاء رجالهم ليقولوا : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

لقد حرص الغرب بمختلف الوسائل وزعزعة هذه العقائد وتحطيم القوة التى مكنتهم من الحياة والمقاومة خلال أربعة عشر قرنا .

بل إن المؤرخين أثبتوا أن انتصار أوربا على المسلمين فى بلاط الشهداء لم يكن انتصاراً حقيقيا ولكنه كان فى تقدير الباحثين بمثابة صد للحضارة الإسلامية من أن تدخل أوربا سبعة قرون كاملة .

وقد أكد الباحثون الغربيون المصنفون حقيقتين : حقيقة أن الغرب تعلم من المسلمين وأن الغرب لم يعترف بالجميل .

يقول هنشو المؤرخ الإنجليزى : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . وقد نهج أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عن ماراوا الكفار الذين ينكرون من الناحية اللاهوتية من من دياناتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لاتصح معه المقارنة بينهما .

وقال جيمس برستد : إن العصر الإسلامى فى أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية فى أوربا وأن انخذال المسلمين فى أسبانيا كان بمثابة انخذال المدنية أمام الهمجية ولكن بدأ الغرب فى صوره غير المعترف بالجميل وغير المنصف للحقيقة العلميه أو التاريخية . وكان فى مفهوم ثقافته لا يرغب إلا فى السيطرة ولا يرى العدل والحرية إلا للجنس الأبيض .

ويقول الأستاذ محمد يحي الهاشمى معلقا على هذا العقوق :

إن انجلترا لأنها كانت تعادى الأتراك بحثت عن خصوم شرقيين لهم فلم تجد إلا الدوله الصفويين التى كانت بينها وبين العثمانيين حروب اكتست بلباس الدين لأن الصفويين شيعه أماميه العثمانيون فهم سنة حنفية، لذلك ترددت السفراء بين الصفويين والانجليز واستعان بهم الصفويون على تنظيم جيوشهم فيما بعد :

تقول جان بول رو فى كتابة الإسلام والغرب : كانت خريطة العالم الغربى ترسم انذاك أوربا: أرض المسيحية يجب أن تبقى مسيحية بكاملها وأفريقيا أرض الاسلام يجب أن تكون ملجأ للمسلمين ويجب أن توضع تحت الحماية ولم تكن الغرب فى استطالته وتعاليه يملك بعد الفكر الإسلامى إلا شذرات مضطربة من الفكر اليهودى والمسيحى المضطرب والفكر الاغريقى الوثنى .

وكانت اليهودية قد تأثرت كما يقول الأستاذ الهاشمى بالتفكير البابلى القديم فالتوراة لم يمكن جميعها إلا بعد موسى بنحو سبعمائة عام واستغرق تأليفها وجمعها زمنا متطاولا جدا تعرضت خلاله للزيادة والنقص والتغيير والتبديل وقال نولدكه : أنه من العسير أن تجد جملة متكاملة فى التوراة مما جاء عن موسى : إن التوراة لم تدون فى عهده ولا فى الجيل الذى رآه أما المسيحية فقد اهتمت بالانسان نفسه مفصولا عن المجتمع كما يقول ارنولد توينى ، وقد فصلت أوربا الدين عن الدولة نتيجة لتاريخ طويل من تحيز الكنيسة التى فرضت الظلم والتخاف باسم الدين فالجأتها إلى الأيدلوجيات فاستبدلت أوربا بالدين فكراً بشريا ولقد أسلمت الشعوب المسيحية قيادتها إلى الأيدلوجيات لأن الدين المسيحى لم يستطيع أن يمدها بالبناء الفكرى الكامل الذى يستطيع أن يفسر الأوضاع الاجتماعية وأن يمنحها الأمل والمثل الأعلى فى مستقبلها ولكن فى الاسلام الأمر غير ذلك » .

وهكذا نجد أن الغرب بمحصوله القليل واستعلائه يحاول السيطرة على العالم الاسلامى واحتوائه ويعمل أولا قبل كل شىء على محو شخصيته وذاتيته والعوامل التى تجعله متفردا بطابع خاص تحت اسم الدعوة الزائفة إلى وحدة الحضارة أو وحدة الثقافة وما هى فى الحقيقة إلا السيطرة على ثقافة الإسلام والقضاء عليها .

يقول ولفرد كانتول سميث: لقد عجز الغرب عن تحويل نظرة الكراهية إلى نظرة تقدير ولذلك فقد ووجه بنظرة الحذر والشك من عالم الاسلام :

إن محاولة الغرب لدراسة الفكر الاسلامى عن طريق الاستشراق ليست خالصة العلم ولكن من أجل أمرين :

(أولا) معرفة النفس الإسلامية للسيطرة عليها من جوانب ضعفها .

(ثانياً) القضاء على المقومات التى تعطى هذه الأمة القدرة على المقاومة أو الوقوف كشخصية مستقلة غير قابلة للانصهار فى الفكر الغربى العالمى أو الحضارة عالمية .

(١٩)

الوقوف في وجه التغريب

(١) تجربتان لتغريب الاسلام

(٢) محاولة تغريبية جديدة

(١)

تجربتان لتغريب الإسلام

كانت تركيا هى « بؤرة » التجربة التى قام بها النفوذ الأجنبى لتغريب الإسلام وكانت تجربة تغريب تركيا هى النموذج التى حاولت قوى الغزو الثقافى تقديمه للعالم الإسلامى للبلاد العربية وكانت حركة التغريب فى مصر ضالعة فى هذا ، محتفية أشد احتفاء بهذه التجربة المسمومة بل أن خيوطها جميعها كانت مرتبطة. فدوركايم الذى كان أستاذ ضيا جوك آلب قائد التغريب فى جامعة أنقرة هو الذى كان أستاذ طه حسين قائد التغريب فى جامعة القاهرة وكانت الدعوة إلى الطورانية فى تركيا هى الدعوة إلى الفرعونية فى مصر ، أو على الأقل الدعوة إلى التركية هى الدعوة إلى المصرية المفرغة من العروبة ومن الإسلام ، وفى تركيا كانت الدعوة إلى الحروف اللاتينية وفى مصر كانت الدعوة إلى العامية والحروف اللاتينية أيضاً .

وجرى طه حسين على الدعوة إلى دراسة الفلسفة ومقارنات الأديان فى كلية الآداب على نفس النمط الذى كان يجرى فى كلية آداب جامعة استانبول ، وكانت الدعوة إلى ترجمة آثار فولتير وروسو فى مصر هى نفس الدعوة فى تركيا وكذلك كان محاولة القول بأن الإسلام هو دين لاهوتى خاص بالعبادات هى الدعوة التى قادها طه حسين وعلى عبدالرازق فى مصر كما قادها مدحت وجاك آلب فى تركيا .

ويمكن القول بأن نفس التجربة تمت فى إيران : تغريب تركيا ، تغريب إيران ، ويرد (ت . كويلزيح فى بحثه عن تفاعل الفكر الاسلامى بالفكر الغربى فى إيران) ذلك إلى مقام الامبراطورية الصفوية فى القرنين ١٦ ، ١٧ حيث بدأ التفكير الغربى يتسرب إلى داخل إيران الجديد ، هذا العصر الذى إنعزلت فيه إيران عن عالم الناطقين بالعربية وباتخاذ المذهب الشيعى مذهب رسميا للايرانيين مما نتج عنه وقوع اصطدام بين الصفويين والعثمانيين ومن هنا بدأت عزلة إيران عن المجتمع الاسلامى واتسع نفوذ الغرب وكان

الصفويون وعلى الأخص عباس الأكبر يكرمون وفادة الأوربيين من رجال السياسة والعسكرية والتجارة والثقافة .

ونعتقد أن إيران قد سقطت فى هذه الفترة فى براثن النفوذ الغربى الذى أراد أن يحول دون وحدة العالم الاسلامى وأن يمزقه بالخلاف والصراع والحروب المتوالية على النحو الذى حدث بين تركيا وإيران .

ثم جاءت المرحلة الثانية عند ما تولى رضا شاه بهلوى (١٩٢٦ — ١٩٤١) حيث بدأت عمليات التوسع فى إنشاء المدارس الإرسالية والتبشير ، واتخاذ أسلوب التغريب والعلمانية وتغريب إيران على النحو الذى قام به كمال أتاتورك فى تركيا وتصارعت قوى نفوذ الثقافات الأمريكية والإنجليزية وكانت الغلبة الثقافة الفرنسية وكان الفرنسيون قد فتحوا أول مدرسة لهم فى تبريز ١٨٣٩ وكانت المعاهد الفرنسية هى الرائد الأول الذى أمد إيران بعلوم الغرب وأفكاره على حد تعبير كويلزنيح حيث لم تطل سيادة الثقافة الفرنسية بل برزت لها الثقافة الأمريكية وزادت حدة التنافس بين الثقافتين بصفة ملحوظة بعد الحرب الأولى ، وتحدث كويلزنيح عن البهائية وتفشيها فى إيران ومدى علاقاتها بالتفكير الغربى وقال لقد وجد بهاء الله فى الثقافة الغربية ما يلائم منطقه ويتفق مع مذهبه .

وتحدث عن هذه الحركة العلمانية وكيف قادها رضا بهلوى وباركها لتعزيب إيران وكيف ألغى الحجاب وأشاع الزى الغربى ، ووضع قانون مدنى على غرار قانون نابليون وفرضت القيود على احتفالات الشيعة بشهر محرم ففقد الناس حماستهم لهما وانصرفوا عنها .

وكان هدى أمثال ضيا كوك آلب من المفكرين هو المثل الأعلى المسيحى ، والمادى ، وفكر دوركايم وبرجسون والقانون الوضعى السويسرى ، وهى محاولة للقضاء على الشريعة الاسلامية على مراحل وبخطوات ماكرة ، ولم تكن هذه الحركة التى تهدف ظاهريا إلى التوفيق بين الدين والعلم إلا مسرحية فاشلة ذلك لأن أول قاعدة تهدمها هى أن الاسلام ليس ديناً بمفهوم المسيحية فى الغرب ولم يكن بينه وبين العلم أى صراع ، وإن قضية الصراع بين الدين والعلم هى

قضية غربية مسيحية محضة ، ولم يكن فى الاسلام فى الحقيقة رجل دين ولكن عالم دين ولم تكن هناك حكومة بثوقراطية فى تاريخ الاسلام مطلقا على النحو الذى عرفته أوربا .

يقول عبد الحق عدنان : فى هذا العصر ساد الفكر الغربى والفلسفة الوضعية الغربية بقوة الحكومة وتحول الأمر فأصبح (لا دينية تفرضها الإدارة) بعد أن كان حركة فكرية وقد عبر (المستشرق حب) عن هذا المعنى حين قال : (أن تركيا أصبحت ضريحا الفلسفة الوضعية) .

ونحن نعلم أن حركة الاتحاد والترقى كانت ضالعة فى الفلسفة الوضعية مشتركة فى مقررات المحافل الماسونية وكلها تهدف إلى « لا دينية » واضحة فى بناء المجتمع التركى الجديد القائم على أنقاض الخلافة الاسلامية والدولة الاسلامية الأولى فى تطبيق التشريع الاسلامى .

يقول عن الحق عدنان : وقد شب جيل من الاتراك لم يتلق تعليما دينيا ترعاه الدولة بل فرضت عليه الوضعية الغربيه بنفس العنف وعدم التسامح وحلت فى تركيا ثقافة محل أخرى ، إنه خضوع كامل لثقافة الغرب ومن ثم لا يمكن أن نقول بتفاعل الثقافتين العربيه والاسلامية فى تركيا فى وقت من الأوقات .

وفرض الشاه ارادته على رجال الدين الذين وقفوا فى وجه (التغريب) والذى يسميه حركة التحرير . ونحن نعرف كيف تابع محمد رضا بهلوى خطوات التغريب وتوسع فيها على النحو الذى بلغته ثم كيف سقطت هذه المحاولة لأنها كانت ضد الفطرة وضد جذور الاسلام العميقة فى التربة ، وكذلك الأمر فى تركيا التى عارضت على مدى خمسين عاما تغريبها وعلا فيها صوت الاسلام مرة أخرى .

أما فى العالم العربى فإنه استطاع بالرغم من كل المحاولات والمؤامرات أن يحتفظ بذاتية الاسلامية لأنه هو الذى حمل رسالة القرآن ودعوة الإسلام منذ اليوم الأول ذلك لأن دعوة اليقظة الإســـلامية قد انطلقت فى قوة على أثر سقوط الخلافة الاسلامية حاملة لواء تصحيح المفاهيم والكشف عن الحقيقة الجوهرية التى حاول النفوذ الغربى والتغريب خداع المسلمين عنها وهى القول بأن الاسلام دين عبادى بعد أن

حجب شريعته عن التطبيق ونظامه الاقتصادى واحل بدلا منها قانونا وضعيا ونظاما ربويا كما حجب نظام التربية الاسلامية حيث فرض نظامه العلمانى على التعليم ونظامه المادى على التربية والمجتمع .

ولقد واجه التغريب البلاد العربية بالدعوة الأقليمية والقومية الغربية ، إلى جانب النظام العرقى السياسى وخضعت البلاد العربية والاسلامية إلى هذه التنظيمات ولكنها لم يفعل بها ولم تستسلم لها وسرعان ماتبين لها فساد هذه الايدلوجيات وعجزها عن تحقيق أشواق النفس العربية الاسلامية التى صاغها القرآن وقامت على التوحيد الخالص ولذلك فهى سرعان ما عرفت مدى الخطر الذى يهددها ومدى إبعاد المؤامرة التى فرضت عليها باسم اعتناق أسلوب العيش الغربى .

وتساقطت كاوراق الخريف دعاوى التغريبيين فى القول بحضارة البحر المتوسط وفرعونية مصر وتشكك المسلمون فى دعاوى الربط بين جديد الغرب وقديم الإسلام ، أو مفهوم العلمانية أو الماديه أو الفكر الوثنى فى مجال العلوم الاجتماعية وغيرها أو تقبل الحضارة الغربية حلوها ومرها ، وتبين أن حاجة المسلمين هى العلوم التجريبية وحدها وكان تدريس العلوم المدنية فى برامج المدارس فى مصر وتركيا واحداً وكلاهما يرمى إلى خلق ذهنية لادينية بتدريس دارون وفرويد ودوركايم وحجب مفهوم الاسلام وكانت الثقافة وكان التعليم يهدفان إلى إيجاد ثنائية ترمى إلى فرض مدنية الغرب على أساس مفاهيم الاسلام كدين وليس كحضارة وبذلك يتلاشى إزاء أسلوب العيش الغربى وكانت هناك دعوة مشبوهة تقول بالجمع بين حاضر الغرب وماضى الاسلام فان ذلك من شأنه أن يؤدى إلى زوال الطابع الاسلامى شيئا فشيئا ازاء غلبة بريق العصر ومفاهيمه التى تعارض مفهوم الاسلام الصحيح ولقد استطاعت حركة اليقظة الاسلامية أن تقدم ميزانا أكبر عمقا وصدقا من هذ الميزان وهو عرض التراث القديم وعرض الحاجز المعاصر كلاهما على قاعدة الاسلام بمفهومه الجامع « منهج حياة ونظام مجتمع » أما أخذ العلوم والفنون المادية بأرضيتها الغربية فان ذلك من شأنه أن يزيل طابع الشخصية الاسلامية الذى هو الميزة الوحيدة للوجود الاسلامى فى الأمة ولابد

من أن نأخذ العلوم فى أطار مفهومنا الاسلامى ولغتنا العربية أما الفنون المادية فعلينا أن نحافظ على مفهوم الاسلام للفنون والآداب وهو يقوم على أساس مسئولية الإنسان والتزامه الأخلاقى وعلى أساس مفهوم التقدم الجامع بين المادى والمعنوى وعلى أساس أسبقية أخلاقية الفن على جمالية .

ولقد كانت المحاولة فى تركيا كما صورها (عبد الحق عدنان) فى بحثه : لقد كانت تجربة تفاعل الفكر الاسلامى والغربى فى تركيا جد قاسية فقد كانت وراءها قوى تهدف الى محو صفحة الاسلام من الفكر والمجتمع جميعا وكانت طوابع العلمانية واضحة فى فرض نفوذها على كل مجالات الثقافة والتعلم جميعا .

(٢)

محاولة تغريبية جديدة

(القضاء على تميز الإسلام بذاتيته الواضحة)

هناك محاولة تغريبية جديدة تظهر فى أفق المجتمعات الإسلامية ترمى إلى القضاء على تميز الإسلام بذاتيته الواضحة بحجة أن هذا التميز من شأنه أن يحول دون قيام وحـــدة الأديان أو قيام ما يطلق عليه الحضارة الكونية ، ومن هنا فإن بعض الجماعات التى ظهرت فى نطاق الحوار تتجه إلى فرض مناهج فى التعليم تطالب بتصحيح كتب التاريخ العربى والإسلامى وحذف صفحات الصراع بين الغرب والإسلام بحجة أن هذه الصفحات تحمل طابع التعصب وهى بذلك تحول دون إقامة تفاهم أفضل ، كذلك فإن هذه المحاولة تمتد لتفرض على مجموعات المسلمين المقيمة فى الغرب أسلوب خاص فى التوجيه يحول دون بروز طابع الإسلام فى هذه الجماعات ويرمى إلى توهين مفاهيمها الإسلامية وذلك على طريق صهرها فى مجتمعات الغرب ونحن نؤمن بأن هدف إقامة تفاهم أفضل بين الإسلام والغرب إنما يكون بتصحيح أخطاء الغرب نفسه التى تزخر بها كتب التاريخ الغربى والتى تنتقص دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية ، وكذلك اعلاء العنصر الغربى واللون الأبيض وعدم الاعتراف بذاتية الفكر الاسلامى وطابعه المميز المستمد من القرآن الكريم واستقلالية مفهومه الواضح الجامع الذى يختلف عن مفهوم الغربى الفكر الغربى وخاصة فى مجال التوحيد الخالص والتكامل الجامع بين الروح والمادة .

ونحن أساساً وقبل استعراض مختلف نقاط البحث نؤمن :

(أولا) بأن الخلاف بين الاسلام وتفسيرات الأديان واسع وعميق وفى مسائل أساسية وجذرية وخاصة بالنسبة للمسيحية (الصلب والتثليث والخطيئة) وأن محاولة توحيد الأديان محاولة قديمة وباطلة ، وهى من أهداف

الماسونية (وقد نقلتها إلى البهائية) لتمييع مفهوم الدين الحق والتوحيد الخالص ، وليس فى مفهوم الاسلام نفسه توحيد الأديان وإنما فيه تساندها على مقاومة الالحاد والاباحية المذاهب المادية وكشف الاعتقاد بوحدة الله تبارك وتعالى والتقاء الانسانية على الخير والاخاء .

(ثانياً) إن الاسلام يتميز بذاتيته الخاصة (من حيث أنه دين سماوى له كتابه الموثق) الحافظ لمفهوم الصحيح من التوحيد الخالص وتكامل الانسان : روحاً ومادة ، فى مواجهة التفسيرات التى اتصلت بالأديان الأخرى وبما أصاب كتبها المنزلة من تحريف ، فالاسلام يؤمن بأن رسالة الله إلى البشرية واحدة ، ولكن أصحاب الأديان غيروا وبدلوا وأن المفاهيم القائمة الآن والكتب التى فى أيدى الناس يختلف عن الدين المنزل على موسى وعيسى ومن هنا فإن الاسلام وحده الآن هو الذى يمثل المفهوم الحقيقى لدين الله الحق ، ولذلك فإن أى محاولة للاغضاء عن هذا المفهوم ، أو حجبه ، أو تغييره هى محاولة لاضاعة هذا التميز الذى عرف به الاسلام والذى يجب أن يكون قائماً فى وجه محاولات التغيير التى فرضت على الأديان والكتب السماوية ، وليكون قادراً على العطاء الحقيقى للبشرية فى أزماتها وحاجتها إلى المفهوم الربانى الأصيل وأنه لا سبيل إلى أن يفهم الاسلام على غير مفهومه الأصيل : منهج حياة فى نظام مجتمع وكل محاولة لتقديم فهم غير هذا فهى محاولة باطلة وقد حاول من قبل على عبد الرازق وغيره ورفضها المجتمع الاسلامى .

(ثالثا) أن الغرب قد واجه الاسلام منذ نزول دعوته وإلى اليوم مواجهة عنيفة قائمة على الكراهية والتعصب ، وقد مرت هذه المواجهة بمراحل مختلفة ، كان الغرب فيها هو البادىء بالعدوان وما حادث بيت المقدس فى الحرب الصليبية الأولى وقتل ٧٠ ألف مسلم فى يوم واحد ببعيد حتى وصف المؤرخون خيل الصليبيين وهى تخوض فى الدم إلى ركبها ، فهل يمكن فى مفهوم الحوار أو التقارب أن تختفى هذه الصورة من التاريخ الاسلامى ، بينما أن المسلمون فى حالة استعادتهم لبيت المقدس على أيدى صلاح الدين كانوا غاية فى السماحة والرحمة ، أن بعض

أهل الفتيا طلب من صلاح الدين المعاملة بالمثل فرفض صلاح الدين هذا الرأى وأصر على أن يكون موقف الاسلام سمحاً كريماً .

هذا الموقف يعطى صورة سماحة الاسلام ويعطى فى نفس الوقت صورة التعصب الغربى فكيف يمكن إزالة هذه الصورة من كتب التاريخ فى تلك المحاولة التى تريد جماعة (الاسلام والغرب) القيام بها .

إن الوحدة العالمية التى تدعو إليها اليونسكو هى محاولة باطلة حاولتها الحضارة الغربية وحاولتها الماركسية وتحمل الصهيونية لواء الدعوة إلى مثل هذه الوحدة تحاول أن تخضع العالم كله لها ، ويتساءل الدكتور هنريك رالف فى كتابه الانسانية والوطن : هو يجدر بالأمم الضعيفة المهضومة الحقوق أن تأخذ بالنزعة الانسانية وتضحى بالنزعة الوطنية وهل تفكر فى سعادة الانسانية قبل أن تفكر فى سعادتها ويرى هنريك رالف : إن النزعة الانسانية يجب ألا تعتنقها إلا الأمم القوية أما الأمم الضعيفة فإن لم تتمسك بوطنيتها إعتدت عليها الأمم القوية ويرى هنريك رالف إن أنصار السياسة العالمية إنما يروجون لمصالحهم الخالصة رغبة فى الاستمرار على بسط نفوذهم وسيادتهم على الأمم المهضومة الحقوق ويرى كثير من الباحثين : أن محاولة الغرب فى توحيد البشر إنما يعنى صبغهم بالصبغة الأوربية وطبعهم بطابعها وما دام الغرب يؤمن أن ليس الانسان فى مجموعة سيد الخليقة وإنما الانسان الأبيض وحده ، هذا الانسان الابيض الذى ندب لتطهير الارض وحماية الحضارة فإنه لا سبيل إلى هذه الوحدة .

هذا إجمال عام نقدمه بين يدى التفصيلات حول هذا الموضوع :

أولاً : فكرة الحضارة الكونية : قامت فكرة اليونسكو منذ ظهورها على أساس إلغاء فكرة القوميات وإعلاء ما يسمى بالحضارة العالمية والحضارة الكونية وهى محاولة للقضاء على مقومات الامم وصهرها فى البوتقة الاممية وآية ذلك أن أصدر اليونسكو كتابا ضخما تحت عنوان « الاديان الحية » الذى قدم به أكثر من عشرين دينا بشريا وأدخل فيها الاسلام كدين من هذه الاديان دون تفرقة بين الاديان السماوية المنزلة وبين الاديان الوضعية كالبوذية والكونفشيوسية

وذلك من قبيل التمويه على المثقف المستنير ورغبة فى هدم الفوارق بين الأديان المنزلة وبين الأديان الوضعية وبين الأديان وبين الإسلام ، وهى محاولة تحقق هدفا للصهيونية العالمية التى ترمى إلى ازالة التميز الواضح الذى عرف به الاسلام بوصفه رسالة التوحيد الخالص .

وهذا الهدف هو الأساس الذى ترمى إليه فكرة « الحوار » ، التى نبتت فى الحقيقة من خلال تلك المشاعر المتصاعدة فى الغرب والتى ترمى إلى اكتشاف الاسلام بوصفه دينا متميزا بمفهوم التوحيد الخالص ، والمحاولة ترمى إلى استخلاص بعض التصريحات من علماء المسلمين ترمى إلى القول بأن الإسلام لا يختلف عن المسيحية إلا فى مسائل جزئية أو الحصول على كتابات تصف تقدير الاسلام لسيدنا عيسى عليه السلام دون أن يحصل المسلمون على كتابات مماثلة عن سيدنا محمد لهذا الهدف الخطير .

وتستخدم هذه الكتابات فى مجال الحوار لاقناع الغربيين بأنه ليس ثمة فوارق كبيرة بين المسيحية التى يعتنقونها والاسلام الذى يتطلعون إليه .

ومن ثم تجىء الخطوة التالية الجزئية التى ترمى إلى تغيير كتب التاريخ الاسلامى لرفع العلامات المميزة فى الخلاف بين الاسلام والغرب وكلها خلافات بدأت من اقتحام الغربيين للعالم الاسلامى فى الحروب الصليبية فى المشرق وحروب الفرنجة فى المغرب ثم حروب الاستعمار الغربى الذى قيل أن بها انتهت الحروب الصليبية كما صرح اللورد اللنبى والتى مكنت الغرب من امتلاك نفوذ سياسى وعسكرى ثم نفوذ اقتصادى على أغلب بلاد العالم الاسلامى من اندونيسا شرقا إلى المغرب العربى غربا .

ثانياً : <u>تغريب مفاهيم الاسلام</u> : لقد كانت محاولة النفوذ الأجنبى هادفه أساساً إلى « تغريب » مفاهيم الاسلام وإخراجها من أصولها وذلك بالدعوة التى حمل لوائها القاديانى فى الهند والبهاء فى فارس وهى افساد مفهوم الجهاد فى الاسلام وتصويره على أنه حرب وقتال ومن ثم تعالت الدعوة إلى التحول من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، ثم توالت المحاولات لتفسير آى الجهاد فى القرآن تفسيراً محرفا ، وإلى حجب آيات الجهاد فى بعض البلاد المستعمرة كالهند والجزائر

وذلك فى محاولة الاحتواء الأسس التى قام عليها الاسلام وقد جاءت محاولة اليونسكو لتحرير كتب التاريخ الاسلامى من هذه الجوانب .

وذلك فى طريق المخطط المستمر الذى قام به الاستشراق والتبشير الذى يرمى إلى تغيير توجيه التاريخ الاسلامى بحجب صورة العلاقة الحقيقية وتغطية المؤامرة التى قام بها الغرب والتى واجه بها الامة الاسلامية بالحديد والنار وقاتل وعذب وسجن ونفى كل المجاهدين الذين قاوموا نفوذه ، وهى محاولة ظالمة ترمى إلى حجب المؤامرة التى قام الغـــــرب بها باجتياح بلاد المسلمين والقضاء على وجودهم .

وهى فى الحقيقة خطوة على محاولة تجريد الاسلام من مفهومه الصحيح على امتداد التاريخ وهى خيط جديد على طريق البهائية والقاديانية ، ومحاولات الماسونية فى سبيل فرض مفهوم الحضارة العالمية أو الدين العالمى الذى تظهره الرسالة بوضوح تحت اسم « الحضارة الكونية » ، وهو مفهوم فاسد يرمى إلى القضاء على مفهوم الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى اللذين يتميزان بذاتية خاصة .

ونحن نعتقد أن هذه المحاولة هى مرحلة جديدة على طريق الاستشراق تنتقل من اختبار الكتب والمناهج المسمومة التى تفرض للدراسة فى المدارس والجامعات فى البلاد الاسلامية الى توجيه وجهة التاريخ الاسلامى الذى يرمى الى بناء شخصية الإنسان المسلم والعربى ليكون واثقاً من عظمة تاريخ أمة وحضارتها ومنهجها الاصيل نحو انتقاص أعظم صفحاته وأقوى معالمه .

ثالثاً : التعصب فى كتب الغرب : لئن كانت هناك محاولة لمراجعة كتب التاريخ فإن هذه المحاولة يجب أن تجرى فى كتب التاريخ الغربى فيما يتصل بعالم الاسلام لإزالة ملامح التعصب والاهواء التى تجعل كتاب الغرب ينتقصون الحضارة الاسلامية ، وينكرون أثرها على الحضارة العالمية .

وكذلك فإن هناك تلك الفرية التى تقول بأن العالم كله قد مر بالعصور الوسطى مع أن هذه العصور الوسطى كانت هى سمة الغرب وحده الذى سقط فى ظلمات هذه القرون مدة ألف قرن كاملة من سقوط روما الى عصر النهضة ، بينما لم يعرف عالم الاسلام هذه القرون الوسطى التى كانت فى المشرق عصور نور

ونهضة وحضارة حيث أشرقت شمس الاسلام على العالم كله واتسعت حلقاتها من حدود الصين الى حدود فرنسا .

كذلك فإن كتب التاريخ الغربى تحفل بذلك الاستعلاء بالعنصر والدم : الإنسان الأبيض خالق الحضارة الذى لا يهزم ، فى مواجهة الإنسان الملون المتخلف للذى يجب أن يظل خاضعا ومستعمراً والذى لا حق له فى امتلاك مواردة أو السيطرة على مقدراته .

ومن ذلك الاستعلاء ، أن كتب التاريخ تعتبر الغرب وأوربا هى مركز الكون وأن العالم يمتد من شرقها ومن غربها ومن هنا ظهرت كلمات الشرق الأوسط والأدنى والأقصى بالنسبة للغرب ومن ذلك إعتقادهم أن الحضارة بدأت فى الغرب وانتهت إلى الغرب وأن ما بين ذلك لا حساب له وإذا كان هناك اعتراف بالحضارة الاسلامية فلأنها جزء من حضارة الغرب بينما الحضارة الاسلامية نتاج رسالة الاسلام ولها طابعها المتميز المختلف عن الحضارة الرومانيه والحضارة الحديثة ، وهى تتميز فى ذلك بمفهوم التوحيد الخالص والعدل والرحمة والاخاء الانسانى .

كل هذه العوامل وغيرها كثير تمتلىء بها كتب التاريخ الغربى وهى العوامل الحقيقية التى تحول دون التقاء عالم الاسلام والغرب ، كذلك فإن عالم الغرب ما زال ينظر إلى عالم الاسلام على أنه عالم متخلف ، وهو يفرض قيوداً كثيرة على انتقال العلم والتكنولوجيا إليه مع أنه واضع المنهج العلمى التجريبى فى الاساس ، وما زال يفرض على عالم الاسلام جماعات متعددة من جمعيات التبشير التى تدفع لها الدول الاوربية عشرات الملايين من الجنيهات لاخراج المسلمين من دينهم وكذلك هناك محاولات الاستشراق فى تزييف مفاهيم الاسلام وتاريخه ولغته وقيمه عن طريق طرح عشرات من الشبهات وفرض عديد من المناهج والايدلوجيات التى ترمى إلى تفسير التاريخ تفسيراً مادياً ، والتى تغرى شبابنا بدعوات إلى الماركسية والوجودية والفرويدية وكلها نظريات وفرضيات تقبل المناقشة وليست علما مقرراً .

رابعاً : إحتواء المجتمعات الإسلامية فى الغرب أما الأمر الخطير فهو تلك المحاولة لا حتواء المجتمعات الاسلامية فى الغرب فقد تعمد مخططات التغريب إلى توجيه المسلمين بمفاهيم ترمى إلى تذليلهم للمجتمع الغربى والانصهار فيه وليس انكوين مجتمعهم الخاص القائم على مفاهيمهم الاسلامية الصحيحة التى تحاول أن تقدم للغربيين ذلك النموج الجديد الذى تتطلع إلى النظر إليه والذى يمكن أن يقدم له صورة كريمة للمجتمع الاسلامى مطبقاً شريعة الاسلام ، وهذا جزء من خطة حجب صورة الاسلام الحقيقة عن الغربيين وهى تكملة لمحاولة القضاء على ذلك التصور الذى يكشف عن تميز الاسلام بمفاهيمه وقيمة: التوحيد والعدل والاخاء الانسانى عن تطبيقات الأديان الأخرى .

فالطوائف الاسلامية الموجودة الآن فى أوربا تستطيع إذا سمح لها بإقامة مجتمعاتها الخاصة على أساس التطبيق الاسلامى الصحيح للاسلام أن تكون نموذجا كريما يستطيع الانسان الغربى — الذى يعيش اليوم حياة القلق والغربة والتمزق نتيجة لمفاهيم الوثنية والمادية والوجودية — يستطيع أن يرى كرامة المجتمع الاسلامى وسلامة وسلامته وسماحته .

ولذلك فان المحاولة التى يقوم بها « الحوار » من خلال جماعة الاسلام والغرب تحاول أن توجه هذه المجتمعات لصهرها فى أتون الحضارة الغربية وحتى لا تتمكن من إبراز ذاتيتها الاسلامية الخاصة .

خامسا . إذا كانت النية صادقة وإذا كانت هناك نية حقيقية فى الغرب لاقامة تفاهم أفضل مع عالم الاسلام فان الوسيلة إلى ذلك واضحة نعم : فاذا كان الغرب حفيا بأن يقيم علاقات طيبة مع عالم الاسلام فان عليه أن يوقف أولا حملات التبشير المنبثة فى جميع بقاع العالم الاسلامى وخاصة فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وتلك التى تعمل فى الخفاء فى عشرات من الجامعات والمعاهد المبثوثة فى العالم الاسلامى والتى تحاول أن تخرج أولياء للثقافات الغربية ، وأن عليهم أن ينظروا إلى عالم الاسلام على أنه عالم له عقيدته وفكره ومفاهيمه التى استمدها من رسالة الاسلام والتى تختلف كثيرا عن الفكر الغربى بشقيه ، وذلك حقهم فى أن يقدموا

نظامهم ومنهجهم ، ما داموا يؤمنون بالإخاء البشرى ويقبلون التعاون العالمى مع الحضارة الغربيه بتقديم الخامات وما تخرجه أرضهم من معطيات كالبترول والمعادن فان من حقهم إقامة مجتمعهم ، فاذا اعترف الغرب وعمل له وأزال تلك المحاولات المكشوفة والمستورة لتغريب عالم الاسلام فان ذلك يكون هو العمل الصحيح على طريق التقارب بين الحضارتين الاسلامية والغربيه .

ولا يمكن أن يكون التاريخ ذو آفاق عالميه أو يدخل فى عهد كونى إلا إذا تخلى الغرب عن استعلائه ومفاهيمه المتحيزة ولا ريب أن أخطاء التاريخ الحائلة دون الالتقاء بين الاسلام والغرب ناتجة من تحيز الغرب وتعصبه فى استعلائه والاغضاء عن وزن القيم الاسلامية بالميزان الصحيح المبرأ من الهوى والغرض وأن من أخطر ما يدعى اليه المسلمون ما يسمونه لائحة (الموثوقات الجاهزة) التى يشترك فيها رجال الدين من كل ملة وأصحاب العقائد واللادينيين فان هؤلاء لا يقدرون مفهوم الاسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع حق قدره وغاية ما يرونه أنه دين عبادى لا هوتى وهو أمر يحجب جوانب كثيرة من معطيات الاسلام الحقيقية .

(٢٠)

قضايا مثارة

(١) قضية الانقطاع الحضارى
(٢) وثيقة لويس التاسع عشر
(٣) تحديات فى وجه التعليم والتربية الثقافية
(٤) مراجعات حول مادة إسلام
(٥) متى يعود الأدب العربى إلى أصالته

(١)

قضية الانقطاع الحضارى

تجرى محاولة خطيرة ترمى إلى رد العالم الإسلامى إلى كيان وهمى قديم ، وإعطائه الاستمرار التاريخى تحت إسم : حضارة السبعة آلاف سنة الفرعونية والفينيقية والفارسية والهندية وتجرى محاولة لإحياء هذه الحضارات القديمة .

والحق أن هذه الدعوة تتجاوز حقيقة تاريخية أكدها المؤرخون المنصفون، وهى أن الإسلام بظهوره وانتشاره قد قطع العلاقة بين الأمة الإسلامية وبين هذا التاريخ الوثنى القديم . وكل ما يتصل به من لغات وأديان وحضارات . ولقد قرر الباحثون الثقات بأن الإسلام كان عامل التصحيح الحضارى مع هذه الحضارات القديمة ، وبين الأمة التى دخلت بعد ذلك فى الإسلام .

استمرار الحنيفية السمحاء : دين ابراهيم

والواقع أن الاستمرارية الموهومة التى يحاولون جمع خيوطها ليست هى استمرارية الفرعونية أو الفينيقية أو غيرها ، وإنما هى استمراريه (الحنيفية الابراهيمية) التى بدأت بها الدعوة الى التوحيد ، والتى كانت رسالة محمد ﷺ ختاما لها ، وانقطاعية عما سواها ، هذه الانقطاعية الواضحة فى تاريخ البلاد العربية كلها منذ جاء الإسلام ، وبعد ألف سنة من اليونانية والرومانية الوثنية .

لقد كان الاسلام هو الخط الفاصل الحاسم فى تاريخ الانسانية ، فقد قطع الامتداد الفكرى والاجتماعى والثقافى بين ما قبل الاسلام وما بعده ، قطعه عن العرب أولا ثم فى كل مكان ذهب الية ، وقد ذهب الاسلام الى كل مكان وأثر فى جميع النحل والأقطار . قطع امتداد الوثنية فى العالم كله من ناحية العقائد والملل، وقطع امتداد العبودية فى العالم كله من ناحية الحضارات والأمم فقضى على استرقاق العبيد فى حضارات البراهمة والفرس والفراعنة والرومان ، وقضى على قيصر وكسرى جميعاً .

وبعد ، فماذا تعنى العودة الى ما قبل الاسلام: هل هى ممكنة؟ وما هو مفهومها؟

أن الباحثين الذين حملوا لواء الدعوة إلى الفرعونيه أو الفينيقية أو غيرها . لم يجدوا أى خيوط يمكن أن تشكل تراثا أو لغة أو ثقافة أو « فلــــكلورا » كما يقولون .

بل تبين لهم أن كل الحضارات البابلية والاشوريه وغيرها هى حضارات عربية حنيفية الأصل ، وقد كشف الابحاث عن زيف ادعاء ما حاوله التغريب والاستشراق بالتفرقة بين الفراعنة والعرب ، أو الفينيقيين والعرب، وذلك فى سبيل تمزيق المسلمين إلى أمم وعناصر، وكشفت الأبحاث الجادة عن زيف هذه الادعاءات وتبين أن المصريين الأولين وفدوا من بلاد العرب وعبروا البحر الاحمر، ونزلوا عند حدود الحبشة ثم تدرجوا إلى أن هبطوا وادى النيل ، وأسسوا دولتهم . وقد أحصى المرحوم الاثرى الكبير أحمد كمال باشا مايزيد عن خمسة آلاف كلمة متصلة الجذور بين العربية والفرعونية .

وما يقال عن الفراعنة يقال عن الاشوريين والبابليين والفينيقيين ، فهم جميعا موجات خرجت من الجزيرة العربية وإنماعت فى هذه المنطقة الممتدة من العراق إلى الشام إلى مصر إلى افريقيا ، وأن هذه الموجات توالت فى خلال فترات طويلة من القرون المتوالية قبل الاسلام ، وكانت ممهدة للموجة الاسلامية الضخمة التى حملت لواء الاسلام والتى وجدت — عندما تمددت — جذورا لها فى هذه المنطقة .

الإسلام حول مجرى التاريخ :

أما الانقطاع التاريخى بين ماقبل الاسلام وبين عصر الاسلام فإن أمره واضح ويعترف به حتى من هو أشد المؤرخين الاوربيين تعصبا فإن (هنرى بيرين) مؤلف كتاب (محمد — صلى الله عليه وسلم — وشارلمان) يقرر : « أن الاسلام هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الاوربى ، وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ، ثمرتان من ثمار الاسلام ، وأن مايقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدى إلى هذا التحول فى التاريخ هو قول خاطىء فان هذه الشعوب كانت من هوان الشأن ، وضيق الحياة ، إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان

نظرة العبيد إلى السادة ، فما كان يخطر لها — بل ما كانت ترغب أبداً — فى أن تناوىء روما وتقضى عليها » .

أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ، ولا سيما من الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تربيتهم ، فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا عن سطوتهم وسيادتهم ولقد ظلت الدولة الرومانية قائمة، وظلت حضارتها باقية، بعد أن اجتاز (الوندال) حدودها واستقروا فى نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما إلى بيزنطة « القسطنطينية » وأصاب حياتها العقلية والمادية شىء من الركود والفساد .

ولكن لم تكد تهب (ثورة الاسلام) وتسير ركائبه إلى أراضى اليونان ، حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار ، وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة ، حاصرت أوربا من الشرق والجنوب والغرب « بعد فتح الاندلس » . فاضطرت ملوكها إلى أن يوجهوا أنظارهم الى الجزء الشمالى من أوربا حيث قامت المعارك التى كتبت تاريخ أوربا فى العصر الوسيط ، وأبان العصر الحديث .

أما الجزء الجنوبى من أوربا فلم تقع فيه — فى تلك العهود — معارك الا معركة (بواتيه) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الاندلس بالخيانة والغدر لا بالقوة والبأس .

فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة، وأن انتقل مركزها من الغرب الى الشرق، ولظل البحر الابيض المتوسط بحرا رومانيا — بل قد سمى فترة بحر الروم — ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوربا الحديثة والثورات الفكرية التى تمخضت عنها الحضارة الراهنة .

وهكذا نجد أن الإسلام قد غير العالم كله .

لقد فتح الاسلام — حين جاء — صفحة للبشرية ، من حيث « عالمية » الرسالة وخلودها ، ودعا الامم القائمة إلى الدخول فى دين الله : لانه هو الدين الحق ، بعد أن زيف رؤساء الاديان مفهوم التوحيد ، ولقد أعلن الاسلام وحدة الدين ، ووحدة البشرية ، والتوحيد الخالص ، فحطم الوثنيه والاصنام . وعبادة غير الله

منهج الأخاء الانسانى ، فقضى على العبودية الفرعونية والقيصرية ، ودعا المسلمين إلى النظر فى الكون فأنشأ (المنهج العلمى التجريبى) الذى هو قاعدة الحضارة العالمية اليوم ، ولقد استطاع الاسلام لأنه الفطرة والحق ، وضياء النفس البشرية البشرية الأصيل ، أن يرجف فى خلال قرن ولا يزيد ، حتى سيطر على ثلاث قارات آسيا وأفريقيا وأوربا : من الصين إلى حدود نهر اللوار فى قلب فرنسا ، وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق . وتغلب على اللغات والأديان ، ونقل العالم كله إلى نور التوحيد ، ونفذ بأشعته إلى قلب أوربا ، فحررهم من الوثنية والرهبانية والمادية ، وأدخلها إلى عنصر النهضة ، وبذلك كان الاسلام هو العامل الأكبر ، الذى أدخل العالم كله إلى العصر الحديث .

وعبر الاسلام الشاطىء الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط فأدخله فى السلم كافة ، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو آسيا فأخرجت القبائل التركية فيما وراء النهر من الوثنية . وواصلت زحفها الى الصين ، وفى الغرب اقتحم الاسلام الأندلس ووصل الى نهر اللوار ثم لم يلبث أن اقتحم أوربا من البلقان حتى وصل الى أسوار فينا ، بل تعداها الى جبال الصرب والكروات .

من هذا كله نجد أن الاسلام كان عامل انقطاع حضارى عميق المدى . بين حضارات الفراعنة والرومان والفرس والهنود ، فبعد ألف سنة عاشتها هذه المنطقة بين يدى اليونان والرومان ، انداح فيها الاسلام ، ولم تلبث بعد عقود قليلة من الزمان ، أن تحولت الى رسالة التوحيد فنسيت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة وأقبلت على الاسلام اقبالا تاما ، ومع أن الاسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه . وانما قام حكمه العادل ، وأفسح لأهل الكتاب الحرية الكاملة فى فى حياتهم الدينية ، وحمى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل فى مختلف المجالات فى سماحه ورحمة ، غير أن الطوائف العربية الداخلة فى هذه البلاد سرعان ما انصهرت فى البيئات التى عاشت فيها ، ولم تشتمل عليها استعلاء سلطان أو استعمار ، وانما تآخت معها وأصهرت اليها ، ومن ثم فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا ، عندما تبينوا أن ذلك الحكم السمح العادل الذى حررهم من مظالم الرومان ، هو من عند الله ، لذلك فقد دخلوا فى الاسلام الذى كانت جذوره موجودة فى أعماقهم وضمائرهم . منذ رسالة الحنفية الابراهيمية ، التى جددها محمد ﷺ ، واتصل

بها بعد أن انحرفت . » فى مرحلة ما بينهما (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا) النحل : ٢٣ .

ومن هنا فإن الانقطاع ليس الا عن المرحلة القليلة التى تعثر فيها طريق الحنيفية الى العنصرية ، وكان هذا أمراً طبيعياً فى التاريخ فصر العربية قد انقطعت عن مصر الفرعونية انفصالا تاماً، لان مرحلة الفرعونية انحرفت عن الابراهيمية، وكذلك فان سوريا العربية قد انفصلت عن سوريا الفينيقية ، والعراق العربى قد انفصل عن العراق الاشورى والبابلى ، وبالاسلام عادت سيرتها الاولى الى الربط بين الحنيفية الابراهيمية والحنيفية المحمدية .

الجرى ضد تيار التاريخ :

وحين جرت المحاولات فى العصر الحديث لاعادة البلاد العربية الى تاريخها قبل الاسلام باحياء الفرعونية والفينيقية والاشورية ، فشلت هذه المحاولات فشلا ذريعا ، لانها كانت تجرى ضد تيار التاريخ ،

ويصور هذا المعنى العلامة علال الفاسى حين يقول : « ان العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول ﷺ لم تكن الا تمهيدا لابلاغ الانسان رشده عن طريق إكمال الدين ، بوجود محمد خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن محمد ﷺ بدعا من الرسل ، فقد سبقته نبوات ورسالات ، كما سبقته دعوات ربانية تشمل كل بقاع العالم ، ولكنها لم توفق الى البقاء ، وأصابها الانحراف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح ، لتفتح آفاق التقدم الانسانى فكان لا بد أن يبعث الله الرسول الخاتم وكانت مهمة النبى ﷺ أن يعلم الناس فى جو الرشد المبنى على العقل والروح على القلب والجسم ، ومن هنا فان كل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه ﷺ ، وبذلك يصبح الماضى وكأنه ماقبل التاريخ ،أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامى ،البشرية كلها مخاطبة تسير وفق ما ترشد إلى ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع .

هذه هى قصة الاستمرارية والانقطاع فى تاريخ البلاد العربية الاسلامية ، انقطاعية ألف سنة عن اليونان والرومان والوثنية، والحقيقة أن الاستمرارية هى استمرارية دين ابراهيم أبى الانبياء ، وانقطاعية كل ما سواه من محاولات عنصرية

وقبلية وعرقية وقومية ، حاولت أن تخرج بالرسالة الخالدة عن هدفها الأصيل وغايتها الكبرى :

ولذلك فليست هناك استمراريه فرعونيه، أو بابليه،أو أشووريه ، أو فينيقيه وإنما هناك استمرارية التوحيد الخالص وميراث ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وكلها على طريق الله الحق .

لقد ذابت كل القوى التى حاولت أن تسيطر على المنطقة الحنيفية الابراهيمية لقد ذهبت العنصرية وبقيت العقيدة الخالصه ، وانصهرت القبلية والعرقية كلها فى دعوة الله الخالصة ، وأن الوحـــدة التى التقى عليها المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها . وهى وحدة العقيدة والفكر والتوحيد الخالص ولغة القرآن . ولقد انهزمت كل عوامل العنصرية . والعرقية أمام قوة العقيدة والفكر ، وغلبت على فكرة الدم والنسب ، وغلبت لغة القرآن على كل اللغات القديمة ، حتى اضطر النصارى إلى ترجمة أناجيلهم إلى اللغة العربية بعد أن ماتت القبطية والسريانيه والارامية التى كان المسيح عليه السلام يتحدث بها الى معاصريه :

أن الارتباط بين الحنيفية الابراهيمية والرسالة المحمدية هو التصحيح السليم للاستمرارية ، بل هو التفسير الاصيل للترابط الاكيد الجامع بين عصور هذه المنطقه وأجزائها الجغرافيةوالتاريخية ، وهو ما تعمد المحاولات التغريبيةواليهودية الى التأثير فيه . وذلك حين تشكك المصادر اليهودية : فى مجىء ابراهيم الى مكة وبنائه البيت الحرام مع اسماعيل وذلك بسوء نية ، وهم يهدفون الى نفى الرابطة الجامعه بين ابراهيم واسماعيل ، وبين محمد عليهم الصلاة والسلام ورسالة الاسلام الجامعة الخاتمة ، التى هى رسالة الاسلام الممتدة منذ آدم عليه السلام ونوح .

لقد عمد الاستشراق الى تزييف العلاقة بين الحنيفية الابراهيمية وبين الاسلام ، واثارة الشكوك حول ابراهيم واسماعيل عليهما السلام،على النحو الذى قال به الدكتور طه حسين فى كتابه الشعر الجاهلى حين أنكر وجود ابراهيم واسماعيل ، بالرغم من ثبوت وجودهما فى التوراة والقرآن ، وان كانت الاحداث لم تلبث أن كشفت زيف ما دعا اليه طه حسين جرياً وراء الصهيونية فى دعواها بعد ظهور الحفريات التى كشفت عن كثير من آثار ابراهيم واسماعيل وأبناء اسماعيل فى شمال شبه الجزيرة العربية وحول الكعبة :

ومن الأسباب التى تدعو إلى إنكار الحنيفية الابراهيمية ، أنها يدخلها الكردى والشركسى والبربر والمسيحيون ، وهم يهدفون إلى إعلاء العنصريات للقضاء على هذه الوحدة التى هى « عربية اللسان » ولقد أكد هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى . إلا أن العربية اللسان الا أن العربية اللسان » رواه الحافظ ابن عساكر بسنده عن مالك .

ان الدعوة المسمومة الى اعادة بعث الاقليات والعنصريات القديمة ، انما تهدف الى أذكاء البغضاء والاحقاد بإثارة الفرقة ، بينما تقوم استمرارية الحنيفية السمحاء على وحدة الفكر والعقيدة ، وهى الوحدة الحقيقية وليست دعوى اللغة والتاريخ والارض التى يحمل لواءها العلمانيون الشعوبيون

---

* بدأت الدعوة الى التوحيد من عهد آدم واستمرت وأخذت اسم الحنيفية فى عهد ابراهيم .

(٢)

وثيقة لويس التاسع عشر

طهرت فى السنوات الأخيرة وثائق كثيرة كانت خافتة على المسلمين والعرب لها أثرها الكبير فى مصائرهم ومقدراتهم وإليهما يمكن تفسير أسباب هزيمتهم ونكبتهم ومنها يوجد المنطلق الى الأصالة الحقة.

* * *

بعد هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وجنوحه الى التأمل فى نتيجه خطته التى جرت عليه الهزيمة والاعتقال كتب مذكرة خطيرة أشارت اليها مراجع عديدة من كتب التاريخ الفرنسى وذكرها مؤرخه (جرانفيل) يحدد بها الموقف من العالم الاسلامى بعد هذه السنوات الطويلة من الحروب الصليبية والمعروف أن لويس كان يقود الحملة الثامنة لقد أشار لويس التاسع فى وثيقته الى أنه لا سبيل الى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة ، ذلك لان فى دينهم عامل حاسم هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفيس والدم رخيصا فى سبيل حماية العرض والارض وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم لانهم قادرون دوما انطلاقا من عقيدتهم إلى المقاومة ودحر الغزو الذى يقتحم بلادهم ، وأنه لا بد من ايجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيف هذا المفهوم عند المسلمين حتى يصبح مفهوما أدبيا أو وجدانيا وايجاد ما يبرره على نحو من الانحاء بحيث تسقط خطورته واندفاعته وأن ذلك لا يتم الا بتركيز واسع على الفكر الاسلامى وتحويله عن منطلقاته وأهدافه حتى يستسلم المسلمون أمام لقاء القوى الغربية وترويض أنفسهم على تقبلها على نحو من أنحاء الاحتواء أو الصداقة أو التعاون وحتى نحصل على نفس وثيقة لويس التاسع التى لم نتمكن من الحصول إلا على مقتطفات منها أورده الأستاذ محمد على الغتيت فى موسوعته التاريخية فإن الضرورة تقضى بدراسة هذا المصدر الذى كان له أثره فى ذلك المنحنى الخطير الذى تحولت إليه علاقات الغرب مع عالم الإسلام ، هذا الهدف الذى جندت له قوى التبشير والاستشراق

والتغريب والغزو الثقافى فى خطـــة محكمة مدبرة ما زالت مفروضة على العالم الإسلامى منذ عام ٥١٥ هجرية الموافق ١١٢١ ميلادية ، هذه الخطة التى سيطرت عليها من بعد قوى الصهيونية العالمية مما ستفسره فيما بعد .

الهدف هو : إيقاف توسع الإسلام ومحاصرته من ناحية واحتوائه فكرياً حتى يصبح عجينة طيعة فى يد : الفكر العالمى الأممى تمهيداً للوثوب عليه ومن الوسائل إنشاء مؤسسة لحرب الكلمة واستخدام من يمكن إغرائهم من مسيحى الشرق وإنشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق الإسلامى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزاً لدعوته السياسية والدينية وقد عين لويس التاسع مكان تلك القاعدة فى الأراضى الممتدة على ساحل البحر المتوسط من لبنان إلى فلسطين والأردن وسوريا ولا ريب أن أولى علامات وصية لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة إنما توحى بنهاية خطة وبداية خطة أخرى أشد عنفا وان كانت أطول معركة . بما يشعر الى نهاية الحروب الصليبية وعبرتها كانت تتمثل فى بداية المخطط الجديد للغزو الثقافى والفكرى الذى يستهدف دحر الاسلام كفكر بعد العجز عن دحر أمته أوفى سبيل دحر هذه الأمة بعد دحر فكرها لقد تبين الغرب من خلال مراجعه لويس التاسع لتجربة الحروب الصليبية : أن المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ أولا : من تزييف عقيدتهم الراسخة التى تحمل طابع الجهاد والمقاومة التى تدفع بألوفهم الى ساحات الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن الحق وعن الأرض وعن العرض ، اذن فهذه هى بداية المعركة ولا بد إذن من تزييف هذه العقيدة وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وايمان وذلك بالتفرقة بين العقيدة والشريعة أو تصوير الاسلام بصورة دين عبادى كالمسيحية وفصل الدين عن الدولة ، حتى يفقد المسلمون ذلك السر الخطير الكامن فى أصالة عقيدتهم وجوهر دينهم وعندئذ يصبحون قطيعا من السائمة التى تنطوى وتقهر ومن هنا بدأت معركة أطلق عليها :

التبشير ، الاستشراق ، التغريب ، الغزو الثقافى ، الاحتواء :

وقد وجدت هذه المعركة أقلاما اسلامية بالوراثة تخدمها وتقدم ما يريد لويس التاسع على نحو ما قال طه حسين وعلى عبد الرازق من دعاوى الفصل بين الاسلام والمجتمع وبين العقيدة الدينية والادب والسخرية بما أورده القرآن ودعوه الشباب

إلى نقده والنظر إلى الصحابة على أنهم من محترفى السياسة ، على النحو الذى عاش على خدمته صاحب كتاب الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء والفتنة الكبرى .

وإذا راجعنا وقائع التاريخ العربى فاننا نجد أن وصية لويس التاسع قد وضعه موضع التنفيذ بعد سنوات قليلة من هزيمته وقتله فى الحملة الصليبية التاسعة على تونس فقد بدأت حركة أوروبا المعروفة إلى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام وبدأت نواة التبشير والاستشراق فى المعاهد الأوروبية : دراسة اللغة العربية والإسلام والقرآن من منطلق الرد عليه وانتقاصه وإثارة الشبهات حوله وقد ظاهر هذه الحركة عملية خطيرة هى « سرقة » التراث العربى الاسلامية بواسطة القناصل والتجار وهى سرقة بمعنى الكلمة لأن محاولة الاستيلاء على مراكز الفكر الاسلامى فى جامعات الاندلس وطرد المسلمين منها كانت أيضا « سرقة كبرى » بالرغم من أن المسلمين كانوا يؤمنون بأن العلم للبشرية كلها ، حتى العلم التجريبى الذى هو الآن من أسرار الأمم الحديثة ، والذى عجز المسلمون والعرب خلال قرن ونصف قرن إلى الآن عن الحصول على أصوله ومعادلاته أما المسلمون فكانوا يعلمونه فى جامعات الأندلس وجزيرة صقلية فى حرية تامة ولكل الناس ، أما الغرب فانه فى تناهى حقده لم يقف عند حد « مصادرة » العلم الاسلامى ومعامله وكتبه ووثائقه فحسب بل إنه أخرج منه المسلمين الذين هم من أهـــل الأندلس بعد ثمانمائة عام إخراجا حتى يكونوا عاجزين عن مواصلة تجاربهم فى أى أرض أخرى إذا هاجروا إليها .

وإذا كانت الحروب الصليبية قد توقفت عام ٦٩٠ هـ فان أوروبا لم تتوقف عن الحروب ، فقد بدأت حركتها كرة أخرى بعد وقت قصير حين تدافعت قواتها بعد سقوط الأندلس على الطريق الافريقى من ناحية الغرب دون توقف : الاسبان والبرتغال ومن ورائهم الهولنديين والإنجليز والفرنسيين انتقاما من المسلمين الذين قدموا لهم نور العلم والحضارة فى الأندلس .

أما فى أفق البلاد العربية فان عام ١٨٣٠ كان هو علامة الخطر حين بدأت فرنسا فى غزو (الجزائر) وامتدت المعركة إلى تونس فمصر والسودان ، منذ ذلك اليوم بدأت نتائج الغزو الفكرى تبرز ، وأخذت طلائع التبشير تعمل ، فانه فى نفس

الوقت كانت قوى محمد على تنسحب من الشام ١٨٤٠ حيث سيطرت قوى الغرب على هذه المنطقة التى اختارها لويس فأقامت فيها ماأطلق عليه حكومة خاصة داخل الدولة العثمانية وكانت معركة ١٨٦٠ التى أثارها الفرنسيون بتأييدهم للموارنة والانجليز بتأييدهم الدروز منطلقا إلى إنشاء هذا الكيان الذى تلاقت فيه قوى التبشير الكاثوليكية الفرنسيه والبروتستانتيه الأمريكية والذى ما زال قائما حتى الآن .

فى الفترة الأولى من عام ١١٣١م إلى ١٨٣٠ كان الاستشراق يضع السموم ومن ١٨٢٠ إلى ١٩١٨ كان التبشير يجتاح البلاد عن طريق الارساليات . معاهد وجامعات فى استانبول والقاهرة ولبنان لها نفوذ داخل فى نفوذ الامتيازات الأجنبية ولها مناهج دراسية قائمة على تدمير الاسلام وتاريخ الاسلام ولغته وعقيدته وإذابة الأجيال الجديدة فى سموم الغرب وعظمة تاريخه ، واحتقاره لأمته ودينه . ومن هذه الأجيال جاء الأمراء والسادة والقادة والوزراء الذين سيطروا فى ظل حكومات الاستعمار والاحتلال والذين أخذوا مناهج التعليم التى وضعتها معاهد الارساليات فجعلوها مناهج المدارس الوطنية وفى عديد من مصادر اللقاء بين الشرق والغرب نجد الاشارة منسوبة الى وصية لويس التاسع حتى لايتنبه اليها المسلمون ، هذه الوصية التى تدعو إلى تجنيد المبشرين الغربيين فى (معركة سلمية) لمحاربة تعاليم الاسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا ، واعتبار هؤلاء المبشرين فى تلك المعركة أعظم جنود الغرب .

إذا كان هذا هو تصورنا لوثيقة لويس التاسع التى ظلت خافية سنوات طويلة حتى تكشفت هذه الأعوام ، فانما مثلها مثل بروتوكولات صهيون التى حجبت عن المسلمين والعرب منذ ظهورها ١٩٠٢ حتى عام ١٩٤٨ وهو عام قيام إسرائيل عندما سمح الاعلام الصهيونى للصحافة العربية بأن تشير إلى هذه البروتوكولات التى لاتوجد عنها إشارة واحدة فى مجلات الهلال أو المقتطف أو المنار أو غيرها قبل هذا التاريخ .

أقول إذا كان هذا تصورنا لوثيقة لويس التاسع ومدى أبعاد الخطر الكامن فيها فان الاستاذ نبيه أمين فارس (أحد كبار أساتذة الجامعة الامركية فى بيروت) قد كشف عن هذه الصفحة بكل جرأة وقوة فى بحث له نشر عام ١٩٥٨ فى مجلة الابحاث .. يقول هذا المؤرخ العربى :

« بينما كان الشرق الأدنى مطمحا لأفكار بناة الامبراطوريات كان أيضاً مطمح أنظار جماعة أخرى من الناس تنشد أن تنجز عن طريق «الكلمة» ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة أخرى تنشد احتـــلال مهد المسيحية وإخضاع العالم للمسيح ، إن هذا الحلم المسيحى قديم قدم المسيحية ذاتها وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية العظمى كما سجلها أول المبشرين : القديس لويس .

« ولعل سبب سيطره هذه الوصية كرة أخرى على عقول المسيحين يعود إلى اليقظة الدينية التى عمت انكلترا فى أواخر القرن الثامن عشر ، واليقظة الدينية المقابلة لها فى الولايات المتحدة التى تمثلت فيما سمى بروح إنجلترا الجديدة ، وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التى كرست نفسها لحمل الانجيل إلى جميع البشر ، ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين : عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية فى ممتلكات رجل أوروبا المريض (يقصد الدولة العثمانية الاسلامية) ومن المحتمل أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميدانا مفضلا للنشاط التبشيرى . ومن أهم هذه الجمعيات التبشيرية التى ظهرت فى هذه الفترة : الجمعية التبشيرية الكنسية التى أسست فى لندن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكى لمندوب البعثات التبشيرية وقد أرسل المجلس الأمريكى بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشرية إلى الشرق الأدنى ، ولما كانت المشكلة الأولى التى واجهت أولئك المبشرين هى اختيار مركز ملائم لهم ، وقـــدم سوريا عام ١٨٢٣ مبشران آخران وانتقلوا إلى بيروت ، وكان غرض البروتستانيون أن يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب (الكفار) إلى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا : أن الاسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين ، وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال (السيف) وفى سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية أولا فى مالطة ١٨٢٢ وفى بيروت ١٨٣٤ وأخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثا وثلاثين فى أقل من هذا العدد من السنين وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة ، مهمة أعداد ترجمة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حمل لواء الحرية الدينية بصورة خاصة والمطلقة بصورة عامة ، الخ .

ولقد كان أبرز ما استهدفته وثيقة لويس التاسع : القضاء على فكرة الجهاد ويكشف الدكتور محمد تقى الدين الهلالى هذا السر فى مقال نشره عام ١٩٣١ فى (الفتح) عن سير هذا المخطط فى الجزائر : إن هؤلاء الأوربيون الفاتحون المبعدين للأحرار المخربين الديار ما زالوا يحرمون عبيدهم من كلمة (الجهاد) ويعدون ذكره فضلا عن فعله من أعظم الذنوب ، وهو عندهم آية الهمجية ، والتعصب الدينى الممقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر أن حرموا تفسير آيات الجهاد فى كتب الفقه وبعينى شاهدت صحيفة الآذن الفرنسية .التى حصل عليها شيخنا محمد بن حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى مدينة المشرية قسم وهران من الجزائر وفيها ما يلى :

« أن الآذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر أى آية أو حديث يدل على الجهاد ، وأن لا يدرس شيئاً من أبواب الجهاد فى كتب الفقه ، ولما راجت دعاية هؤلاء فى الشرق صار المسلمون ينفرون من لفظ « الجهاد » . .

ونقول بل أن الأمر قد بلغ غايته فى تنفيذ وثيقة لويس التاسع فقد أعان الإنجليز فى الهند على ظهور نحلة تدعى الاسلام وتلغى الجهاد وتنكره إنكارا هى نحلة « القاديانية » والأحمدية الذين يفسرون الجهاد تفسيراً مؤولا ، والذين يدعون إلى الخضوع للحاكم المستعمر ويعدون ذلك من مفهوم الاسلام فى نحلتهم .

وبعد فإن فى تقديرى وتقدير الكثير من الباحثين اليوم أن المسلمين أنما طعنوا من طريق التعليم الذى بدأته معاهد الإرساليات وسارت على مناهجه أغلب المدارس الوطنية والذى تنقل الدول العربية مناهجه اليوم من نفس المصدر الأول الذى أنشأه تلاميذ لويس التاويع وأتباعه ، وخاصة ما رسمه (دنلوب) وما زال سارياً وما رسمه طه حسين فى مناهج الجامعات مستمداً إياه مما وضعته الجامعات التبشيرية فى بيروت ولهذا الأمر حديث طويل فى تفصيلة ولكن العبرة الآن هى : أن هذا هو (مدخل) الغزو الثقافى وسيطرة التيارات الوافدة ، وهو أيضا فى نفس الوقت (المخرج) إلى فهم تعليم إسلامى لا سبيل إلى النجاة إلا به .

(٣)

تحديات فى وجه التعليم والتربية والثقافه

أولا : هذه « الفجوة » التى دخل منها الغزو الثقافى :

هذه الفجوة هى : «التقصير» الذى عجزت عنه مناهج المدرسة فى تربية التلاميذ المسلمين وتعليمهم «مفهوم الإسلام الصحيح» على النحو الذى يمكنهم من مواجهة التحدى الخطير الذى أصابهم فقد قيل لهم أن الإسلام دين عبادة وصلاة وصوم وأن مقر الدين المساجد ، فخلت الحياة الاجتماعية منه وبذلك عند ما جاءت موجات الغزو الثقافى فقد وجدت فجوة واسعة وفراغا كبيرا فى النفس المسلمة فتعلق بها الشباب فاعتنقوا مفاهيم مضللة من الفلسفات الغربية والدعوات الهدامة التى طرحت أمامهم .

لقد كانت هذه الفجوة هى مصدر التأثر بالفكر الوافد والاستسلام وتقبله لأنه لم تكن هناك وجهة نظر مبسوطة بالنسبه لعشرات القضايا التى قدمها الغزو الثقافى تهدف تغريب هذه الأمة لقد كانت « الفجوة » هى الثغرة وكان المطمح الأساسى للسيطرة هى مناهج التعليم والمعرفة والثقافة . . فقد قال لهم لويس التاسع أن حرب الكلمه هى المنطلق الوحيد للسيطرة وأن المسلمين لا يهزمون من موقع الحرب ولكن من موقع الفكر وأن دينهم أعطاهم منهجاً أصيلا محكما يمكنهم من مواجهة كل غزو والتغلب على كل محاولة لاحتوائهم ، أنه « الجهاد » : هذا الخطر الماثل الذى حاولت مناهج التبشير والتغريب إسقاطه بالتأويل وخلق وتكوين الفرق الضالة التى دعت إليه كالقاديانية والبهائية .

ولقد كان تسلط النفوذ الغربى قد بدأ من هذه النقطة الخطيرة فقد كان الغربيون الغزاة للعالم الاسلامى يعلمون أن المسلمين يمرون بمرحلة من الضعف والتخلف فى مجال الفكر الاسلامى والمفاهيم الاسلامية ، فقد كانت علوم الاسلام قد تأثرت كثيراً بالتقليد وخرجت من مفهوم الأصالة والمنابع الأصيلة إلى شىء غير قليل من الجمود وجبرية الصوفية وكان علماء المسلمين قد أخذوا فى تحرير الاسلام من قيد التقليد والجمود (بظهور دعوة التوحيد فى الجزيرة العربية وقد توسعت فى

بلاد العالم الاسلامى) حين دهمتها خيول الاستعمار فحالت دون تحقيق هذا الهدف النبيل . ثم سيطر النفوذ الأجنبي على التربية والتعليم والثقافة ووجه المناهج الدراسية وجهة صورت الاسلام بصورة الدين العبادى القاصر على الصلاة والصوم والمحصور فى المساجد وبذلك استطاع النفوذ الأجنبي أن يحجب الشريعة الاسلامية فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع وأن يطرح مفاهيم تكون جيلا من الليبراليين والاقليميين والديمقراطيين والقوميين وغيرهم الذين لا يرون الاسلام داخلا فى مناهج الحياة والمجتمع ، ومن ثم فقد وقعت أزمات كثيرة فى مجال اللغة العربية وتاريخ الاسلام وأصول التربية .

ولقد فتحت هذه الفجوة للنفوذ الاجنبى مجال السيطرة على أجيال كثيرة رأت الفكر الغربى وتاريخ الغرب أمامها سامقا وصغرت النفوس الاسلامية العربية أزاء هذا وتضاءلت وامتلأت بشيء غير قليل من المهابة للغرب ومن الانتقاص لأمتهم وقيمهم ، ولو دروا لوجدوا أنهم يملكون أعظم كنوز الدنيا لأنهم يملكون المنهج الربانى الأصيل الذى جاء به القرآن الكريم دينا ونظام مجتمع ، وهو خالد شامل جامع قادر على معاصرة الأزمان ، ومؤازرة البيئات مهما تغايرت واختلفت لأن إطاره المرن الواسع الذى أنشأه الحق تبارك وتعالى ما يزال حيا نابضاً بالحياة معطيا حلولا لكل مشاكلها وأزماتها ، لا يمكن أن تتجاوزه الأيام ولا الأحداث .

وأنه ليس كالمناهج البشرية والايدلوجيات التى صنعها العقل الانسانى العاجزة عن العطاء ، والتى لا تستطيع أن تتحرك إلا فى حدود عصر وبيئة وسرعان ما تتجاوزها المتغيرات فضلا عن أن ما يصلح منها لعصر ولا يصلح لعصر آخر ، وما يصلح لبيئة ولا يستطيع أن يصلح لبيئة أخرى ، ولقد عجزت الايدلوجيتان الغربيتان : الرأسمالية والاشتراكية عن أن تعطى النفس الانسانة فى الغرب مطامحها وأشواقها ففشلت بعد تعديلات وحذف وإضافات ، ولا تزال البشرية تتطلع إلى نظام جديد ، فى الاقتصاد والاجتماع بعد أن تحطمت الاسرة الغربية وبعد أن تعالت صيحات التضخم والانحراف والتمزق النفسى والفساد الخلقى والاجتماعى .

هذه « الفجوه » التى دخل منها النفوذ الاجنبى إلى عالم الاسلام ما زالت فى حاجة إلى جهود واسعة لسدها ، وهى لا تزال حتى الآن قائمة لان النفوذ السياسى

والعسكرى الغربى حين انسحب من هذه البلاد خلف نفوذاً فكرياً ونفسياً مسيطراً على الفكر والثقافة واللغة والأدب والمسرح والفنون والتربية والتعليم .

ولا تزال الطوابع الاسلامية بعيدة عن هذه الميادين كلها ، ولا تزال هذه الميادين كلها خاضعة للنظريات الوافدة لم تتحرر بعد منها بالرغم من الضربات المتوالية التى واجهت عالم الاسلام من النكبة والهزيمة والنكسة التى كانت فى مصدرها الأساسى : إصطناع أساليب الغرب وتصوراته ومناهجه فى فهم الحياة وعلاقات المجتمع وفى النظر إلى الأمور من وجهة نظر خلفتها مناهج التبشير اوالاستشراق على أديم الحياة الاجتماعية على أديم الحياة الاجتماعية الاسلامية .

إننا ما زلنا فى حاجة شديدة إلى تقديم المفاهيم الاسلامية الصحيحة ، فى مختلف هذه الميادين وأهمها ميادين التربية والتعليم والثقافة التى يجب أن تستمد مصادرها الأصلية من القرآن الكريم ومن السنة الصحيحة والتى تستهدف تغيير الأعراف نحو المفاهيم الربانية وليس فى تبرير الواقع المعاش الخاضع للتغريب وللمفاهيم الوافدة عن طريق التأويل أو دعوى الخضوع للعصر أوالأخذ بالرخص والحلول التى تتبع فى عصور الضعف أو حالات الاضطرار فإن نهضات الأمم لا يمكن أن تقوم على العزائم وعلى الأصول الاصيلة والمفاهيم الواضحة ، ولا يمكن أن يخرج المسلمون من الأزمة القائمة إلا بمفهوم صريح واضح : يرمى إلى إعادة بناء المجتمعات من جديد على أساس حدود الله وإحلال ما أحل وتحريم ما حرم .

إن هذه المحاولة التى تمر بها المجتمعات الاسلامية اليوم فى محاولة تبرير الواقع، أو التماس نصوص ضعيفة أو فتاوى واهية لدعم الواقع الاجتماعى المزلزل، وخاصة فى مجال القواعد نفسها ، كل هذا لن يؤدى إلى نهضة صحيحة وسيكون فى تقدير التاريخ موضع محاسبة شديدة وسيظل مرحلة من مراحل التبعية لها لون براق خادع .

إننا مطالبون بإعادة الثقة إلى الثقافة الاسلامية ، والتاريخ الاسلامى ، حتى تمتلىء بها نفوس شبابنا وعقوله، وهذا يتطلب تقديم هذه المادة فى مناهج الدراسة متناسقة مع المفاهيم الأخرى ومنسجمه معها ، بحيث لا تقف النظريات الوافدة لتصور مناهج الغرب على أنها حقائق علمية ، وعلينا أن نقول أنها (وجهات نظر

وفروض) قد تخطىء وقد تصيب وأن نقدمها فى إطار عصرها وبيئتها ، لا على أنها علم خاص صالح لكل الأمم والأزمان وأن يكون ذلك أمرنا بالنسبة للمترجم من الفكر الغربى ، على أن يكون الفكر الاسلامى بمختلف مفاهيمه وفنونه ومعالمه ومعطياته العظيمة الكبيرة بين أيدى أبنائنا ، ماثلا عليهم نفوسهم ، فلا يستطيع الفكر الغربى أن يأخذ بألبابهم ، ذلك أن الفكر الاسلامى هو العطاء الحقيقى الذى تسعى البشرية اليوم للبحث عنه ، أما الفكر الغربى فإنه يمر الآن بمرحلة الأزمة والهزيمة والاضطراب بعد أن فقـــد قدرته على العطاء فى بيئاته الأصلية ، وهو بالأحرى لن يكون قادراً على العطاء فى بيئات أخرى ، لها من ميراثها العظيم . . ما يكفيها ، إن فكرة (جواز الاخذ بثمرات تجارب الغرب ونتائج اجتهاداتهم فى أمور الدنيا) لم يتوقف المسلمون عن الاخذ به ولم يدع الفكر الاسلامى إلى الاعتراض عليه فالحكمة ضالة المؤمن إنى وجدها فهو أحق الناس بها ، ولكن هذه الثمرات هى فى مجال العلوم وأساليب العمل وأدوات الخبرة ، ولكنها لن تكون مطلقا فى مجال أسلوب العيش أو الاخلاق أو الاجتماع ، فنحن فى هذا المجال أغنياء بمنهجنا الربانى وبتجربتنا خلال أربعة عشر قرنا ، وكل محاولة لدفعنا إلى اصطناع أسلوب العيش الغربى فإنما هى محاولة لتأخير مرحلة الاصالة والرشد الفكرى التى يجب أن يدخلها المسلمون فى العقد الاول من القرن الخامس عشر إن أخطر مايحول دون ردم هذه الفجوة التى كانت مصدر هزائمنا خلال مائة عام هو التغرب فى السلوك والأخلاق واصطناع طرائق الغرب فى الحياة الاجتماعية بكل ما يتصل باللهو والموسيقى والخمر وعلب الليل ، هذا الانبهار بالأضواء التى تحطم القوة الذاتية للإنسان المسلم والتى حماه الإسلام منها للمحافظة على كيانه بما وضع من حدود وضوابط هى الهدف الذى يطمح النفوذ الأجنبى فى تحطيمها لأنها أقرب طريق إلى السيطرة والاحتواء للمجتمعات الاسلامية ومن هنا فقد كان حقا على المجتمع الاسلامى أن يسارع بتطبيق الشريعه الاسلامية وإعداد حياته فى إطارها على نحو كامل وأن يقف من امبراطورية الرباالتامودية موقف المعارضة وإقامة المنهج الاقتصادى والاجتماعى الاسلامى كاملا .

إن محاولة القول بأن تدريس الدين فى المدارس يكفى لسد هذه الفجوة أو لبناء شخصية المسلم هو قول لا يمثل العلاج الصحيح فإن هذا يعنى أن الدين شىء يدرس منفصلا عن المجتمع وعن الفكر ، والاسلام يرى أن الدين هو عقيدة ومنهج حياة

والتزام أخلاق ، أما كلمة «الدين» الغربية فهى لا تمثل مفهوم الاسلام الحقيقى ، نحن لا نطالب بتعليم الدين وإنما نطالب بصياغة المناهج التعليمية والتربوية كلها فى إطار الاسلام بمفهومه الجامع : هذا الاسلام الذى يعطى للاقتصاد والاجتماع والسياسة مفهومها الأصيل ويعطى العلم والفن والأدب مفهومه الجامع بمعنى أن هذه كلها حلقات متكاملة متراكبة فى إطار واحد لا يطغى أحدها على الآخر ولا ينفرد بالوجهة دون المجموع الكامل ، إن الأدب والفن يجب أن يخضعا لأخلاق الاسلام وكذلك فإن العلم يجب أن يتحرك فى إطار مفهوم الاسلام القائم على الرحمة والآخاء البشرى ، وكذلك فإن مفاهيم الاقتصاد والسياسة والاجتماع إنما تتطابق مع الانسان الجامع للمادة والروح ، والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة والتى تلتزم حدود ما أحل الله وما حرم ، هذه المعانى يجب أن تغرسها تربية إسلامية أصيلة فى نفوس الأجيال الجديدة حتى تشرق عليها إيماناً وثقة بعظمة العطاء الاسلامى وبحاجة الغرب اليوم إلى نور جديد لن يقدمه له إلا الاسلام .

ويتصل بهذا تعلم اللغات الأجنبية والترجمة من الآداب الأجنبية وأخطر من هذا أن نرسل أبناءنا إلى أوروبا وأمريكا ليتعلموا اللغة العربية والاسلام من مستشرقين يهود ومسيحيين ، ليقدموا لهم مفهوم الاستشراق والتبشير للاسلام والرسول والتاريخ واللغة العربية فيحطموا فى قلوب أبنائنا روح الايمان بالله وروح الثقة بعظمة معطيات الأمة الاسلامية وليسيطروا على أفئدتهم وعقولهم تحت إغراء التعليم الاجنبى فنأخذ ديننا من أفواه أعدائنا ومن ثم تنشأ فى نفوسهم ظاهرة غرور عن الحق وتكبر عن أمر الله ويصبحون أداة طيعة للذين صنعوهم فى بلادهم فيحملون نزعات التغريب وكراهية القرآن والاسلام واللغة العربية وامتهانها وتملأ نفوسهم بالزهو إزاء الغرب ومظاهر حضارته البراقة ويعارضون الطريق الأصيل الذى توشك الآن قوى الايمان للعودة إلى مناهل الاسلام ومنابعه الأصيلة ليستمد منها المسلمون حضارتهم الجديدة وأسلوب عيشهم الحقيقى بعد أن فسدت تجربة الاقتباس والتبعية والانتماء إلى الوافد الغربى بكل ما فيه من غربة وتمزق .

إن عطاء القرن الخامس عشر الهجرى فى مطالعة يجب أن يتركز حول هذه الثغرة التى دخل منها كل هذا الشر إلى قلب المجتمع الاسلامى وعليه أن يحسم هذه القضية الخطيرة .

(٤)

مراجعات حول مادة إسلام

فى دوائر المعارف الغربية

(ما تزال دوائر المعارف الغربية الفرنسية والانجليزية والأمريكية) تقدم مادة « إسلام » على نحو ما كانت تقدمه دوائر التبشير فى القرن الماضى ولم تتحول بعد بالرغم من التغيرات الكثيرة التى دخلت على الفكر الغربى باقترابه من مفاهيم الاسلام الحقيقية بالرغم من كتابات أساطين كتابه أمثال برنادشو ودرابر وجوستاف لوبون هذه الكتابات التى صححت كثيرا مما وقع فيه المبشرون والمستشرقون فى فهم الاسلام وأمامنا اليوم نصوص ما أوردته دائرة المعارف البريطانية عن مادة (إسلام) وهى : نصوص أقل ماتوصف به إنها محرفةومتحيزة وبعيدة كل البعد عن منطلق الصيحة التى تعالت فى الغرب بالحوار مع الاسلام والاعتراف بأنه دين سماوى .

وأول مايلفت نظر الباحث المسلم أزاء كتابات الغربيين عن الاسلام هو تقييم المصادر التى رجع اليها الكاتب فى المادة التى تولى الكتابة عنها ، هذه المصادر هى التى تكشف بوضوح عن مدى رغبة الباحث فى الوصول إلى الحقيقة فإذا كانت المصادر قويةومنصفة ومؤلفوها من المشهود لهم بالبراعةوالسبق والانصاف وعدم التحيز كان معنى هذا أن الباحث ينهج نهجا علميا صحيحا وأنه جاد حقا فى الوصول إلى فهم المادة موضوع البحث ، أما إذا كانت المصادر هشة ومتأخرة وبعضها مجهول — كما أوردته دائرة المعارف البريطانية فى خاتمة بحثها —فان ذلك يعطى أول علامة على ضعف منهجه بالبحث وعجز صاحبه — أو تعمده — عن الوصول إلى بعض الحقائق حول موضوعه .

والاستشراق الغربى له موقف واضح بالنسبةللمواد الخاصة بالاسلام (عقيدة وحضارة) : هذا الموقف هو محاكمة الاسلام إلى مفهوم الدين فى الفكر الغربى وكلمة الدين فى الفكر الغربى(Relgon) تعنى النواحى العبادية فحسب , فالدين فى مفهوم الغرب علاقة بين الله والانسان وليس كذلك مفهوم الاسلام الجامع للعلاقتين بين الله والانسان وبين الانسان والانسان . وهذا مغمز آخرمن مغامز

هذا البحث يحول دون استيعاب جوانب الاسلام المختلفة . وكذلك فقد عرف أن كثيرا من المستشرقين وخاصة العاملين فى دوائر المعارف الغربية يتعصبون لوجهة نظر مزدوجة : وجهة نظرهم إلى الدين المسيحى الذين يؤمنون به فهم لا يقرون بوجود دين غيره أو بعده ، ومن ناحية المفهوم الاجتماعى والسياسى التى بحكم فلسفة الحضارة الغربية كلها ، والنفوذ الغربى فى بلاد الاسلام وكلها عوامل تمنع من الاعتراف بالاسلام أو تقديره تقديرا منصفا مبرءاً من أهواء السياسة أو الدين ومن هنا جاءت كتابة « مادة : اسلام » فى دائرة المعارف البريطانية (١٩٨٠) وعليها ظلال كثيرة من الشكوك والاخطاء وسوء الفهم .

ولو كان الباحث كاتب مادة (الاسلام) فى دائرة المعارف البريطانية يستهدف حقاحقا الوصول إلى بعض الحقيقة لكان أولى له الرجوع إلى عدد من المؤلفات الغربية التى تتسم ببعض الانصاف ولا نقول المؤلفات الغربية وكثير منها مترجم إلى لغات الغرب .

الدعوة إلى الاسلام : توماس أرنولد .

محمد : تولستوى .

المنازعة بين العلم والدين : درابر .

الابطال وعبادة الابطال — توماس كارليل .

تاريخ العرب — جوستاف لوبون .

تاريخ العرب العام — سيديو .

مختصر التاريخ — ارنولد توينبى .

حياة محمد — أميل درمنجم .

محمد رسول الله — ايتان دينيه .

تاريخ العلم — سارطون .

حاضر العالم الاسلامى — لوثروب ستوارد .

الاسلام خواطر وسوانح — هنرى دى كاسترى .

شمس الله تشرق على الغرب : سجريد هونكه .

روح الاسلام : سيد أمير على :

فهذه المؤلفات مترجمة إلى اللغة الانجليزية وموجود أغلبها منذ وقت طويل بين أيدى الباحثين فى الغرب ، وكذلك ترجمة معانى القرآن التى قدمها المستشرق مونتيه والتى تتميز بأنها قريبة إلى الصحة وبعيدة عن التحريف . فلو أن الباحث كاتب مادة الاسلام فى دائرة المعارف البريطانية كان يتوخى الحقيقة لرجع إلى هذه المصادر واتخذ منها مادة لبحثه ولاستطاع أن يقدم الاسلام على نحو أكثر انصافا وفهما ، ولكن مراجعه التى وردت فى ختام البحث توحى بأنه اتخذ الطريق الآخر ، وهو طريق التعصب والتحامل الذى عرف عن هاملتون جب وغيره فضلا عن أنها أبحاث مستحدثة لا يتسم أصحابها بشهرة فائقة فى عالم الاستشراق ولا بقدر من الانصاف فى عالم البحث .

أما الاخطاء المتعددة فى فهم الاسلام وفهم سيرة النبى ﷺ فهى نفس الاخطاء التى كان يرددها الاستشراق والتبشير فى القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر منذ ثبتت صلاته الواضحة بمصدريه الخطيرين : الكنيسة ووزارة المستعمرات فى الدول المستعمرة (بريطانيا وفرنسا وهولندا) وهذه الاخطاء رددها الاستشراق الغربى والصهيونى والماركسى على درجات مختلفة وتصدى لها الكتاب المسلمون منذ وقت بعيد ، منذ كتب جمال الدين الافغانى وكتابه فى الرد على الدهريين وكتب محمد عبده رده على الوزير الفرنسى هانوتو ، وما تزال هذه الاخطاء تتكرر فى كتابات خصوم الاسلام منذ أوردها اللورد كرومر ، فى كتاباته عن الاسلام وهى أخطاء يراد بها انتقاص الحضارة الاسلامية والعقيدة الاسلامية حتى لا تكون قادرة على إثبات وجودها واستعادة مكانتها الحقة ، وقد تجاوز الفكر الاسلامى فى مطالع القرن الخامس عشر هذه الاخطاء والشبهات وأصبحت تعاليمه ومفاهيمه واضحة فى مجال الغربيين أنفسهم ، بعد أن ترجمت كتابات علماء المسلمين إليها ورددها بعض المنصفين من كتاب الغرب الذين شهدوا الرسول (كارليل) والشريعة الاسلامية (لامبير) والحضارة الاسلامية (اوبون) والعلم الاسلامى (درابر وسارطون) كذلك فقد كشف فى الاخير الدكتور موريس بوكاى حقائق كثيرة عن القرآن الكريم أصبحت معروفة فى الفكر الغربى كله . أما دائرة المعارف البريطانية فما زالت خاضعة للكنيسة الانجليزية المرتبطة بالنفوذ الصهيونى والمحتواة من التفسيرات اليهودية التى خضعت لها البروتستانتيه فى الغرب كله .

ومن أخطاء دائرة المعارف البريطانية والاستشراق الغربى عدم القدرة على التفرقة بين مفهوم التوحيد والنبوة بين الأديان والإسلام والفرق بين الألوهية والنبوة والفرق بين الرسل والصحابة وكذلك عجزهم عن فهم المعجزات وخطأهم فى فكرة وحدة الأديان وكذلك عجزهم عن فهم التكامل الجامع فى الاسلام ونظرية الانشطارية الغربية كذلك خطأهم فى إخضاع الإسلام الجامع بين المادة والروح لمنهج التفسير المادى للتاريخ القائم على المادية وحدها .

فالإسلام دين جامع بين المادة والروح والعقل والقلب والدنيا والآخرة وحيث يفرق الإسلام بين الألوهية والنبوة فى مفهوم التوحيد الخالص لا تفرق المسيحية بين هذين المعنيين ، أما فكرة وحدة الأديان فمصدرها أنها جميعها من عند الله تبارك وتعالى ولكن الخلاف وقع فى التفسيرات التى قدمها رؤساء الأديان .

كذلك يفرق الاسلام بين النبي المؤيد بالوحى وبين الصحابة الذين يصيبون ويخطئون ، كذلك فإن القرآن رسالة الله تبارك وتعالى إلى العالمين جميعاً موحى بها وليست من كتابات الصحابة أو الحواريين .

وأهم من ذلك كله أن كتاب الغرب حين يكتبون عن الإسلام إنما يبدأون من فكرة مسبقة يحاولون اقتناص النصوص التى تؤيدهم وتجاوز النصوص التى تهما الفهم .

وبالجملة فاننا نتطلع إلى أن يدخل الاستشراق عصراً جديداً فيه كثير من الانصاف والبعد عن الهوى والتحريف والتعصب وبالله التوفيق .

(٥)

متى يعود الأدب المعاصر إلى أصالته

يمر الأدب العربي المعاصر بمرحلة من مراحل الضعف والتمزق نتيجة للتبعية الخطيرة التي احتوته من جميع أقطاره وفرضت عليه المنهج الوافد: بمفاهيمه الوثنية والمادية والإباحية وهي عصارة مفاهيم النقد الأدبي الغربي، والماركسي والصهيوني التي سيطرت سيطرة كاملة على القصة والروايه والمسرحية والشعر والأغنية والفنون جميعا فأخرجتها من مفهوم الإسلام الأصيل. ولما كانت المرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي هي مرحلة التحدي والمواجهة للأخطار التي تكتنفه فإن استجابة الأدب لها على هذا النحو ضئيلة وعاجزة لأن الأدب العربي قد انحرف عن مفهومه الأصيل الذي استمده من القرآن والسنة وجرى فيه مع المذاهب الوافدة التي أخرجته من مضمونه الجامع بين المادة والروح وأسلمته إلى أهواء أصحاب الأباطيل.

ولذلك فلابد أن يتحرر الأدب العربي من هذه القيود حتى يستطيع أن يؤدي رسالته الحقة.

* * *

أولا : محاذير فى تاريخ الآدب العربى الحديث

تكشفت فى السنوات الأخيرة حقائق أصبح من الضرورى معها إعادة النظر فى تلك الحصيلة الأدبية الضخمة التى عرفت باسم الأدب العربى الحديث والتى ظهرت على مسرحيات تلك الأسماء اللامعة : طه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد والزيات وزكى مبارك والمازنى .

فقد تبقى عدة حقائق خطيرة أصبحت ذات أثر واضح فى مجرى الدراسات الأدبية ، أبرز هذه الحقائق هى مجافاة هذا التيار كله وانفصاله تاما عن مصدره الأصيل وأصله الأول الذى تفرغ منه وهو الفكر الاسلامى وذلك فى محاولة عاقة متمردة قام بها هؤلاء جميعا لإعطاء الأدب العربى الحديث منطلقا عقيما يقوم على الانفصال عن الأدب العربى خلال أربعة عشر قرنا وتجاهل تلك الحصيلة الضخمة والخط المتصل والأثر الواضح ومحاولة دراسة صفحات ونماذج وشخصيات من هذا الأدب العربى فى مراحل مختلفة دراسة مستقلة تتحكم فيها مناهج النقد الغربى سواء الفرنسى منه أو الانجليزى وسواء فى نقد الشعر أو نقد النثر .

وقد كانت هذه التبعية لمناهج النقد والتقييم الغربى هى أخطر هذه التحولات وكان الاصرار على هذا الانفصال على أساس أن الأدب الحديث الذى ظهر فى أوائل هذا القرن الميلادى إنما هو أدب عربى حديث ، منفصل تماما عن تاريخ الأدب العربى الحافل المتصل وكان فى ذلك معنى الخضوع الواضح لعوامل النفوذ الاجنبى سواء بالتبرؤ المقيم من الاتصال بالادب العربى ومتابعة خطه المتصل حتى بدأ الادب العربى الحديث وكأنه لقيط غير متصل النسب بأصوله وقيمه ، وكان إخضاعه لمناهج النقد الغربى الوافد (منهم من خضع للنقد الفرنسى كطه حسين وهيكل وزكى مبارك ، أو النقد الانجليزى كالمازنى والعقاد) .

هذا الخضوع كان محاولة أخرى لعزل الادب العربى الحديث عن مكانه الطبيعى باعتباره وحدة من وحدات متصلة بالفكر الاسلامى يجب أن لا تنفك عنه ولا تنفصل .

ومن يتابع أسلوب النقد الادبى يجد تلك التبعية المناهج الوافدة التى تحاكم الانسان والبيئات على أساس مادى خالص وخاصة منهج تين وبرونتير وغيرهما التى صدرت أساسا عن الفكر المادى العربى الذى ينظر إلى الانسان على أنه مادة خالصة : خاضعا الجنس وللقمة العيش وهى مذاهب أدبية استمدت وجودها من نظرتين أساسيتين : نظرية التفسير المادى للتاريخ ونظرية التحليل النفسى لفرويد وكلاهما تعتبر الانسان حيواناً خاضعاً لشهوتى البطن والفرج ليس إلا وبذلك خرجت مذاهب النقد عن المفهوم الاسلامى الجامع الأصيل الذى ينظر إلى الانسان على أنه جماع روح ومادة وعقل وقلب .

كذلك فإن معارك النقد قد ثبت تماما ما وصمت به من أنها قامت على الخصومات الشخصية والسياسية فضلا عن أسلوب الاقذاع والهجاء العنيف الذى اتسمت به هذه المعارك وخاصة ما كتب فى كتابى الديوان (العقاد والمازنى) والسفود (الرافعى) كذلك فقد خضعت التراجم الادبية لهذا الاتجاه وانفصلت عن الاطار العام وأوغلت فى الانحراف حين أبرزت صور بشار وابن الرومى وأبى نواس وعشرات من الشعراء الذين عرفوا بالاباحية والهجاء .

وقد صور هؤلاء على أنهم أبرز شخصيات الادب العربى بينما تجوهلت تلك الشخصيات الرفيعة العالية من الكتاب والشعراء والمفكرين البارزين بحجة أن مايكتبونه ليس أدباً وأن الادب هو ما يتصل باهواء النفس والجنس والغزل والهجاء وإن ماعداه لايدخل فى باب الادب وذلك مغمز آخر من مغامز فساد النظرية الادبية جملة .

ولقد بدت فى الافق فى السنوات الاخيرة حقائق أدبية جديدة جديرة بأن تكون موضع نظر الباحثين فى تاريخ الادب العربى الحديث ، أبرزها ما أطلق عليه « فساد الحياة الادبية » وتلك التقاليد التى أدخلها « الاساتذة الكبار » وما يتصل بها بفساد المناهج الجامعية واستغلال أسلوب السطو على الكتب .

وقد كشف هذه الظاهرة الدكتور محمد نجيب البهبيتى فى مقدمة كتابه(١)،

---

(١) المدخل إلى دراسة التاريخ والادب العربى .

منذ سنوات والاستاذ محمود محمد شاكر هذا المسام فى مقدمة كتابه عن المتنبى .

وقد سجلت الظاهرة خطراً كبيراً وشراً كثيراً ، وصم الحياة الادبية بأشد ألوان الاضطراب وكشف عن أن كل ماأصدرته من أحكام كان خاضعاً للاهواء البشرية المضللة .

يقول الاستاذ شاكر : كان من عادة (الاساتذة الكبار) وهى عادة تركت فى حياتنا الادبية إلى اليوم فساداً ساحقا : أنهم كانوا يخطئون فى العلن ويتبرأون من أخطائهم فى السر وكانوا لايصبرون على من يدلهم على الخطأ ويستنكفون كبراً أن يؤوبوا إلى الصواب بل كانوا لايتورعون بالايقاع بمن يدلهم على الخطأ ويتعقبونه بالاذى من وراء حجاب » .

وهذا المعنى الذى أشار إليه الاستاذ شاكر كان واضحاً وضوحا شديداً فى قضية الدكتور طه حسين حين كان يهمس بآراء تخالف ماأذاعه فى كتبه .

ولقد أشار زكى مبارك غير مرة إلى أن طه حسين كان يتعقبه بالاذى نتيجة اختلافه معه فى الرأى أو الكشف عن خطأ من أخطائه وأنه لم يكن يرد على دعاواه بل كان يدبر له المكائد فى رزقه فى الخفاء .

كذلك أشار الاستاذ شاكر إلى أن الاساتذة الكبار كانوا لايحبون إلا الثناء المحض المصفى الخالص من كل شائبة فاذا جاءهم غير مايحبون تنمروا لمن أتاهم به تنمر من لايبيت على دمنة (أى حقد) .

هذا هو المنهج الذى عرف به الاساتذة الكبار فى أسلوب تعاملهم مع زملائهم وتلاميذهم وقد أشاعوه فى الحياة الادبية سنوات طوالا ولنشأ عنه ذلك النفاق العجيب الذى أفسد كل شىء .

ويشير الاستاذ شاكر إلى مسألة السرقة والسطو التى كانت إحدى طبائع الاساتذة الكبار فيقول : إن طه حسين أمضى عاما كاملا يتحدث عن نظرية الشعر الجاهلى وانتحاله وهى نظرية كتبها المستشرق مرجليوث وقرأها شاكر قبل أن يتحدث عنها ومع ذلك فقد أصر الدكتور طه على أن النظرية من محصوله

ولم يشر من قريب أو بعيد إلى المصدر الذى أخذ منه مع أن كتاب الشعر الجاهلى بالنسبة لبحث مرجليوث لا يزيد عن أن يكون (حاشية الدكتور طه على متن مرجليوث) .

يقول : إن هناك قضية السطو على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم ثم ادعاءه لها كما تملك عزيز مقتدر ، ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والاستطالة به على الناس وأبشع من ذلك أن ينكشف أمر هذا الغصب والسطو ويتسامع به الناس ويدل الكتاب والعلماء على الأصل المغصوب كتابة موثقة منشورة ، فلا يبالى الساطى بشىء من ذلك كله يزداد جرأة وتيها وادعاء واستعلاء واستطالة ، كأن الذى قيل عن سطوه لم يقل ، وكأن ظهور سطوه فضيلة ترفع من قدره وتنوه به فى المجامع .

يقول الأستاذ شاكر : دخلت الجامعة ومعى متن مرجليوث فى مسألة الشعر الجاهلى ، مصغيا إلى أستاذنا الدكتور طه ، كنت أقرأ المتن بعينى وأسمع الحاشية على المتن بأذنى ، وأخذنى من الحيرة والدهشة ، كل يوم أقول لنفسى ، عسى ولعل وأتوقع أن يذكر الدكتور طه مرجليوث مرة ، وينسب إلى الرجل رأيه فى مسألة الشعر الجاهلى ، بمجرد إشارة وذهب توقعى باطلا هدرا لم أسمع منه لا « انتهى بى الحديث ، وإذا كل شىء منه هو يبدأ وإليه ينتهى ، كيف يكون هذا والمتن أمامى أقرؤه بعينين مبصرين وكل شىء يقوله الدكتور طه من هذا المتن وحده يبدأ وإلى المتن وحده ينتهى .

ياالحيرتى وعجبى لو مرة واحدة ذكر الدكتور طه اسم « مرجليوث » لنجوت من هذا القول التى كانت تفزعنى وتتشبث بى ، ثم يقول : وقفت أجادل الدكتور طه فى المنهج والشك حتى انتهرنى ثم استدعانى فدخلت عليه فعاتبنى وأنا صامت لا أستطيع أن أرد ، لم استطع أن أ كاشفه بأن محاضراته التى نسمعها مسلوخة كلها من مقالة مرجليوث لأنها مكاشفة جارحة من صغير إلى كبير ولكنى كنت على يقين من أنه يعلم أنى أعلم ، من خلال ما أسمع من حديثه ومن صوته ومن كلماته ومن حركاته أيضا ولكنى من يومئذ أيضا لم أ كف عن اذاعة هذه الحقيقة التى أ كتمها فى حديثى مع الدكتور طه وهو أنه سطا سطوا كريها على

مقالة المستشرق الاعجمى فكان بلا شك يبلغه ما أذيعه بين زملائى .

واشتد الامر وتدخل بعض الاساتذة كالاستاذ نلينو والأستاذ جويدى من من المستشرقين وكنت أصارحهما بالسطو وكانا يعرفان ولكنهما يداوران إلى أن جاء اليوم الذى عزمت فيه على أن أفارق مصر لا الجامعة وحدها » .

ويدمغ الاستاذ محمد محمود شاكر العصر الادبى كله حين يقول :

« كانت قضية السطو فيما قبل عام ١٩٢٨ تسير على استحياء وكان ما بقى من أخلاق الناس فى الناس يكف من خطواتها فى حياتنا الادبية ، ولكن لما تأرثت مسألة الشعر الجاهلى فى الجامعة وعلم من يكن يعلم أن الذى قيل فيها إنما هو سطو مبين على مقالة مارجليوث اختلف الامر اختلافا شديدا فالجامعة وجميع أساتذتها يومئذ قد علموا علما يقينيا أن كتاب (فى الشعر الجاهلى) قائم على السطو على مقالة مرجليوث بحذافيرها ومع ذلك فقد ابتلعت الجامعة وأساتذتها هذا السطو ثم تسترتا عليه ، لا بل أحاطوه بالرعاية وبالعصبية فكان ذلك إقرارا بالصمت لهذا المبدأ فمن يومئذ أخذ من كان بالامس يستحى أن يوصم بالسطو يخلع برقع الحياء عن وجهه شيئا بعد شىء واستحدث كل منهم وسيلة من الوسائل وأسلوباً من الاساليب يجعل هذا السطو يبدو ضرباً من (التجديد) فى دراسة الأدب وفى إنتاج الادب .

ويبدأ السطو من بعض الأساتذة الكبار تزداد أساليبه خبثاً ونكراً ودهاء ومكراً يوماً بعد يوم تحت سيطرة الإرهاب الثقافى الذى تولى كبره الأساتذة الكبار وتسهل من أمره ما كان يستصعب وبدأ الكبار يستغلون الصغار أيضاً ويدربونهم على السطو الصريح بأساليب تخفى شيئاً من معالمه ودارت العجلة ولم تزل تدور وجاء جيل بعد جيل أصاب طريقاً نافذاً فسلك واستقر الامر على ذلك فى حياتنا الأدبية إلى اليوم : أقول لك فى البحث الأدبى والعلمى بلا استثناء إلا من عصم الله وهم قليل وليت الأمر وقف عند ذلك القدر من المكر والدهاء فى السطو ، ليته وقف ، ولكن انحدر بعد إلى هوة السطو الحر وقرارته ، انحدر إليها بلا قناع إلا قناع الزمن الذى يسد له على أعمال الناس بالتقادم .

مثال ذلك كتاب كان صاحبه يحميه حيا ، فلما هلك هلكت معه الحماية وأسدل

الزمان عليه قناعه ، يأتى أستاذ فيعيد نشره بنصه كما كان ، ولكن عليه إسمه هو ويرتفع الأمر إلى المحكمة فتحكم بأنه سطو دون أن تلجأ إلى خبير من أهل هذا العلم ، لأن الأستاذ قد أغنى المحكمة عن إرهاق الخبير ، كان سطواً حراً . سطراً سطراً ثم مات الأمر وابتلعته حياتنا الأدبية ابتلاعاً حراً ، بلا استنكار لا باليد ولا باللسان ولا بالقلب ، وإذا بلغ الأمر هذا المبلغ فلا ريب فى أن السطو الخفى المتقن الذى يلبس طيلسان الجامعة أو برد الأستاذية أو يختال فى ثياب موشاة من البحث العلمى ، خليق أن يعد عندنا فى حياتنا الأدبية تسابيح عبادة فى محراب الفنون والآداب .

ويقول الاستاذ شاكر : أتلفت اليوم إلى ما أشفقت منه قديماً من فعل (الاساتذة الكبار) .

لقد ذهبوا بعد أن تركوا من حيث أرادوا أو لم يريدوا حياة أدبية وثقافية قد فسدت فساداً وبيلا على مدى نصف قرن ، وتجددت الاساليب وتنوعت وصار السطو على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقا عليه طيلسان البحث العلمى وإن لم يكن محصوله إلا ترديداً لقضايا غريبة،صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كل قضية واختلط الحابل بالنابل قل ذلك فى الادب والفلسفة والتاريخ والفن أوماشئت فانه صادق صدقا لا يتخلف فالاديب مصور بقلم غيره والفيلسوف مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان نابض قلبه بنبض أجنبى عن تراث فنه : وا وحشتاه ، .

ثانياً : محاولة لاعادة تقييم عمل الأدباء العرب فى الجيل السابق .

هناك حركة غاضبة يحمل لواءها بعض المشتغلين بالصحافة العربية فى هذا العصر تحاول أن تضع طابعاً من القداسة الكاذبة على بعض الأسماء التى لمعت فى العصر السابق من أمثال : طه حسين ، ولطفى السيد ، وسلامة موسى ، وعلى عبد الرازق، وقاسم أمين ، وساطع الحصرى ، وغيرهم .

وتصفهم بعبارة رديئة هى عبارة « القمم الشوامخ » كأنما لا يجوز لأهل هذا العصر من المفكرين إعادة تقييم عمل الأدباء العرب الذين سبقوا على الطريق . وكأنما كان هؤلاء الأدباء مبرءون من كل خطأ أو كأن نقد أعمال هؤلاء الكتاب ووضعها فى ميزان صحيح من النقد والتقدير عمل محرم .

والحقيقة أنه لا يوجد أدب ولا أديب ممن لمعت أسماؤهم لمعاناً خاطفاً هو فوق النقد وإذا كنا نراجع أعمال النوابغ الذين لا يقاس عليهم أمثال الغزالى وابن تيمية وابن حزم وابن القيم . وغيرهم من أصدق الناس إيماناً بمسئوليتهم وأماناتهم الفكر الإسلامى فكيف لا يجوز إعادة تقييم أمثال هؤلاء الكتاب الذين ليس لهم مثل هذه الأمانة . والذين عاشوا فى مرحلة من أشد مراحل التحدى والنفوذ الأجنبى .

وقد استخدم كثير منهم فى تنفيذ مخططات التغريب والغزو الثقافى ، بل ووصف كثير منهم بأنهم كانوا قناطر الفكر الغربى ومن الحق أن يقال أن هذه المراجعة والتقييم لأعمال هؤلاء لا تقوم على رأى مسبق باتهامهم أو العمل على انتقاصهم ، فمنهم كثيرون كانوا بمثابة قناطر بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى عن نية حسنة أو منطلق صحيح أو محاولة أو اجتهاد يقوم على الإعتقاد بأن هذا هو الطريق النافع للأمم .

ونعتقد أنه لا يمكن الحكم على هؤلاء جميعاً بحكم واحد ، ومنهم كثيرون اجتهدوا فأخطأوا فلهم أجر المجتهد ، ولكن منهم من كان يقصد حقيقة إلى أن يقوم بدور فى خدمة النفوذ الغربى وكان يحمل فى صدره أحقاد — كشفتها كتاباته من بعد — فى مواجهة الاسلام والأزهر والعروبة — بعضهم كان يهدف

حقيقة إلى تسميم جميع الآبار وتقل كل ركام الفكر البشرى القائم على الالحاد والاباحية والمادية لخلق جو من الضباب الشامل أمام رؤيا الفكر الاسلامى الصافية النقية القائمة على التوحيد الخالص .

ولا ريب أن أمثال محمد عبده والعقاد ومحمد حسين هيكل ، ورفاعة الطهطاوى والكواكبي كانوا يقصدون خدمة أمتهم ولم يكونوا عملاء . ولكن بحرى فكرهم اختلط بمفاهيم وافدة تأثروا بها فأخطأوا فى بعض الفروع .

وعلينا أن نكشف هذه الجوانب وليس فى ذلك ما ينتقص من مكانتهم وهدفهم الحقيق ولكن يجب التنبيه على تلك الأخطاء ولكن هناك مجموعة أخرى كانت ضالعة مع التغريب والغزو الثقافى تحمل فى أعماقها ذلك الحقد الدفين والرغبة الراغبة إلى التدمير .

وما اعتقد أن هذه المراجعة ، وإعادة النظر فى هذا النتاج الأدبى الذى صدر فى أبان مرحلة من أخطر مراحل أمتنا ، وكان عاملا فى دعم وتركيز قواعد التغريب التى ترمى إلى صهر أمتنا فى بوتقة الفكر الغربى والقضاء على معالم الاصالة الاسلامية البارزة فى أدبها وفكرها وما يمكن أن توصف هذه المراجعات بأنها محاولة لانتقاص الأدب العربى ولا كشف وجهة هؤلاء الأدباء أو أنه ينتقص قدر العمل الأدبى والفكرى الذى سار فيه عدد ضخم من الأبرار الذين حملوا لواء الأصالة ولم يذكرهم أحد لان تلك الاسماء التى أبرزتها السياسة الحزبية وحركة التغريب قد حظيت بأكبر قدر من الشهرة والتبرير بحيث حجبت تلك الاسماء الكريمة التى كانت تعمل خالصة لوجه الحق وحده .

فعلى الذين ينزعجون من كشف زيف أمثال : طه حسين ، ولطفى السيد وغيرهم أن يخففوا من غلوائهم وأن يؤمنوا بأن ذلك لن ينتقص النهضة ولن يزعزع مكانه الامة ، ولن يجترح من كرامة التاريخ الادبى ، وإنما على العكس من ذلك فإنه سينقيه ويضعه فى ميزان الحق .

وإنه ليس من مصلحة أى أمة أن تفخر ببطولات زائفة ، أو تحتضن أسماء لا ممة ، لم يكن لمعانيها فى الحقيقة قائماً على مجد أصيل ، وإنما كان من عمل خصوم

هذه الأمة لإعطاء هو إعطاء مكانة غير صحيحة وهمة كاذبة فى نفوس الناس فتخدعهم عما يقدمون من سموم .

ولا ريب أن اليقظة الإسلامية التى كشفت عن زيف هذا الاتجاه المعارض للأصالة منذ وقت طويل لابد أن تدحض هذه الشبهات وأنه تبين وجه الحق . فان هدف التغريب ورجاله من استظلوا بمظلة الأدب العربى فى العصر السابق ، هو هدم كل مقومات الأصالة الاسلامية والقيم الأساسية لهذه الامة ، واحتواء هذا الفكر وصهره فى بوتقة الاممية العالمية .

ولذلك فان عمل هذه المؤسسات التبشيرية والاستشراقية التى تمثلت كتابات هؤلاء الغربيين هى بمثابة خطر حقيقى وحاجز قائم يحول بين المسلمين وبين معرفة جوهر فكرهم بما يثير هؤلاء من شبهات فى مجال النقد الادبى ، والفلسفة ، والثقافة والتاريخ والتراث . هذه القمم الشوامخ التى يمكن أن تسقط وهى فى ظن البعض أنها هى التى صنعت نهضة مصر أو نهضة الشرق وخاصه فى مجال النضال الوطنى أو التحرر من النفوذ الاجنبى .

وهذا لا ريب وهم كبير خدعتنا به الاسماء اللامعة .

فان هذه الاسماء اللامعة لم تصنع تلك النهضة التى يظن أنهم صنعوها وإنما صنعها غيرهم من ذوى الاسماء المجهلة التى لم تحرز مثل هذه الشهرة العالمية المدوية ، أولئك المخلصون الصادقون فان أحداً لم يذكرهم اليوم .

أما هذه الاسماء اللامعة فانها لم تصنع شيئا ومصدر شهرتها إنها عملت فى مجال السياسة والحزبية والصحافة يوماً بعد يوم . فى ذلك الركام المضطرب العاصف من الصراع الحزبى والجدل السياسى والهجاء المرير ، فأعطاهم هذا كل هذه الشهرة .

أما جهدهم الحقيقى فى مجال بناء النهضة فهو قليل وأمثال هؤلاء اللامعين لم تكن كتاباتهم فى الادب والفكر تساوى واحداً من مائة من كتاباتهم السياسية والحزبية والجدل والهجاء ولم تكن تساوى واحداً من ألف من كتابات ذوى الاصالة والثقافة والنتاج الجيد .

ولكن السياسه والحزبية هى التى أعطتهم لمعان الاسم . إن أسماء كثيرة هى

التى أعطت النهضة الاسلامية دفعتها القوية من علماء وكتاب الاصالة الحقة، وليس هؤلاء هم الذين قاموا بهذا الدور ولا ننكر أنهم شاركوا فيه بجهد ضئيل لا يتفق مع شهرتهم المدوية ولكن كانت لهم أخطاء وانحرافات فقد استمدوا دورهم ونشاطهم من مناهج الغرب وعجزوا عن فهم مناهج الاسلام فأخطأوا فيها ونقلوا عن الاستشراق كثيراً ه

ولكن الاصالة الحقيقية كانت ممثلة فى مجموعة ضخمة لها دور حقيقى من أمثال مصطفى صادق الرافعى ورشيد رضا وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب وحسن البنا وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم . وأحمد زكى باشا ، وطاهر الجزائرى ، وأحمد تيمور وندیم والمويلحى ، والكواكبى ، وعلال الفاسى ، وأحمد وفيق ، والبكرى ، والمويلحى والمنفلوطى والبشرى ، والزيات والثعالبى وعزام ، وباديس ، والمازنى وحسنى عبد الوهاب ، وفريد وجدى والغلايينى وطنطاوى جوهرى وخلاف .

فكيف يمكن إنكار هؤلاء جميعاً وتجاهلهم وإدامة الحديث عن ثلاثه أو أربعة هم : طه حسين ، والعقاد ، وهيكل ، وسلامة موسى إلا إذا كان هناك هدف مبيت لاعلاء هذه الاسماء وحدها وتجاهل هذه المجموعة الضخمة التى صنعت فعلا يقظة الفكر الاسلامى ولستمدت جهودها من مفهوم أصيل للتراث الاسلامى وفق انطلاقة حقيقية بعيدة عن أخطاء الاستشراق وانحرافات الفكر الوافد .

أما هؤلاء السذج الذين يحاولون اليوم أن يستعلوا بأحساب باطلة موهومة بأن يدعوا أنهم تلاميذ لهؤلاء العالة الكذبة فانهم لا يستطيعون رد هذا التيار الاصيل الذى يحطم أصنامهم ، وأن هؤلاء الصغار إنما يدافعون عن وجود موهوم سرعان ما تزيحه أضواء الحق : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) .

لقد قام عمل هؤلاء الرواد ، على الكذب والتضليل فخانوا أمانة القلم وأمانة أمتهم التى وكلتها ووثقت بهم .

ولا ريب أن تقييم أعمال الرواد تحت لواء الاسلام إنما هى ضرورة طبيعية لكشف حقائق الامور أمام الاجيال الجديدة التى خدعتها الاسماء الرنانة ذات

الشهرة المدوية ، هذه الشهرة التى كانت شكلتها ظروف وقوى وأوضاع لم تكن النبوغ الحقيقى أو الايمان بالقلم أو الامانة فى حماية مقدرات المجتمع ، بل كانت التبعية للغزاة وللتغريب .

ولذلك فان مايسمونه ظاهرةإنهيار جيل العمالقة ليست أكثر من خدعه ووهم يحاول به النفوذ الاجنبى أن يثبت وجوده ويؤكد الحصيلة التى حققها بغش هذه الامة والتلبيس عليها ، ولذلك يزعجه أشد الازعاج أن ينكشف ما وراء هذه الاسماء التى لمعت فى غفلة من الزمن ، والتى لم تكن ذات أصالة ، وإنما كانت هـــذه القوى هى التى فرضتها وخلقت لها هذه الشهرة المدوية كذباً وتضليلا وبغير حق .

ثالثاً : شوائب النهضة الادبية :

إن نشوءالنهضةالادبية من قلب قضية الحزبية السياسيةبعد أن سقطت الدعوة الوطنية المنطلقة من الايمان بالمفهوم الاسلامى(بعدأن انتهى جيل الحزبالوطنى وظهور جيل حزب الامة ثم سعد زغلول)وتحول مفهوم الحزبية السياسية وقيام مفهوم الاقليمية على منطلق الديمقراطية الغربية التقليدية :

كل ذلك قد خلق للأدب وأهل الادب تقاليد باطلة وزائفةاستحدث وجودها من ذلك الخرق الذى خرقه سعد زغلول حين فصل السياسة الحزبية عن الوطنية المرتبطة بالاسلام ، وحين دعا طه حسين إلى فصل الادب عن الفكر الإسلامى من ناحية ، وحين دعا جماعة المجددين — التغريبيين — فى هذا العصر وكانت بيدهم مقاليد الثقافة والصحافة إلى فصل الادت العربى المعاصر عن الادبالعربى الاسلامى وإعطائه قالباً إقليميا حتى سمى بالادب المصرى أو الفكر العربى وهما كلتان ضالتان تهدفان إلى القضاء على استمرار حلقات الادب العربى المتصلة منذ فجر الاسلام وقطع سلسلة الفكرالاسلامى منذ نشأته ، واقامة فكر عربى مرتبط بالغرب وبالمفاهيم العلمانية والمادية الوافدة ومذاهب الادب الجديدة التى تصور الانسان بمفهوم الحيوان .

وقد تشكل فى هذه المرحلة تيارمنفصل عن الفكر الاسلامى وفيه تبعية للمفاهيم الغربية التى تختلف عن مفاهيمنا فى مجالات كثيرة ، تختلف فى مفاهيم الاقليمية

والمصرية والفرعونية والقومية والديمقراطية الغربية وفى مفاهيم الوعامة الأدبية وعلاقة الفردية بالإسلام وعلاقة المصريين بالعرب والعرب والمصريين بالإسلام والمسلمين ومفهوم الدولة العثمانية .

وقد تبنى هذا الأدب مفاهيم وافدة فى مختلف مجالاته ، وكان بعضها مسموما حتى حين حاول الشعر أن يخرج عن نطاقه كمفهوم أصيل هو ديوان العرب والمعبر عن أزماتهم وأحداثهم وقضاياهم والتحديات التى تواجههم فقد كانت الدعوة التغريبيه ترمى إلى إنسحاب الشعر من كل هذه المجالات وإتهامه بأنها أدب المناسبة إلى التقوقع والقصور حول الذات الانسانية ومشاعرها وكانت هذا مرحلة أولى فى تلك المحاوله الخطيرة التى انتهت بظهور الشعر الحر وانطواء صفحة الشعر الأصيل إلى حين .

وكان أخطر مقاتل الحركة الأدبية التى نشأت فى مجال السياسة هو أنها حلت مفهوم الخلاف مع الانجليز فى نفس الوقت الذى تبنت واحتضنت فيه مفاهيم الأدب الانجليزى وفصله فى مختلف مجالاته عن الأدب الفرنسى مع الاعجاب الخالص بالحضارة الغربية .

كان هذا هو مفهوم الحركة الوطنية التى قادها سعد زغلول وثروت وعدلى وكانت تحمل ظاهريا طابع الخلاف ـ لا الخصومة مع الانجلير ـ مع الاعجاب بروح الحضارة الغربية واحتضانها فى مختلف مجالاتها .

والدفاع الخالص عن القانون الوضعى ونظام الربا والاقتصاد والرأسمالية الغربية والديمقراطية الليبرالية . والمفهوم القومى الاقليمى .

كانت بمفهوم معارضه النفوذ الاجنبى السياسى وتقبل النفوذ الاجنبى الفكرى والادبى والاجتماعى .

وهذه المعارك التى كانت تصور على أنها خلافات بين السياسة والاستعمار كانت تدور داخل دائرة الولاء النفوذ الاجنبى والايمان به والتفاهم معه ، وبمفهوم المراحل الذى تقبل من المحتل ما يمكن إعطائه وليس بمفهوم الوطنية الحقيقية المعارضة للنفوذ الاجنبى والتى تومن بأنها تعارض فى نفس الوقت فكره الاجتماعى والعمل على التحرر من نفوذه إلى منهج مغاير أكثر أصالة وأقرب

إلى روح الأمة نفسها والذى يمكن أن نستمده من الفكر الإسلامى فى الحكم والاقتصاد والسياسة والاجتماع .

لقد كانت الحركة الأدبية تابعة للفكر الغربى تبعية حقيقية ليس فى مجال الأدب بل فى مجال الفكر والاجتماع ، ولذلك فلا يمكن القول أنه كانت هناك خصومة حقيقية بين كتاب الوفد مثلا وبين الانجليز .

لقد كان هناك اختلاف وجهات نظر مرحلية ومحدودة ليس فى نطاق الاعتراف بالوجود البريطانى فحسب ، بل فى نطاق تقبل الروح الغربية فى السياسة والاجتماع والحزبية وتقديرها وتقليدها والدفاع عنها بل إن مهاجمة النازية أو الشيوعية إنما كانت فى نفس خط الإعجاب والتقدير للفكر السياسى الغربى الديمقراطى .

كذلك كان كل الدعاة إلى الوطنية — بمفهومها السياسى الحزبى فى ذلك الوقت أولياء للفكر الغربى وللثقافة والحضارة الغربية .

(العقاد وهيكل وطه حسين جميعاً) بالرغم من أنهم كتبوا عن الإسلام فيما بعد ، وربما كانت بعض الكتابات فى نفس الخط الذى يهدف إلى تأييد ديمقراطية الغرب أو الهجوم على الماركسية تحت لواء الاسلام .

وبذلك يمكن القول أن النهضة الأدبية كانت مشوبة بروح الاحتواء الغربى ولم يكن مؤمنة بالأصالة الاسلامية العربية المستمدة من المنابع الصحيحة .

لقد كان الأدب العربى يعيش فى إطار أقليمى وطنى سياسى حزبى فى كل كتابات الأدباء الذين كانوا فى نفس الوقت هم أقلام الأحزاب المنقضة كالصواعق بالهجاء على خصومهم وهو الهجاء الذى استعمل كل أساليب الهدم وكلمات السباب ولكن حركة اليقظة الاسلامية سرعان ما استطاعت أن تمتلك زمام الأمور وتطرح الفكرة الاسلامية كمنهج حياة ونظام مجتمع فيكون لذلك أثره العميق والواضح فى مجالات السياسة والصحافة والثقافة والأدب جميعاً .

وقد وصف الدكتور محمد محمد حسين هذه الظاهرة فقال : إن طه حسين والعقاد لا ينتميان أصلا إلى المدرسة الاسلامية من الناحية الفكرية ولكنهما ينتميان منذ نشأتهما الاولى إلى المدرسة الليبرالية المحررة التى تعتبر لطفى السيد أستاذها الاول فى جيلهما والمدرسة الليبرالية بحكم العقل المجرد والمتحرر من كل المواريث الفكرية والسلوكية فى كل شىء . ولا تبالى أن تلتقى مع الدين فى كل وجهات النظر أو فى بعضها أو تتعارض معه وتخالفه ولكن طه حسين كان أكثر عنفاً وأكثر جرأة فى معارضة الدين وفى المجاهرة بما يثير الناس ليلفت إليه الانظار .

لقد هاجم طه حسين أبيه فيما كان يتلوه من أوراد فى أعقاب الصلاة وفى الليل فى كتاب الايام .

ولكن طه حسين والعقاد قد اكتسحتهما الموجة الاسلامية العارمة فتتابعت كتاباتهم بعد أن أصبح ذلك هو البدع الشائع الذى يعم الاسواق .

ولم يعد التشدق بالفكر ونظراته المستوردة سمة من سمات المفكرين تستهوى الاغرار من الشباب كما كان فى العشرينات ، ويرجع هذا الانقلاب الفكرى إلى عدة عوامل هدلت بالناس وبكثير من المفكرين عن طريق احتذاء الحضارة الغربية والفكر الغربى ودفعتهم إلى طريق الاسلام — موجة التبشير — هجرة اليهود إلى فلسطين — سقوط الخلافة على يد الكماليين ، ظهور جمعية إسلامية عظيمة يقودها الاخوان والشبان .

نعم : لقد تحول هذا الاطار الاقليمى الوطنى والسياسى على يد حركة اليقظة الاسلامية إلى شىء آخر ، لقد أعادوا المفهوم الاصيل للفكر الاسلامى كأساس ومنطلق وإطار لكل هذه العناصر التى تتحرك داخـــل إطار بعد أن عمد التغريبيون وفى مقدمتهم طه حسين إلى أسلوب العقوق وعزلهم الادب عن مساره الطبيعى خلال أربعة عشر قرناً فى نطاق القرآن وفصله عن النظرية الاسلامية الجامعة .

وهكذا يمكن القول بأن مفهوم التغريب الذى سار عليه الادب العربي خلال

هذه الفترة — فترة التبعية السياسية — كان يعتمد على عناصر أساسية هى :

أولا : تحكيم الأدب العربى فى الفكر الإسلامى بإعطائه نفوذاً زائفاً بسيطرته على تاريخ الاسلام وفكره وعقيدته وشريعته ويحكم فيها حكما باطلا .

ثانياً : تحكيم مناهج الأدب الغربى (سواء الفرنسى أو الانجليزى) فى صياغة ونقد الشعر والنثر :

ثالثا : فصل الأدب العربى المعاصر عن الادب العربى فى مداه الممتد وإطلاق اسم الادب المصرى أحيانا .

رابعا : فصل التراجم الادبية عن الاطار العام وإعلاء الشخصيات الموصومة أمثال بشار وأبى نواس .

خامسا : تفسير التاريخ الإسلامى تفسيراً غربيا وتابعة لتفسيرات المستشرقين المسيحيين ، ذوى الخلفيات المعادية للإسلام :

سادسا : إقذاع النقد الادبى وإبلاغه أقصى درجات الهجاء واستعمال الاسلوب الحزبى النازل .

سابعا : صدور جميع معارك النقد من مصادر الخصومات الشخصية والسياسيه والاستعلاء الذاتى ، وخدمة الثقافات الفرنسيه والانجليزية والدفاع عن إحداها فى مواجهة الاخرى .

ثامنا : لم يكن هؤلاء الادباء يحملون صورة المثل الاعلى الاخلاق الكريم وكانوا يتطلعون إلى صور البوهيمية التى عرفت فى حياة أمثال بيرون وشيلى .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : إن هناك قاعدة أساسية ينبغى أن توضع فى الحساب حين يوزن الادباء والمفكرون من وجهة النظر الاسلامية هى أن الاسلام نظرية فى السلوك يمثل ما أنه نظرية فى المعرفة ، ولذلك كان من المهم أن لا يقبل فكر إسلامى أو أدب اسلامى من مفكر أو أديب لا يمارس الاسلام ولا يلتزم به ومعروف أن طه حسين والعقاد لم يكونا ممارسين للإسلام فى أصوله الاصيلة .

ولقد كان من وراء وسائل الاعلام جبهات مختلفة ذات نفوذ وسلطان تجمعها

عداوة الاسلام والكيد له وهى تعمل بأيدى ضعاف المسلمين الذين يغريهم بريق المال والحياة .

هذا ويجب أن يوضع فى تقدير الباحثين دائما عند مراجعة أتباع الادب العربى الحديث أن : منصور فهمى وطه حسين وزكى مبارك ومحمود عزمى ، عندما سافروا الى أوروبا تسلمتهم أيدى أساتذة يهود دفعوا منصور فهمى الى التهجم على النبى وزوجاته ودفعوا طه حسين الى التهجم على ابن خلدون ودفعوا زكى مبارك الى القول ببشرية القرآن .

وقد تبين لكل منهم من بعد خطأه ، وتآمر اليهود عليه . فحاول بعضهم العودة وتراجع منصور فهمى وكشف ذلك هيكل صراحة ودعا زكى مبارك الى الاصالة عن طريق حماية اللغة العربية من العاميات والحروف اللاتينية ، وهكذا حاولوا تصحيح موقفهم الا طه حسين الذى ظل مصراً على موقفه حتى النهاية .

رابعا : التحديات التى تواجه الادب العربى الحديث :

عندما نرى الانحراف الشديد الذى يواجه الادب المكتوب باللغة العربية فى السنوات الاخيرة تعود الى تحديات الصهيونية . تقول بروتوكولات صهيون فى مادة (أدب) : « وفى خلال القرون التى تنعمت بقرون النور والتقدم وضعنا فى أيدى الناس ضروبا من مادة الآداب المنشورة بالطباعة . هى غاية فى التفاهة والقذارة والغثاثة : وبعد أن نقيم مملكتنا فهذه الانماط من مادة الادب ستظل على حالها سارية مسراها نروجها ونحث عليها .

(البروتوكول ١٣)

ولقد تناولت البروتوكولات رووس موضوعات هامة وخاصة فيما يتعلق بالحرية والصحافة والتعليم والشباب وغيرها من القيم والموسسات التى يندفع فى العمل بها بعض من يظنون أنهم يخدمون أمتهم وأوطانهم . وهم فى الحقيقة يخدمون الاهداف الصهيونية بغير ثمن ، وهم ما أطلقوا عليهم تعبير « العميان » .

ولقد جرى فى السنوات الاخيرة تساؤل عريض ؟هو : لماذا لا يمثل الادب المكتوب روح هذه الامة؟ ولماذا تخلف وسقط وانحرف وضعفت قدرته على التعبير وضعف نقاده عن الاداء الصحيح ؟

والمسألة أبسط من البساطة : ذلك أن هذا الأدب الذى نراه سواء فى مجال الشعر أو القصة أو المسرحية ، لا يستمد روحه من قلب هذه الأمة ، ولكنه يستمد مادته من الفكر الوافد ، وأغلب الذين يكتبونه لا يمثلون هذه الأمة ، وهم منحرفون فى أساليب الأداء الوافدة ، فضلا عن أنهم رافضون لقيم هذا الامة ومقدراتها .

إن أغلب هذة الكتابات هى حصاد الهشيم ، وهى ركام الشعوبية الحاقدة الضروس .

وهناك القليل والقليل جداً الذى حاول أصحابه أن يعبروا بإخلاص ولكنهم ضاعوا فى غمار التيار الاسود الذى حجب ضوء الشمس سنوات طويلة .

ونحن نرى اليوم أن معظم ما يكتب تحت إسم أدب وشعر وقصة هو شىء ملىء بالغثاثة والتفاهة والقذارة حقا . ونرى تلك الاسماء اللامعة التى ما زال يسوقها الإستشراق شرقاً وغربا من مؤتمر روما إلى مؤتمر انجلترا إلى مؤتمر هذه العاصمة أو تلك من بلاد الغرب يحملون معهم أحقادهم وخصومتهم وكراهيتهم للغة العربية وللعرب وللاسلام ولعامود الشعر وللخليل بن أحمد وللمتنبى وللبارودى فى العصر الحديث .

لا ندهش عندما نجد واحداً منهم يقول : «ادعو إلى قتل الفصاحة وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير ، وما يقوله هذا العقد السابع من القرن لا يختلف عما قال جبران وزملاوه المهجريون فى العقد الثالث : «لى لغتى ولكم لغتكم» .

ولقد كان لتلك الفترة التى سيطرت فيها الشعوبية على الفكر الاسلامى والادب العربى قبيل النكسة وبعدها ، وهى ما تزال آثاره باقية وقائمة ولها أثر البعيد فى تلك الضربات التى وجهت إلى الادب العربى وإلى اللغة العربية »

وظهور هذه الصيحات المريضة التى حملت لواء كتابات أطلق عليها قصيدة النثر أو الشعر الحديث ، أو غيره من أسماء سرعان ما وجدنا من يدرس هذه الحثالات ويصنفها ويؤرخ لها ويعطيها طابع الظاهرة ، وكم من ظواهر كاذبة ظهرت فى أفق الادب العربى ، ثم انهارت وسحقت لانها لم تكن تملك حقيقة النسب

الصحيح وهو الاصالة ، ولم يكن هناك بد من أن يتصدى مستشرق مثل (جاك بيرك) إلى هذه المحاولات ويهلل لها ويكبر فى كتابه فى الادب العربى المعاصر الذى أصدره عام ١٩٦٦ .

وقد ظن وظنت معه موسسة الاستشراق أن ما كانوا يطمعون فيه من قضاء على البلاغة والاصالة فى الادب العربى قد تحقق على يد هذه المجموعة من الشعراء والقصاصين وظنوا أنه إذا فتحت الصحف والمجلات ذات الالوان الزاهية أبوابها لمثل ذلك فإنه دخل هذا كله إلى التاريخ، وأصبح حصادا موجودا وتيارا واضحا ، وكذبوا ، فقد كان ذلك كله من خداع النظر ووهم الخاطر .

ذلك أن هذه الآمة قد عودتنا دائماً أنها فى خلال الازمات الضخمة لا يستجيب الادب لها ولا يستطيع أن يعبر عنها وانما الذى يعبر عنها حقيقة وهو الفكر ، وآية ذلك ما وصل إليه الباحثون فيما يتصل بأحداث مماثلة كالحروب الصليبية، ومقاومة التتار والفرنجة وغيرها .

إن هذه اللوحات التى تقدم سواء فى القصة أو الشعر هى فى تقدير الكثيرين « غثاء » لانها لا تمثل حقيقة هذه الامة ولان أغلب الذين كتبوها لم يكونوا إلا أتباعا لهذا المذهب أو ذاك : ماركسية أو وجودية أو ليبرالية ، وكلها مذاهب غريبة عن وجودنا العربى غير قادرة على تصور أعماق أمتنا وجوهرها الحقيقى . : فضلا عن أن الذين تصدوا لتقويم هذا النتاج كله ، والنظر فيه ونقده ، إنما هم من هوامش هذه الامه لانهم لم يطبعهم فكرها ولا تراثها ولا قيمها . وهم فى الاغلب شعوبيون يحملون فى أعماقهم الحقد والخصومة، ويتطلعون الى أن تسيطر على هذه الامة : الماركسية أو الصهيونية أو غيرها ، فتقضى على ذاتية هذه الامة وكيانها .

وقد كان هذا أملهم قبل النكسة وبعدها ، ولكن أسقط فى أيديهم عند ما وجدوا هذه الامة قد عرفت طريقها الصحيح وبذلك انهار كل الذى قدروه ودرسوه وقننوه ، مما يسمى (الشعر الحديث الى أين) أو الآدب الواقعى ، أو مذاهب كذا وكذا طرحت فى آفاق الادب العربى لتعايش أدبا غريبا عنه وهو فى مجموعه لا يمثل مشاعر هذه الامة :

وخير ما يمكن أن يصون هذه المرحلة تلك العبارات الواضحة الدلالة لواحد من القادرين على فهم نفسية هذه الأمة : نحن العرب لنا قيم وتقاليد. ولقد تصور البعض أن مظاهر التقدم أن تهدم هذه القيم والتقاليد تحت ستار التقدمية ، وأن فى الإمكان أن يسقط تراثنا ، ولا يلتفت إلية . وأصبح العهد والوفاء والإخلاص نوعاً من الغيبيات لا يصلح فى عصر العلم والتكنولوجيا وكان طبيعياً أن ينقسم العالم العربى إلى فريق يرفض ويتشبث بقيمه وتقاليده وتراثه . . وفريق يحاول أن يركب الموجة الجديدة ، منفصلا تماما عن ماضيه وتاريخه وقيمه الموروثة .

فى هذه الفترة وفى هذا الخضم من التيارات المتناقضة كدنا نفقد شخصيتنا ومقوماتنا إذ أصبحت التقدمية هى تجاهل أو طمس كل القيم وكل التاريخ وكل التراث ، واستحداث لون جديد من العلاقات الاجتماعية لم نألفه ولا نرضى به ، لأنه يتجاهل كل شىء نشأنا عليه ، وأصبح كل منا يرفض الاندفاع مع التيار الجديد . إما رجعيا أو عميلا متحالفا مع الاستعمار ، والأغلبية الساحقة من أمتنا ليست متحالفة مع الاستعمار ، وليس لها أية اتجاهات . لقد رفضت هذه الأغلبية الدعوة الجديدة لأنها بعيدة عن تقاليدنا وقيمنا .

ولقد بدأت هذه الدعوى توجه ضرباتها فى ظل مفاهيم مثارة عن العروبة تلتمس مذاهب الغرب فى القومية، وهى مذاهب ليست صالحة للتطبيق على العلاقات الجذرية القائمة بين العروبة والإسلامية فى ظل هذه النظريات الوافدة كان دعاة الأدب يدعون إلى الاقليمية أو إلى التجزئه أو إلى القوميات الضيقة ويفسرون أدب هذه الأمة على ما ليس من طبيعتها الأصيلة التى لا تعرف إلا الترابط الفكرى الاسلامى الواسع الجامع بين العرب والترك والفرس والمسلمين جميعا تحت إطار (لا إله إلا الله) :

ولقد سقطت دعوة الاقليمية والقوميات الفينيقيه والوافدة لأنها اعتمدت مذاهب لم تجد تقبلا من ذاتية هذه الأمة .

ولا ريب أن الأدب الذى كتب فى ظل هذه المحاولات القسرية الباطلة هو أدب مضلل فاشل . وكذلك الحال عند ما طرحت فى إطار بلاد الإسلام الدعوات الماركسيه والوجودية ، وحاول أصحابها أن يستقطبوا مجموعة من الكتاب

والأدباء والشعراء والمسرحيين وغيرهم ليصنعوا منها « تراثا » لهذا التيار الذى عجز أن يجد قبولا فى النفس العربية ، والذى كان مفروضا بالقسر دون أن يجد استجابة حقيقية .

ومن هنا فإن هذا النتاج الأدبى كله لا يمثل حقيقة هذه الأمة ولا جوهر نفسيتها أو مشاعرها أو يستمد من روحها ووجودها .

إن من أكبر ما حاوله بعض النقاد وأساتذة الأدب فى الجامعات هو محاكمة الأدب العربى الذى صدر عن النفس المؤمنة بالله ، والتى تعرف حقيقة الانسان وجوهره الجامع روحا ومادة ، ومسئولية الفردية والتى تؤمن بالجزاء والحساب، من الخطر أن يحاكم مثل هذا الأدب وفق النظريات المادية الماركسية والوجودية والفرويدية التى تعتبر الانسان حيوانا « باحثا عن الطعام وباحثا عن الجنس أو أنه جزء من المجتمع ، وليس له ذاتيته الخاصة :

ومن أسوأ آثار النظريات الوافدة فى نقد الأدب العربى ومحاكمته : تلك الدعوة المسمومة التى حاولت أن تفصل الأدب العربى الحديث عن مسار الأدب العربى كله منذ فجر الاسلام إلى اليوم ، فكل الدراسات تحاول القول بأن عصر الحملة الفرنسية هو أول العصر الحديث للبلاد العربية ، وأن ما سبق ذلك إنما يمثل عصر الانحطاط .

ونجد أمامنا اليوم خطراً ماثلا هو ذلك الأسلوب الذى يكتب به بعض الأدباء العرب ، ويخضعون فيه الأسلوب العربى المزدوج الذى يكتب به دعاة التغريب والذى يصبغ الجملة العربية صياغة غير أصيلة . ومن عجب أن بعض المجلات الأدبية والاسلامية تنشر لأمثال هؤلاء . ومع الأسف بعضهم من خريجى الازهر .

وقد يظن هؤلاء أن هذا تقدما ، ولكنه من المحاذير الخطيرة التى يساق إليها كتابا دون أن يدروا ذلك أنهم إنما يباعدون بين الاسلوب العربى وبيان القرآن .

ومن ثم تحدث تلك الفجوة التى يتطلع إليها دعاة التغريب مقدمة لعزل هذه الامة وأسلوبها العربى عن نطاق البلاد العربية الصحيحة ، ومن ثم تبدأ مرحلة تحول اللهجات العربية إلى لغات . وهنا يكمن الخطر الذى يعد كل عربى ومسلم مسئولا عنه إن وقع .

خامسا : محاولة تزييف أصالة الادب العربى :

جرت المحاولات لضرب أصالة الادب العربى فى ميادين مختلفة :

أولا : محاولة سلخ الادب عن القيم اللغوية ودراستها ، ولما كانت الصلة بين الادب واللغة من أهم مقومات وجوده ، فقد جرت المحاولات لاخراج الكتابات الجديدة من إطار اللغة ، واحتكار الاصول النحوية والبيانية وكسر عامود الشعر.

وضرب مفهوم الادب الاصيل هو جزء من خطة تتصل بالهجوم على اللغة العربية من حيث هى لغة القرآن ومناط البيان العربى والبلاغة التى حملت لواء دعوة الاسلام وقدمتها للبشرية فى أعلى صور الكمال .

والهدف هو انتزاع الادب من مكانه الحقيقى بوصفه عنصراً من مركب كبير هو الفكر الاسلامى .

ويتصل بهذا إعلاء الكتابات الشعبيه والعامية والفلكلور المكتوبة باللهجات المحلية الدارجة والتى تتميز بتفاهة مضامينها .

وإعلاء شأن الشعر الحر بمفهومه المناهض للبلاغة العربية والحاقد عليها والمحتقر لها والهادف إلى نفس الغاية التى تقدمها الازجال والامثلة العامية من حيث صدورها من نفسيات ساذجة وعقليات تحمل طفولة البشرية . وكذلك إحياء الاساطير والخرافات واعلاء الاقليميات والقوميات الضيقة ، والادعاء كذبا بأن الكتابات الشعبية والعاميات تمثل مشاعر شعبية ، ومن ذلك محاولة حصر الادب فى كل ما كتب تحت اسم النثر الفنى ، لاخراج عصارات الادب الحقيقية من كتابات الغزالى وابن تيمية وابن حزم وابن القيم من دائرة الادب .

والغاية هى كسر البلاغة العربية وكسر عامود الشعر .

ثانياً : الحملة على الأدب العربى الأصيل والتنفير من الأدب البليغ الموروث ، والجامع لفنون الحكمة والتجربة العربية الإسلامية الموحدة بين الأجيال والشعوب وتحقير هذا الأدب ووصفه بالرجعية والتخلف والسلفية ، وهم فى سبيل هذا الهدف المسموم يرفضون الشكل والقالب القديم ويدعون إلى خلق قوالب وأشكال جديدة لها مضامين كنسية وتوراتية وأسطورية قديمة (أمثال زيوس وباخوس وجلجامش

وغيرها) وهى كتابات تحمل الصلبان والمناجل والمطارق ومحتواها قلق وتمزق وضياع ووجودية سارتر ، وإباحية سيمون دى بوفوار وعصارة كل مذاهب الهجوم والتخريب من أمثال مصطلحات الخطيئة والفداء والصلب والخلاص وتعبيرات الأممية والصراع الطبقى وخليط من الوجودية والماركسية ومفاهيم دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية .

وهم دائماً يرددون تلك الصيحة المسمومة الكاذبة المتكررة وهى أن الأدب العربى لم يعد له عطاء حقيقى ، والحقيقة أن ركود الأدب هو ظاهرة مستمرة خلال هذه السنوات لأن الموارد التى يجرى فيها الادب ليست من منابعه الاصيلة إنها تصورات وافدة ، نعم إن هذا الادب لا يمثل روح هذه الأمة ولا يعبر عن ضميرها لان الذين يكتبونه غرباء بالروح وإن كانوا يحملون قلماً عربيا ، إنهم يصدرون عن تلك المشارب الغربية والاساليب الوافدة ، إنهم يمثلون نبتاشيطانيا ليست له جذور فى التربية العربيه الإسلامية ، فهم لم يصدروا عن مصادر البلاغة فيها هى : القرآن والحديث وليست بضاعتهم إلا بعض قصص شاذة تافهة مترجمة ولم يبلغوا فى الاداء العربى والبيان العربى مبلغا ، وما تزال نفسياتهم تمثل طفولة البشريه وسذاجة البسطاء الذين لم تمتلىء أرواحهم بإيمان صحيح عميق بأمتهم وفكرها والتحديات التى تواجهها . ولذلك فإنهم لن يستطيعوا أن يقدموا شيئا وكل ما قدموه هى حصاد الهشيم وقبض الريح .

نعم إن الادب لم يعد قادراً على العطاء ،لانه مجموعة من القصص والروايات والمسرحيات وتلك الكتابات التى يسمونها الشعر الحر ، وكلها لا تمثل جوهر هذه الامة ولكنها تمثل تلك الحياة الاجتماعية المضطربة التى يعيشها قوم ليست لهم من العقيدة الإسلامية إلا إسمها الوراثى ، انها تستمد مصادرها من القصص الغربى الذى لا يمثل هذه الامة أو من واقع اجتماعى ضال صنعته المسرحيات الضالة والمسلسلات الهابطة،ان هذه الكتابات فى الشعر والرواية والمسرح والقصة القصيرة كلها كتابات تافهة وتحت الصفر ولا تمثل الا تفاهة الجيل نفسه ذلك لان هذه الفنون فى حقيقتها لا تمثل أصالة الادب العربى وليست هى أسلوب التعبير الصحيح فيه .

انها مفهوم دخيل . سيظل غريبامهما استمر ، عاجزا مهما امتد , غير متقبل فى النفس العربية الاسلامية مهما تجمعوا حوله .

إن الأدب العربى يمثل الأصالة فى فنون أخرى غير القصة والمسرحية : إنه يمثلها فى أدب الرحلات والذكريات واليوميات والرسائل والتجربة التاريخية والنصوص الموثقة . أما هذا الضلال الخادع الذى تصنعه نفوس لها أهواء وفيها شهوات ولها أهداف تريد بها أن تفسد الأديم الصحيح ، وتلقى إلى النفوس السموم ، فلن تكون أبداً مصدراً صحيحاً للأدب العربى وسوف يسقط سقوطاً شنيعاً وسيصبح كتابه بعد قليل فى عداد الضالين المضلين .

ثالثاً : إن أخطر ما يحاوله خصوم الأدب العربى هو خلق جو من الأدب الانحلالى المتشائم (سارتر — مورافيا — كفكا — كامى) وهو هدف أساسى من أهداف الغزو الفكرى الصهيونى الاستعمارى الماركسى حتى لا تستقيم إرادة الحياة فى العالم الإسلامى ، وانه على الرغم من وجود ظواهر طبيعية فى كل المجتمعات من الإنحراف والمروق فى بعض الفترات إلا أنه لم يصبح يوماً من الأيام ظاهرة طبيعية ، ولم يصبح الإنحلال الخلقى فلسفة عامة على الاطلاق وإنما كان يعد حين يقع خروجا فاسدا على قانون المجتمع الأخلاقى يرفضه المجتمع كله ويعلو الصوت فى تحذيره ، وسرعان ما كان المارقون يختفون فى وجه الحياة الاجتماعية ويدخلون فى مرحلة الظل من أمثال أبى نواس وبشار والضحاك) حتى يجىء زنديق جديد ليحيى سمومهم ويعيد عرضها على الناس لإفسادهم من جديد تحت اسم (الأدب الحر) أو حرية الأدب . إن النظرية اللاأخلاقية ، والإباحية ، والفن للفن ، وغيرها من نتاج الآداب الغربية تحمل نظرة تشاؤمية ، وتقوم على مفهوم الخطيئة التى عرفتها المفاهيم المسيحية الغربية ، وهى ممتدة فى الفكر الوجودى حيث تحمل محاور من نار تقذع بها المجتمع الغربى تحت اسم التحلل والتمزق والغثيان والضياع وهذه الأفكار لا تنمو أبداً فى المجتمع الاسلامى الاصيل ، لأنه لا توجد جذور لها إلا فى بعض البيئات المنحرفة المنحلة التى خرجت بعض كتاب القصة والمسرح ومخرجيه وممثلية فى العصر الحديث .

وهذا هو ما يطلق عليه فى الغرب اسم (الأدب الاسود) ويعنون به الادب المكشوف فى مسائل الجنس أو الذى يهتم بنواحى الانحلال فى الانسان ويبرز الجوانب المظلمة .

هذا الادب الاسود هو الذى يصور الغرائز الجنسية ، وقد تصاعدت موجاته

فى الغرب مع الانحلال فى المجتمع ومن تدافع الناس الى الشهوات بعد أن كشف لهم (فرويد) هذه الجوانب وجلاها والمعروف أن المجتمع الغربى مر بموجتين متناقضتين : موجة الرهبانية التى عامل فيها العلاقات بين الرجل والمرأة معاملة غير طبيعية فاحتقرها وازدراها وأعلن أنها هى الشر والشيطان الآثم وتنكر لها تماماً ثم جاءت بعد ذلك موجة الاباحية التى وصلت اليوم ما يسمى بالثورة الجنسية حين بلغت مداها الذى بلغته من قبل الحضارة الرومانية وكان علامة على انهيارها وسقوطها وقد وصف الناقدون المنصفون هذا الادب الاسود بأنه أدب الانهزام واليأس وأنه وليد الحضارة المنهارة ، وأن ظاهرة السيل الجارف تحمل طابع التمزق واليأس ولكن الخطر الحقيقى هو فى طرح هذه السموم فى أفق أدبنا العربى بالترجمة وطرح هذه المفاهيم فى مجتمعنا العربى الاسلامى حتى راح كتاب القصة فى تقليدها وترجمتها والتفوق عليها .

ونحن يجب أن تكون لنا موقف من هذه السموم . ان هذا لون من أدب الانهزام أو اليأس الصادر من بيئة الغرب ، لنفهمه على أصوله الصحيحة ، ونزن هذه الاعمال بميزان أدبنا ومفاهيمنا وقيمنا ونوجه شبابنا الى معرفة محاذير وأخطارها حتى لا يفتن بها على أنها من طبيعة الحياة :

وعلينا أن نوجه شبابنا إلى معرفة الاصول الحقيقية للنظر إلى هذا الأدب الوافد فلا نكون خاضعين له ، ولنعرف أنه يمثل مجتمعا غير مجتمعنا - إن هذا الأدب الغربى المتشائم هو وليد الحضارة المتدهورة المشرفة على الانهيار (سواء أكانت رأسمالية أم إشتراكية) وهو تعبير عن الانحراف الذى أصاب المجتمعات الغربية بالإنحلال :

إن أخطر ما يواجه الأدب العربى اليوم هذه الدعوة المبثوثة إلى أدب المتعة والشهوة والفن الخليع . ووعائها الرواية والمسرحية والسينما ومسلسلات الإذاعة والتليفزيون وهى فى مجموعها تقدم مترجمات من أدب الفراش والجنس الغربى بمفاهيمه الفاسدة للمرأة والحب والحياة والتى لا تتفق مع مفاهيم الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى الأصيل .

رابعا : هناك محاولة خطيرة يحاولها الشعوبيون وهى كتابة أسلوب عربى مغاير

للأسلوب العربى الأصيل وهى محاولة لهدم التراث ، والتقدم مرحلة أخرى بعد دعوة أصحاب النظريات (مثل عمل طه حسين فى كتابه : السيرةوتاريخ الاسلام (الفتنة الكبرى) هذه اللغة الجديدة لا أساس فيها للبيان العربى الاصيل وهى عامية ومختلطة وبها عبارات مضطربة ، وهناك من يغلب أسلوب العامية اللبنانية ومصطلحات أسطورية مستقاة من الكلمات التوراتيه والقديمة ، يروج لهذه اللغة (أدونيس) بمجلة مواقف ويوسف الخال وغادة السمان وجماعة الحزب القومى الاجتماعى السورى ، وهناك دعوى اللغة الوسطى (توفيق الحكيم) وقد سبقت هذه المحاولة محاولة الادب المهجرى (جبران ونعيمه وإيليا أبو ماضى) التى وئدت فى المهد وسقطت سقوطا شنيعا بالرغم من تجدد المحاولة الآن فى إعادة طبع جبران خليل جبران من جديد) .

وكانت هناك الكاتبة (مى) تصطبغ أسلوب التوراة ، وبقايا منها ومن بشر فارس وحسين عفيفى وعبد الرحمن بدوى ، ومحاولات لويس عوض فى ديوانه بلوتولند ، فى محاولة خلق مايسمونه الشعر المنثور أوقصيدة النثر ، وجاءت ثروت عكاشه فى الاخير لاحياء هذه المدرسة بترجماته الجديدة لاعمال جبران .

ولا شك أن محاولات توفيق صايغ وأنسى الحاج وسعيد عقل هى خيوط لهذه المؤامرة الضخمة ، الحاقدة على اللغة العربية : لغة القرآن ومحاولة إدخالها المتحف وإعلاء شأن العاميات .

وقد حاول هؤلاء الادعاء بأن هذه التوراتيات تبعث من أدب السهروردى والمعرى والحلاج — وكتاباتهم ليست إسلامية على التحقيق — والواقع أن خلفيات هذه المؤامرة تتمثل فى نشيد الإنشاد والتوراة وسجع الكهان من الأدب الجاهلى .

— ٢ —

إن المرحلة التى تردى إليها الادب العربى المعاصر لم تعد سراً خافيا أو إتهاما محتملا ولكنها هى الحقيقة الواقعة التى شهد بها الادباء المعاصرون الذين عركوا تيارات الادب العربى منذ منبعه ، ومطالعه ، والمراحل التى مر بها وعرفوا ذلك

الخطر الذى يتردى فيه اليوم منذ حاول دعاة تغريبيون مضللون أن يعزلونه عن منابعه ويجرون به شوطاً آخر فى التية حتى يفقد معالمه الأصيلة. يقول الدكتور شكرى عياد :

إن الأدب العربى المعاصر يكاد اليوم يقطع الوشائج التى تربطه بتراثه ليبحث عن أشكال جديدة للتعبير ، ومع أن الصورة القلقة الحالمة لهذا الأدب لا تتفق مع الجو النفسى الذى يعيش فيه العالم العربى ، فإن تجارب الأدب الغربى لها على الأقل هذه القيمة بالنسبة لنا : إنها تحطم قداسة الشكل ونحن اليوم تستعبد للأدب الغربى أشد الإستعباد حين نقلد أشكاله الجديدة التى دفعه إليها ضجره بالأشكال القديمة ، ولكنا نستفيد من هذا الأدب أعظم الفائدة حين ندرس من خلال الأشكال الجديدة والقديمة معاً علاقة الشكل بالمضمون ثم نبتكر الأشكال المناسبة للمضامين التى نحاول التعبير عنها مستفيدين من امكانيات لغتنا وتراث شعبنا نفسه. ومن النظريات السياسية التى تصب رويته الحياة فى قالب محدد .

ويقول الدكتور حسين مؤنس : تحت عنوان صارخ :

« الأدب الرخيص يجتاح الحركة الأدبية » .

إن أكبر علامة على تدهور الفكر هى موجة الأدب الرخيص التى تجتاح الحركة الأدبية ، وهذه الكتب الرخيصة التى تغطى الأرصفة، وأقصد ذلك الأدب السهل الذى لا يتكلف صاحبه فى كتابته جهداً ولا دراسة ولا اطلاعا ومن هنا فإن القارىء لا يحصل منه على شىء .

تلك شهادتان من وجهة نظر أدبية صرفة ، وهى تقرر ما نقرره من موقف من وجهة نظر الإسلام ، فالأدب الذى تكتبه الاجيال الجديدة تافه رخيص ولا يمثل الادب العربى لا فى جوهره ولا أصالته لان الذين يكتبونه منقطعوا الصلة بجذوره وقيمه ومفاهيمه وغاية ما حصلوا عليه أنهم قرأوا بعض روايات مترجمة فعملوا على تقليدها أو قرأوا شعراً مترجماً مما هو غارق فى أهواء النفس والجنس والشهوات .

ان هذه الكتابات التى انحسرت الآن فى مجال واحد هو القصة والشعر الحر

لا يمكن أن تمثل الادب العربى حقيقة ، لانها لا تصدر عن ثقافة عميقة ولا عقيدة صحيحة ولا عن وجهة صحيحة وهو أدب لقيط وأنه لا يمكن أن يمثل هذه الامة القرآنية العربية صاحبة اللسان البليغ والبيان الرفيع وليس كل من استطاع أن يحمل قلما أو يكتب قصة ، أو شعراً حراً ، أو أى خواطر سائبة ساذجة ، تافهة أمكن أن يسمى نتاجا وانى لاعجب لاولئك النقاد القدامى الذين عرفوا أصول الادب كيف يبيحون لانفسهم أن يعرضوا هذا الهراء أو ينقدوه ، والعيب الاكبر على الصحف التى تفتح صفحاتها لهذا الهراء وتشجعه جريا على هدفها من دعم التفاهة والاساليب النازلة .

وانا لنجد كتابنا العمالقة كما يسمونهم وقد نضبت مواردهم ولم يعد لهم انتاج جديد ، سوى مانقلوا من الفكر العربى أو ترجموا من القصص الاوربية . ولم يعد هناك انتاج أدبى حقيقى فى المجالات التى كانت زاخرة فى الماضى ، مما سوى تفاهات المسرح والقصة والشعر الحر . وهذه كلها فنون دخيلة على الادب العربى وإن كان البعض يطلق عليها مفهوم الإبداع ، فإنها لا تتمثل حقيقة النفس العربية ولا المجتمع العربى فى شىء .

ولقد خضع الادب العربى الذى يكتب فى مرحلة ما بعد النكسة الى المذاهب الإجتماعية الغربية وقام على قواعد من الفلسفات المادية فهو لا يمثل جوهر العاطفة أو الشعور الاصيل فى النفس المسلمة والعربية .

ذلك لأن الذين يكتبونه يخضعون لفكر وافد مضلل ، والمعروف أن الادب الغربى يقوم على جملة مفاهيم :

أولا : نظرية دارون وما جاء به من أن الإنسان حيوان .

ثانيا : نظرية ماركس وهو الذى يخضع الإنسان للقمة العيش .

ثالثا : نظرية فرويد : وهو الذى يخضع الإنسان للجنس فى كل تصرفاته وأعماله .

رابعاً : نظرية فريزر : صاحب الأفكار المسمومة عن السحر البدائى والاسطورة وعنه أخذ فرويد وماركس والأساطير فجعلاها مصدرا أساسيا للتفسير الإجتماعى للتاريخ .

خامساً : الذى يقرر أن الانسان خاضع لمبدأ البرجمانية أى أنه لا يصدر عن أى معنى من معانى الايثار أو العاطفة أو الايمان. هذه المفاهيم المادية الخالصة التى يقوم عليها الأدب الغربى هى التى يحاول أدعياء الأدب والغربى هى التى يحاول أدعياء الأدب والغربيون نقلها الى أفق الادب العربى والفكر الاسلامى وقد تهاوت فنون الادب العربى الأصيلة وأفلس كتاب القصة بأن أصبحوا يكتبون اليوميات التافهة التى لا تحمل شيئا وهذا التحول من القصة الى اليوميات معناه الافلاس لأنه لا يمثل أدب المقالة بمفهومه الحقيقى وانما يمثل مجموعة من الخواطر السائبة . وقال يوسف السباعى عن نفسه وعن هؤلاء : لقد أصبح الاديب موظفا فى الجريدة التى يعمل بها .

أما الذين يتصدرون المجلات الأدبية فقد أخذوا يتصورون أنفسهم وكأنهم قضاة فى الفكر والثقافة جميعا وأخذوا يفرضون مفاهيم إستبدادية الادب تجعل منه شبه عقيدة قائمة وأخذوا يلقبون من شاءوا من الكاتبات والشاعرات بألقاب وهمية مستمدة من أهواء النفس ، زغبة لواحدة أو كراهية لأخرى ، وكأنما الأدب هو عالم قائم بنفسه مصطلحات ومفاهيم وقيم ، وكلها مفاهيم وافدة يحاولون اخضاع الادب العربى لها ، وما بين أيديهم من هذا الأدب ركام لاقيمة له .

فإذا أراد الادب العربى أن يعود الى أصالته فليخلف ميدان التقليد والتبعية والترجمة مع تغيير البلاد والاسماء وهى القصة الغربية والشعر الحر وليقتحم الادباء ميادين العمل الحقيقى فى الذكريات والرحلات والتراجم الشخصية والغيرية وليخرجوا من مفهوم الانانية الذاتية بمحاولة تصوير الاهواء الى مجال تأديب التاريخ والكشف على جواهره والترجمة للأبطال والاعـــلام ودراسة القضايا الفكرية والروحية والاجتماعية بروح الأديب المؤمن كما فعل ذلك كبار أعلام العربية .

(سادسا) المؤامرة على القصة :

هناك دعوى عريضة يحمل لواءها التغريبيون اليوم تحت اسم الابداع الفنى يدعون أن هذا الابداع لا يوجد فى الادب الا عن طريق القصة والرواية المسرحية والمسلسلات واعتبارها وحدها هى الانتاج الادبى دونما سواها ، مع أنها فى الحقيقة

هى العنصر الدخيل فى الأدب الحديث بعد أن ظللت الكآبة على الفنون الأصيلة كالترجمة الذاتية والرحلة والخاطرة .

والواقع أن للتركيز على القصة والرواية هى محاولة تغريبية فما كانت هذه من الفنون الأصيلة فى الادب العربى وقد أثبتت الايام والتجارب فسادها وفشلها فى أداء دور أصيل وهى ولا شك فى طريقها الى الانهيار والتلاشى وآية ذلك فى فشل كتاب القصة أخيراً والتجاؤهم الى كتابة اليوميات فى الصحف وهى كلمات لاتحمل معها أى خبرة أو دراسة وانما تحمل وحى المشاعر السائبة التى تتعلق بالأمور التافهة والتى لا تصل الى أعماق المشاعر النفسية الحقيقية .

ولذلك فإن القصة فى طريقها إلى الانهيار بعد أن عجزت خلال هذه المرحلة عن أن تخلق لها مكانا حقيقيا لمجافاتها للفطرة العربية الأصيلة وبعدها عن طبيعة النفس العربية التى قد تعجب بالألاعيب والأكاذيب البهلوانية المصنوعة ولكنها لا تؤمن بها ولا تراها أهلها للبقاء .

وقد وجد العرب منذ وقت بعيد طريقهم الى الإفضاء والتصور والبيان عن طريق أسلوب آخر ارتضوه غير هذا الأسلوب المصنوع المتكلف الذى عرفته الآداب الأوربية لأنها وجدت فيه أسلوبا معقدا متكلفا يوازى فطرتها المعقدة المتكلفة ولأنه كان يطرح لها تساؤلاتها المعقدة فى أسلوب من الافتعال .

أما فى الأدب العربى فإنه لا توجد تساؤلات ولا قضايا معقدة تحتاج الى أسلوب الافتعال ، والمعانى تنساب فى صراحة وبساطة ويسر فلا تحتاج الى عقدة وحل ومفاجئة ونهاية مأساوية وليس فيها صراع بين الآلهة والناس وانما هناك اذعان من الناس الى خالق الخلق تبارك وتعالى وتسليم واقرار له بالعبودية تعين كامل بإرادته وقدره وتصرفه لا تطرف له عين ولا يقلق له خاطر .

وهذا هو الفارق العميق بين النفس الإسلامية والنفس الغربية ولكل منها أسلوبه فى التعبير عن مشاعره وكذلك فليس ضروريا أن يصطنع الادب العربى نفس أسلوب الغرب القائم على الحيلة والصناعة والتكلف والبعيد فى مضمونه عن حقيقة النفس الإنسانية والذى ليس فى حقيقته الا محاولات من ذوى الإهواء لإلهاء الناس عن واقعهم بتلك القصص المتكلفة التى تجرى مع غايات السادة فى المجتمع

الرأسمالي أو المجتمع الشيوعي وسوف تنهار الفنون التي تجانب الفطرة ولا يتبقى الا الفنون الأصيلة القادرة على العطاء .

اذا تبين أن الأدب العربي غير قادر على العطاء اليوم فإنما يرجع ذلك إلى أنه قد انحرف إلى منحدر خالف فيه فطرته ولأنه في أوقات الأزمات الكبرى التي تصيب الامم فإن الأدب يكون عاجزاً عن الإستجابة لأن صورة المجتمع التي أمامه لا تعطي «الأمل» أو «المثل» أو المطمح الإسمى الأمم للخروج من محنتها وأزمتها وإنما الذي يستطيع ذلك هو الفكر الإسلامي بمفهوم التماس منهج الله والعودة إليه فهو القادر على إخراج الأمة من أزمتها .

إن الأدب لا يعطـــي في أوقات الأزمات، لأنه ليس إلا عنصراً من الفكر الجامع ، وهو يعجز عن الاجابة عن التساؤل لأنه يخطيء مرتين : يخطيء حين يظن أنه مستقل بنفسه مع أنه جزء من الفكر لا ينفك عنه ويخطيء حين تستعلي القصة التي هي جزئية من الأدب الذي هو عنصر من الفكر يجب أن يسير في فلك الأخلاق وتحتمل المسئولية وتخضع للنهج الجامع الموجه للنفس المسلمة والعقل المسلم جميعاً .

إن من أبرز عوامل الانحراف الذي تشاهده في التطور الأدبي في هذا العصر هو سيطرة القصة والمسرحية كوسيلتان للتعبير ، ذلك حين يتخذ النفوذ الغربي من إدخال مفاهيم الفن والأدب الغربيين وسيلة إلى إفساد الفطرة العربية الاسلامية وإفساد الذوق العربي الاسلامي في الأغنية والقصة .

وقد سجلت تقارير ودراسات قامت بها بيئات التغريب والغزو الثقافي في البلاد العربية إلى أنهم لا يلغون الأغنية العربية ليحلون محلها الأغنية الأجنبية ، وإنما يعملون على التدني بالأغنية وكلماتها والمسرح ولغته والموسيقى وأنغامها إلى مستوى الرداءة والاباحة حتى إذا ما شبع الأجيال الجديدة سحبتها أذواقها وانصرفت عنها إلى الأغنية التي تتغنى بكلماتها وإلى المسرح الأجنبي وفي بعض البلاد العربية كالجزائر مثلا نجحوا في خلق المدرسة الفنية الرديئة التي انحسرت عن نجاح الفنون الفرنسية

وفي البلاد العربية يجرى إبتعاث الأساطير القديمة وتشجيع العاميات والتركيز على العبارة الاباحية في الأغنية والنغمة المثيرة للشهوات ولا شك أن قوى التغريب

قد بحث الآن (١٩٨٠) فى أن تحمل القصة والمسرحية تسيطران كوسيلة للتعبير مع تنحيه المقال الأدبى والذكريات والرحلة وترجمة الحياة ، وقد كانت جميعها تقدم فكراً عميقاً وتعتمد على ثقافة واسعة ومراجعات عرفها كل من قرأ أدب المقالة فى الثلاثينات وما بعدها (العقاد وهيكل والمازنى والزيات والرافعى وزكى مبارك وشكيب أرسلان) وعشرات .

أما الآن فتجرى المحاولة لاحلال القصة والمسرحية كقالب أساسى للتعبير الأدبى مع ضحالة الخلفية الثقافية لهؤلاء الذين يكتبونها والذين لا تتميز كتاباتهم بأى أصالة فى دراسة البيئة . أو أى إيمان بقيم هذه الأمة فالخسارة مزدوجة ، لأنها تخرج بنا عن الاصالة ولأن الحصيلة تافهة وقد خسرنا مع ذلك سلامة اللغه لان كتاب القصة المسرحية لا يهتمون بالفصحى ولكنهم يحتقرونها .

والطابع الواضح الآن أن القصة التى يكتبها من نسميهم قصاصى الصحافة أصحاب الحواديت والفضائح والغراميات والسنوات الأولى فى الحب والجنس لا تعبر عن شىء ما ، وهى عبارة عن مؤامرة لقتل وقت الناس والقضاء على الثقافة الاصيلة ، ذلك الوقت الذى يقضيه القارىء فى قراءة قصة خيالية قدمها كاتب ما وجرى بها وراء الخيال وصنع منها فى أربعمائة صفحة حكاية طويلة ، لا تخرج منها بشىء ما .

هذا الوقت لو أنفقه القارىء فى قراءة كتاب من كتب المقالات الأدبية لخرج بأكثر من خمسين فكرة فى مجالات مختلفة عن المجتمع والفن والرحلة والتراجم والحكمة تضيف اليه خبرة واسعة وتفتح له آفاق فهم الحياة فهماً صحيحاً .

وقد أخضع كتاب القصة أنفسهم لتيارات ثلاث خطيرة :

أحدها تيار ماركس ، والآخر تيار فرويد ، والثالث تيار سارتر .

فالأول : تفسير اقتصادى يسيطر على أمثال نجيب محفوظ الذى تقول قصصه كذبا ان سبب انحراف المرأة هو خضوعها للظروف المادية . والثانى تفسير جنسى يسيطر على احسان عبد القدوس ويوسف ادريس وغيرهما وهما يدفعان الفتاة الى حمأة الاباحية تحت اسم الحرية .

ولقد سيطر كلا المذهبين على كتاب القصة فى الغرب وعنهما نقل قصاصونا .

وقد سيطر مفهوم الوجـــودية على الروايات والـكتب التى كتبها سارتر الى كهوف باريس الضيقة ، ومغانيها الفاجرة . كما سيطر مفهوم الجنس الفرويدى على القصص والشعر .

وقد تمثلت فى المذهبين صور الضياع واليأس والعدم والتمزق والغثيان الدائم ومنه أخذ كـتاب القصة العرب ولا ريب أن ماركس اليهودى وفرويد اليهودى وسارتر نصف اليهودى علامه على سيطرة الصهيونية على الأدب الحديث .

وفى ميدان المسرح نجد أن معظم الفنانين البارزين كانوا فى المحافل الماسونية وهولاء الذين حملوا المسرحية والقصة والرواية الى الناس وحققوا رسالة الماسونيه فى الاداء بعد أن حققها الأولون فى كتابه النص .

ان كتاب القصه يدعون أنهم يمثلون واقعيه الادب ونحن نتساءل ماذا يفيد المجتمع من اعادة تصوير ملامح فساده على نحو أكثر « فنية » وصناعه ابرازاً تحت أضواء المسرح ؟ . وماذا يفيد المجتمع من تصوير الواقع المرير أو السىء أو القبيح ولماذا تعاد صياغته بصورة فنيه براقه اذا كان كريها ؟ . ان كل دعاة الادب الحر يتحدثون عن تصوير الواقع .

يقول مورافيا نحن بعـد الحرب تمزقنا وتهدمنا كان لابد الأدب أن يصور ما أصاب الارض والعلاقات الاجتماعيه .

واليوم يدافع كتاب القصه عن اثمهم وعن تـكبيرهم للجريمه وبراعتهم فى وضعها فى اطار براق يخطف الابصار ليزداد المغرورون بها اعجابا .

وكان أولى بهم أن يقدموا علاجا على نحو لا يغرى قارىء القصه بصور الفساد والواقع أن مفهوم الفن كما رسم اليهود لهم يحول دون أن تكون القصه هى الحقيقه ، فالفن قائم على الكذب والخداع والتمويه وادخال أهواء النفس فى عملى المكاتب حتى يصور شيئا آخر غير الحقيقة .

ومع هذه الدعوى الباطلة عن حرية كاتب القصه فى مخالفة الواقع ومخالفة

حقائق التاريخ فان كتاب القصة ليسوا على قدر وافر من الخبرة الثقافية الأصيلة وسذاجتهم واضحة فى ما يقدمونه من مفاهيم لتجارب الأمم وفلسفة الحياة .

ومن هنا فان هذه القصة مضادة للفطرة والعلم، والصدق ولواقع الحياة ولذلك فهى لا بد أن تسقط لأنها تقوم على الحقيقة الخالصة وستحيا فنون أخرى مثل المذكرات والرسائل والرحلات .

وقد سجل الباحثون أن جيل الستينات شهد وباء إسمه القصة القصيرة حتى وصل عدد كتابها إلى المئات وقال أحدهم : (لقد وصل الأمر أنى كنت أخاف أن أزيح حجراً من الطريق خشية أن أجد تحته من يصرخ فى وجهى بأنه قصاص ، ولكن هذه المحافل سرعان ما تناقصت إما لضعف الموهبة أو بفعل اليأس) .

وقد تبين الآن بما لا يدع مجالا للشك أن القصة بدأت تسقط .

وأن المذكرات الخاصة واليوميات قد اكتسحتها لأنها من الواقع بينما القصة من الصناعة الخيالية ، التى مهما قيل فى أنها تستمد من المجتمع فانها لا تستطيع إلا أن تكون هوى فرديا لصاحبها وإفرازاً لرغبات مكبوتة وأهداف طامحة إلى الظهور ومع ذلك فهى تعجز عن أن تقدم صورة الحياة الحقيقية لأنها محصورة فى حيز ضيق من مجتمع وعصر .

وماتزال القصة عملاموقوتا وليس أصيلا أوثابتاً لانها ترتبط بأهواء الناشرين والاذاعات والمسارح ولأنها لا تمثل مفهوماً أصيلا ولاعميقاً للمجتمع أويستهدف حل مشكلة من مشاكل الناس .

ويقال أن هناك ٣٠ ألف قصاص تستهلكهم الأجهزة الحديثة هم تجار الكلمة بكل معناها والتابعين لأهواء المنتجين الذين يدفعون والمخرجين الذين يصنعون ما يريد السوق أو ما تحتويه أهداف أبعد .

وليست الرواية أكثر من وسيلة وإزجاء فراغ قد استخدمت إستخداما سيئاً فى تدمير القيم الاخلاقية والدينية والاجتماعية بما حملت من صور الجنس والاباحة والكشف .

وإذا كان الشعر — فى عهـــود أصالته قد استطاع أن يؤرخ الاحداث فان القصة لن تستطيع لانها ليست لها الاصالة القادرة على ذلك ولانها من صنع الاحلام التى تستمد مادتها من أهواء الحياة ومطامعها وليست من الواقع الاصيل .

سابعاً المؤامرة على الشعر :

لما كان الشعر هو ديوان العرب ولما كان عامود الشعر هو ركيزة أساسية فى بناء القصيـــدة فقد بدأت المؤامرة أولا على مضمون الشعر ثم ثنت على أسلوب الاداء .

بدأت يوم أخرج من رسالته الحقة لتصوير المشاعر الخاصة ووصف الشعر الاجتماعى والسياسى كله بأنه شعر مناسبات وعلت الصيحة بأن مجال الشعر هو التعبير عن الذات .

كان هذا هو أخطر تحول حدث بالنسبة للشعر ذلك هو القضاء على دوره التاريخى الخطير الذى سجل به أحداث الامة ومواقفها إزاء الاحداث الجلى واستجابته إزاء الازمات وأخطارها موقفه من الغزرتين الصليبية والتتارية ومن الاستعمار الحديث .

وذلك الدور الضخم الذى قام خلال العصر الحديث فى الدفاع عن الوطن واللغة العربيه والعقيدة ونقد المجتمع وحمايه الخلافه والوداد عن البلاد من أخطار الغزو الغربى ودفاعه عن الوحدة الاسلاميه وذلك التنادى الواضح العميق الذى كان يهز القلوب من بغداد إلى مراكش إذا ما ألمت بها الحادثات هنا أو هناك كما عبر عن ذلك شوقى وحافظ فى عديد من قصائدهم .

ولقد كان هذا أخطر ما واجه النفوذ الاجنبى الذى استطاع عن طريق ذلك الجيل من أتباعه المغربين ومن القناطر التى كانت تخاصم الاستعمار سياسياً وتستجيب لفنونه وآدابه وأساليبه فى التعبير والاداء وتأخذ مذاهبه فى نقد الادب ، هذه القوى القوى التى لم تلبث أن حملت على هـذا الشعر السياسى والاجتماعى جملة شعواء فى دعوة عريضه مضادة إلى الشعر الذاتى والتعبير النفسى الخاص .

وبذلك تبدد ذلك الصوت الضخم القوى الاداء الذى آزر الحركات الوطنيه والاسلاميه وواجه الاستعمار والنفوذ الغربى والصهيونيه .

هذه هي الضربة الأولى التي وجهت إلى ديوان الشعر : ثم جاءت مرحلة الشعر المنثور أو قصيدة النثر ، تلك الدعوة المسمومة التي حمل لواءها الماركسيون والشعوبيون لإخراج الأدب العربي من عامود الشعر ومن كل الآثار القوية الضخمة التي أثر بها محيط الإسلام ومجتمع المسلمين .

وقد وصف شاعر عربي أصيل معاصر هو عمر أبو ريشة هذه الظاهرة بأنها موجة منحسرة وظاهرة مرضية وإنها صناعة واعتقد أن الصهيونية حتما وراء هذا الشعر . فالصهيونية هي مبتكرة البدع والمرطقات في هذا المضمار أوذاك لملء الفراغ عند الشباب ولمنعهم من العودة إلى التراث والاصالة .

وإذا كان كل الناس قرأوا التوراة والانجيل والقرآن فإني أشك في أن الكثيرين قرأوا التلمود ، إقرأ التلمود وستجد فيه تفسيراً لهذه الرخاوة . وتجد اليهود وراء هذا النوع من الأدب .

ويقول الدكتور عبد المنعم خفاجي : عندما تنظر إلى شعرنا العربي تجد أنه كان عمودياً طيلة حياته التي تمتد أكثر من ألفي عام وأن كل التجديدات التي دخلت عليه في جميع العصور كانت تلتزم بهذه العمودية أوتسير في إطارها وإن هذا الشعر العربي قد أصبح صورة فكر وتراث وحضارة وأمة :

وقد جاءنا اليوم من يدعون إلى التخلي عن هذه العمودية كليا للسير على نظام التفعيلة وحدها ولتبعد بالشعر عن أصوله العمودية وعن موسيقاه الشعرية — كذلك هناك من يدعون إلى تحطيم هـــذه العمودية ونبذ جميع شعرائها في القديم والحديث والنظر إليهم على أنهم متخلفون لا يصح أن نسير على منوالهم وليس وجود شعراء يكتبون شعرهم على التفعيلة الواحدة معناه إلغاء الشعر العمودي كله قديمه وحديثه ونبذ هذا الشعر وتسفيه شعرائه ورميهم بالقصور والتخلف .

أما الدكتور محمد محمد حسين فإنه يفصل القول في هذه الظاهرة الخطيرة يقول : إن الشعر الحر في أصل نشأته شعبة من إتجاه عام يدعو إلى تقاليد الغرب في فكره وحضارته فإطلاق الشعر من القافية التي ظل يلزمها طوال هذه القرون منذ عرفها الشعر العربي دعوة تستمد حججها ومبرراتها من الشعر الغربي الذي لم يعرف القافية إلا في حدود ضيقة من آثار إحتكاكه وتأثره بالأدب العربي في الأندلس .

ولماذا الحرص على تسمية هذا النوع من الأدب شعراً إنه أدب نثرى ولم يقل أحد أن الأدب النثرى يخلو من التصوير ومن التأثر والتأثير العاطفى بل أنه حين يخلو منهما لا يصح أن نعتبره أدبا على الاطلاق .

إن هذا الحرص على تسميته شعراً لم يجىء إلا من إعتباره شعراً عند الغربيين. وهو على كل حال آخذ فى التراجع والتقاص وقد بدأت موجته فى الانحسار بعد أن بلغت ذروتها فى العقدين السابقين من هذا القرن .

وكان كل ما تركته من أثر هو ضعف هذا الجيل وعجز أكثره عن تذوق الشعر العربى الأصيل فى تراثه الطويل . وكان مما فتن أصحابه أنهم تصوروا أنفسهم أنهم أصبحوا شعراء عالميين بعد أن ترجم بعض شعرهم للغات أوربية كأنهم يكتبون للغرب ولا يكتبون لقومهم من العرب وكأن شرطاً من شروط الأدب الجيد أن يكون مقبولا عن غير أهله .

ولعل هذه الترجمات كانت وجهاً من وجوه المخطط الذى يغرى بترويج هذا الاتجاه الذى ينتهى إذا نجح إلى قطع ما بين حاضرنا الأدبى وبين تراثنا من صلات .

ولقد كان أصحاب هذا الاتجاه يدافعون عن مذهبهم بحجج أبرزها إثنتان : إن القافية قيد يلتزم به الشاعر على حساب عناصر الشعر الأخرى من فكر وصور وعاطفة وإن إغلاق باب التجديد وتقييد حرية الفنان فى إبتكار ما يناسبه من قوالب وأساليب يشل إنطلاقته وينتهى إلى حال من الركود والجمود تخاف معها الشعر وتراجع .

والرد على الحجتين سهل يسير . أما الحجة الاولى فهى تعلة الضعفاء الذين يعجزون عن النهوض بأعباء الشعر من كل جوانبه وعناصره وقد نهض بها الفحول من الاقدمين فما رأينا فى شعرهم جوراً على الفكر والتصور بسبب إلتزام القافية .

وفن الشعر للقادرين عليه وفى النثر متسع لغير القادرين ، والبعد عن ميدان الادب جملة أولى بالعاجزين .

أما عن دعوى التجديد وحرية الفنان فقد توافر دائما على مدار القرون وفى مختلف العصور والبيئات ، فجدد شعراء العرب وابتكروا وأضافوا ما أضافوا فى حدود طبيعة الشعر العربى ومع إلتزام مقوماته الاصلية فاختلفت ألوانه باختلاف العصور والبيئات .

ومع ذلك فقد كان هذا الابتكار فى أشكال الشعر وقوالبه وقوافيه قصير العمر ، ولم يلبث الشعر أن عاد إلى النبع الأصيل .

ولاشك أن دعوى الحرية بلا قيود فى أى جانب من جوانب الحياة هى دعوى تقوم على سذاجة الداعى إليه أو سوء قصده فليس هناك حرية مطلقة للإنسان ولا لشىء من خلق الله وليست الحرية المطلقة الا للهوى .

ومن سنن الله الكبرى أن يكون الناس قبائل وأمما وأن يكون لكل أمة لسانها الخاص ومزاجها وتقاليدها والفنون على اختلافها انتاء قوى وشرطها الاساسى أن تجمل عند قومها أولا وقبل كل شىء ، وليس مهما بعد ذلك أن تجمل أو تحسن عند غيرهم .

والكلام عن الانسانية فى هذا المجال وعن العالمية ضار جداً وهادم لاسباب النهضة عند الامم الضعيفة بنوع خاص لانها لا تقوم لها نهضة الا على مغارسها وأصولها الاولى والنهضة على غير هذا الاساس فناء لذات العنصر الاضعف فى العنصر الاقوى .

هذا وقد حمل الشعر الحر جميع سموم الفكر الغربى من تشكيك ولا أدرية وانحلال ومعانى مرتجلة ساذجة وحاول ابتعاث تراث قديم من الاساطير الذى جاء الاسلام للقضاء عليها واعلان انها من مخلفات عصر طفولة البشرية وحاملة كل ميكروبات الوثنية والمادية والتعدد والاباحية وهذه هى ما يسمونه الحاجات المستحدثة وحاجيات الحياة المعاصرة .

ولقد نشأ هذا التيار ونما قليلا فى مرحلة الضعف والهزيمة والنكسة وجيل الضياع الذى صنعته مفاهيم الماركسيه والوجودية والفكر المادى وكان القادة الذين قدم العرب هم كافكا وبودلير ونيتشة وكلهم من نتاج النظرية الفرويدية الجنسية واليهودية الماركسية الكارهة للعالم المحتقرة الإنسان، الرامية إياه بصفات الحيوان والمادة والرافضة لكل قيم الانسانية والاخلاق والرحمة والجمال .

ويقول الاستاذ نزيه ضاحى : ان الدعوى التى يحملها أهل هذا الشعر انما ترمى فى صميمها الى هدم قواعد الادب العربى والبلاغة العربية وذلك عن طريق هدم عمادها اللغوى وما استعمال شعارات التقدمية والثورية والطليعة الا مجرد

ستار لاشكال شاذة ومضامين منحرفة وان الشعر الجديد حافل بالصور الملحدة والتفاهات والتقاليع التى تركب كل موجة يدفع بها العرب الى شاطىء الغرب وان رواده الذين يرفعون فى مسيرتهم الشعرية هذه بنود التحرر انما يقومون من تحتها بمهاجمة الاسلام وقد اتخذه الشعوبيون والمنحرفون عن الخط الاسلامى العربى مطية لتحقيق أغراضهم المشبوهة .

ولاريب أنه حرباً صليبية تعتمد على الاستعمار الجديد الذى يشجع الاباحيه والفوضى والانفلات من كل القيود والقيم والمثل الاخلاقية والقوميه .

وهو فى الاساس دعوة هدامه خطيرة ترمى الى افساد البناء الشعرى الشعر العربى كمقدمه للقضاء على مقومات اللغه العربيه باسم الثورة والتجديد والانطلاق

وان الدين يكتبون هذا النوع من الشعر لا يكتبونه عن اقتناع حقيقى بجدارة وتفوقه على الشعر العمودى القديم ، وانما لعجزهم عن امتلاك القدرة على النظم بالشكل التقليدى .

والشعر الجديد ليس شعراً جيداً أو رديئاً وانما لايعد من الشعر على الاطلاق وذلك لخروجه التام على الصورة التقليدية للقصيدة العربيه .

والغموض صفه أساسيه فيه ، وهى غايه فى حد ذاتها ومعظم أفكاره مبهم لا معنى محدداً لها ولا تتجاوز كونها ترهات لا فائدة منها . وطلسمات لايعرف أحداً لها حلا .

وأن الشكل الجديد لهذا الشعر يهدم الموسيقى الشعريه للقصيدة العربيه ويبعث فساداً فى أصول اللغه من اشتقاق واعراب ويحول الشعر الى نثر حقيقى عن طريق إعتماده على الايقاع الموسيقى فقط لا الوزن العروضى كما هو مفروض .

ولا شك أن الأذن العربية تنفر من الإلغاء العام القافية ، وترفض الخلط فى البحور فى القصيدة الواحدة فضلا عن الاتهام الوارد بالتصنع والميوعة والاسفاف

وقد عادت نازك الملائكة لحملت على الشعر الحر حملة شــــديدة وقالت إنه مشحون بالأخطاء الوزنية والعروضية وهو يفقد بإلغائه القافية الواحدة من الأبيات رنينه وموسيقاه وتدفقه الشعرى الرقيق ويضع فى طريق التدفق الجنادل والصخور التى تعكر صفوه وكفاءته ،

وقد قامت محاولات مضللة قادها طه حسين والنويهى ولويس عوض وغالى شكرى لتأييد هذا الاتجاه وتبين فساد ما ذهبوا إليه من دعوى عريضة بأن الشعر الجديد ينقذ الشعر العربى من العقم والاجداب ويتيح أمامه ميادين واسعة من النمو والتطور .

وها نحن اليوم نستطيع أن نكشف عصارة المحاولة التى كانت مصدراً حقيقياً للاجداب والعقم وأن هذه العناصر الاجنبية لم تقدم شيئاً ذا بال فى الشكل أو المضمون .

ولم يبق إلا أن يحكم عليهم النقد العربى الأصيل بأن هؤلاء الشعراء يهملون الصياغة الفنية للشعر العربى ويبالغون فى تقليد الشعراء الغربيين ويهجرون الأساليب العربية الأصيلة .

وقد أثبتت الدراسة التى أصدرتها جامعة هارفارد فى الأدب المقارن أن شعراء التفعيلة ومنهم صلاح عبد الصبور وغيره متأثرون بالتيارات الاوربية فى شعرهم أو مسرحهم وأبرزه الاغراق فى الغموض والجرى وراء مفاهيم الفلسفات الباطنية وإذا راجعنا الشعر الحر اليوم بعد ثلاثين عاما وجدنا شيئاً لا قيمة له فى مقاييس تاريخ الأدب إلا أنه أخر النهضة الحقيقية للشعر العمودى الأصيل .

ثالثا : متى يعود الأدب العربى إلى الاصالة :

وما زال الأدب هو الميدان الذى يتنافس كل قوى التغريب والغزو الثقافى على إقتحامه والسيطرة عليه ، لأنه هو المدخل الحقيقى إلى النفس الانسانية وقد ركز عليه دعاة التغريب والغزو الثقافى على مدى الاجيال .

واليوم نجد عدداً من المعسكرات تحاول أن تتخذ من الادب مدخلا إلى نحلتها وبث فكرها وإذاعة سمومها .

فدعاة الفكر الوجودى ينفثون سمومهم عن طريق مجلة الآداب ،ومجلتى حوار ومواقف .

ودعاة العامية والحوار العامى والمونلوج الدخلى والشعر الحر يقدمون دراسات

لا تتوقف عن بدر السياب وخليل حاوى والبياتى ونزار قبانى وأدونيس ومحمود دوويش وصلاح عبد الصبور وغيرهم من أقزام هذا التيار .

وهناك أصحاب فلسفة الفن وعلم الجمال (فى الشعر والرواية والمسرح) .

وهناك تيار القوميين الاجتماعيين الذين يتركزون فى جريدة النهار (يوسف الخال، وأودونيس وغادة السمان ويتبعهم رجاء النقاش وغالى شكرى ولويس عوض

وهناك دعاة الماركسية (أحمد عباس صالح وعبد الرحمن الشرقاوى وأحمد عبد المعطى حجازى) وهم يحاولون فرض مفهوم التفسير المادى للتاريخ على السيرة وتاريخ الاسلام .

وهناك التيار المادى (زكى نجيب محمود) .

كل هذه التيارات تحاول أن تقتحم ميدان الادب عن طريق القصة لادخال مفاهيم الوثنية الاغريقية والباطنية والمجوسية والفكر الشرقى الغنوصى وإحياء تراث جلجامش . ولهم إيمان مكين بالعمل على كسر قداسة النص .

وقد فتح لهم الدكتور طه حسين وسلامه موسى الطريق إلى ذلك فهم يحاولون إحياء أساطير جلجامش وثورة الزنج وسيرة الحلاج ودعوة القرامطة والدعوة الفينيقية وتصوير التراث الاسلامى بصورة زائفة كما فعل طه حسين فى هامش السيرة والشرقاوى فى رسول الحرية .

وهدف هذا كله هو قتل روح الاصالة فى الادب العربى الحديث وهزيمته واحتوائه فى داخل مفاهيم الاممية والعالمية والمادية والفلسفية والحقيقية التى لاشبهة فيها أن هذه الفنون كلها دخيلة على الادب العربى وهو لا يستجيب لها إستجابة حقيقية.

وقد تبين ذلك بوضوح اليوم بعد مرور سنوات طويلة أن الأدب العربى لا يتقبل القصة المفتعلة ولا الاسطورية والتى لا تقوم على مفهوم الصراع ، لان الاسلام لا يقر الصراع ، ولكنه يؤمن بالتعاون ، والالتقاء بين العناصر والاجيال وأن القصة التى يعرفها الادب العربى هى القصة الواقعية التى هى بمثابة الحادث الحقيق الذى لا يتدخل فيه الافتعال ولا محاولة خلق المفاجئة أو النهاية المأساوية .

وقد وضع الاسلام هذه القاعدة : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » .

وما يزال المقال الاجتماعى والوصفى والانشائى والتحليلى والنقدى هو دعامة النثر العربى الذى تحرر كثيراً من مخلفات عصور الضعف كالسجع والجناس والمحسنات اللفظية ، ويرجع إلى طبيعته التى كان عليها من قبل ، وكذلك الامر فى الشعر الذى أخرج من طبيعته وأصالته وأصبح يمثل تلك الجمحات الطفلية النزقة التى يكتبها المراهقون والتى تصطنع الاسطورة أو الخيال الكاذب ، أو الخرافة المسمومه ، أو الصورة الغامضة المضببة .

ولقد أكد كثير من الباحثين أن ظهور هذه الالوان الشعبية العامية ، التى تمثل السذاجة والتعبير عن الاهواء والطفولية ، بمثابة ردة خطيرة للأدب العربى ، الذى كان مثابة للبلاغة التى تحمل حجى العقول وتجربة الاجيال وخبرة العقل الذكى .

وفى مجال الترجمة كانت محاولات التغريب واضحة عبر عنها الدكتور حسين نصار حين قال : إن حركة الترجمة عندنا كانت تتبع هوى المستشرقين .

ويقال هذا القول فيما ترجم إلى العربية وفيما ترجم منها إلى اللغات الاخرى .

فهم فى مجال الترجمة إلى العربية لا يهدفون إلا إلى طرح السموم التى تحملها الافكار الوثنية الاغريقية والمادية الغربية المعاصرة ، وأن يجعلوا من تعدد الترجمات للمذاهب المختلفة المتضاربة (سواء فى عصور مختلفة أو بيئات مختلفة) وسيلة لاثارة روح الاضطراب والفساد العقلى والروحى فى الامم التى تترجم لها هذه الافكار ، ومن العجب أن نجد مترجمات الرأسماليين والاشتراكيين والاباحيين والوجوديين والماديين والبرجماتيين والفوضويين جميعاً ، مطروحة فى أفق الادب العربى بما فيها من سموم دون أن تقدم هذه الاعمال بمقدمات تكشف أمام القارىء العربى المسلم : ظروف هذه الاعمال والاخطار التى بها ووجهة نظر الفكر الاسلامى إليها ، وكأنما هى مسلمات أو حقائق أو علم ، بينما هى فى الحقيقة أهواء الامم والشعوب وركام الفكر البشرى الذى طارده الفكر الربانى على مدى الأجيال . والذى نفث التلموديون فى بعثه وإحيائه من جديد نقلا عن علم الاصنام اليونانى . وعن أساطير باخوس ومن مجوسية الفرس ، وعن خرافات الهند وغيرها لافساد الذوق والمزاج والنفس والعقل العربى الاسلامى .

وهناك محاولات إحياء العاميات وإعلاء شأنها ، ووصفها بالعبقرية على النحو

الذى تقوم به بعض المجامع اللغوية ويتبناه عدد من خصـوم الاسلام من دعاة التغريب ، وما تزال هذه الحركة تفرز دعاة العامية بين حين وحين ، من آخرهم الدكتور حسين فوزى الذى يقول : إن اللغة العربية لغة أجنبية بالنسبة للمصرى وأهل المغرب ، وأن العامية تخلق أدباً محلياً ، وأن اصطناعها يؤدى إلى الاحساس بالصدق .

وهناك محاولات لانكار أصالة الفكر الاسلامى على النحو الذى يذيعه الدكتور زكى نجيب محمود ، وبقوله : بأن الامة العربية ليس لها فلسفة خاصة بها وأنها تستعير الثقافة والفكر الاوربى والامريكى فى كل شىء .

وهناك محاولات استنقاص العرب وتاريخهم ودورهم على النحو الذى يردده منذ خمسين سنة : توفيق الحكيم ولا يزال مصراً عليه .

وهناك الدعوة إلى الادب الشعبى والفلكلور : هذه الدعوة العريضة التى تحتضنها قوى ومنظمات بهدف إبراز أزجال وكلمات وأساطير قديمة بدعوى أنها تراث الامم البائدة ، وهى دعوة مضللة تهدف إلى انتقاص التراث الاسلامى .

كل هذه الدعوات تستهدف القضاء على الاصالة التى عرفها الادب العربى ببلاغته القرآنية وبيانه المشرق الذى عرفت به الانسانية نبعاً خالصاً ناجعا لادوائها ، يرفع قدرها فوق طفولة البشرية وفوق أساطير الامم وخرافاتها وأهوائها المضللة .

ولسوف يستطيع الادب العربى الاصيل أن يتجاوز هذه الاخطار والمحاذير عندما يؤمن بأنه عنصر من عناصر الفكر الاسلامى ، يتحمـل مسئوليته الاخلاقية والتزامه لامته فى دفعها إلى النور والى الامام ، متحررا من المذاهب الضالة والتبعية المغرقه ، والاساليب المدخولة التى تريد أن تخرجه عن أصالته ومضمونه وهدفه ورسالته الحقة .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

ما قدمه العلم الإسلامى

فى مجال الحضارة من منجزات وحقائق ثابتة

حاول دعاة التغريب والشعوبية والغزو الثقافى إنكار فضل الاسلام على الحضارة الانسانية ، والتهوين من شأن الدور الذى قام به المسلمون ، فأنكر الدكتور طه حسين أن للإسلام فكرا سياسيا ، كما أنكر غيره ما للإسلام من فكر اقتصادى وفكر اجتماعى وفكر تربوى ، وكان التغريبيون أشد قسوة على أمتهم وأهليهم فى ظلم هذا الميراث الاسلامى الكبير ، بلغ حد السخرية بأمثال (كارليل) مؤلف كتاب الأبطال وعبادة الأبطال ، وجوستاف لوبون مؤلف كتاب حضارة العرب ، وغيرهما ، لأنهم اعترفوا للمسلمين بأثر واضح لا ينكر فى بناء الحضارة ، وذلك فى إطار تلك الحملة الضخمة التى كانت تحاول أن تملأ نفوس الأجيال بالانتقاص لحضارتهم وأمتهم وعقيدتهم ، غير أن الحقائق مالبثت أن تكشفت وخاب فألهم .

أمثلة باهرة :

فى مجال العلم والحضارة قدم المسلمون إضافات حقيقية ، فابن سينا أوقف القرحة الدرنية ورقولنج الكبدى والكلوى والتهاب الرئة والجنب والتهاب الدماغ ، وبحث فى سبعمائة وستين فرعا من العقاقير والأدوية . وابن الخطيب جزم فى بحثه بوجود العدوى قبل أن تكتشف الجراثيم : قال الدكتور روبنسون أنها - أى بحوث ابن الخطيب - تحتوى على ما يزيد على مليون كلمة وظلت مباحثه أساسا للطب فى جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون . أما أبو القاسم الزهراوى فقد عرف أكثر من مائتى آلة ومبضع ،وكان أول من كتب إحصائية صحيحة لأمراض النزيف الدموى وكان من أشهر الجراحين ، ووصف عملية سحق الحصاة فى المثانة وأخرجها .

وعلى بن عيسى « أكبر مؤلف فى طب العيون » : تناول فيه طبيعة العين وكيفية تشريحها وأمراض العيون ، ودرس مائة وثلاثة من أمراض العيون ، وقدم لها مائة وثلاثة وأربعين دواء كان يستعملها فى علاج هذه الأمراض . قال

عنه هالمر : إن كتب أبا القاسم كانت المصدر الهام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر .

وا كتشف ابن النفيس الدمشقى المصرى الدورة الدموية الصغرى ، وكتب على ابن العباس كتابه الملكى الذى اشتمل على الطب النظرى والطب العملى وذكر عدة أخطاء لبقراط وجالينوس

وأورد ابن أبى أصيبعه صاحب عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، من أسماء الأطباء المسلمين ما نيف على الثلاثمائة .

وأورد ابن سينا وابن داود وابن البيطار عددا كبيرا من النباتات الطبية ، منها الكافور والزعفران والخزام والمر والمن والمسك والترياق والتمر هندى .

وفى مجال العلوم يبدو جابر بن حيان عملاقا ، فقد استحضر حامض الكبريتيك بعد تقطيره من الشبه ، وسماه (زيت الزاج) واستحضر أيضا حامض النتريك ، وهو أول من كشف الصودا الكاوية وأول من استحضر ماء الذهب ، وعرف خواص بعض الأرواح والمركبات الكيماوية ، كالحامض النترى وماء الذهب والبوتاس وروح النشادر .

وإلى الرازى يرجع استكشاف آثار زيت الزاج ، وكتابه الحاوى ظل مرجعا إلى منتصف القرن الرابع عشر فى أوربا ، وقال عنه الدكتور ويقسون أنه كان يعالج الأمراض التناسلية كما نعالجها نحن فى أيامنا هذه ، وإليه ينسب اختراع الفتيلة فى الجراحة .

وابن الهيثم : لولاه لما كان علم البصريات ، فمنه أخذ كبلر معلوماته عن الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بانكساره فى الجو ، وقد أقام بحثه على الاستقراء والقياس والتجربة ، وهو أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه الجسم المنظور ، بل بواسطة أشعة تنعكس من الاجسام المضيئة إلى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف .

والفرغانى أول من سبق إلى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات فى الاتجاه المعاكس للحركة النهارية .

والكاشى : هو واضع أسس الكسر العشرى .

والكندى نسب إليه ما لا يقل عن ٢٦٥ كتابا مؤلفا فى البصريات وأصول الموسيقى والتنجيم ، دراسة النجوم ، والكيمياء ، وقد سجلت مؤلفاته أن المسلمين عرفوا الأوزان الغنائية والقياسات الموسيقية قبل أوربا بقرون ،

وثابت بن قرة : حسب ارتفاع الشمس الظاهر ، وطول السنة الشمسية ، وابن يونس أول من عرف الرقاص قبل جاليلو بسبعة قرون باعتراف سارجوان وتايلر وبيكر .

ومحمد بن جابر البتانى أطلق عليه « بطليموس العرب » ووضع بين العشرين فلكيا المشهورين فى العالم كله ، وله عدة مكتشفات فلكية ورياضية ، وتحدث أبو الثناء الأصفهانى عن فكرة كشف الأرض الجديدة قبل رحلة كولومبس بنحو قرن ونصف .

والقزوينى تناول النفط فى كتابة عجائب المخلوقات وقال أنه يطفو على الماء ومنه أسود ومنه أبيض وقد يصاعدا لأسود بالقرع والأنبيق ، فيصير أبيض ينفع فى أوجاع المفاصل والفالج وبياض العين والماء النازل منها .

ومحمد بن موسى الخوارزمى : وضع علم الجبر فى أواسط القرن التاسع الميلادى وعنه أخذت أوربا وترجمت مقالته إلى اللاتينية واتخذت أساسا لتدريس الجبر فى عصر النهضة وله جداوله الفلكية .

وأبو الفداء الذى قال أن الأرض كرة تطفو من مركز الوجود ، وقال أن رجلين لو ابتدأ السير واتجه أحدهما شرقا والآخر غربا فإنهما يتقابلان ، ولكن الرجل الذى اتجه شرقا يصل مكان اللقاء قبل الآخر بيوم واحد . وهذا ما يعرف بخط التاريخ الدولى الآن حيث ينقص من يعبره شرقا يوما من التاريخ .

والبيرونى : الذى صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس وقال عنه العلامة (سخاو) أنه أعظم عقلية عرفها التاريخ ودان له الغربيون بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم ، وقد أدرك البيرونى أن أعلى قمم العالم هى (التبت) فى آسيا والبيرنية والألب فى أوربا وهذا ما عليه الجغرافيون الآن .

والعلماء المسلمون هم أول من عرف قياس خط نصف النهار ، وقدروا مقدار الدرجة الأرضية وأول من استعمل الابرة المغناطيسية للملاحـــة فى البحار ، ووضعوا الأطوال ، والعروض بالدرجة والدقائق والثوانى .

وأول من ضبط طول السنة وحققوا مدار الشمس وانحرافها ، والحركة الاعتدالية وصوروا نجوم السماء ورسموا ابروجها وأفلاكها الرسوم الدقيقة ووضعوا الآلات لدرس الفلك فيها .

ووضعوا علمى الجبر والهندسة ، ووضعوا علمى التفاضيل والتكامل وحساب المثلثات وعرفوا الآن السمت (ارتفاع النجم) والمزاول (الساعات الشمسية) والاسطرلابات (آلة قياس الزوايا الفلكية) .

وكان الأطباء المسلمون يصنعون خيط الجراحة من أمعاء القطط ، حتى إذا خيطت به الجراح التأمت وهضم الجسم الخيط ، دون حاجة إلى نزعه ، وقال أبو بكر الرازى : ينبغى للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة ويرجيه فيها . ولما سأل الخليفة العلامة الرازى عن الموضع الذى يبنى فيه مستشفى بغداد ، أمر أن يعلق فى كل ناحية من جانبى بغداد شقة لحم ، ثم اعتبر الناحيه التى لم يتغير ولم ينتن فيها اللحم بسرعة . فأشار بأن يبنى المستشفى فيها لاعتـــدال هوائه . وعرف المسلمون (الكاغد - الورق -) واحلوه محل الرق - صحاف الكتابة من الجلد - وقد سجل المؤرخون أن ورق محفوظات برشلونه ، المكتوبة عليه معاهدة السلم بين ملك ارغونه وملك قشتالة عام ١١٧٨ م مصنوع فى مصنع شاطبة الإسلامى الشهير ، الذى ذكره العلامة الجغرافى الأدريسى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد . . وقد أدخلت صناعة الورق من شرانق الحرير إلى سمرقند ، والابرة المغناطيسية اكتشفها المسلمون ، وانتقلت إلى أوربا فى القرن الثانى عشر ، وعرف المسلمون البوصلة فى الملاحة ولم يستخدمها الأوربيون قبل القرن الثالث عشر من الميلاد . وإلى (ابن ماجد) يعزى الفضل فى تفوق الملاحة البرتغالية ، وعن طريقه وصلت المعلومات التى أخذها البرتغال، وله كتب رائدة فى الملاحة صاغ بعضها شعرا وقد حققها بعض علماء الروس فى العقد الأخير من قرننا هذا . وإلى المسلمين يعزى فضل استغلال مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب وقد أتقنوا فن تسقية الفولاذ ، واخترعوا

البارود ، وعرفوا تركيب النار اليرنانية فأصبحت أداة من أدوات هجومهم وهم أول من استخرجوا قوة البارود الدافعة، واستعملوا الآلات القاصفة . والمسلمون أول من نقل القمح الأسمر إلى أوربا وهو الآن أهم محاصيل فرنسا ، وحلوا فسائل النخيل من أسبانيا وأفريقيا إلى شواطىء الريفيرا ، ومن آثارهم فى الصناعة استخراج القطران الذى يدلى به قاع السفن ويحميها من العطن ، وعرف فضلهم فى تحسين نسل الخيول ، وأن الخيول الأصيلة فى مقاطعة « لاندوكامارج » فى جنوب فرنسا إنما هى من سلالة الخيول العربية التى أحضرها الفرسان المسلمون إلى تلك الأنحاء . وكشف المسلمون بحيرة فيكتوريا نيانزا كما ذكر على مبارك وعرفوا مساحتها بالجهة والدقائق والقيراط فى كتاب بخط اليد - مخطوط - وسبقوا بذلك المكتشفين : سبيك وجرانت اللذين اكتشفا البحيرة عام ١٨٦٢ وسمياها باسم المملكة الإنجليزية . وقد وصل المسلمون فى البر إلى التركستان الروسية والصينية وبلاد المغول والصين ، وفى البحر إلى شواطىء آسيا الشرقية ، واكتشفوا جزائر الخالدات (كناريا) غرب شمالى أفريقيا وخروا عباب المحيط الأطلنطى إلى مسافات بعيدة ، وتجولوا بقوافلهم فى السودان والصحراء الكبرى حتى بلاد غانة وقال المؤرخ كوندى : أن الأسطول الإسلامى أبحر فى الجيل العاشر من ميناء لشبونه مكتشفا جزر اسورس « الآزور » وبعض جزر الانتيل فكان أول من فرق الحجب عن المناطق المجهولة فى الأقيانوس « الأطلسى » ووصل بعض المغامرين المسلمين إلى سويسرا بعد أن اخترقوا جبال « دوفينه وجبال سنيس ٨٩٠ — ٩٠٦ م) حتى بحيرة كستانس الواقعة بين سويسرا وألمانيا .

وأعلن فى المؤتمر ١٧١ للجمعية الشرقية : الدكتور هوى لين الصينى ، نظرية فى المؤتمر : أن المسلمين هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كولومبس بثلاثة قرون . وقد أنفق الدكتور لين ثمانية أعوام فى تحقيق هذا الرأى وقال : أن ذلك يدحض ما يتعلمه كل طفل من أن كولومبس هو الذى اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ ويقول الدكتور لين أن البحارة العرب قاموا قبل عام ١١٠٠ من الطرف الغربى العالم الاسلامى من ميناء الدار البيضاء على التحديد وسواء بسفنهم فى عدة مواضع على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية .

فاذا ذهبنا ننظر نظرة سريعة شاملة وجدنا من الحقائق ما لا بد أن يوضع بين أيدي شبابنا في العالم الاسلامي كله ، ليدحض نظرية النقص وعقدة الأجنبي فقد وضع المسلمون أسس الكيمياء ومارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والبلورة ، والتذويب والالغام ، والتكليس ، وهم الذين استحضروا الكحول والقلي والبورق والزرنيخ والبوتاس والاثير (الكحول) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) والزاج الأخضر ، وماء الفضة) حامض النتريك) وحجر جهنم نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسليماني ، والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) وروح النشادر وملح النشادر وملح الطرطير ، وماء الذهب والبارود. وأطباء العرب فتتوا الحصى في المثانة، وسدوا الشرايين النازفة، واستعملوا المرقد (المخدر) في العمليات الجراحية ، وكشفوا النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما وصححوا آراء بقراط وجالينوس في التشريح ووظائف الأعضاء . وما تزال القلويات كلها — في الكيمياء — معروفة بأسمائها العربية ، وسجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقار لم يعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار، والألف اكتشفها المسلمون وحددوا منافعها ومضارها . وأساليب استعمالها ولسبها . وأول من اخترع رقاص الساعة هو الحسن العباس المشهور بابن يونس وعرف المسلمون (الصفر) ولم يعرفه الغرب إلا في القرن الثاني عشر عن طريق العرب ، وقال العلامة (اير) أن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا التي قدمها المسلمون ، وفي القرن الثامن الميلادي استعمل المسلمون الصفر في الحساب ورسموه على هيئة حلقة ثم شرح الخوارزمي طريقة استعماله وترجم بحثه . وعلل العلماء الصوت وحصوله وعللوا حدوث الصدى في الأوتار واهتزازها، وعرفوا ما بين طول الوتر وغلظه ،وتوتره في علاقة ، كما عرفوا خاصة الجذب في المغناطيس وعللوا ملوحة البحر وعذوبة المطر ، واستحالة الحطب في الاحتراق واستحالة الحطب في الاحتراق واستحالة الزيت في المصباح ، وصعود الهواء وانحدار الماء كل هذا يدحض رأي كتاب الغرب الذين قالوا أن المسلمين كانوا نقلة ولم يكونوا مبدعين أو لم يكن لهم فضل على الحضارة الإنسانية .

أما سبق علماء المسلمين في مجال الكشف العلمي فذلك تؤكده شهادات كثيرة من علماء الغرب :

١ — ابن خلدون سبق سميث وهيجل : تؤكد كتابات الباحثين الغربيين أن ابن خلدون سبق فلاسفة الغرب فى وضع أسس على الاجتماع والاقتصاد السياسى : سبق آدم سميث وأوجست كونت ، وبين ابن خلدون وآدم سميث أربعة قرون كاملة . سجلت شهادات استفانو كلوزيو وروبرت فيليب وفارد وتويذى وغيرهم . قال مبلوفنج أنه — ابن خلدون — اكتشف نظرية الأجيال الخاصة بظهور الأسر ونهوضها قبل أن يعرفها أوتوكارلونيس فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكذلك عرف قانون (النسبة بالوسط) قبل أن يعرفه العالم الطبيعى دارون بخمسة قرون . كما أن ابن خلدون اكتشف مبدأ وجود المادة قبل أن يكتشفه العالم البيولوجى ارنست هيكل بأكثر من خمسة قرون .

٢ — المعرى سبق دانتى : أما دانتى فقد تأثر بالثقافة الإسلامية فى كتابه الكوميديا الإلهية وتأثر برسالة الغفران للمعرى وأن سورة الأعراف من القرآن الكريم أمدته فى تفاصيلها بفكرة جهنم والصراط والحشر ، وحوار أهل الجنة مع أهل الأعراف والنار وهى كلها مفتاح الكوميديا الحقيق .

٣ — الطرطوشى سبق ميكافيلى : كما تحقق أن أبا بكر محمد بن محمد الطرطوشى ، سبق الكاتب الوزير الفلورنسى (نيقولا ميكافيلى) فى التأليف فى سياسة الملوك وأخلاق الأمراء . وأن كتاب الطرطوشى (سراج الملوك) . مصدر الكتاب « الأمير » الذى ألفه ميكافيلى وسابق عليه بأكثر من خمسة قرون . وقد اتضح للباحثين أن معظم مواد كتاب الطرطوشى قد لسقت فى كتاب الأمير وأن أبوابا كاملة قد ترجمت حرفيا .

٤ — كتابة المكفوفين وقد سبق الفكر الإسلامى فى أولية كتابة المكفوفين وهى التى عرفت بالحروف البارزة وأطلق عليها (طريقة بريل) وعرف عدد من المخترعين لهذه الطريقة فى مقدمتهم على بن أحمد بن على بن يوسف بن الخضر المشهور بزين الدين الآمدى وقد سجل صلاح الدين خليل بن آيبك الصفدى فى كتابه (نكت الهميان فى نكت العميان) هذه الطريقة .

٥ — دراسات الاقتصاد : سبق التأليف فى هذا المجال ما كتب فى الغرب بألف عام ، حيث ظهر التخصص العلمى العلمى الصحيح فى المؤلفات الاقتصادية الإسلامية واضحا منذ القرن الثامن الميلادى ، فهناك كتاب (الخراج) ليحى بن آدم القرشى

ظهر عام ٣٠٢ هجرية (٧٨٤ م) وكتاب الاكتساب فى الرزق المستطاب للإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ظهر عام ١٣٤ ﻫ (٨١٥ م) ثم كتاب الخراج للامام أبى يوسف ــ صاحب أبى حنيفة ــ ثم تلى ذلك مقدمة ابن خلدون التى ظهرت بين القرن الثالث عشر الميلادى والرابع عشر والذى يعتبر صورة مماثلة لكتاب (ثروة الأمم) أو إنجيل الاقتصاد الحديث الذى كتبه أبو الاقتصاديين آدم سميث عام ١٧٧٦ م . ورغم أن ابن خلدون قد سبق آدم سميث بخمسة قرون من الزمان فقد بحث فى مقدمة الحضارة ونشوئها وإنتاج الثروة وصور النشاط الاقتصادى ونظريات القيمة والتوزيع والسكان ، ثم يلى ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى (المقريزى) وكان أكثر تخصصا من زميله ابن خلدون فأخرج الناس كتابا فى النقود وكتابا فى دورات الأعمال الاقتصادية سماه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) : ومثل هذه الدراسات لم تظهر فى الاقتصاد الحديث إلا فى القرن التاسع عشر ، وظهر فى ذلك الوقت كتاب (الفلاكة والمفلوكين) أى الفقر والفقراء لأحمد ابن على الدلجى وهو نوع جديد من الدراسة الاقتصادية لم تظهر دراسته وأبحاثه إلا فى أوائل القرن العشرين .

٦ ــ دراسات الفكر السياسى : سبقت دراسات الفكر السياسى الإسلامى مثيلاتها فى الغرب بأكثر من خمسة قرون ، وهى تدحض أكاذيب الدكتور طه حسين والتغريبيين ، وقد كشف ذلك الدكتور ضياء الدين الريس والدكتور فؤاد عبد المنعم والدكتور مصطفى حلمى ، منها غياث الامم لإمام الحرمين ، والأحكام السلطانية للماوردى والأحكام السلطانية للقاضى الجاليلى ، وكتاب السياسة الشرعية لاصلاح الراعى والرعية لابن تيمية ، وكتاب الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن القيم ، وكتاب أكليل الكرامة لصديق حسن خان ، ورسالة السياسة الشرعية لابراهيم بخثى زادة ، وتحرير الأحكام فى تدبير الملوك لأبى الفضل محمد بن الأعرج وكتاب المنهاج للحليمى ، والدرة الغراء فى نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء لمحمود ابن اسماعيل ، والجواهر المضيئة فى الأحكام السلطانية لعبد الرؤوف المنادى : وهذا الاحصاء خير دليل يدحض فرية التغريبيين والمتسرعين إذ ظنوا أن علماء الاسلام كانوا مجرد نقلة لمؤلفات الفرس واليونان ، وهو ما يدحض ماذهب إليه (شاخت) فى كتاب تراث الاسلام ، وماذهب إليه (على عبد الرازق) فى كتابه الاسلام وأصول الحكم ، الذى افترى فيه على علماء المسلمين .

هذا الكتاب

المد الاسلامى
فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى

لم تعد ظاهرة ((المد الاسلامى)) موضع شك من خصوم الاسلام أو المرافقين على السواء ، هذه الظاهرة التى يهديها القرن الرابع عشر الهجرى الى القرن الخامس عشر أمانة غالية تتطلع اليها تقوى المؤمنين وتخصها مشاعر الحب والتقدير فهى بمثابة الغرس الجديد الذى تتعلق به الآمال فى اقامة المجتمع الربانى فى أرض الاسلام من خلال جميع قطاعات الفكر الاسلامى ومنافذه يستعرض المؤلف القضايا عرضا شاملا ليجيب على هذه الأسئلة ما هى القضايا التى تحوط بظاهرة المد الاسلامى . وما هى التحديات والأخطار . وما هى وجوه العمل الصادق الكريم لدفع هذه الظاهرة الى غايتها وحياطتها بكل وسائل الأمن والأمان . وما هو دور كل مسلم من الألف مليون مسلم المسئولون اليوم عن حماية البيضة . ذلك ما نرجو أن نقدمه فى هذه الدراسة بعون الله ...

دار الاعتصام

رقم الايداع بدار الكتب ٤٣٩٨ / ١٩٨٢
الترقيم الدولى ٩ — ١١ — ١٤٢ — ٩٧٧

٣٠٠ قرش